



ثورة في الصحراء

مذكرات حول الثورة العربية الكبرى

للكولونيل البريطاني: توماس إدوارد لورنس
دراسة وتحرير: د. أحمد إيبش



روّاد المشرق العربي

ثورة في الصّحراء

مذكرات حول الثورة العربيّة الكبرى
1916-1918

للكولونيل البريطاني
توماس إدوارد لورنس
(لورنس العرب)

دراسة وتحريّر
د. أحمد إيش

D568. 4 . L4212 2013

Lawrence, T. E. (Thomas Edward), 1888-1935

- ثورة في الصحراء/ للكولونيل البريطاني: توماس إدوارد لورنس (لورنس العرب): ترجمة: أحمد
إيبش. ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.
ص.: سم. - (رواد المشرق العربي)
ترجمة كتاب: Revolt in the desert
تدمك: 1 - 175 - 17 - 9948 - 978
1. العالم العربي -- تاريخ -- الثورة العربية، 1916-1918.
2. شبه الجزيرة العربية -- العادات والتقاليد. 3. الشرق الأوسط -- تاريخ. أ. إيبش.
أحمد. ب. السلسلة. ج. العنوان.



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية

© حقوق الطبع محفوظة
دار الكتب الوطنية
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
«المجمع الثقافي»

© National Library
Abu Dhabi Tourism &
Culture Authority
"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى 1434 هـ - 2013 م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - المجمع الثقافي
أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabdhabi.ae
www.tcaabdhabi.ae

ثورة في الصحراء

سلسلة

رؤاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» للمكتبة العربية بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السلسلة الثقافية التراثية تحت عنوان: «رؤاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويتهم الوطنية، وذلك من خلال الحرص على جمع كافة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلمية بنشر التراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلمية ومؤسساتنا الثقافية على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثية عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربية في مجالات شتى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشعر، النحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطب وهندسة ورياضيات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات.

وما دُمنّا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكد على أنّ ثمة تياراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدمه من فوائد لمثقفِي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيلوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطّمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسياحة والثّقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطّباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثّقافة

هذا الكتاب

لورنس العرب، صانع الملوك، ملك الجزيرة غير المتّوجّ.. أسماء رنانة حملها البريطاني توماس إدوارد لورنس الذي تحوّلت سيرة حياته إلى ما يشبه الأساطير، عبر ملحمة حربيّة خلّدها الدّهر إبان مجريات الحرب العالميّة الأولى، وضمن إطار الثّورة العربيّة الكبرى ضدّ الأتراك. وإذا رحنا نعدّد الكتب والمؤلّفات والدّراسات والأفلام العالميّة التي وضعت عن حياته وإنجازاته، لوقعنا في حيرة كبيرة ولضاق بنا المجال.

تحمل سيرة حياة هذا الرّجل الكثير والكثير من المغامرات والمبالغات والمفارقات، ولم يكن أقلّ منها موته بحادث درّاجة ناريّة في عام 1935. وبغية دراسة تاريخ هذا الشّخص الاستثنائي، وإضافة كتب مفيدة وشائقة عن مغامراته في بلادنا، رأينا أنّ من الأفضل عدم الرّكون إلى ترجمة دراسات عنه وضعها آخرون، بل تقديم كتابيه الشّهيرين: «أعمدة الحكمة السبعة» *The Seven Pillars of Wisdom*، و«ثورة في الصّحراء» *A Revolt in the Desert* وهو طبعة مختصرة عن كتابه الأول. فها نحن أولاء نشرع بالكتاب الثّاني، واعددين بترجمة الأول، مع تصحيح الكثير من الأغلط الفادحة في أسماء الأشخاص والأماكن التي وردت في التّرجمات العربيّة السّابقة. ولو لم يكن الكتاب يستحقّ إعادة التّظر، لما كنّا لنفعل ذلك أصلاً.

أمّا الكتاب الثّالث الذي سننشره حول لورنس، فهو الذي ألفه الصّحافي والكاتب المغامر الأميركي لويل توماس، وكان قد أمضى شطراً من الوقت رافق فيه لورنس في الأردن وسوريا، وشهد بأمّ عينه العديد من الحملات والمعارك والأحداث وقابل

العديد من الشخصيات، فخرج بمؤلف ممتع وشائق، أطلق عليه عنوان: «مع لورنس في جزيرة العرب» *With Lawrence in Arabia*، سندرجه ضمن سلسلتنا بعد هذا الكتاب مباشرة.

رجعت في هذا الكتاب «ثورة في الصحراء» إلى طبعة قديمة صدرت في نيويورك عن دار نشر دبلداي ودوران Doubleday, Doran & Co. عام 1927، في السنة ذاتها التي صدرت بها الطبعة البريطانية الأولى.

والحمد لله على ما وفق وأعان.

بيروت، 14 سبتمبر 2011

د. أحمد إيش

لورنس العرب بعض ممّاله وما عليه

حين تسير الحقيقة على قدمين فلا بدّ للتّاريخ أن يُشرع أبوابه لها، لا سيّما عندما تكون هذه الحقيقة متعلّقة بحياة مجتمع أو شعب بأكمله، ولكن هذا القول الذي نسجّله هنا يصعب تحقيقه في الواقع حين يتعلّق الأمر بشخصية قلّما عرف التاريخ مثل دهائها وتلييسها، وهو تي إي لورنس المعروف بلقب «لورنس العرب».

لقد كان لورنس أحد أفضل من أنجبهم بريطانيا وأغربهم في الوقت عينه، فقد يصدق وصفه بالشّريد والمنتصر معاً، البطل والمهرّج، الباحث والجندي، الفيلسوف والسّاذج، الطّفّل والرّجل الكبير، وفي مختلف هذه الأدوار لعب دور المراهق الشّغوف، وربما نتجراً ونقول إنه أهم عقلية مراهقة في تاريخ بريطانيا الحديث، من بين الأفاذا المعروفين لنا على الأقلّ.

اسم هذا الرّجل كان الكولونيل توماس لورنس وهو الاسم الذي كان يوقّع كتبه به، كما عُرف باسم جون هيوم روس وكذلك تي. إي. شو، وهما اسمان عسكريان استعارهما للتستّر تحتتهما خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، وهذا بحدّ ذاته يؤكّد ما قلناه عنه من دهاء غير معهود في شخص واحد، ومن واجبتنا ملاحظة أنه حتى عندما يستخدم هذه الاسماء فانه كان ينتقيها لإبعاد شبهة التّبجح عنه والظّهور بمظهر طالب الشّهرة. ومما لا شك فيه أن لورنس لم يُعرف عنه أنه محبّ للوهم في سلوكه الجامح، فقد كان ذلك من قبيل التّصرّف الواقعي، لأنّه تمكن من التحوّل إلى نموذج فريد، إلى طائر مغرّد وغريب الأطوار فحقّق كل ما أراد أن يحققه، ولهذا

السبب وصفه ميشيل كوردا في السيرة الذاتية التي كتبها له مؤخراً بأنه «لورنس العربي» قاصداً أنه ذلك الرجل الغريب ذو القامة القصيرة التي حجبت جميع معاصريه، أو ذلك «القزم العجيب والأقرب إلى عالم الأوغاد، لكن مع مسحة من العبقرية» بتعبير أحد رفاقه العسكريين، فماذا عسانا نحن في نهاية المطاف أن نقول عن جندي محترف إلى درجة الكمال، جندي معوّق نفسياً إلى حدّ أنه كان يستأجر رجالاً ليقوموا بضربه بقسوة وذلك بعد عودته إلى بريطانيا، وحتى خلال كتابته لرائعته الثرية، كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» *Seven Pillars of Wisdom* الذي يعدّ أطروحة متكاملة حول الثورة العربية، فانه كان عبقرياً بحق، في وصف حقبة الحرب العالمية الأولى.

بعد فشل الهجوم المباشر على الإمبراطورية العثمانية خلال حملة «غاليولي» سنة 1915 اعتبرت القيادة البريطانية العليا أن الشرق الأوسط يمثل عملية إلهاء لإبعاد النظر عن الحرب الدائرة في فرنسا، وأن الانتفاضة العربية ضد العثمانيين هي إلهاء إضافي «عمل جانبي على هامش عمل جانبي آخر» كما قال أحد المسؤولين يومها، لكن بمساعدة الصحفي الأميركي الساخر لويل توماس (الذي سنقدّم كتابه في هذه السلسلة قريباً) استطاع لورنس تحويل الثورة العربية إلى محطة رئيسة جذبت أنظار العالم للتفرّج على العرب الثائرين على الأتراك عبر الصحراء.

وفي تلك الأيام لم يكتب لورنس كتابه ذاك بشكل متعمّد «لأنه لورنس»، وفضّل تحمّل المعاناة لاستخلاص الدروس والتلّهي به وحتى استبعاده من رأسه ليعود إلى التركيز الكامل عليه، وقد كتب مسوّد الكتاب مرات عدّة إحداها بعد أن فقدته في محطة القطار، وهو حادث يؤكد على الازدواجية النفسية التي كان يعاني منها، قبل أن يتم طبع الكتاب أخيراً سنة 1922، بطبعة من ثماني نسخ، وقد اقتنع لورنس فيما بعد، بتأثير واضح من بعض أصدقائه، وفي مقدمتهم صديقه الشاعر روبرت غريفر بأن من واجبه نشر كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» *Seven Pillars of Wisdom* على نطاق واسع، ولذلك عمد إلى اختزاله إلى حدود معقولة واعادة طبعه في العام 1926 بطبعة خاصة لبعض الذين يطلبونه.

على أن فكرة نشر الكتاب على نطاق واسع كانت تعني طباعة مئتي نسخة منه، حيث باع مئة نسخة منها بمبلغ 30 جنيهاً للنسخة الواحدة مع العلم أن الصور والتعليقات الضرورية على الكتاب وتجليد نسخة كلفته ضعفي هذه المبالغ تقريباً. وكاد يؤدي هذا العمل إلى إفلاسه مادياً بشكل فعلي، وبالتالي فقد اضطر لورنس إلى القيام بما كان يتوجب عليه أن يفعله منذ البداية أي إنجاز طبعة مختصرة منه لبيعها للقراء، حيث ظهرت هذه الطبعة في العام 1927 تحت عنوان «ثورة في الصحراء» *A Revolt in the Desert* التي ترجمها اليوم، وهي إيجاز لعمل كتابي موجز من قبل، كما أشار الكاتب الساخر جورج برنارد شو قائلاً بتهكم عنه إنه «إيجاز الإيجاز» وقد لاقى هذا الكتاب رواجاً هائلاً واستثنائياً، مكّن مؤلفه (لورنس) من تسديد كل ديونه السابقة، بل وأدى به إلى التخفي عن الأنظار مرة ثانية داخل القوات الجوية الملكية والعمل ميكانيكياً تحت اسم مستعار.

من الواضح أن هذا السلوك أشبه بألعاب السيرك، التي تعكس صبيانية لورنس الابن غير الشرعي لأحد الأرسقراطيين، وبذلك فقد تفوّق على شهرة والده، لكنه لم يستطع التغلب على مشكلة نسبه. وكان لورنس قائداً بالفطرة ومحبّاً للعزلة، أراد له والده أن يكون نبيلًا ومثقفًا تبعاً لميوله، لكنه كشف عن نوازع عداونية، وكما فعل الشاعر المعروف اللورد بايرون خلال ثورة اليونانيين ضد الأتراك في القرن التاسع عشر، كذلك أظهر لورنس توجهاً حقيقياً للثورة التي تراود عقول الحالمين أحياناً، وتفهماً أكثر من معاصريه لما يمكن تحقيقه بالمال والسلاح، وكذلك أظهر بعض الوحشية التي يُبتلى بها هؤلاء الحالمون، حين سمح للقوات العاملة تحت قيادته بإعدام الأسرى.

وفي كثير من الأحيان بدا أنه يعيش خارج عصره، فتشير تقارير من الجبهة الغربية (معارك إبيريس، فردان، پاسينديله) إلى سقوط الآلاف المؤلفة من القتلى والمصابين والمفقودين من أجل الاستيلاء على قطعة أرض، وخلال الشهور الأربعة من عام 1916 في حملة «السوم» لم تتقدّم قوات الحلفاء سوى سبعة أميال لكنها تكبدت 420 ألف

ضحية من البريطانيين ومثي ألف فرنسي ونصف مليون ألماني، ومع ذلك كان لورنس يملأ ملفاته بالتقارير الواردة عن المعارك التي جعلها تبدو معارك انتصار، كأن يقول: مقتل 300 تركي وسقوط مدينة، بينما يكون الثمن هو خسارة رجلين من البدو، وفي إحدى رسائله إلى صديق له كتب عن معركة جرت سنة 1917 للاستيلاء على سكة حديدية ما يلي: «استغرق الهجوم عشر دقائق، فتكبدوا سبعين قتيلاً وأصيب ثلاثون إضافة إلى أسر ثمانين جندياً» بينما تكبدت قواته إصابة واحدة، علماً أنها هربت بعد وصول قوات نجدة تركية ويضيف هو: «فقدت بعض المتاع وكدت أموت أنا شخصياً، وقد أصبحت لا أطيق هذه اللعبة التي تفقدني صبري وتنقص عليّ حياتي.. لعبة القتل ثم القتل المروّع للأتراك».

كان هو كقائد قادراً على تخطيط استراتيجية شاملة، وقد أصيب بمرض الزُّحار في العام 1917 لكنه بقي قادراً على التخطيط الكامل مع الملك فيصل للمعارك، وتقضي خطته بالبداية في التخلي عن الخطة العربية السابقة لإخراج الأتراك من المدينة وسواها من المدن هناك، ورأى لورنس أنَّ التَّجّاح الفعلي للثورة العربية يعود إلى إجبار الأتراك على الجلاء عن المدن الشماليّة مثل القدس ودمشق، ولهذا بدأ سلسلة معارك بهجمات خفيفة على محطات السكك الحديدية والتلغراف والمخافر الصغيرة لإجبار القوات التركية على الانتشار على مساحة كبيرة في المنطقة وتنبية القبائل العربية إلى شخصية الملك فيصل الدّاعية للتّوحيد بينهم، وبعد ذلك خطط للاستيلاء على ميناء العقبة لاستقبال القوات البريطانية وصولاً إلى بناء جيش قوي وطرده القوات التركية إلى بلادها.

لكن هذا الرّجل كان قادراً على عمل المزيد، ففي شهر فبراير 1918 استطاع توريط القوات العربية في معركة عادية جرت عند قرية الطفيلة ووصف المؤرخ بازيل ليدل هارت تلك المعركة بأنها «رائعة» لأنه جرى خداع القوات التركية لحفر خنادق هناك، بينما هوجمت من الجانبين بقوات عربية، فأدّى ذلك إلى مصرع 400 جندي تركي وأسر أكثر من ستمئة مقابل نحو أربعين جندياً من القوات العربية.

ولا شك في أنّ لورنس كان شجاعاً وقوياً ممّا مكنه من حسن قيادة القوات الصّغيرة لديه، وقد ضايقه سماع أنباء عن اتفاق «سايكس - بيكو» القاضي بتقاسم المنطقة العربية بين فرنسا وبريطانيا، ونظراً لطبيعته الحسّاسة فهم أنه يجري تلويث سمعته بهذا الكذب البريطاني على العرب فيما وعدوهم به من الاستقلال، وكتب: «لم أعد أتحمّل البقاء ليوم واحد هنا، وسأتوجّه شمالاً» وفي رسالة بعثها لصديق قال: «قرّرت الذّهاب بمفردي إلى دمشق لعلّي أقتل في بعض الطّريق» في محاولة لوقف هذا التردّي، مضيفاً: «إننا ندعو العرب للقتال إلى جانبنا كذباباً، وهو ما لا أتحمّله».

لهذا ترك قواته وراءه وقطع مسافة 300 كيلومتراً خلف الخطوط التّركية، وقام بتجنيد قوات صغيرة من أبناء القبائل المحليّة في لبنان وسوريا للإغارة على الجسور والسّكك الحديدية وللتّحريض على الثّورة ضدّ زعماء العشائر المواليين للدّولة العثمانية، وكان عمله أهم محاولة فردية خلال الحرب، رغم خطورتها التي لا يتقبّلها سوى شاب متحمّس، وقال في كتابه: «في تلك الأثناء كانت الإصابة بجروح بالنسبة لي تمثل مخرجاً لي للتّنفيس عن مشكلاتي الدّاخلية». ثم حدث احتلال العقبة وتوسيع الثّورة ووقوعه في الأسر وتعرّضه للضّرب في درعا في حين كان مع قواته يستكشف مواقع السّكك الحديدية، وربما تعرّض للاغتصاب ايضاً وسماع ألفاظ نابية كما روى بعد سنوات. وكانت مدينة القدس سقطت قبيل عيد الميلاد سنة 1917 فدخلها لورنس دخول المنتصر عن طريق الجنرال آلنبي. وبعد تأخير دام أشهراً عدة (حيث تم إرسال ما بين 60-90 عسكرياً بريطانياً إلى فرنسا بعد تسريحهم) قام الجنرال آلنبي بهجوم في غزة.

وبدأ العمل مع لورنس، حيث قاد قواته يوم 17 سبتمبر، وهي عبارة عن وحدتي هجّانة وعدد من الرّماة مع وحدة مدفعية، وهاجم محطة السّكك الحديدية التّركية في درعا. وقد استخدم الجنرال آلنبي القوات الجوية لتدمير الخطوط العسكرية التّركية المؤلفة من الجيش السّابع خلال ساعة. وتالت الانتصارات على الأتراك حتى سقط دمشق في مطلع أكتوبر واستسلام الحكومة العثمانية أمام القوات البريطانية في 31

أكتوبر. ولكن لورنس لم يحضر تلك النهاية، ذلك أنّ بريطانيا أرسلت خلفه بعد يومين فقط من سقوط دمشق، فلم يتمكن من مشاهدة الذي حدث للقوات التركية وللإمبراطورية. ومع ذلك فإن أقل ما يمكن قوله عن تلك المرحلة هو أنّ أحداثها لا تزال محاطة بالضبابية لتأتي كل الأدبيات والوثائق لاحقاً ومنها فيلم دايفد لين (1962) الملحمي، وليصبح لورنس بطلاً لكتاب مايكل كوردا Michael Korda الجديد بعنوان «البطل: حياة لورنس العرب وأسطورته» وفي السنوات الأخيرة راجت بين المؤرخين نزعة لاستعادة هذه الشخصية، ولا أحد يدري بدقّة ما هي دوافع ذلك. صحيح أنّ الرّجل كان بطلاً في البداية لكن من الصّعب التّسامح مع فكرة البطولة هكذا، ولكن البعض يريد تذكيرنا ببطولات لورنس وإنجازاته، ومنهم كوردا.

وقد عمل كوردا لفترة طويلة رئيس تحرير في مطبعة «سايمون أند شوستر» وهو ابن شقيق المهاجر الهنغاري ألكسندر كوردا الذي أسّس صناعة السينما البريطانية، واحتكر إنتاج فيلم «لورنس العرب»، وكما في كتبه عن غوليس غرانت ودوايت أيزنهاور أظهر كوردا إعجابه بالتّجّاح العسكري. ومع أنّه ليس مؤرخاً محترفاً فإن سيرته عن «وعد بلفور» والتحرّكات التي أدّت إلى قيام الدّولة اليهودية في فلسطين لا تخلو من الشّكوك. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الجزء الأخير من كتابه يضع لورنس في مصاف القديسين لدوره في منطقة الشّرق الأوسط.

الحقيقة أنّ هذا التّصريح غريب، لأنّ مؤلفه كوردا يدرك جيّداً أنّ ذلك الجزء من مشكلة المستقبل الخاصة بهذا الرّسم المتجنّي لثركة الدّولة العثمانية جعلت الثّروة تتركز أماكن الاحتياطات التّفطية. في حين بقيت المجتمعات المتطوّرة والمتعلّمة والمزدحمة بالسّكان في المنطقة مثل مصر وسوريا والأردن ولبنان تعاني من الفقر. ونقول إنّ لورنس لم يستطع إدراك هذه الحقيقة قبل حدوثها، ولهذا يجب على المرء أن يتوقّف كثيراً عند رأي كوردا حول هذه الموضوع بشأن لورنس.

الحقيقة أنّ لورنس كان هو ذاته بكل بساطة. ولا نعتقد أنّ أحداً غير لورنس العرب بما حقق من صيت كبير كان يمكن أن يُرغم الأمير فيصل وحاييم وايزمان على الجلوس

معاً في يناير سنة 1919، ويوقعان اتفاقية (صاغها لورنس نفسه) لتشكيل حكومة عربية يهودية في فلسطين! ثم من غير تي إي لورنس كان بإمكانه تحقيق إنجاز هائل، مع أن استكمالها لم يحظَ باهتمام قوات الحلفاء حين جلسوا معاً لاقسام الشرق الأوسط فيما بينهم؟

لعلّ أفضل طريقة لفهم هذا الرجل، هي باعتباره سليل المدرسة البريطانية التّمودجية إلى حدّ بعيد في تلك الأيام، وأنه غير نموذجي فيما يتعلّق بنقائه المطلق، لا في مجمل انجازاته اللازمة لإكمال ما تحتاج إليه تلك المدرسة. وكما قال إدمون ويلسون ذات يوم، فإنّ التربية التي وفّرها عصر «الإدوارديين» للبريطانيين (حيث كان لورنس يدرس في مدينة أوكسفورد كطالب في المدرسة الثانوية للبنين قبل أن يدخل جامعة أوكسفورد في العام 1907)، هذه التربية إنما كانت تهدف إلى تحقيق غرضين مهمّين لا ثالث لهما، ألا وهما تخريج أبناء من طراز كلاسيكي وإنجاب قادة للأمة البريطانية. وإذا طبّقنا هذه المقولة على تي إي لورنس لرأينا أن هذه التربية حققت أهدافها من نظامها التربوي، وهو ما شكّل لبّ المشكلة!

لا ريب أن لورنس حصل على ثقافة مدرسية كلاسيكية، وكانت أطروحته من خلال البحث الذي قدّمه لأول مرة ونال عليه درجة امتياز حول موضوع القلاع الصليبية، قد شكّلت ركناً أساسياً في حياته العملية تحقق له في صيف 1909، وذلك بعيداً عن القارة الأوروبية بنحو ألف ميل. وقد كان سريعاً وعملياً في استيعاب اللغات، كما قطعة الإسفنج. وهكذا تعلم اللغات الفرنسية والألمانية والعربية والتركية واللاتينية ولغة الإغريق القدماء (ومن ذلك أنه ترجم ملحمة الأوديسة لهوميروس سنة 1932 بأسلوب إبداعي حقاً) كذلك استثمر كل مواهبه وملكاته خلال السنوات التي سبقت الحرب التي اندلعت سنة 1914، حيث كان عمره 26 سنة للعمل في علم الآثار، فكان خبيراً عبقرياً في هذا المجال أيضاً.

على أيّ حال، لقد تلقى لورنس تعليماً مدرسياً مضبوطاً كما عُرف عن بريطانيا في تلك الأيام. ومن حيث المبدأ، استخدمت أكاديميات بريطانيا ومدارسها النظام

المسيحي في التعليم لتبني عليه نموذجاً استشراقياً حديثاً لا يزال قائماً حتى يومنا هذا، ومن ذلك أن البحث في علوم الكتاب المقدس لا يزال يشدّد على الاهتمام بمنطقة الشرق الأوسط، لكن مع رفض التعاليم المسيحية التي كانت سبباً في التأكيد على أن تحلّ محل النظام التربوي وتطبّق على المجتمعات غير المؤمنة بتلك التعاليم. واتضح أن ذلك في نهاية المطاف هو ضرب من التوجه نحو الثقافة العربية في أصولها والاهتمام بالأصول السامية «فيلوسيميتزم» وتاريخها التي غمرت الجامعات البريطانية وتسَلّلت من خلال هذه الجامعات إلى مكاتب وزارة الخارجية البريطانية.

أخيراً، لقي لورنس حتفه في حادث اصطدام وهو على دراجة نارية العام 1935، وعاش بما يكفي في حرّية ما قبل أن يُرغم على الاختيار بين العرب واليهود، وإلى حدّ بعيد قبل إرغامه على الاختيار بين أن يخدم بلده بريطانيا وبين مساعدة العرب. ولكن العمل الذي أنتجه ميشيل كوردا عنه لم يوفّق في فهم أفكار لورنس فيما يتعلق بالشرق الأوسط، باعتبار هذه المنطقة تمثل أكثر من مجرد دائرة للفكر البريطاني. ولهذا السبب نقول إنّ تطوّر هذا الرجل التّفسي كان جزءاً من تدريبه الفكري. وفي الحالين كليهما أثبت انه ابن بيئته الزّمانية والمكانية. لقد اتجهت بريطانيا إلى توجيه البريطانيين في لحظات ذهبية إليها، ولكن الالتفات إلى الخلف يعني الإدراك بأنّ تلك اللحظات مثّلت الذّرى العليا والسّفلى لمرحلة الشّباب، وليس لحظات التّضج الثّابت التي يطمح إليها المرء، ولا شك في أن لورنس كان شخصية عظيمة، وفي لحظات الأزيمة أثبت أنه كان بطلاً، غير أنّ سيرته الذاتية بما فيها ما كتبه كوردا أخيراً تنتهي دوماً نهاية حزينة بعض الشيء. لقد كان لورنس شجرة خضراء علّت أغصانها في سنواتها الأولى بشكل غير عادي وأصبح يصعب قطعها.. كان فتى متألّقاً وبقي كذلك دون أن يعرف كيف يكون رجلاً ناضجاً.



نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبية، يواجه القارئ العربي دوماً خلافاً كبيراً لم يتمكن مجامعنا اللغوية من حسمه إلى اليوم. لكن بما أن هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1- بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتباع طريقة اللغة التركية العثمانية القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسية، أما في الاسماء الإيطالية والإسبانية فأتركه: دي.

2- الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سَلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويمثله في الإنكليزية ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسبانية كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يمثله في الإيطالية حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويمثله في التركية حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّج، شلونج، پاچه. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرققة، التي يُعبّر عنها في التركية العثمانية والفارسية والأوردية بحرف: ژ، ويمثلها في الفرنسية والبرتغالية ز والإنكليزية zh والروسية ж والبولونية z والچيكية ž.

3- أمّا عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعودية: قوفل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: قوفل، وفي فلسطين: چوجل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعداد، چدعون، چدّول، رامات چان (علماً أنّ ڭ هي ذاتها جنة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهّي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كلوقز، قلف. ومن مظاهر التشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلنط Galant، كتالوج Catalogue جندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عربّوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغش، أراغون. لكن على أن نسمّه بثلاث نقاط: (غ) تمييزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن بقلم المُسنّد الحِميري اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللسانيّات التّيمانيّة» تحتل الإقلاّب بين الجيم المُشبعة وهذه الجيم اللّهُويّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المُفتقرة إلى جيم مُشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسّريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حدّقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجريّة وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غُيُوم). وكذلك حلّ الطليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطالية فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كِيِفُو).

وأما الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشجرية كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گ. وفي التركيّة الحديثة بالأبجدية اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرْچَك)، وحرف c للجيم الشجرية، كقولهم: geceler (غِجَلار)، Avcı (أوجي)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجرية أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غُفِير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربيّة لقوا التباين، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمطلق. وأمّا لدى الإسبان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهويّة (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصوتيّة اللفظيّة ثمة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة من يلفظ اسم Aragon: «أراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابه جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) يمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع الكلمات الأجنبيّة، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرنُجال،

بلجاريًا، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمي البُرغل مثلاً: بُرْجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التريكة bulgur).

4- ثمة أسماء في اللغة الفرنسية تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أو Gervais، ونظراً لانعدام وجود الكسرة الممالة في العربية (كما هي في السريانية والعبرية مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربية. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويـز كولي (وهي أديبة ورّحالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربية في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتاب العربية في العصر العباسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وستتبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كولي، رُنيه، غارنييه، جرفيه. والأسماء الإسبانيّة: خوسيه، بيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسباني Condé كوندّه، أو Enrique إنريكه، والألماني Porsche پورشه، أو Pritzke پريتسكه، والهولندي Goeje غويّه، والبولوني Tyskie تيسكه، والإيطالي Simone سيمونه، أو Michele ميكيله.

5- نصرّ في هذه السلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصحّ بالألمانيّة: مدينة لايتسيك وليس

لاييزغ، زولنغن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، فلهلم وليس وليم، ريخارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميركا وليس أمريكا، فارشافا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس بكين. وفي البرتغالية الأصح لفظ: كريشتيانو، كوشتا، جوزيه، جواو. ولكن ثمة أسماء رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربية مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلائية: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتالية: دون كيخوته)، باريز أو باريس (وصوابه بالفرنسية: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجان (غي دي لوزينيان)، وليم الصوري (عثم)، برج إيغل (وصوابه: آيغل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أن أحفاد كنعان العاشقين للفرنسية يصرون على لفظ الكنى الأرمنية المنتهية جميعها بلا حقة: ian بلفظ فرنسي فيه غنة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسي، علماً أن ثمة شيئاً في التركية يسمى: Yumuşak Ge أي الجيم الطرية، تلفظ كمدة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آج.

6- حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينية: الإيطالية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والرومانش والرومانية، ما خلا حالة في البرتغالية بآخر الكلمة مع الألف والواو فيقرأ ياء، مثل: Covilhã كوفيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أنري، وهو بالإيطالية إنريكو، والإسبانية إنريكه. وأيضاً فيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7- وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربية التي ترد على السنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظية مختلفة دون انتباه لأصولها العربية، كالاسم التركي ميرفت Mervet الذي ترنمت به الأسماع دون إدراك أن أصله: مروة. أو اسم فتاة الشاشة التركية Tuba الذي يُكتب لدينا بالعربية «توبا» على أنه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبى.

وثمة كنية عريقة في لبنان: جانبِيه، يطيب للناس أن يلفظوها بلكنة فرنسيّة: Jean-Bey بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتركية: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نَفْس. وكذلك اسم قَبْلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتركية: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلينية (إغريقية) Συρία (سُوريّا) مقولة لاسم «آشور» الدولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سمّيت بها بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أن حرف الشين لا يوجد في الألفباء اليونانية، فأُقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة. وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش

REVOLT IN THE DESERT

By
T. E. LAWRENCE'



نموذج عنوان الطبعة الأميركية الأولى للكتاب
صدرت بنيويورك عن دار نشر دبلداي ودوران عام 1927

الفصل الأول

ستورز يذهب إلى جدة

وأخيراً ألقينا المرساة في شهر أكتوبر سنة 1916 عند الظهيرة في مرفأ جدّة أمام أرض بيضاء تخالها معلقة بين سماء من نار وبين أشباح متأرجحة هاربة على ذلك المرفأ الهادئ الفسيح حيث وهج جزيرة العرب يتساقط علينا كأنّه الرصاص المصهور فتضمحلّ له قوانا، وقد ذابت الألوان وتحولت إلى لون واحد غريب كالليل الهادئ في ضوء القمر.

أضواء وظلال كثيفة، ومنافذ سراديب، وأزقة مظلمة، وجدران بيوت بيض مرتجة، وضباب يضطرب ويشع داخل المرفأ ويكتنفنا، ويمتد البصر على فراسخ من الرمال المنبسطة التي لا ظلّ عليها، ولا يلبث أن يقف على قافلة من التلال المنخفضة التي تميّزها العين بين الضباب الحار المنعقد في الفضاء.

وإلى شمال جدّة قطع من البنايات كأنها ترقص مع السراب. وبينما كانت الباخرة تلقي مرساها هبّت الرّيح ترسل في الفضاء أمواجاً متتابعة من اللهب.

وقد أرسل إلينا الكولونيل «ويلسون» ممثل الحكومة البريطانية لدى الحكومة العربية الجديدة سفينة حربية للقائنا، وما كدنا نطأ أرض جزيرة العرب حتى تبين لنا أن تلك الأشباح الرّجراجة مع السراب لم تكن إلا كائنات حية، وكان علينا أن نحاذي جدران البيوت البيض، ونعبر أزقة السّوق الضيقة الخائقة حتى نصل إلى دار القنصلية، وكان الذباب كالغيم يتساقط على جموع النّاس القاعدين القرفصاء حول أكوام البلح واللحم، والهبات تسطع وتضطرب في شعاع الشّمس النّافذ من شقوق السّقوف

الخشبية المستورة بالخيش المهلهل، والجو كبخار الماء شديد الغليان يذيب الأبدان، ولما بلغنا دار القنصلية استقبلنا الكولونيل في قاعة مبنية من جهة بعوارض الخشب المتلاصقة لتحجب الشمس، ومفتوحة على اتساعها من جهة أخرى لنسيم البحر المنحبس منذ أيام، وأفهمنا أن الشريف عبد الله ثاني أنجال الحسين الشريف الأكبر قد دخل المدينة في تلك الساعة فما كان أحسنها فرصة! وقد تركت القاهرة مع رونالد ستورز Ronald Storrs وقطعنا البحر الأحمر لملاقاته. إذ كان - ولا يزال - البلوغ إلى مكة محرماً على المسيحيين ولم يكن قضاء مهمة «ستورز» بالتليفون ووجودي في هذا الظرف يحقق ما أصبو إليه من التطواف البعيد، وكان «ستورز» السكرتير الشرقي في الوكالة البريطانية بمصر الرجل الثقة لدى «السير هنري مكماهون» في جميع المخابرات الدقيقة مع شريف مكة لأن معرفته الجلية للعالم العربي وخبرة «السير هنري» ودهاءه وتودُّد «كلايتون». كل ذلك كان له التأثير العميق على الشريف. لأن هذه الشخصية اليقظة رغماً من توجسها المعتاد قد حكمت حكماً نيراً صائباً، وعرف هذا الشريف بثاقب فكره، أننا نسير على سياسة ناجحة في الشرق، تمكنه من الانتقاص والعصيان جهاراً على تركية، ولم تُشب إخلاصه شائبة قط نحو السلطان البريطانية طيلة هذه الحرب الخصبية بالمواقف المضمرة الحرجة، وكان «السير هنري» ساعد الإنكليز الأيمن في الشرق الأوسط لغاية اليوم الذي نشبت فيه الثورة العربية، وكان لها «السير مارك سايكس» الساعد الأيسر، وما كنا ليلحق أمانتنا ونزاهتنا ريبة لو أن مستخدمي مكاتب وزارة الخارجية من جهة أخرى كانوا واقفين على مجرى الحوادث.

وأقبل علينا «عبد الله» ممتطياً فرساً شهباءً ومحوطاً بعصبة من عبيده المشاة مدججين بالسلاح، وهو يتلأل نوراً وابتهاجاً بنجاحه الحديث العهد في الطائف، وقد حيته المدفعية باحترام، وكانت هذه أول مقابلة بيننا.

أما «ستورز» فقد كان يعرفه منذ زمن بعيد، وكانت بينهما علاقات طيبة، مع ذلك قد شعرت بعد مداولة قصيرة بيني وبين هذا الآسيوي بأن صداقته لا مواربة فيها، له جفنان يرفآن وفيه سمن ظاهر، ولما يبلغ الخامسة والثلاثين، يستقبل زواره مازحاً بهجاً هاشاً إلا

أنه يلقي هذا القناع عند المحادثات الجدية فينتقى الألفاظ وينعطف إلى الذهاء المتأصل في نسبه، ومن الطَّبعي أن لا تتفق آراؤه مع آراء «ستورز» أحياناً كثيرة: لاسيما أنه كان يرى نفسه إزاء الفريق الأقوى، وكنت ألاحظ وأنقد وأختبر مازحاً كي أسبر غور الأمور، وقد تحققت بأن العصيان في الأشهر الأخيرة لم يأت بفائدة ما، وكان كالذي يدور على ذاته مما يؤدي حتماً إلى كارثة من جراء هذا الرُّكود، وعلى الأخص في حروب أحزاب كهذه، وقد اعتقدت بأن القيادة الحقّة لا وجود لها، ولم يكن هناك نقص في الذكاء وأصالة في الرّأي ودهاء في السّياسة. لكنني كنت أحاول عبثاً أن أرى الحماس المنشود الذي يلهب الصّحراء ويضرمها ضراماً وكانت زيارتي لجدة لا شيء سوى البحث عن المحرك الذي لم يزل إلى ذلك الحين مجهولاً، وأقول في نفسي: ليت شعري إلى أي حد يستطيع هذا المحرك أن يسير مع الثّورة؟! وكان يزداد اعتقادي رسوخاً كلما ازددنا مواجهة ومحادثة بأن «عبد الله» لشدة اتزانته وهدوئه غير صالح لأن يلعب دور النّبي... النّبي المحارب.. النّبي الذي حسب حكم التاريخ، يحسن الثّورات، وربما ظهرت مواهبه الحقيقية بعد الفوز في وقت السّلم، وقد زَجَّ بي «ستورز» في المناقشة وطلب من عبد الله وجهات نظره في شروط القتال. فاستعاد الشّريف رزاقته وأجاب: بأنه يريد أن يفهم البريطانيّين أن هذه القضية تعنيهم مباشرة وفي الحال، وأوجز هكذا:

«بما أننا قد أهملنا فيما مضى قطع سكة حديد الحجاز فقد تمكن التُّرك من الاحتفاظ بوسائل التّقل وادخار المؤن اللازمة لتثبيت أقدامهم في المدينة والاستعداد للمقاومة، فبعد أن دحروا فيصلاً وأبعدوه عنها عكفوا على تجهيز جيش سيار مسلح بجميع أنواع الأسلحة الحديثة ليتقدم إلى رابغ، ثم من جراء تهاوننا أيضاً حرم العرب معدات المدفعية والدّخائر الضّرورية للدّفاع دفاعاً حسناً عن المعابر الجبلية التي يخرقها طريق الجنوب وقد انضم «حسين مبيريك» شيخ قبيلة (رابغ) إلى التُّرك، فلو كان جيش المدينة قد تحرّك إلى الأمام لكان حلفاؤه قد انضموا إليه. ولم يبق ثمة أمام والدي إلا أن يقوم على رأس شعبه - أهل مكة - ويحارب تحت أسوار المدينة المقدسة نفسها ويموت مجاهداً».

عندئذٍ قرع جرس التلفون: «الشريف الكبير يطلب ابنه عبد الله للمخاطبة»، فأطلعه عبد الله على ملخص حديثنا فأكد فوراً بأنه وقد بلغ الحد الأقصى من اليأس لا يتردد في الاندفاع إلى الموت، وأن الأتراك سيمرون على جثته، قبل الدّخول إلى مكة. وانتهى الحديث عند هذه المجاهرة، فابتسم «عبد الله» ابتسامة مبهمة وطلب اتقاءً للكارثة، بأن تشكل فرقة بريطانية من جنود مسلمين ينزلون في السويس مجهزين بجميع وسائل النقل مستعدين للتحرك حالاً والتّقدم إلى رابغ عند خروج التّرك من المدينة واستعدادهم للهجوم، فما كان رأينا في هذا العرض؟!..

لقد تعهدت بأن أبدي هذا الاقتراح للسلطات العالية في القاهرة.

غير أنه ليس بخاف، أن البريطانيين ينفرون من نشر جيوش الدّفاع عن مصر - التي هي في المحل الأول من الأهمية - ليتلها على رمال صحراء العرب. ولا يخطر في بال أحد أننا نخشى عدواً يهاجمنا من جهة القناة، ثم أن البريطانيين ليسوا مستعدين لإرسال جيوش مسيحية للدّفاع عن سكان المدينة المقدسة ضد العثمانيين، فإن بعض المسلمين الهنود المقتنعين بأن الدّولة العثمانية هي وحدها من غير منازع حامية الحرمين يغنمون هذه الفرصة كي يحكوا الحركتنا السياسية ثوباً على هواهم ويفسدوا في أعين الرّأي العام غايتنا الحقيقية من جزيرة العرب، وربما كنت أتمكن من دعم أقواله بفائدة ترجى لو أنني قدمت تقريراً يتعلّق بمسألة رابغ بعد أن أكون قد درست القضية في مكانها واطلعت بنفسي على شعور السّكان أنفسهم، وكنت أود أن أرى «فيصلاً» وأتحدث إليه وأرى ما يلزمه من المساعدة وإقناعه لإطالة مدة الدّفاع في الجبال بواسطة قبائل المنطقة الذين نموّنهم ونجهزهم بعددنا الحربية، أفلا يمكن أن أقطع الطّريق السّلطانية في اتجاه المدينة من رابغ إلى معسكر «فيصل» على ظهر جواد! ودعم «ستورز» أقوالي بشدة ملحاً بضرورة الإسراع في جميع ما يمكن من المعلومات من مطلع عليم يتمكن من مخابرة القائد العام في القطر المصري، فأخذ «عبد الله» التليفون محاولاً أن ينال إذناً من أبيه يمكنني من التجوال في البلاد حراً طليقاً، ولم يخف «الشريف» حذره من خطتي التي اختمرت في فكري، إلا أن «عبد الله» ناقشه

في الموضوع واستطاع أن يلين شيئاً من صلابته وأعطى السّماعه إلى «ستورز» ليصل بمهارته ودهائه إلى إقناع الشّيخ نهائياً، وكم كان حديث «ستورز» شائقاً باللغة العربية، وهو يتكلم بفصاحة أهل البلاد الأصلية وسرعتهم، وإنها لأمثولة لكل إنكليزي في الشّرق يتعلم منها كيف يجب أن يحدث شرقيين حذرين قويي الشّكيمة، ولقد كان من المستحيل مقاومة تلك المحادثة السّحرية! فقد فاز «ستورز» برضاء الحسين، ثم طلب «الشريف» مخاطبة «عبد الله» ثانية وأمره بأن يكتب إلى «علي» يستشيريه إذا كان لا يوجد مانع في البلاد من زيارتي ليفصل، إلا أن «عبد الله» قد زوّد الرّسول بأوامر وتعليمات قاطعة بفضّل نفوذ «ستورز»، وكتب إلى أخيه «علي» بأن يمنحني دون تمهل مطية جيدة، ورفاقاً خبراء مخلصين كي يقودوني إلى معسكر «فيصل»، ما كنت لأطلب أكثر من ذلك، مع أن «ستورز» كان يطمع لي بالزيّادة. وافترقنا لتناول الفطور. لقد حفظنا لجدة التي قطعناها سراعاً للوصول إلى دار القنصلية ذكرى حسنة وطفنا بها عند الأصيل وقد مالت الشّمس إلى الأفق وخفّت وطأة الحر الخانقة يقودنا «يونغ» مساعد «ويلسون»، هذا الضّابط الذي كان يعجب من كل شيء قديم ولا يهتم لما هو حديث الصّنع.

لا شك في أن جدّة هي مدينة تذكر من نواحي كثيرة. فشوارعها تذكرني بدهاليز حديقة ظليلة، وسقوفها الخشبية التي تقي سوقها وهج الشّمس تترك فرجات تظهر منها قدد من السّماء ضيقة، وأسوار بيض عالية على جانبيها، وبيوتها مبنية بخليط من الجص والمرجان على أربع أو خمس طبقات محمّلة على أعمدة مربعة من الخشب وراء واجهات مزينة بنوافذ واسعة مفتوحة على علو البنيان، ومقرنصة بالخشب الرّمادي الأكمد. وفي جدّة لا يعرفون زجاج النّوافذ، إلا أن صناعة التّجارة بالغة حد الإتقان من الحفر والتطعيم والتشريب الدقيق، ويشبه فن البناء في جدّة الفن الإليزابيثي من بعض الوجوه، إلا أن هذه الأخشاب لا يمكنها أن تحافظ على جمالها، بل تصبح سراعاً من سقط المتاع فتآكل الواجهات وتخللها الثّقوب ويهمل سدها فتفتت، وعلى المدينة مظاهر التّظافة ويسودها الصّمت العميق كأنها مدينة الأموات، فلا أدوات نقل - لأن

الشوارع الشَّيقة لا تصلح لذلك - ولا حيوانات من ذوات الحوافر، ولا ازدحام، فترى كل شيء صامتاً، بل تشعر بالانقباض يثقلك، والأسرار تحيط بك، والأبواب تقفل أمامك برفق؛ لا كلب يعوي، ولا طفل يصرخ، والسوق مقفرة إلا من بعض أشخاص نيام، والعاثرون أندر من هذا وذاك، ولم نشاهد غير أفراد قليلين محلوقي الرؤوس واجمين لمشهدنا. عجاف أثقلتهم الأمراض يسرعون الخطى لئلا يلتقوا بنا، أو ينظروا إلينا، لباسهم الغندورة (درّاعة) البيضاء، واللبدة تظل رؤوسهم الجرد، والشال القطين الأحمر يضم أعضاءهم الهزيلة المستدقة، إلا أنهم حفاة تشابهوا بأجسامهم وأطمارهم كأنهم أفرغوا في قالب واحد وارتدوا زياً واحداً.

وكان الجو ثقيلاً باهظاً مميتاً للغريب. غير صالح لحياة البشر. لا لشدة الحرارة فحسب، بل لتشبعه بالبخر الحار الذي يتندى منه الجسم عرقاً لا يطاق، وكأننا قد فنيّا من الإنهاك وبلغنا أقصى العمر، ولا عجب، فجو جدة هو الوحيد من نوعه، وليست روائح نتن المدن كأزمير ونابولي ومرسيليا، مثلاً هي التي نستنشقها هنا، لكننا نشعر بأننا ننشق هواء غارت فيه منذ أجيال أبخرة كائنات بشرية ونستحم في حمام دائم الحرارة والعرق، كأن جدة هذه لم يخلص إليها هواء نقي ولم يسلكها الصبا منذ أن شيدت بيوتها، وكأن ستلازمها ريحها إلى أن تذهب ريحها، وتندك جدرانها.. ولم نجد في السوق شيئاً يغرينا فنشتره، ودعا الشريف «ستورز» بالتليفون في أول الليل، وسأله إذا كان يحب أن يسمع جوقته الموسيقية.

فاستغرب «ستورز»: «أية جوقة؟». ثم هنا سموه بحذقه فن المجاملات العصرية، فأجابه «الشريف» بأن أركان حرب الجيش العثماني الفائت كان قد ترك أبواقاً من نحاس بعد أن أسر الأمير «عبد الله» حاكم الطائف فأرسل الأسرى إلى مصر وحفظنا أفراد الجوقة في مكة لتطرب الظافر المنتصر وعزفت موسيقى «الشريف حسين» أمام سماعة التليفون في إحدى القاعات وسمعنا الأنغام من قصر مكة على بعد خمسة وأربعين ميلاً من جدة، ثم شكر «ستورز» الشريف عنه وعن السّامعين، وأثنى على الجوقة، فطاب قلب «الحسين» الشيخ، وأمر أن تسير هذه الجوقة المسكينة بأقصى

سرعة إلى جدة لتحيي لنا بعض ليال، ثم قال: «ورجائي أن أتصل بليا ليكم تليفونياً فأسمع الأنغام وأشارككم سروركم».

في اليوم الثاني، ردّ «ستورز» الزيارة لـ «عبد الله» في خيامه المضروبة خارج المدينة جوار «قبر حواء» ثم زارا معاً مستشفى الجيش والثكنات ومكاتب البلدية فاستقبلهما العمدة والحاكم، وكانا يتحدثان عن المالية ويتناقشان في لقب الشريف، وفي علاقة الحسين مع أمراء العرب، وفي سير الحرب، وفي العلاقات والبروتوكولات بين أمير مكة والحكومة البريطانية، وكم كانت هذه المحادثات مملة، وكم كنت أتجمل بالصّمت مقتنعاً بأن «عبد الله» ليس بالزّجل الذي ينقصنا، بيد أنني كنت أميل إلى «الشريف شاكراً» أصدق أصدقاء «عبد الله» وابن عمه، وكنت أرجو منه أكثر فائدة لغرضنا، وقد كان «شاكراً» هذا رجل الطّائف الضّخم منذ حداثة سنه، رفيق الصّبا لأولاد «الحسين». ولم يرح يلهو ويعبث بين أخصائه أو بين سواد العامة بأبهة تتفق مع ثروته العظيمة وشجاعته وثقته بنفسه، ولم أر رجلاً قط أسرع تحولاً من العظمة الباردة إلى الحماس الملهب. ولا أفصح لساناً منه وأمتن بنية وأشدّ تعلقاً بالزّهو وملاذ الحياة، وكان الجدرى قد نقش وجهه نقشاً وتنف شعر رأسه تنفأ فأصبح أصلع لا معاً، عاكساً ما يختلج به جنانه كمرآة السيّارة المسرعة تعرض كل ما يجري في داخلها... وإذا كان «عبد الله» هو القائد العام في حصار الطّائف فإن «شاكراً» كان يقود الجنود إلى المعركة بحمية لا مزيد عليها، إلا أن اندفاعه أرغمه على الانسحاب بعد أن امتنع رفاقه عن اللحاق به إلى الثغرة المفتوحة في السّور. فعاد سليماً من غير جراح، لا عناء رفاقه، هازئاً من جبنهم ونكسهم، ساخراً من عدو منهزم كاد له كيداً دنيئاً بصب الزّيت على بيته الفسيح وإحراق مكتبته الثّمينة الزّاخرة بالمخطوطات العربية.

وقد تعشى «عبد الله» في تلك الليلة عند الكولونيل «ويلسون» فاستقبلناه في الرّدهة الخارجية أمام سلم دار القنصلية وكان وراءه مستخدموه وعبيد بيته العامر. وعلى خطوات من لفيف من الرّجال ذوي اللحى.. بؤساء.. يرتدون أسمالاً، يحملون أبواقاً من النّحاس قد انطفأ لونها.

فأشار إليهم «عبد الله» بيده وقال مفتخراً: «هذه موسيقي!»! فأجلسوهم على مقاعد خشبية وراء الردهة وأرسل إليهم «ويلسون» السجائر، ثم دخلنا إلى قاعة الطعام المشرفة على البحر المفتحة لمرور نسيمه، وما كدنا نأخذ أماكننا حتى عزفت موسيقى «عبد الله» يحيط بها حرسه ببنادقهم وكانت كل قطعة تنطق على هواها مستقلة عن الأبواق الأخرى، أغاني تركية محزنة نفرت منها أذاننا وتهلل لها وجه «عبد الله»، ثم طلبنا أنغاماً ألمانية لتريح أسماعنا فما لبثوا أن لبوا طلبنا، ولكن بإيقاع مضطرب، وعزفوا نشيد (ألمانيا فوق الجميع)⁽¹⁾، وكان في الوقت نفسه قد أخذ شريف مكة سماعه التليفون ليشاركنا سرورنا! ثم طلب المدعوون أغنية ألمانية ثانية فأنشدوا.

ولم نلبث أن تنكر لنا النغم وهبط صوت الطبل وانحل رقه لشدة رطوبة جدة، فأسرع عبيد «عبد الله» وأحضروا للموسيقيين قشاً وخشباً وأضرموها فيها ناراً فقبلوا الطبل على وجهيه فتقلصت جلوده وحباله وعاد إليه بعض رنينه فأوغل الفنيون في العزف على أنشودة «الكرامية» ولكن بإيقاع غريب استفز أحدنا فالتفت إلى «عبد الله» وقال: «إنما هذه نغمة جنازة» فانتفض «الشريف» وتدارك «ستورز» الأمر فحوّل الترقية إلى نكتة وحوّلنا المكافأة مع فضلات الوليمة إلى الموسيقيين المضطربين البؤساء، فلم يُبدوا امتنانهم، لكنهم طلبوا منا أمراً واحداً وهو إعادتهم إلى أوطانهم.

* * *

(1) أنشودة ألمانية شهيرة Deutschland, Deutschland, über Alles تعني: «ألمانيا فوق الجميع»، غدت لاحقاً في أيام الحزب النازي شعاراً أثيراً يتغنّى به الجميع.



توماس إدوارد لورنس

الفصل الثاني

المسير إلى معسكر فيصل

تركت جدّة في الغد وركبت البحر إلى رابغ حيث معسكر «الشريف علي» أخي «عبد الله» البكر. ولما سلمته أمر والده الذي يقضي بمساعدتي على الوصول إلى «فيصل» بأسرع ما يمكن، أخذته الدهشة ولكنه أذعن للأمر وأعدّ لي ناقته الخاصة بسرجهما وسيورها الفاخرة المصنوعة من جلود نجد المُعلّمة بمختلف الألوان الزاهية المزركشة بالخيوط الفضية والشرائح المجدولة وسلّم إلى رجلين أمينين هما «طفس وابنه» من قبيلة الحواسم ليوصلاني إلى معسكر «فيصل»، ولم يدعني «عليّ» أسافر إلا عند هبوط الليل خوفاً من أن يراني أحد حلفائه، وقد أبقى سفري سراً مكتوماً حتى عن أخصائه المحيطين به، وأعطاني برنساً وشملة أخفى بهما بزتي الرّسمية فأتزيا بزي العربي حيث يرى سدّفه في العتمة كأنه وطني يسافر على ظهر جملة. ولم آخذ معي زاداً قط، إلا أنّ «عليّاً» أمر «طفساً» بأن يتزوّد شيئاً من المأكّل عند مروره ببئر الشّيخ وهي أول منطقة مأهولة نصل إليها على بعد ستين ميلاً من رابغ. وكان عليّ فوق ذلك أن أمتنع عن كل استطلاع علني مدة سفري وأن أتجنب جميع المواقع العسكرية.. فمررنا بغابة التّخيل التي تحيط ببيوت رابغ وتحزمها بحزام من الخضرة.

وحاذينا تهامة على ضوء النّجوم... تهامة تلك الرّملة المقفرة التي لا ينبت عليها ما يستظله الطّير، تلك التيماء الواقعة بين الشّواطئ الغربية لجزيرة العرب وبين الجبال الدّاخلية المقبلة للبلاد السّاحلية على مسافة أميال تعجز الفكر البشري عن وصف مللها ووحشتها تلهبها حرارة الشّمس فتصيرها أتوناً يشوي جلد الضّب، ويقف المسافر

حيران متردداً واجماً من عبورها لعدم وجود المياه عليها، لكنه لم يكن في الإمكان اجتنابها لو عورة مسالك الجبال الصّوانية التي لا تقوى المطايا المثقلة بالأحمال على السير عليها ولم يكن من سبيل إلى الالتفاف حولها لا من الشّمال ولا من الجنوب.

ولقد أنعشني برد الليل بعد الأيام القاسية التي أضعتها في رابغ بالمخابرات والمناقشات، وكان «طفس» أشدّ صمتاً من تهامة. وهو يسير على رأس القافلة تتبعه الجمال الخرس بخطاها الهادئة على رمل الصّحراء النّاعم، وغصت في لجة من الأحلام في ذلك السّكون الرّهيب وقلت لنفسي: هأنذا الآن أمشي على خطى أجيال من المؤمنين الذين جاؤوا من الشّمال ليقدموا الشّعائر للمدينة المكرّمة والتّدور للكعبة المشرّفة ولقد اعتقدت بأن هذا الانتقاض في جزيرة العرب سيكون درساً جديداً للحج من بعض التّواحي وسيحمل إلى الشّمال وإلى سوريا مثلاً أعلى آخر يبدّل العقيدة القديمة الموروثة بعقيدة الحرية والاستقلال. وتابعنا سيرنا بضع ساعات في طريق موحش لا حاجز له، تصطك أحياناً ركب مطايانا فجأة، وتقعقع السّروج من تحتنا لانهيار بعض الكثبان المتقلّة والبطون الفاغرة فتصبح الأرض غير مستوية وصعبة العبور، وقد ظهر أن الجمال في الليل كانت مضطربة السّير، وضوء القمر يحيل الظّلال إلى لون واحد غريب تضيع معه النّقر والكثبان فيصعب تمييزها. وأوقفنا القافلة عند انتصاف الليل، وتزملت بيرنسي، وتمدّدت في بطن من الرّمل ونمت هادئاً إلى الفجر. وما كاد «طفس» يشعر بقشعريرة البرد حتى أذن بمتابعة السّير. وبأسرع من ارتداد الطّرف كنا على ظهور المطايا. ولم تمضْ ساعة حتى انقشعت غبشة الليل، ورأينا أنفسنا تنسلق معبراً من الحمم غارقاً في الرّمال التي تسفيها الرّيح، وقد انحدرت هذه الحجارة البركانية في العصور الغابرة زاحفة من فيافي الحجاز التي تمتد سلسلتها الغربية إلى يميننا متغلغلة في الصّحراء، وكان هذا المجاز قصير المدى تنتصب حوله أجرام بركانية عظيمة مستديرة ترى من فوقها - على اعتقاد «طفس» - المراكب تمخر في البحر! ويرتفع حول الطّريق بعض حجارة شيدتها أيد تقية. منها ما لا يتجاوز الثلاثة الأحجار بعضها فوق بعض على رجاء مرور أشخاص آخرين كل منهم يضع حجراً

على البنيان إلى أن يكتمل لا لغرض معين إلاّ تمثلاً بمن عبر . فهل كانت هذه الأحجار نقاط علام على جانبي الطريق أم تذكرة على أمل العودة، ويهبط هذا الطريق المعبد إلى منفرج يدعى (المستورة) يمرّ فيه وادي (فُورا)، ويتفق أن يكون المطر غزيراً في (طريف) فتتجمع المياه فجأة وتنساب داخل السهول وتركد بحيرات واسعة لا عداد لها. لكنها أضحال تحجزها حجارة تائهة كأنها دلتا طولها ستة أميال ثم يجف بعد ذلك سنين عديدة، إلا أن الأرض تعبّ كثيراً من هذه المياه وتحفظ بها تحت الطبقة الرملية وتقيها التبخر فترتوي منها الأعشاب والأشواك المبعثرة في السهول.

ومن هذه النباتات ما لا تعلو ساقه عن الأرض أكثر من قدم واحدة وترتفع أغصانه على علو عشرين قدماً. أما الأغصان المدلاة إلى الأرض فإن النوق تقضمها صعداً رويداً وبدون انقطاع مما يذكرنا بتشذيب الشربين في بساتينا، ويعيد إلينا شعور المدينة في أرض تهامة الجرداء.

وسرنا خبيأً عند بزوغ الشمس مسرعين لنصل إلى آبار «المستورة» وهي أول مرحلة من رابع على الطريق الذي يسير عليه الحجاج، وكان ع لينا أن نروي غليلنا ونستريح قليلاً، وكانت ناقتي كل ابتهاجي لأنني لم أكن قد ركب قط مثلها مطية إذ لا توجد في مصر جمال مسرجة للرّكوب.

أما جمال سيناء فهي من غير شك جلود صلبة لكنها غير مدربة كقلائص أمراء العرب ـ على السير بهذه الخطى السريعة اللينة تحت راكبها ومثل هذه الصفات لا تتاح إلا لنوق الفوارس أصحاب الذكاء الذين يغنمون الفرص من هذه الخلال، فيدربونها حتى تسلس لهم.

إلاّ أنّه مع الأسف فقد فقدت جزيرة العرب مثل أولئك الأذكاء. أما أنا فقد كنت أَرْضى بأن أكون مرفوع القدمين محمولاً. لا أعني بطريقة قيادة ناقتي، وإذا كان ركوبها سهلاً نوعاً ما فإن البقاء على متنها مدة طويلة واغتنام فرصة جودتها لقطع المسافات البعيدة، وإراحة الفارس والحيوان معاً لهُو من الصّعوبة بمكان، وقد اقتحم «طفس» مقامي وانتقد ركوبي على متن النياق من طرف خفي.

وكان موضوع الركوب من المواضيع النادرة التي كان يسمح لنفسه أن يناقشني فيها لأن الأوامر المشددة التي تلقاها بآلا أكون على اتصال بأي مخلوق قد أخرسته، فكان أشدّ بكمّاً من الصّحراء مما آلمني وأسفت له.

لأن لهجته العربية كانت تغريني.. وقد اهتدينا إلى بئر على مقربة من جلاميد «المستورة» وإلى جانبها حجارة جدران متهدمة مبعثرة على الأرض وقد كانت أكوأخاً فيما مضى. وعلى مسافة منا كان بعض البدو جلوساً تحت ظلال النّخيل فلم نسلم عليهم. غير أن طفساً قد اقترب من تلك الخرائب وترجل وسقى الإبل هو وابنه عبد الله وسقانا، والبئر قديمة واسعة تبلغ من العمق عشرين قدماً وتنتهي بتصوين متين البنيان يعلو عن الأرض نحو قدمين. ولتسهيل تموين المسافرين الذين لا يملكون حبلاً، فتح في جدار هذه البئر شبه مدخنة مربعة لها ثلاثة جوانب يدخل منها الرّجل وينزل إلى البئر مستعيناً بيديه ورجليه ويملاً قربته، وكان بعض العابرين ممن لا يعقلون يرمون فيها الحجارة فقل مأوها، وكان عبد الله يشنق رذنيه الصّافيين ويرفع غندورته «درّاعته» إلى حزامه المملوء بالخرطوش وينزل ويصعد مراراً بخفة غريبة يحمل كل مرة أربعة أو خمسة غالونات من الماء يصبها في الجرن قرب الرّجام لترتوي مطايانا، وكانت كل مطية تبتلع الخمسة غالونات رغماً من أنها شربت في رابع الليلة الفائتة. وتركناها تسرح حول البئر، وتفيأنا ظل حائط نشق النّسيم الذي يهب علينا من البحر خفياً، وأشعل «عبد الله» لفافة تبغ مكافأة له على اهتمامه بإروائنا... وإنا لكذلك إذا بعصابة من العرب تقود قطعاً كبيراً من الثّوق إلى المسقاة فنزل أحدهم البئر من المنزل الخارجي يملأ قرباً عظيمة ويناولها رفاقه المنحدرين معه الواحد فوق الآخر وهم ينشدون طرباً.

وبينما نحن ننظر إليهم إذ بفارسين يركبان ناقتين جميلتين تقدما إلينا بسرعة يلبس أحدهما كشميراً فاخراً ويعتم بعمامة مطرزة بالحرير. ويرتدي الآخر ثياباً قطنية أقل قيمة وعلى رأسه قلنسوة حمراء من القطن.

ولما قربا من البئر ترجل الفارس الجميل دون أن ينيخ مطيته ورمى بالرّسن إلى

رفيقه، وقال له بصوت الأمر: اسقِ المطايا بينما أكون قد استرحت قليلاً، ثم تقدم ونظر إلينا من غير اكتراث، وأسند ظهره إلى الحائط تجاهلنا وقدم لي لفافة من التبغ بعد أن لفها ولصقها بريقه وقال:

- أنتم دون شك قادمون من سوريا...

فأجبت باحتشام وإبهام، وسألته هل هو قادم من مكة؟...

فأجاب أيضاً بحذر، ولم يفدني عن وجهته.

وتحدثنا قليلاً عن الحرب وعن هزال نياقنا.

وأما الفارس الثاني فقد لزم الصمت وهو واقفاً بقربنا قابضاً على زمامي المطيتين وهو ينتظر انتهاء الذين تقدموهما من إرواء مطاياهم.

أما الشاب الثري فقد أمره بأن يسقي المطيتين حالاً، فتقدم إليه وأجاب بحدة: بأنهم لا يريدون أن أقرب. فزجر سيده، وقال: يا رحمن يا رحيم. ثم أسرع إليه وساطه على رأسه وكتفيه بفضاظة وأمره بأن يسقي الإبل في الحال. فتجلّد «مصطفى» على الرّغم من غيظه ورأى أن لا سبيل إلى رد الإهانة وأسرع إلى البئر، فرقّ العرب له وتركوه يروي مطيته مع مطاياهم وغضبوا لهذه المعاملة الوحشية، وسألوه بصوت خافت عن سيده هذا فقال: ابن عم سيد مكة!..

فهرول أولئك المسافرين إلى ظهور الجمال وأخذوا يقتطعون الأغصان الرّخصة من الأشجار العالية ويقدمونها إلى النّافقين باحترام وعناية. فسر الشّريف لهذه المجاملة.

ولما انتهت المطيتان من هذه العلفة، ونهض السيّد وتناول عرف ناقته وقفز على سرجها دون عناء ظاهر وحيّانا ودعا للعرب أن يعوّض الله عليهم. فتمنوا له سفرّاً سعيداً.. واتجه نحو الجنوب وأخذنا نحن طريق الشّمال.

ثم سمعت ضحكة خافتة وإذا بطفس يقول:

- أعلمت أيها السيد بأن هذا الشريف هو «علي بن الحسين» وابن عمه الشريف «محسن سيد بني الحارث» أعداء الدّم لبني مسروح Masruh. لقد خشيا من أن يتأخرا أو يعرفا فمثلاً دور السيد وعنده قادمين من مكة. ألم تريف أن محسناً قد أظهر الغضب عندما ضربه عليّ. إن علياً لشيطان وقد عصى والده منذ أن كان عمره إحدى عشرة سنة. واحتذى بعمه إلى أن قبض عليه أبوه بعد مرور شهور عديدة. وما أن شبت موقعة المدينة حتى انضم إلى لواء سيدنا فيصل وقاد العتاية في سهول العار وبئر درويش وكانت الحرب مقتصرة على الفرسان، فلم يرض عليّ بأن يقود من رجاله إلا كل من يهجم هجومه ويبلو بلاءه، فكان يتنقل من جناح إلى جناح ومن صف إلى صف يقفز على ظهر ناقته بيد ويحمل بندقيته بيد أخرى، إن أبناء الحارث هم أبناء الحرب!..

وهذه هي المرة الأولى التي يفيض فيها الكلام على شفتي رفيقي الشيخ. وتابعنا السير بسرعة في قلب السهل المتلألئ، ولم يكن نبت قط على تلك الأرض اللينة كالقطن تحت أخفاف الإبل بعد أن كانت خصبة. وتكاثف الرّمل على أرض ثابتة تركض الجمال عليها كأنها على طنافس، والشمس تنعكس على جمان الرّمل فيتراءى كأنه ماس يأخذ بالبصر. فأسدلت شيئاً من شملتني على عينيّ كالمظلة وحللتها عن عنقي لأستر بها وجهي اتقاء الله بالمتصاعد من الأرض.

وكانت قمم «رضاوة» أمانا وراء ينبع تصدّ وتجلو في الأفق على مسافة ثمانين ميلاً تحسبها مندفة بين الأبخرة إلى السماء فتظل قواعدها مغمورة في الضباب ورؤوسها مكشوفة فوق السحاب. وتتصدى لنا حيناً بعد حين تلال ترتج في وهج الشمس وتقف أمانا كأنها تريد أن تأخذ علينا الطريق، وعلى يميننا أعراف جبل بني أيوب الوعة المسننة كالمنشار تتصل من الشمال بسلسلة جبال زرق منخفضة - ويمتد البصر إلى أبعد مسافة فيصطدم بجبال أرفع قمماً يتدرج بعضها وراء بعض بمدارج مشرشرة ويكسوها انحراف أشعة الشمس الهابطة لونا نحاسياً جميلاً، كأن تلك الجبال تهم فتسلق الطود الرائع الذي نحتت الطبيعة في صوانه منذ الأزل أشكالا غريبة لا مثيل لها، ذلك هو جبل «صُبح».

ولم نلبث أن ملنا عن طريق الحجاج إلى اليمين وسرنا في منعطف فوق رمال ترتفع شيئاً فشيئاً وتغمر تلاً من حجر البازلت فلا يظهر منه غير روقه المسنن. وما مالت الشمس إلى المغيب حتى لمحنا أكواخ بئر الشيخ فاجتزنا الممر العام في الدغشة، ودخل طفس أحد الأكواخ العشرة المزرية يهمس في آذان بعض الذين يلتقي بهم ثم يصمت، ثم يهمس، ثم ابتاع طحيناً وعجنه بيده ورقه مُلئ بشخانة فيراطين وعرض ثمانية وأدخل الملة عند امرأة صُبحية (نسبة إلى جبل صبح) يظهر أنه يعرفها. وبعد أن اعتقدنا نضجها أخرجناها من الملة ونفضنا عنها الرماد الحار وتقاسمناها.

ثم تركنا «عبد الله» يشتري شيئاً من الطّباق وعرفني الدليل بوجود بئرين على سفح المنحنى الجنوبي، إلا أنني لم أشعر بوجوب زيارتي لهما وقد أنهك الركوب أوصالي وأضناني حر الرمال. ولم أكن قد تعودتهما. وانتشرت البثور على جلدي وآلمتني عيناى للتور المضطرم في الصخر اللامع والرمل المتقد، وكنت قد قضيت سنتين في القاهرة أشغل عقلي وراء مكتبي في غرفة مزدحمة ذات جلبة من الصّباح إلى المساء إلا ما كان من جيئة وروحة من المكتب إلى الفندق، فلم يكن لي متسع من الوقت كي أبلد نفسي على هذه الشمس العربية الغادرة والرّحلات الطويلة المضنية على ظهر ناقه. وعلينا الآن أن نجد السرى أثناء الليل ونواصل السير أطراف النهار الآتي لنبلغ معسكر فيصل عند المساء.

لقد باركت هذه الساعة التي قضيناها في الشراء والطهي والرّاحة والتحدث مجتمعين إلى بعضنا متفقين ما بيننا إلا أنها للأسف قد مرت سراعاً ولو أنها بإرادتي إذ أمرت أن نعتلي سروجنا سراعاً ونجد في قلب الظلام صوباً وصعوداً في المنحنيات والأودية وننخرط في مضايق حامية الهواء تضيق لها الأنفاس ونجالد كي نخرج منها إلى الأنجاد القليلة الهواء...

وكانت أذناي تحاربان الصّمت العميق في هذه البيداء التي لا يكاد يسمع فيها وقع أخفاف مطايانا، وقد تعودت ضجيج المدن والصّياح المتواصل، وكانت الأرض بعد ذلك مستوية، فكنت أغفو على السّرج مسافة طويلة ثم أصحو مذعوراً لكبوة خفيفة

وأحاول اكتساب الموازنة ثانية باستنادي على حنوه الذي كان نقطة ارتكازي. ولم تكن العيون التعب والأكفان الثقيلة تتبين أشكال البلاد.

وانتصف الليل ودنت ساعة التوقف والراحة، فالتحفت برنسي وارتमित في بطن من الرمل وهدأت قبل أن يعقل طفس المطايا. ومرت ثلاث ساعات كانت طويلة على قصدنا قصيرة جداً لراحتنا. فتابعنا السير على ضوء القمر الشاحب وهو يدنو من الهبوط في جوب الصحراء إلى أن حاذينا وادي «مارد» وكان الظلام يسدل ستائره رويداً رويداً وبهزم القمر الخائف ويدفع إلينا حراً شديداً ويلقي علينا سكونا مملأً، وتظهر من جانبي ذلك الوادي قمم كسنان الرماح تلمع وتخبو في الظلام لآخر وميض في القمر الزاحل.

وبزغ الفجر وظهرت لنا أشجار مكسرة ممددة على الرمال فقلنا: لقد هبت زوبعة في هذا المكان.

وتركنا طريق الوادي وتنسّمنا الهواء على سهل فسيح قد أذرت ريح عاتية، ثم أبصرنا عن يميننا «بئر ابن حسن» وهي أكواخ حقيرة من اللبن غريبة الشكل تسند بعضها بعضاً خوفاً من السقوط! ليت شعري أهى بيوت من لعب الأولاد تراكمت في ظل الجلاميد الصخرية التي تحيط بمهاوي سبع وقد خيم عليها سكون الصحراء؟!...

وبينما كنا نشاهد العمار ونرجو أن نلاقي حياة تدب، كانت الشمس تسرع في الصعود فوق أعراف الجلاميد المرتفعة آلافاً من الأقدام وتعكس أنواراً بيض على سماء لا تزال مزبدة في الفجر الهارب. وتابعنا السير في الوادي الكبير فأبصرنا شيخاً ثرثاراً على بعير خارجاً من القرية وهو يسير الهوينى نحونا، وكان يدعى «خلاف» فألقى بعض أحاديث مبتذلة ثم صمت. ثم حيّانا فأجنبناه واستعد لمتابعة الحديث فحذرناه لهذه المجاملة البالغة الحد.

وكان «طفس» قليل الصبر عليه يجيبه باقتضاب، إلا أن العم «خلافاً» كان يلح ويلح. ثم أراد أن يكسب عطفنا فأدخل يده في خرجه وأخرج علبة فيها ملى فطير من

طحين القمح كالتي أكلناها أمس الفات. إلا أنها كانت معجونة بالسمن فأخذها بيده ولتها بالسكر المسحوق فتخاطفناها فأصاب كل منا نصيبه وقد أحجمت في بادئ الأمر عن أكلها إلا أن «طفساً» و «عبد الله» قد فتكا بنصيبهما ولم يبقيا «لخلاف» غير الكفاف، فراح ضحية كرمه.

ولم يكن الجشع مستغرباً عند العربي في الصحراء لأنه يرى من العار أن يتزود لسفر مئة ميل مثلاً!

ولقد أصبحنا بعد هذه الأكلة رفاقاً، فتمادينا في الحديث، وحكى لنا رفيقنا عن الموقعة الأخيرة والصدمة التي أصيب بها «فيصل» أمس الدابر. إذا صدقنا الشيخ الحديث فيكون فيصل قد أرغم على الانسحاب عن ينابيع وادي «صفرا» القريبة منا، وستبين الأمر عند مرورنا بأول قرية.

ثم عطف وقال:

- لم تكن الموقعة حامية الوطيس إلا أن الجرحى كانوا من أعوان قبائل طفس وخلاف. وقد نطق بهذين الاسمين وذكر الإصابات كي لا يبقى شكاً في كلامه.

وبعد أن اجتزنا سبعة أميال أخرى بلغنا قمة مرتفعة يشقها سور مستطيل من الصوان المثبت بعضه فوق بعض، وكان هذا الحاجز يمرّ بالتلال المنبسطة ويتخطى القمم العالية، وينحدر من مهوى إلى مهوى. فسألت «خلافاً» عن أصل هذه الأعمال الضخمة، فأجابني بالتواء، وأنه زار دمشق واستانبول ومصر، وأنه يعرف مصريين بارزين وسألني إذا كنت أعرف أي إنكليزي هناك. كان صاحبنا يريد أن يلقي حباله ليقتنصني ويعرف اسمي فكان لجوراً ملحاً، إلا أنه لما كلمني باللهجة المصرية أجبتّه باللهجة الحلبية. فلم يتردد عن ذكر أشخاص سوريين معروفين، فأجبتّه عنهم، لأنني كنت أعرف شيئاً عن أعمالهم.

ثم انخرط خلاف في قلب السياسة المحلية سائلاً بحرص، ملمحاً من طرف خفي عن الشريف وأولاده، وعن رأيي فيما سيفعله فيصل.

وكنت حقاً أجهل منه إلى ذلك الوقت هذا الموضوع. ثم تدخل «طفس» وغير

مجري الحديث ولم نفقه إلا بعد زمن أن خلافاً كان عاملاً عند التُّرك يتسقط لهم الأخبار عن متطوعي العرب عند بئر ابن حسن.

وبعد أن هبطنا المنحني عدنا وتصدنا إلى عرف من الأعراف الصخرية المنتصبة على حرف الوادي واجتزناه حتى بلغنا «وادي صفرا» التي كنا نجد السير إليها.

وكانت «الواسطة» - أكبر قرية في تلك الناحية - قد أصبحت أمامنا. وهي بيوت عديدة، منها ما هو معلق على حرفي الوادي ومنها ما هو متربع على الشاطئين، ومنها ما هو منشور على الجزر الصخرية تعتمص بها من الفيضان. فدرنا حول بعض هذه الجزيرات لنصل إلى الشاطئ الثاني وعبرنا مجرى المياه الرئيسي المردوم بالحصى الملس والرمل الناعم اللين. ثم بلغنا حوضاً عظيماً يبلغ طوله مئتي متر وعرضه خمسة عشر محاطاً بالتخيل، والمياه فيه صافية كاللجين، بل كأنه يجري من ينبوع، والحشيش الأخضر المزهر يحزمه حزاماً على عرض عشرة أمتار، فتوقفنا لنسقي مطايانا ونرعاها على تلك الأبسطه الخضراء بعد أن قطعنا معظم يومنا تحت أشعة الشمس المحرقة المنعكسة على جوانب الحصى الملس كالمرايا التي لا عد لها.

ولكم كنت أشتهي أن تمر سحابة على وجه الشمس فتصدعنا وهجها. وتابعا مسيرنا في شُعب ذلك العقيق إلى أن بلغنا حديقة تجري فيها عين صافية على حصاء كاللؤلؤ، فدرنا حول سور من لبن مظلل بالتخيل يضم إليه بعض الأكواخ.

وقادنا طفس إلى الشارع الضيق الذي كنا نرى سطوح بيوته الواطئة عن ظهور مطايانا وتقدم إلى باب أحد البيوت وقرعه، ففتح له عبد، فدخل وأدخلنا الجمال فألقى إليها الحشيش الأخضر، وقادنا إلى غرفة مظلمة إلا أنها نظيفة جداً، جدرانها من الطين وسقفها من جذوع التخيل والتراب الملبد فجلسنا على حصير من سعف التخيل يغطي أرض الغرفة ثم تمددنا جنباً إلى جنب، وكان الحرُّ شديداً في هذا الوادي المحصور. ورنين التحل حول الغرفة وطنين الذباب الذي يدور حول رؤوسنا المغطاة بالقماش الناعم الشفاف، كل ذلك كان يدعونا إلى النوم بينما القوم يهيئون لنا الطعام من الخبز والتمر. وكان التمر طازجاً عذباً يذوب في الفم ذوباناً فلم أذق قط ألد منه في حياتي.

ثم ركبنا وتخطينا الوادي الذي يخترق بساتين من هنا وهناك مسورة بأسوار اللبن والحجر في أماكن عديدة فيخزن الماء لري أنواع كثيرة من المزروعات ويقوم بحراسة النبع العمومي حارس يفرق الماء على الدقائق وفي كل أسبوع مناوبة حسب اتفاق أهل القرية. وكان الماء أجاباً إلا أنه صالح للتخيل الذي يعطي ثماراً شهية جداً. أما الآبار الخصوصية فهي عذبة وكثيرة في البساتين لأن الطبقة المائية سطحية لا يزيد عمقها على الأربع إنشات.

واجتزنا السوق العمومية فألفينا مخازنها خاوية دب فيها الهرم والتهدم ويعتقدون بأنه منذ جيل كانت «واسطة» بلدة كبيرة يبلغ عدد بيوتها الألف فاجتاحها مياه «وادي صفرا» وقلعت نخيلها وطغت على أسس بناياتها الهاوية المبنية «باللبن النّيء» وباغت بعض العبيد البؤساء فتركتهم تحت الرّدم. ولقد كان من السهل تجديد الرّجال وغرس التخيل، إلا أنه لم يكن من الممكن تجديد الأرض الزراعيّة التي جرفتها المياه وتركت الأرض جرداء ظهر عليها الصّخر أملس عارٍ، والوادي فوق «واسطة» يتسع لمقدار أربعمئة متر يتوسطه قاع جميل مفروش بالرّممل الناعم والحصباء الملساء تجرفها مياه الشّتاء من المرتفعات.

وفوق هذا الوادي أعراف من الصّخور كالقولاذ المشحوذ تنعكس عنها أشعة الشّمس إلا أن الحشيش والأشجار التّضرة تخفف من حرارتها فترسل علينا نسيماً عالياً، ومنذ ذلك الوقت كنا نلتقي بجنود فيصل ونيّاق سارحة هادئة. وقبل أن نصل إلى «حمراء» كان معسكر في كل منح و تحت كل شجرة وفي ظل كل صخر والنّاس يحيّون «طفساً» تحية البهجة والتّهلّيل وهو يرّد التحية بأحسن منها، مسرعاً لا يُلوي على أحد حتى ينهي مهمته بأمانة ودقة.

وأخذت «حمراء» تتسع إلى شمالنا وكأنّها - وهي مغمورة بالبساتين التي تفصل بيوتها بعضها عن بعض - تلال يبلغ ارتفاعها العشرين قدماً وخضنا ضحلاً لنبلغ الطّريق العام، ودرنا حول إحدى تلك التلال والجنت اليناعات، وأنخنا جمالنا أمام بيت مستطيل واطىء تتصدره دار فسيحة.

فتقدم «طفس» إلى عبد يحرس المدخل شاهراً سيفاً قبضته من فضة، وكلمه كلاماً

موجزًا غير مسموع فأدخلني العبد إلى الدار، وإذا بي أمام جسم أبيض ساكن لا يتحرك محاط بإطار الباب الأسود فاعتقدت بأن هذا المجهول كان ينتظرني وأيقنت لأول لحظة بأنه هو الذي أتيت من أجله إلى جزيرة العرب وأنه هو الذي يقوم بعصيان تكون نتيجته الانتصار.

هذا هو فيصل... لقد بدا لي بأنه كبير جداً كالجذع الأملد في ثيابه الحريرية البيض الفضفاضة وعقاله الأسمر المعقود بالخیوط الحمر الذهبية، وكان يغضي بجفنيه كأنه ينظر إلى لحيته السوداء، له وجه باهت كالقناع يقابله جسم في منتهى الغرابة من اليقظة والانتباه، ويداه المكتوفتان تداعبان قبضة خنجر في زناره.

فحيثه، فأدخلني غرفة خاصة بالضيوف وجلس على وسادة إلى جانب الباب، وأخذت عيناى تألفان الظلمة فتميزت وجوهاً كثيرة صامتة في تلك الغرفة وعيوناً ترقص أحداقها عليّ وعلى فيصل، ثم أخذ يتأمل مُقلباً أجفانه في السلاح وهو قابض عليه. ولم يلبث أن سألتني بلطف وبشاشة عن سفري المتعب، فحدثته عن الحر وعن مواعيد قيامنا من رابع فقال:

- هذا سير حسن في مثل هذا الفصل من الحرّ.

وسألني:

- كيف رأيت مقامنا هنا في «وادي صفر»؟!.

فأجبت به بأن المقام طيب هنا بالطبع لكنه بعيد جداً عن دمشق.

فنزل جوابي هذا كالصّاعقة بين الحاضرين وشعرت بأن الجميع قد انتفضوا واستولت عليهم سكتة قطعت أنفاسهم مدة دقيقة... ولعل بعضهم قد تفاعل بنصر قريب. ولعل الآخرين قد ظنوا بأنني أوبخهم على انكسارهم الأخير.. ثم رفع «فيصل» عينه إليّ وقال: الحمد لله لحسن حظنا، إنه يوجد أتراك أقرب إلينا من دمشق، وتبسم وتبسمنا كلنا واعتذرت إليه، وانسحبت.



الفصل الثالث

فيصل وجيوشه

وتحت قبة التّخيل العظيمة على بساط الحقول الخضر الهادئة كان يعسكر الجيش المصري المنظم تحت قيادة الميجور «نافع بك». وقد أرسله حديثاً السير «ريغينالد وينغايت» من السودان لكي يلقي خطبة أخرى في موقد الثورة العربية، وكان مؤلفاً من بطارية مدافع الجبال وبعض الرّشاشات. وقد أظهر «نافع بك» نحوي عطفاً وعناية أذكرهما له.

ووصل فيصل إلى المعسكر يرافقه «مولود» المخلص العربي التكريتي المتعصب الذي جرد مرتين من رتبة العسكرية في الجيش التّركي ونفي ستين إلى نجد ليكون أمين سرّ ابن الرّشيد لنعرته العربية ومجاهرته بها.. وقد استولينا عليه في الشّعبية عندما كان يقود الفرسان التّرك، ولما علم بانتفاض الشّريف قدم إليه نفسه وانتظم تحت لوائه، فكان أول ضابط نظامي تركي انضم إلى العدو، وكان إلى ذلك الوقت القائد الأعلى لجنود فيصل.

ولقد شكّا «مولود» كثيراً الافتقار إلى الرّجال والسّلاح والمؤن والذّخيرة وغيرها.. أجل قد كان الشّريف يرسل في كل شهر ثلاثين ألف ليرة تركية ولكن الطّحين والأرز والشّعير كانت تنقصنا. والبنادق والرّصاص قليلة بين أيدينا ولا رشاشات ولا مدافع جبال ولا رئيس فني ولا معلومات من أي نوع ما ولا من أية جهة كانت... فأوقفت مولوداً عند هذا الحد وأفهمته بأن مجيئي إلى هنا لكي أقدم تقريراً بالحالة وأرسل ما يجب إرساله بأسرع وقت مستطاع. وأفهمتهم بأنني لا أتمكن من مساعدتهم إلا

إذا أطلعوني على الحالة الحاضرة بكل جلاء وإخلاص. فوافق فيصل على أقوالي وأعطاني دون تأخير لمحة عامة عن الثورة منذ نشوبها.
ثم عطف، وقال:

- لقد كانت هجمة مرعبة تلك التي حاولناها على المدينة. فقد تصدى العرب الرديثو السلاح والمؤن للترك المسلحين بأجود أنواعه والمدرّبين أدق تدريب، وفي وسط المعركة تقطعت أوصال متطوعة «بني علي» وقذف بالعرب خارج السور. وعندما تفتحت فوهات مدافع الترك الحامية - ولم يكن العرب يألفون هذا النوع من القتال - طار لبهم واستولى عليهم ذعر غريب - وامتنع بنو عقيل والعنابية عن مواصلة القتال واحتموا قدر استطاعتهم من وابل المدافع. وأرسل كثير من جنباء «بني علي»، إلى الترك يطلبون الأمان والتسليم بشرط أن تسلم قراهم من التدمير. فلعب «فخري» بهم واغتنم فرصة استكانتهم وتسليمهم فحاصر ضاحية العوالي وأمر جنوده بالاستيلاء عليها عنوة وبذبح كل حي يصادفونه، فذبح وقتل في ذلك اليوم مئات من السكان، وأحرقت البيوت فاحترق فيه كل ميت وحي.

ولا غرو فقد قدم «فخري» ورجاله من الشمال وكانوا قد أتقنوا في الشعوب الأرمنية فن التقتيل السريع والبطيء معاً؛ فأحدث هذا المثال المريع ضجة عنيفة في العربية كلها. لأن العرب يحاربون على طريقتهم المتبعة وهي بأن يصاب النساء والأطفال والمتاع الغير قابل للتقل وكل حي لا يقوى على حمل السلاح.. وفهم رجال «فيصل» بأنه لا يمكن قبول مثل هذه العادات الحربية الحديثة، فراجعوا كي يكونوا في مأمن من العدو.

وكي يكسبوا وقتاً لتجديد قواهم، وأن لا سبيل بعد الآن إلى الخضوع لأن تدمير العوالي كان سبباً آخر لإذكاء نار العداوة الجنسية وأن تقتيلهم على غير شرع الحرب كان جذوة في قلب كل عربي لا سبيل إلى إطفائها بل أوقدت في قلوبهم حماساً لمحاربتهم ولو فئوا على بكرة أبيهم، ولقد فهموا بأن الحرب سيطول أمرها، وأنهم سينتهون بفشل إذا لم تبدل بنادقهم التي تحشى من فوهاتها! فاعتصموا بالجبال تاركين السهول المحيطة بالمدينة.

وأرسل «علي» و«فيصل» الرّسل تلو الرّسل إلى رابع قاعدتهما البحرية ليعلما إلى أي حد ينتظران مؤناً جديدة وذهباً وسلاحاً، وقد جاهر بالعصيان من غير خطط معينة بل تركا الأمر للظروف والأمكنة، ولإشارة والدهما القاطعة. لأن الشّيخ كان متمسكاً بنفسه ومستقلاً عن كل رأي بحيث لم يثق كل الثّقة بأولاده، ولم يهين معهم موقعة واحدة مكنتهم من الوقوف في وجه العدو.

وبعد مرور زمن غير يسير وصلت إليهم كمية البنادق اليابانية قديمة غير صالحة تقريباً وحديدها من النّوع الرّديء فكانت تنفجر لأول طلقة في يد المقاتل العربي! إلا أنه لم يصل إليهم الذهب الذي كان أهم ما يعتمد عليه في الصّحراء بين القبائل.

وكان «فيصل» لكي يملك زمام الحالة يملأ صندوقه الحديدي حجارة ويقفله قفلاً محكماً ويسلم أمر حراسته إلى عبيده الأخصاء وفي المساء كانوا ينزلونه بحرص واهتمام في خيمته، وبهذه الخديعة تمكن الأخوان من الاحتفاظ بمتطوعيهما الذين كان يقل عددهم يوماً فيوماً.

وسافر «علي» في آخر الأمر إلى رابع كي يحاول أن يستجلي الموقف. فعرف بأن «حسين مبيريك» قائد الموقع كان مكابراً ومعتقداً بأن الفوز، سيكون للترك، أو لم يبارزهم مرات عديدة وكان نصيبه منهم الفشل!!!...

وكان استنتاجه: أن قضيتهم هي الحقّة وكان البريطانيون ينزلون المؤن إلى البر باسم الشّريف فيستولي عليها «مبيريك» ويخزنها سراً في بيوته.

ولما صمّم «علي» على منازلة العدو بعث رسولاً إلى أخيه «زيد» يدعوه لموافاته مع قوة من جده والانضمام إليه في الحال. فأخذ الدّعر من «مبيريك» كل مأخذ وتوارى في الجبال كالمحرم المنبوذ، فاستولى الشّريفان على قراه وعلى أكوام من المؤن والدّخائر والسّلاح ما يكفي جنودهما شهراً كاملاً، إلا أن شيطان البطالة قد زين لهما الرّاحة في هذه الظروف الحرجة فنزلا في رابع.

وهكذا بقي فيصل منفرداً داخل البلاد وفي موقف شديد الخطورة، يقتات مع

متطوعيه من موارد البلاد الضئيلة، مقاوماً الضيق والحرمان إلى أن كان شهر أغسطس فاجتتم فرصه وصول الكولونيل «ويلسون» إلى ينبع - البلدة التي استولى عليها حديثاً - فقدم إليها وبين له بصوت صارخ ما يحتاج إليه في الحال. فتأثر «ويلسون» أيما تأثير لهذا الضنك الذي حاق بشخص «فيصل» ورجاله وأمر فوراً بأن تسلم إليه بطارية مدافع جبلية وبعض مدافع مكسيم وضباط ورجال فيون من المستودعات المصرية في السودان، وهذا هو سبب وجود «نافع بك» ورجال مدفعيته عند الشريف «فيصل».

فتهلل العرب لوصول هذه التّجدة واعتقدوا منذ تلك السّاعة بأنهم قد أصبحوا يعادلون قوات التّرك ويتمكنون من مقاومتهم. إلا أن المدافع التي هي من نوع كروب كانت تحمل تاريخ عشرين سنة مضت على أنبوباتها ولا يبلغ مدى قنابلها أكثر من ثلاثة آلاف متر فضلاً عن أنه لم تكن لرجالهم الخبرة الكافية في مثل هذه المواقع الصحراوية رغماً من أنهم رافقوا العرب في جولاتهم بشجاعة وإخلاص ودحروا مقدمة التّرك اندحاراً متواصلاً. إلا أن «فخري» قد رأى الخطر يتفاقم فزار جبهة القتال وأرسل ثلاثة آلاف رجلاً لينجد القوات المتقلقلة عند بئر عباس، وكانت لديه مدافع ميدان «هاويتزر» بحالة جيدة... ومدافع منيعة تضمن له التفوق والتحكم في العدو. وابتدأت طلقات الأتراك الغير مباشرة تزعج العرب وسقطت قبلة قرب خيمة «فيصل» ذاتها بينما كان جميع الرّؤساء يتداولون. فطلبوا من المدفعية المصرية أن تخرس مدافع العدو، إلا أن المصريين قد أقروا بعجز مدافعهم وقصر مداها وهم على بعد تسعة آلاف متراً من مدافع العدو، فهزأ الجيش بهم وتراجع العرب إلى الجبال.

فوهنت عزيمة «فيصل» لانفضاض الكثيرين من حوله وموت القسم الآخر من شدة التعب، ولم تحسن حاله هذه إلا ببعض غزوات لمؤخرة الجيش التّركي، غير أنها قد كلفته ثمناً غالياً، وقد نفق قسم من الجمال قتلاً ونصباً، عندئذ رفض أن يتحمل وحده مشاق الحرب، وتبعاتها بينما «عبد الله» يتلکأ في مكة، وعلي وزيد في رابغ، وسحب قوته الرئيسيّة إلى الوراء وترك متطوعيه رجال القبائل الذين هم في الصّف الثّاني ينهكون قوى العدو بغزوات متوالية. وكان من المستحيل عليه أن يحارب على هذا

التمط من المناوشات. ومع أن «فيصلاً» لم يكن يخشى أقل مفاجأة من جهة التُّرك. بل كان يزدرى بهم، ولم يكن تراجعهم في «حمراء» انهزاماً قط، بل نوعاً من الملل لدى ضعفه الحقيقي تجاههم. وأراد فوق ذلك أن يظهر سلطته ويحترم مقامه. فاستراح من الحرب قليلاً مكتفياً بالمراقبة والانتظار!...

وسألت «فيصلاً» خطته فأجابني بأنه عند سقوط المدينة يجد نفسه ملزماً إلى البقاء في الحجاز موجهاً جميع حركاته ضد قوات «فخري».

لأن التُّرك على رأيه يحاولون استعادة مكة. وقوتهم الرئيسية كانت مؤلفة. من جيش متحرّك يمكنهم أن يقذفوا به إلى رابغ. إلا أنه كان لهم اختيار بضعة خطوط للوصول إلى غايتهم. فأصبح العرب واقفين موقف الحيرة لا يدرون أي الطرق يسلكون، وأن هؤلاء المحاربين العرب لا يعرفون أن يدافعوا. وقد أظهر ضعفهم من هذه الناحية حادث تلال صبح، فلا يمكن والحالة هذه الاعتماد عليهم في خطة الدفاع، وعليه يجب الانتباه لأقل حركة من جهة العدو لدفع هؤلاء المحاربين إلى الهجوم فوراً.

وضاق مولود ذرعاً من محادثتنا وفرغ صبره فجابهني صارخاً: ليس هذا الوقت وقت دوين تاريخنا ودرس نفسياتنا بل وقت الحرب والكفاح. وقت قتل العدو. أعطوني مدافع شنايدر الجبلية ورشاشات فأريحكم من التُّرك. أنها وأيم الحق أقوال من غير أفعال. فأجبت بمثل حديثه واغتبطت لهذا الجندي الباسل الذي لا يعد التصر نصراً إلا إذا كتبه بدم جروحه. ثم عاد إلى مناقشتي ومنازلي والشريف ينظر إلينا مبتسماً.

وكان هذا الموقف لدى «فيصل» موقف عيد. لأن وجودي عنده وإن يكن أمراً لا أهمية له، قد أعاد إليه الشجاعة والرّجاء. وهو من أولئك الرّجال السريعي الانقلاب من الشجاعة والأمل إلى اليأس ووهن العزيمة، وكان الهم قد غيّر من منظره. والهم نصف الهرم. فالناظر إليه يحسب سنه فوق الخمسين وهو لما يبلغ الواحد والثلاثين ربيعاً، له عيان سوداوان فيهما شيء من القبل وقد التهبتا وتجدد وجهه لمام ذلك الموقف المضطرب. ومن طبعه أن لا يمعن في التفكير حتى لا يفقد سرعة العمل.

وكل إجهاد عقلي عنده كان نصباً فتتقلص ملامحه ويستولي عليه عذاب شديد، لقد كان عظيماً، شديد المراس، بهي الطلعة تشع منه عظمة ملكية حقاً، وكان يشعر من نفسه بتلك العظمة فيخاطب الناس ويخطب فيهم من غير ما إيماء ولا حركات. وكان يلتهب كالبارود ويخرج عن رزائنه إذا غضب، إلا أن هذه الحدة كانت تضرب على سندان جسمه الضعيف.

وكانت عذوبته وهزؤه بالمخاطر واستصغاره هذا الجسم الضئيل الأنوف قد صيرته معبود خلصائه. لم يكن أحد يعتقد فيه الدقة والعناية بأعماله.

ولكنه على مر الزمن قد أظهر بأنه قدير على مقابلة الثقة بالثقة والشك بالشك. لقد كان ذكياً أكثر منه متفنناً. ومن خدمته في الجيش التركي اكتسب خبرة فنية عرف كيف يجني ثمارها. وإقامته مدة من الزمن بجوار السلطان عبد الحميد في استامبول عاصمة الشرق في ذلك الوقت أكسبته كذلك خبرة دبلوماسية دقيقة ومعرفة بمشاكل الدول الأوروبية معرفة الرجل الذكي الفؤاد، وكلما أنس من نفسه مقدرة لا يحجم عن تحقيق أحلامه التي ينشدها ويطلب الحياة لأجلها، ويخشى من أن تفنى هذه القوة الكامنة التي تصبو إلى ما يقرب من المستحيل وتموت عناءً ونصباً.

وقد حدثنا بعض أخصائه بأنه بينما كان يدافع عن شخصه في موقعة طويلة الأمد ويقوم على رأس رجاله يشجعهم بأقواله وأفعاله ويمرّ بهم واحداً واحداً هازئاً بالخطر، خائنه قواه وأغمي عليه وكلل الزبد شذقيه فحمل من وسط المعركة. ومع ذلك يظهر لنا - وكما يمكننا أن نفهم - إن هناك نبياً إلى جانبنا - نبياً كان يجب أن نستره بحجاب حتى لا يبدو للعبان أكثر مما يجب. فتجسم إذن فكرة الثورة العربية وتأخذ شكل جهاد نبوي، لا نجسر أن نطمع بأكثر منه، وعلى كل حال، لا تستحقه حركاتنا المترددة. وكنت أكون بلغت الغاية التي من أجلها سافرت إلى الصحراء.

وقد وجب عليّ الآن أن أعود إلى القاهرة بأقرب الطرق وأقدم «تقريرى». والذي علمته هذا المساء تحت أدواح التخيل العظيمة قد تغلغل في داخلي وشعرت بأنى أسمع أصواتاً وألمح رؤى والشفق يلقي ظلالاً، والظلال تتحول إلى ليل هادئ والعبيد

يمرّون في ممّرات الحداثق الملتوية يحملون الفوانيس. فرافقت «فيصلاً» وتبعنا «مولود» إلى البيت الصّغير الذي يسكنه. وكان فناء الدّار مكتظّاً بالنّاس ينتظرون قدوم الشّريف. فاخترقنا الازدحام ودخلنا غرفة صغيرة حارة حيث كان الأخصاء بانتظاره واجتمعنا حول أطباق الأرز واللحم السّاخنة وقد صففها الخدم على «السجادة» وتناولنا العشاء.

وبكرت في الغداة وحدي ومشيت نحو الجنود المعسكرة في جهة الخيف لأعرف شعورهم وأفهم آراءهم وقد جمعت عنهم في عشرة أيام من المعلومات ما يتعذر عليّ جمعه في أسابيع بالملاحظة.

لقد كنت مطمئناً من حركات العرب، واقتنعت حتى قبل تعرفي بفيصل بأن فكرة الثّورة العربية وغايتها الحقيقية هي تقطيع أوصال الدّولة العثمانية. إلّا أنهم في مصر كان ينقصهم الإيمان وثبات العقيدة لأن السّلف لم يصدقوهم القول عن العرب في القتال. فإذا تمكنت من وصف بعض خواص أولئك الأبطال الرّحّل أبناء الجبال وما يختلج في أفئدتهم نحو المدن المقدسة أقنعت القاهرة بأن تقدم لهم المساعدة الفعلية النّافعة.

كان النّاس يستقبلونني بفرح وابتهاج، فوراء كل صخر، وتحت كل عليقة كانوا يتمدّدون كالسّلاحف الكسولة ويتفياؤون تحت الأظلال الضّئيلة ويتمرغون على الحشيش لينتعشوا بما علق عليه من ندى الفجر. ولقد حسبوني في ثوبي الكاكي ضابطاً تركياً هجر الجيش وانضم إليهم. وكانوا يتقدون حماساً ويعتقدون بأن الحرب ستدوم عشر سنوات. وكانوا تحت لواء «فيصل» في بجوحة لم يروها قط في حياتهم. إذ يطعمهم ويطعم عائلاتهم ويدفع لكل نفر دينارين استرليني وأربعة لكل جمل. ولم يكن قطّ غير الدّهب ليأتي بالمعجزات في الصّحراء ويحفظ ذلك الجيش المشكل من القبائل الرّحّل مدة خمس سنوات متواصلة تحت السّلاح. وكان المتطوعون الحاليون يتبادلون إلى ما لا نهاية له، حسب شريعة الدّم. فالعائلة التي تملك بندقية يتناوبها الأولاد للخدمة. والمتزوجون يتناوبون بين المعسكر ونسائهم، وأحياناً ينفصل

طابور بأجمعه إلى الراحة بعد أن يكون قد أضناه الملل والسأم. والثمانية آلاف جندي عند الشريف فيصل تقدر بكل فارس على تسعة مشاة جمعت من قبائل الجبال، لا يحاربون إلا تحت إمرة شيخ قبيلتهم... وإذا كانوا قريبين من مضاربهم أو أكواخهم فإنهم يقومون بذاتهم بإعالة نفوسهم والاهتمام بوسائل انتقالهم.

وقد خبت نار المنازعات بين العائلات ولو بالظاهر، لكنها للحقيقة هدنة على دخن، فبليي، وجهينة وعتيبة، والعقيليون كانوا يحاربون جنباً إلى جنب تحت لواء «فيصل» وعين الحذر ترقص بينهم أينما حلوا وارتحلوا حتى بين الأسر في قلب القبيلة. ومن الصعب جداً إحلال الثقة بين تلك القبائل المختلفة.. وكان كل محارب يكره الترك وينازلهم، إلا أن هذا الكره لا ينسيه حتى في وسط المعركة العداوة المتأصلة بينه وبين أحد أفراد العائلة نفسها.

وعادة العربي الموروثة منذ الأزل للغزو قد صيرته جافاً عند تقسيم السلب. وهو لا يتردد في اقتلاع خطوط السكك الحديدية وسلب القوافل مستقلاً بنفسه لأنه لا يرضخ للأمر ويأبى الانقياد ويأنف الحرب منضماً إلى فرقته. والرجل الذي تنحصر قوته بنفسه مستقلة عن كل عون، لهي قوة مغلوبة لا محالة، وأن هؤلاء الجنود الذين يحاربون منفردين هم الفئة الرديئة التي لا تؤلف هيئة بشرية مستعدة للتمرين والنظام العسكري. إلا أنه ربما إذا سلّحناهم ببنادق متعددة الطلقات من نوع «لويس» واستعملوها بأنفسهم، يمكنهم أن يصمدوا للعدو على المرتفعات. وقد وقع النزال في الحجاز على أرض صخرية جبلية جرداء قام به رجال قبائل جبليون جهل ضد عدو جيد السلاح، حسن التنظيم، كثير المؤن بفضل ألمانيا. إلا أن هذا العدو كان قد أضاع مزايا حرب المناوشات مع الزمن وتعود النظام. وكان لدى رجال الصحراء من المرتفعات التي تحيق بالعدو مجال واسع عجيب فيباغتونه في ظلام الليل ويرمونه بالرصاص منفردين متفرقين. ولم يكن لدى العدو غير الأودية وأغوارها التي لا تحصي، ومضايقها التي تستدق إلى اتساع مئتي متر، والصخور الشاهقة تضغط عليها من الجانبين. ولا يبعد أن تضيق هذه الفرجة إلى عشرين متراً مع ما فيها من المنحنيات

والمعابر الخفية. ترتفع فوقها أعراف من الصّوات والمرمر والبورفير مسننة كالحراب على ارتفاع أربعة آلاف قدم. أسوار طبيعية لا رحمة لها، يرتد عنها الطّرف ويعز عليها الملجأ. وإذا ظهر في تلك الأعراف بعض المنفرجات التّادرة فما هي إلا منحدرات لصخور هائلة تنجرف إلى القاع صلبة كالفلّاذ مسنونة كلها ذم الرّماح.

وبما أنني لم أكن متعوداً تقدير مثل هذه الأماكن المهلكة أيقنت أنه من المحال أن يتمكن الأتراك من شق طريق في هذا الوعر إلا بخيانة إحدى القبائل الجبلية. إنما الذي كان يقلق بالي هو عدم وقوف العرب تجاه المدفعية التّركية لأنهم كانوا يتشتون لأول قبلة تنفجر ويتوارون عن الأبصار ويعتقدون بأن الجيش الأشد تدميراً هو الجيش الأكثر قعقة وضجيجاً، ولم يكن الموت ليخيفهم إنما فكرة انفجار القنابل «المنثاريّة» Shrapnel كانت تضعزع أفكارهم. وكان رأيي أن نداوي الدّاء بالدّاء فنسلحهم بالمدفع.. إذ كان الكبير فيهم والصّغير من «فيصل» إلى الجندي البسيط يرددون دون انقطاع (مدفعية.. مدفعية) ومنذ وصولي إلى هنا شعرت بارتياح شديد لانتساع نطاق العصبيّان. فإن هذه المقاطعة الصّغيرة القليلة السّكان قد تحولت إلى انتقاض حقيقي ضد تركية بعد أن كانت نوعاً من السّطو على القوافل.

ولم يكن العرب بالطّبع يحاربون على نهجنا، إنما كانوا يتفانون في محاربة أعدائهم الشّركاء في الدّين، والذين أوشكوا أن يثيروا العالم الإسلامي في جميع أنحاء الأرض ضدنا باسم الجهاد للحرب المقدسة.

وكانت القبائل الدّاخلية في منطقة الحرب تبدي حماساً محموماً لا مثيل له.

حماساً - في رأيي - معقولاً عند ثوران الشّعوب. إلا أنه مغلق غريب على الرّجل الحديث العهد بجزيرة العرب والذي ينتمي إلى بلاد عريقة في الانعتاق والتحرير، يرى أن حرية الشّعب أمر عادي لا غرابة فيه. ولما التقيت بفيصل ثانية بعد برهة من الزّمن وعدته أن أنظر في أمره بكل اهتمام، فرؤسائي يؤسسون قاعدة في ينبع فتحجز المؤن والدّخائر لغرضه الخاص. ويقدم له خبراء فنيون ممن أسرناهم في ما بين التّهرين أو على قناة السّويس، وتجهز مدافع ورشاشات تحت إمرة ضباط خبراء وجنود عاطلين

لا عمل لهم في المعسكرات، نسلحهم بمدافع جبلية ورشاشات خفيفة من الطراز الموجود بيد جنودنا في مصر. وأخيراً، أشير بأن يتصل بأركان حربه بعض ضباط بريطانيين فنيين نظاميين ليكونوا مستشارين وضباط ارتباط في مجلسه الاستشاري.

وقد تحدثنا هذه المرة بغاية من الظرف والإيناس، وشكرني «فيصل» بحماس وطلب مني أن أعود إليه بأسرع ما يمكن فأفهمته بأن عملي في القاهرة ينفي كل عمل آخر. ولكنني أرجو أن يسمح لي رؤسائي بأن أزوره مرة أخرى بعد أن يكونوا قد لبوا طلبه وقدموا له احتياجه وتكون الحوادث قد تحولت تحولاً حسناً، وطلبت إليه أن يسهل لي العودة إلى الساحل لأتمكن من السفر إلى مصر.

فسلم إليّ حرساً شريفياً من أبناء المقاطعة التي سأمر بها إلى ينبع... فمررت ببلاد مأهولة تخترقها أودية خضر مروية تختلف كل الاختلاف عن المرتفعات الجرد من حولها. أما ينبع فهي مجموعة بنايات من نوع جدة، وجدت فيها ضيافة حقة... فقدم إليّ الحاكم - وهو جاوي من مكة - غذاءً ومحل إقامة لعدة أيام إلى أن مرت الباخرة «سوقا» بقيادة الكابتن «بويل» فتكرم هذا الكابتن وسمح لي بمكان على ظهر الباخرة.

قلت تكرم وسمح لي لأنني كنت رث الثياب غير مقبول لطول تطوافي في الصحراء.. وكنت لا أزال لابساً الكوفية والعقال على رأسي. وكانت ملابس الوطنيين العرب في نظر البحرية الملكية غير مقبولة. وكان من الواجب أن يكون «بويل» مثلاً أعلى لرجاله وهو أقدم ضابط بحري في البحر الأحمر، لكنه كان ملازماً أبداً ظهر السفينة جالساً في الظل غارقاً في قراءة أمريكان كونستيتوشيون «الدستور الأمريكي» «لبرايس» فلم يكن له متسع من الوقت ليتحدث معي أكثر من أربعة عشر كلمة في اليوم.

ولما وصلت إلى جدة كانت الباخرة «أوريالوس» *Euryalus* بقيادة الأميرال «ويميس» *Sir Rosslyn Wemyss* على أهبة السفر إلى بورسودان ومنها يسافر الأميرال إلى الخرطوم ليزور السير «ريغينالد وينغايت». وبما أن السير «ريغينالد» بصفته سردار الجيش المصري قد عين حديثاً قائداً للقوات البريطانية التي تسند العصيان العربي، رأيت أن أبدي له تقديري لهذا العصيان، وعليه طلبت من الأميرال مكاناً في مركبه

وفي قطاره الذي يوصله إلى الخرطوم فقبل طلبي بعد أن أمطرني وابلًا من الأسئلة. ولاحظت أنه لشدة ذكائه، ولاتساع مداركه، وعقله دائم التفكير قد اهتم من أوله لحظة بالثورة العربية، وكم من مرة كان يتوقف بمركبه على الشواطئ العربية ليقدم للعرب مساعدة ما في بعض مواقفهم الحرجة. وطالما كان يقوى العصاة ويدفع عنهم غائلة كان من واجب الجيش أن يدفعها عنهم بنفسه. وقد قدم للعرب مدافع ورشاشات ومساعدین فنيين ووسائل نقل. وقد قدم للعرب مدافع ورشاشات ومساعدین فنيين ووسائل نقل. وبالاختصار كان يعضدهم معاضدة لا حدَّ لها، بل كانت أمنيته الحقيقية بأن يصغي إلى مطالبهم من أفواههم وأن يقدمها لهم بسخاء.

ولما بلغت الخرطوم وجدت أنها بلد طيبة الهواء بجانب حرّ جزيرة العرب اللافح. وشعرت بالانتعاش والقدرة على تقديم تقريري إلى السردار السير «ريغينالد وينغايت» مبيناً له أن الحالة في صحراء العرب تبعث على الأمل الكبير وأنه يجب إرسال نجدة من الفنيين للتّواري في الحال، وأن الغزوة تتسع وتنتشر بنجاح، وإذا ألحقوا بالرؤساء الوطنيين بعضاً من ضباط الجيش البريطاني بصفة مدربين ومستشارين، ويكون أولئك الضّباط من المدربين جيّداً والذين يتكلمون اللغة العربية، وأن بقى على اتصال دائم بهم.

فسر وينغايت لسّماع هذا التقرير المملوء تفاؤلاً. لأنّ الثّورة العربية كانت جل أحلامه منذ سنين، وبعد أن قضيت ثلاثة أيام في الخرطوم قفّلت راجعاً إلى القاهرة مطمئناً لاقتناع الرّئيس المسؤول. وقد أصبح سفري في التّيل من أعزّ أمانيّ.





السير هنري مكماهون
المندوب السامي في مصر

الفصل الرابع

مصاعب حول ينبع

وبعد وصولي إلى القاهرة ببضعة أيام دعاني رئيسي الجنرال «كلايتون» إليه وكلفني بالعودة إلى جزيرة العرب لأكون إلى جانب «فيصل». ولكنني كنت أشعر بنفور من هذا الانتقال. وعارضت بكل قواي هذا الانتداب وأظهرت جسامة المسؤولية التي لا يمكن أن أتحمّلها. ولا بدّ لمستشار إذا انتدب لمهمة وأراد أن يقوم بعبئها بإخلاص وأمانة أن يحمل شيئاً من مسؤوليتها، وأضفت بأن الحقائق الملموسة كانت دائماً تجلب لي السّرور أكثر من الأشخاص. والأفكار الجلية ترضيني أكثر من المادة، وعليه فالمقدرة على التّجّاح مع الرّجال لهو أمر شاق جداً، ولو أنه في الإمكان التسلط عليهم ودفعهم إلى المشاريع العظيمة...

وأني أبعد ما يكون عن الرّوح الحربي وأكره المهنة العسكرية ومع ذلك... ألم يبرق السّرّدار إلى «لندن» يطلب الموافقة على إرسال بعض ضباط من الجيش المنظم ليقودوا الحركات الحربية في جزيرة العرب؟ فأجابني كلايتون بأن هذه التّجّدة لا تصل قبل شهور، ومن الضّروري أن نكون على اتصال دائم بفيصل، ويجب أن تكون القيادة العليا في القاهرة على علم تام دقيق بما يحتاج إليه.. وانتهت المقابلة بأن أذعنت للأمر وتركت لغيري العناية بمتابعة تدوين التّشرة العربية التي أسستها، وإخراج الخرائط التي كنت أرغب في نشرها، وإيضاح الخطط التي تختص بحركات الجيش التّركي وسلمت جميع الأعمال التي كانت تتعلق بي. وهكذا تركت العمل الموافق لرغبتي واستعدادي لألعب دوراً لم يكن لي أقل ميل إليه.

لقد كللت جهود العصيان بالنجاح وامتداح الرجال المتتبعون الحوادث عن بعد، حسن الإرادة والتدبير، لكنَّ عيوباً كثيرة كانت محجوبة وراء الستار نتيجة تدخل شخص غريب عن السلك العسكري، ونتيجة قرارات موحى بها من الأُمس كان ينقصها حسن الاتساق فلا تلبث أن تقع أحياناً كثيرة في وحلة الخلط الغريب.

لقد وجب عليَّ أن أصل إلى ينبُع قبل أي مكان آخر، وقد أصبحت قاعدة جيش «فيصل». وعندما تركت هذا المرفأً لمقابلة الشَّريف علمت أن الأتراك قد دحروا لأن كشافة من الفرسان وفرقة من الهجَّانة كانتا قد توغلتا في المناطق الجبلية وباغتتا العدو وشتتاه شر تشيت. فكان سفري إذن من سوانح الفرص ومحاسن القدر يرافقني الشَّريف «عبد الكريم» المكلف بحراستي، ويصحبنا خمسة رجال على أتم حال. وأسرعنا جداً بفضل «عبد الكريم» الفارس المغوار الذي لا مثيل له، والذي كان يخطف المراحل دون توقف، وكان الهواء عليلاً والسحاب يحجب السَّماء والمطايا لم تكن ملكاً لي! فلم أعارض في هذا الجري الغريب الذي كان ثلاث مرات أسرع من السير المعتاد! فقد ابتدأنا بالركض خيباً مدة ثلاث ساعات من غير انقطاع، فمخضت أمعاؤنا مخضاً وطالبنا بالغذاء، فتوقفت القافلة إلى غروب الشَّمس، وأكلنا خبزاً وشربنا قهوة بينما «عبد الكريم» يمازح أحد رجاله ويصارعه حتى اكتفى من المجالدة فجلس. وأخذ كل منا يقص قصته. ولما استراح رفاقنا من عناء السير السريع نهضوا وأخذوا يرقصون فلم يكن هناك ظل من الكلفة. بل كان الابتهاج شاملاً. وتابعنا السفر مسرعين إسراعاً جنونياً أفضى بنا بعد ساعة وعند هبوط الليل إلى سفح سلسلة صغيرة من الجبال. ولكي نجتازها تصعدنا في واد ضيق ملتو عقيقه رملي ملبد لرية مطر حديثة العهد فكانت تسير عليه مطايانا بغير عناء.

إلا أن الصَّعود كان صعباً، فسرنا الهوينى كأننا في نزهة مما سرني وأراحني وأثار غضب «عبد الكريم»، حتى إذا ما بلغنا القمَّة وبأشرنا في الانحدار أرخى رفيقي العنان لمطيته إلى أقصى حد من السَّرعة رغماً من حلك الليل، ولحسن حظنا كنا نسير على أرض لينة رملة قليلة الحصى، إلى أن انبسطت الأرض أمامنا بعد سير نصف ساعة

وبلغنا حدائق «نحل مبارك» أعظم نخيل في قبيلة جهينة الجنوبية. وما كدنا نقرب منه حتى لمحنا اللهب يترجرج بين أشجار التّخيل الباسقة وسدوف الرّجال تطوف حول الثّار.

وسمعنا من فوق المرتفعات القريبة صدى هدير ألوف من الجمال الهائجة وقصف طلقات نارية وأصوات الذين أضاعوا رفاقهم في هذا الخلط الغريب. ولقد كانوا أنذرونا في ينبع بأن «نخل» قد أخليت، فما معنى هذه الجلبة إذن؟ إنه لأمر غريب في ذاته.. فسرنا حذرين، وعبرنا أول حديقة بهدوء وصمت وتسللنا طريقاً ضيقاً مطبقاً بعلو قامة الرّجل وعلى جانبيه جذران من اللّبن، حتى وصلنا إلى مجموع من البيوت كان يظهر عليها أنها مهجورة. فدفع «عبد الكريم» باب أول بيت عن شمالنا فأدخلنا جمالنا وحجزناها بعوارض وأنخناها حتى لا ترى من الخارج، وحشى بندقيته برصاصة وتوارى عنا ليرى جليلة الأمر فانتظرناه بصمت وبغير حراك فجف العرق تحت ثيابنا وشعرنا بقشعريرة الليل البارد ومرت نصف ساعة كأنها الدّهر. وأقبل «عبد الكريم» وأخبرنا بوصول «فيصل» وفرقة الهجّانة ومن الواجب اللحاق به، فأخرجنا الجمال وتبعنا طريقاً محاذياً عن يمين البيوت ومكشوفاً من الشّمال على منحدر غابة من التّخيل. ولما بلغنا آخر البستان وقفنا على جماعة كبيرة من العرب والجمال يهدرون ويتقلبون بعضهم على بعض ويختلطون حيوانات وآدميين كيفما جاءت المصادفات فعانينا كثيراً حتى خلصت لنا الطّريق. وإذا بنا في منكشف فسيح من الأرض لم يكن سوى قاع وادي ينبع. وقد رنا هذا الاتساع بما رأيناه من نار المعسكرات على طول كتفي الوادي، وكانت الأرض وحلة رطبة من جرّاء فيضان حديث العهد، فكانت الجمال تخطو بحرص وتنزلق أخفافها على ذلك التراب اللزج فلم نُعر لذلك أهمية. وقد حوّلنا اهتمامنا إلى جيوش فيصل المنتشرة في الوادي وإلى مئات المواقع التي يذكيها وقيد العلّيق والهشيم فتضيء العرب وهم من حولها يشربون القهوة أو يأكلون أو يلتفون ببرانسهم ويستريحون من العناء وهم بين المطايا لا حراك لهم.

ولا يلبث هذا الخليط من النّاس والبهائم المعقولة الرّسغ على السّاق حتى يموج

ويتحرك لكل قافلة جديدة تنخرط فيه كأنه نهر مُزبد تصبّ فيه الجداول دون انقطاع. فتنهض الإبل المعقولة على قوائمها الثلاثة وتستقبل القادمين وتناشدهم العلف العلف!! فضلاً عن العسس السّيار والأحمال الملقاة على الأرض دون نظام- وثالثة الأثافي- البغال المصرية التي تمعن في التمرّغ فتزيد هذا الجمع الخليط تموجاً وضجيجاً.

فتقدمنا بمشقة وسط هذا الزّحام الميّاد وبلغنا جزيرة ناتئة في نفس القاع حيث التقينا بالشّريف فيصل جالساً على سجادة مفروشة على الحصى وهو بين ابن عمه الشّرتف «شرف» قائمقام «الإمارة والطائف» وبين الشّيش «مولود» الوطني الموصلي الذي يشغل وظيفة ياور. وأمام الشّريف سكرتير يكتب أمراً وهو راعع، وعلى بضع خطوات رجل آخر يقرأ تقارير على نور مصباح فضّي يحمله عبد. وكان الليل هادئاً والجو باهظاً لا تهب عليه نسمة ولا يتحرك لهب المرسجة الطويل المستقيم.

وجدت «فيصلاً» هادئاً كما أعهده فتلقاني بابتسامة وهو ينهي تعليماته. ثم اعتذر لي عن هذا الخلط الغريب وأخرج عبيده السّود مع عصاة الفضوليين المتسكعين قريباً منه. ونشط جمل من عقاله وجن جنونه في الفضاء الفسيح أمامنا ثم دار دورته حولنا هائجاً يصم هديره آذاننا فأسرع «مولود» وتعلق بعنقه ليدلّله ويقوده، إلا أن الحيوان أذلّ الرّجل ورفع في الفضاء وتقطّعت حبال حمله وتناثر الحشيش عن ظهره كالزّوبعة فطمرنا جميعاً: «أنا وشرف» الصّموت والفانوس ونوره فقال فيصل برزانة: الحمد لله! ليتها كانت زوبعة سمن أو زوبعة ذهب، ثم أخذ يشرح لي الحوادث الفجائية التي ظهرت على جبهة جيشه مدة الأربع والعشرين ساعة الأخيرة.

وسلك الأتراك طريقاً معوجاً وانزلقوا بين التلال في «وادي صفرا» ما وراء صفوف مقدمة العرب وسدوا عليهم منافذ الارتداد. فاستولى الذعر على رجال القبائل وتواروا كارتداد الطّرف في الأعقة العميقة، وتراجعوا إلى الورا جماعات ثلاثة ثلاثة، فاندفعوا فرسان الأتراك دفعة واحدة إلى الوادي الذي تركه العرب وهبطوا من معبر «دفران» على «بئر سعيد» حيث يعسكر «زيد» أخو «فيصل» الأصغر فبوغت هذا الشّريف

الصَّغِير فارتد بمفرزته. وارتدى الهاربون ظلمة الليل وانفصلوا عصابات مدبرين إلى جهة يَنْبُع. وهكذا أصبح طريق هذه المدينة مفتوحاً للترك. وقد وصل فيصل منذ ساعة فقط مع خمسة آلاف رجل ليصمد للعدو أمام قاعدته الحربية حتى يتمكن من تنظيم خط دفاع آخر. وكان الموقف حرجاً دقيقاً، إلا أن وجود «فيصل» في «نخل» جذب العدو إلى هذه الجهة وربما قد أغراه جيش الشَّريف لمنازلته مكشوفاً فيتناوشان عدة أيام نكون في غصونها قد حصَّنا يَنْبُع.

ولم تفسد هذه الحوادث على «فيصل» سكونه وحسن طبعه. فجلست إلى جانبه مجتهداً في أن أطلع على سير الحوادث وأسمع مطالب النَّاس وشكاياتهم التي كان يعالجها قدر المستطاع، وانتهت المداولة السَّاعة الرَّابعة والنَّصف صباحاً! وسقط الصَّقيع ونشَّت الرَّطوبة داخل السَّجادة وغزت ثيابنا. ومدَّ السَّكون رواقه على المعسكر واستولى الرِّقَاد على الرِّجال والبهائم المنهوكة القوى فاكتنفهم ضباب كثيف كالحرير. وخمدت النَّار وانطفأ بصيصها وتصادعت أعمدة الدَّخان الدَّقيقة واضمحلَّت في السَّحاب.

*ولما أنهى «فيصل» أعماله المستعجلة قاسمني عشاء البسيط، وهو ست تمرات!! وأنه لغذاء ناقص جداً في مثل هذا البرد الذي يكاد يهرأنا!! وتزملنا كل بعباءته وتمدَّدنا على السَّجادة النَّدية. وبينما كنت ساجياً مسجوراً في كفني الليل رأيت الحراس «بني بياشة» ينسلون حتى بلغوا «فيصل». ولما تحقَّقوا من رقاذه ألقوا عليه مشالحمهم بهدوء، ولم تمر ساعة على رقادنا حتى قرصنا البرد وقلص أعضاءنا فنهضنا. وقد ظهر ما يشبه الفجر. وأوقد العبيد حطب التَّخيل لتدفئتنا وأخذت بمساعدة «شرف» أفتش عن شيء أقتات به. ونحن كذلك وإذا بساعة قد قدموا من جهات مختلفة وأشاعوا بيننا قرب هجوم العدو. فاستولى الذعر على المعسكر وأمر «فيصل» بالرحيل في الحال. وكان لهذا القرار الفجائي سببان معقولان: لأنَّ جيوشه، إذا سقط المطر غزيراً على الجبال، لا تتمكن من الثَّبات في أماكنها. ثم أنَّ الانتقال والسير في الطَّرِيق يخفف من قلقهم ويلهيه عن هذه الإشاعات! وما كاد يدوي

صوت الطبل حتى كانت الأحمال على الجمال. ولدويّ ثان قفز كل على سرج مطيته وامتدوا صفيين متقابلين بينما فرجة واسعة. وتقدمهما «فيصل» يتبختر على ظهر فرسه، يتبعه «شرف» ثم حامل العلم - عليّ - المثال الجميل لأجناس نجد المرتفعة قليلاً عن الأهماج، له وجه كالصقر منخرط بين ذوائب تتساقط عن صدغيه سود كحلك الليل. وثياب حمر قانية تتموج وهو على سرج قلو صه العالية الجميلة. ومن ورائه جموع من الأشراف والمشايخ والعبيد، وأنا الغريب الضائع في هذا الخلط الغريب. وكان عددنا في ذلك الصّباح ثمانمئة رجل منهم الأتباع وحرس القائد الخاص. وقضيت اليومين التاليين برفقة «فيصل» تمكنت فيهما من درس طريقة قيادته بتعمق وإمعان في هذا الوقت المغزى ولدى رجال متشائمين وهنت عزيمتهم أمام الأقاويل التي تلقوها هذا الصّباح ولدى انفضاض قبائل الشمال، إلا أن فيصلاً كان يهتم بتشجيعهم فينجح في مهمته إذ يدعوهم إلى الاقتراب منه.

وكان المتوسلون الملحفون يرودون حول باب خيمة الشّريف لعله يتنبه لهم. فكانوا دائماً يبلغون أمنيّتهم بمقابلته، فيصغي بصبر إلى أحاديثهم وينظر في شكاياتهم، حتى أنه كان يسمع لفرق بكاملها يشكون إليه ظلامتهم بقصائد منظومة كنا في الليل نسمعهم يترنمون بها. ويصبر عليهم صبر الجمال. إلا أنّه لم يكن ينهي كل هذه المشاكل بنفسه بل كان «شرف وفايز» يقومان بهذه الأعباء، وكان لي هذا الجلد العجيب درساً ثميناً علّمني معنى السّلطة الوطنية العليا في جزيرة العرب.

كان الشّريف مالكا نفسه، ولما قدم مرزوق التهامي من قبل زيد، وكان مرزوق هذا من رفاق الشّريف الصّغير الأخضاء - كي يقص على «فيصل» قصّة انكسارهم الشّنيع، سخر منه علانية وأخرجه خارجاً لكي يستقبل مشايخ حرب وعقيل الذين كانوا سبب النّكبة من جراء إهمالهم. وأخذ يسخر منهم بتؤدة وينقد بهزء كثيراً من خططهم ويجسم لهم دون إظهار مرارة وحقد ما للنّكبة من التّائج السيّئة لتهاونهم وعدم تبصرهم بالأمر. ثم دعا مرزوقاً وسدل السّتار على باب خيمته كأنه سيعالج أمراً عسيراً... فوجمت وتذكرت معنى كلمة «فيصل» في اللغة العربية وهو السّيف

القاطع الذي يفري الهام ويورد الموت الزّوأم. إلّا أنّه لم يكن شيء مما توهمته بل دعا «مرزوقاً» ليجلسه إلى جانبه على السّجادة ثم قال له: قل لي يا مرزوق بإسهاب عن لياليكم وعن معجزاتكم في القتال. روّح عنا قليلاً!!..

وكان كلام «فيصل» موسيقياً رناناً يلعب بقلوب الرّجال فيكلم كل قبيلة بلهجتها، إلّا أنّه كان في بعض الأحيان يتردد ويتوقف عن الكلام باحثاً عن ألفاظ قد سها عنها، ولم يعد فكره يسبق كلامه فكانت أحاديثه متقطعة ساذجة إلّا أنها مخلصة بريئة تشف عن فكر نير وشخصية شريفة.

وكان أياماً تنقضي على وتيرة واحدة، فمند بزوغ الفجر يرسل إمام الجيش نداء العجيب.. حيّ على الصّلاة. فنفيق على صوته الأشجّ القوي. ويستقبله النّاس منهم بالدعاء والصّلاة ومنهم بالحقن. وعندما ينتهي الأذان يدنو مؤدّن الشّريف الخاص من الخيمة ويعيد الأذان بصوت شجي هادئ.. ثم يأتي العبد الخاص بالقهوة الحلوة. إذ القهوة بالسكر عند الفجر نافعة للصّحة!! ويرفع بعد ساعة ستر باب الخيمة فيدخل الأربعة أو الخمسة الأخصاء دون استئذان ويطلعونه على أخبار الصّباح، ثم يقدم الفطور المعتاد وهو بعض تمرات على طبق، وبعض الأحيان يقدم لنا «هجرس» رئيس العبيد أنواعاً من الكعك والمّلة صنع يديه. ويمرّ الوقت بين شرب القهوة (السادة المرّة) والشاي بالسكر، وفيصل يملي مراسلاته على كاتمي الأسرار بينهما فايز ذو الميل إلى المجازفة، والإمام ذو الوجه المقطب الذي يتبينه الجيش من مظلمته السّاعة المعلقة دائماً أبداً بحنو سرج هجينه. ومن الممكن أن يقابل الشّريف بعض الأشخاص في مثل هذه السّاعة.

أما في الليل فإن هذه الخيمة تتحول إلى غرفة نوم لا يدخلها أحد. وهي من الخيام البسيطة ذات الشّكل القمعي المقلوب يجد فيها المرء لفافات تبغ وسريراً ناقلاً وغطاءً كريدياً جميلاً وسجادة شيرازية بسيطة، وسجادة أخرى للصّلاة قديمة نفيسة جداً صنع «بلوشستان» يؤدّي الشّريف العبادة عليها.

وعند السّاعة الثامنة يتقلد «فيصل» خنجر التشريفات في زناره ويدخل خيمة

المقابلات، ف يأخذ محله في صدر المجلس إزاء باب الدّخول ونقف نحن على شكل دائرة محازاة قماش الخيمة. ويقف العبيد قرب الباب ليمنعوا الفضوليين والمتوسلين الجالسين القرفصاء خارج الخيمة على الرّمل بانتظار دور مقابلتهم، وكان الشّريف يجتهد بأن يفرض الاجتماع عند الظّهيرة ويستريح. ويجتمع بعدئذٍ أخصاؤه، ومنهم أنا، وبعض القادمين عرضاً في خيمة «الصالون» ويأتي «هجرس» و«سالم» بأطباق الأكل من «حواضر اليوم» فيأكل «فيصل» قليلاً لولعه الشّديد بالتدخين إلّا أنّه يتظاهر بالأكل من جميع الألوان كالفول، والعدس، والأسفيناخ، والأرز، والفتير، بأصابعه أو بالملعقة إلى أن يقدّر بأن المدعوين قد شبعوا، فيختفي الطّبق في الحال لأول إشارة من يده فنهض أمام الباب ويصب العبيد الماء على أيدينا...

ومن العرب الجشعين - محمّد بن شفيع - الذي كان يبدي شكواه من الشّريف بظرف ولطف لسرعته في الأكل والتّهوض بينما هو لا يزال لعبه يسيل. ويقول مازحاً: هأنذا سأعود إلى خيمتي وأعيد الكرة على وجبة أخرى، ونتحدث بعد الغذاء ونشرب فنجانين من القهوة ثم كوبين من الشاي الأخضر المركز كالشّراب إلى أن تقفل الخيمة الساعة الثّانية بعد الظّهر. ثم يعود الشّريف إلى خيمة الاستقبال: فيستقبل زائريه إلى أن يخرجوا من عنده راضين مقتنعين. ولم أر قط من خرج من بين يديه كسير الخاطر، كاسف البال. وهذا ثناء حق أسطره على ذكر الشّريف. ولا أذكر مرة قط في أي ظرف ما أتى رأيته نسي حادثاً أو تردّي صبط نسب من الأنساب. وإذا سنحت له فرصة بعد المقابلة يتزّه مع أخصائه. وبين الساعة الثّالثة والسّابعة يقدم العبيد العشاء لجميع الموجودين لدى الشّريف.

وهكذا كان ينقضي النهار على بعض أكواب من الشاي يقدمها لنا العبد الحافي خلصة من وقت إلى آخر، ولم يكن يرقد فيصّل إلّا في ساعة متأخرة من الليل، ولا يظهر قط أقل رغبة في انصرافنا، بل كان يجب أن يرتاح راحة تامة من عناء النّهار، ويجتهد أن يتجنب أيّ عمل ما. ويلعب الشّطرنج قليلاً رغماً من أنّه لاعبٌ من الطّراز الأوّل. وكان يفصّ علينا - وأعتقد أنّه يفعل ذلك لأجلي أنا - مشاهداته في سوريا، ولم

يكن بجانب معلوماته عن تاريخ تركية السّري وعن المسائل العائلية، وبهذه الوساطة فهِمت أشياء كثيرة من أمور النَّاس وأحوال الأحزاب في الحجاز.

فاجأني «فيصل» مرة وسألني، إذا كنت أرغب في لباس الحجازيين مثله مدة إقامتي في المعسكر. وأردف قائلاً: إنني أرى في ذلك فوائد جمة نظراً لأحوال البلاد وطرق الحياة ولأنه من المقدور علينا أن نعيش فيها مدة غير معينة. وفوق ذلك يفهم رجال القبائل عندئذٍ كيف يتعاملون معي.

وللحقيقة كان أول من لبس الكاكي - على زعمهم - هم الضباط التُّرك فكانوا يجانبونهم بميلهم الغريزي. فلألبسَنَّ القفطان الوطني ولأقودَنهم كأني رئيس من رؤساء البلاد فأتَمَكَّن من الدَّخول والخروج على خيمة «فيصل» دون أن أُلقي الرِّيبة في الزَّائرين الغرباء، وأكفَى الشَّريف تسكين الهواجس ونفي الشُّبهات، فقبلت العرض دون أقل تردد، وسر «هجرس» كذلك لهذه الموافقة، وأعمل فكرته في تجهيز ثوب أبيض من ثياب الأعراس الحريرية المطرزة بالذهب التي أرسلتها مؤخراً عمة فيصل الكبرى في مكة.

أكانت هذه التجربة نوعاً من التورية المغلقة؟! خرجت إلى غابة النّخيل أتمشى قليلاً لأتعود هذا الثوب الفضفاض. ونظراً لوقوف الجيشين الآن ألوّاحد إزاء الآخر، فقد أصبح التوقف في «نخل مبروك» عقيماً، واعتقدت بأنه من الأفضل أن أعود إلى ينبُع في الحال لأتَمَكَّن من درس الحالة عن كثب وأنظر في وسائل الدِّفاع عن هذا المرفأ براً وبحراً. وقد وعدتنا القوات البحرية بأن تقدم لنا كل مساعدة.

وقرّرت أن أستشير زبيداً ونتعاون على قدر المستطاع للمنفعة العامة فأهداني «فيصل» قلوصاً شهباء حالكة القوائم لا نظير لها. وسرنا في طريق وادي «مسارح» بين تلال «هجيدة» مجانبين الطّريق المستقيم متجنبين الكشافة التُّركية. ورافقني «بدر بن شفيع» فبلغنا ينبُع بمرحلة واحدة قبل طلوع الشَّمس بعد مسير ست ساعات.

وأنهكني التعب إذ قضيت هذه الأيام الثلاثة بالتفكير والحركة والتّوم القليل، فسرت

توَّأ إلى بيت «غارلاند» المهجورة وقد تركه صاحبه واستقل ظهر سفينة في الميناء ونمت على أريكة، ولم ألبث أن دعوني لمقابلة «زيد» الشريف الصَّغير، فهرولت إلى السُّور لأرى مرور الجيوش التي اندحرت حديثاً. وقدرت هذا الجيش العامل بثمانمئة رجل. وكان سائراً صامتاً غير مبال بعار الهزيمة، حتى أن زيدا نفسه لم يتأثر من هذه الصَّدمة.

ولما دخل المدينة التفت إلى عبد القادر حاكم الموقع الرَّاكب على حصانه ورآه وصرخ قائلاً: «إنَّ مدينتكم خربة، وسأكلم أبي بالتليفون ليرسل إليكم أربعين بناءً ليجددوا المباني العامة». وسبق فعله قوله!...

أما أنا فقد أبرقت إلى الكابتن «يونغ» بأن «ينبع» مهددة حقاً. فأجابني حالاً بأن أسطوله يصل في ميعاده. رؤيا لذيذة وأمل يسكن الرُّوع.

وتوالت الأخبار الرديئة في الصَّباح عن حالة البلاد الدَّاخلية وقد اشتبك التُّرك بالعصابات التي نظمها «فيصل» عندما هاجموا بقوة متفوقة «نخل مبارك» من جهة «بئر سعيد» وكانت لم تزل تلك العصابات مترددة متقلقلة فلم تقو على الثبات. فترجع فيصل وصوب انسحابه إلى جهتنا. فخیل إليَّ بأن السَّتار سيرفع عن آخر فصل من مأساة العرب. فصعدت إلى أحد المرامي فوق باب المدينة وبيدي آلة تصوير «كوداك» (ويظهر أن لسور ينبع أبواباً بأسماء مختلفة) والتقطت صورة جميلة للأخوين عند دخولهما المدينة. وكان «عبد الله» يقود ما يقرب من ألفي رجل وما من أحد قط يرافقه من قبيلة جهينة. وهذا يدل ظاهرياً على أن في الأمر خيانة وخللاً بيناً وبين القبائل الرُّحَّل، أو تخمينات لا يمكن أن تكون غير معقولة! فأسرعت إلى فيصل فقص عليَّ الخبر كما جرى.. وهو أن التُّرك قد زحفوا بثلاث قوات، يمتطي عدد كبير منهم بغلاً وهجناً فاجتازوا وادي ينبع لأول هجمة واستولوا على الغابة الصَّغيرة التي إلى الورا فأصبحت مهددة بقطع مواصلاتها عن ينبع.

وكانت مدافعهم السَّبعة القوية تلقي من حين إلى آخر قنابلها بغزارة (على نخل مبارك) فلم تأخذ فيصل الرَّهبة، بل حافظ على رباطة جأشه.

وأرسل جهينة - ميسرة جيشه - لتصد الهجمة في الوادي الكبير. محتفظاً - بنخل - مركز القلب والميمنة والمدفعية المصرية، يقطع على التُّرك طريق يَبُح. ثم أمر بعد ذلك بإطلاق النَّار من مدفعية عيار 15!!..

وقد استعمل «راسم» السُّوري في المدفعية التُّركية سابقاً هذا السِّلَاح الضَّئيل بكل مهارة ووطننة. ورد على مدفعية الأتراك بحماس وبراعة رغماً من أن المدفعين كانا من السِّلَاح الذي لا قيمة له إلا عند العرب البسطاء كما كانوا يقولون على ضفاف النيل - ولم تكن لديه آلات الضُّبط ولا مقاييس الإبعاد والمرمى. وكانت تنقصه القنابل المتفجرة، والبعد بينه وبين العدو ستة آلاف متر، بينما كانت قذائف المنثار «شراپنل» هذه تفعل فعلها الحسن في حرب البوير. وكانت أملاح البارود تنش على ظهر الأنبوبة وتتحول لطخاً خضر. وكانت القنابل تنفجر في الجو وأحياناً عند خروجها من فوهة المدفع. ويظهر أن راسماً قد اعتقد بعدم إمكان نقل هذه الذخائر ساعة التراجع فأبأها ناراً حامية جهنمية كان يقذفها في وجه العدو البعيد ولا يتمالك عن الضَّحك الجنوني لهذه الحرب المبتكرة.

ولم يذهب ضحكة عبثاً، بل كان شعلة حماس دبَّت في قلوب العرب الذين حوله وهو يقول لهم: تالله! إنها لمدافع عظيمة... إنها تقصف كالرَّعد وأنها تحصد الأتراك الآن حصداً. فأخذتهم العزة وعادت إليهم الشَّجاعة فضاعفوا إطلاق النَّار على العدو!! وسارت المعركة سيراً حسناً حتى اعتقد «فيصل» بالتَّصر الحاسم. وإذا بالجنح الأيسر يتردد في الوادي ثم وقف فجأة وأدار ظهره للعدو ركضاً إلى المعسكر، وكان فيصل صامداً في القلب فأركض فرسه نحو «راسم» وصرخ به: أن أنقذ المدفعية! فقد تراجع بنو جهينة.!!

جزَّ «راسم» المدفعين الصَّامتين بهدوء وتبعه المتطوعون حديثاً جماعات جماعات. وأسرع معسكر الشَّريف إلى لَمَّ شعثه. وتبعه المتطوعون حديثاً جماعات جماعات. وأسرع معسكر الشَّريف إلى لَمَّ شعثه. وسارت الجموع على طريق يَبُح تاركين جهينة ورئيسهم «عبد الكريم» دليلى القديم أمام التُّرك في ساحة الوغى.

وبينما كنت أصغي كاسف البال حزناً لهذه النهاية المفجعة لاعتنا مع الشريف إخوان الصحراء أولئك البدو الذين خانوا قضيتهم المقدسة، سمعنا جلبة لدى الباب، وإذا بعبد الكريم يقذف بالعبيد الذين يحاولون منعه من الدّخول. ومثل أماننا وتقدم وسلم على الشريف لاثماً طرف ذيله وجلس إلى جانبه فأخذته الدهشة وقال له: ويحك!.. ماذا جرى..

فقصّ علينا «عبد الكريم» القصّة: وهو أن رجاله قد تولاهم الجزع واليأس عندما رأوا الشريف فيصل وأخاه ينهز مان فشدّد القتال هو وأخوه على رأس رجاله الشّجعان وقاوموا القوات التّركية طوال الليل وحدهم وبدون مدّعية. ولما أيقنوا أن لا سبيل إلى الاحتفاظ بغاب التّخيل أرغموا إلى الانسحاب، ودخل أخوه المدينة مع قسم من رجال قبيلته وتشت القسم الآخر على مرتفعات وادي ينبع يبحثون عن الماء ليطفئوا ظمأهم. فسأله فيصل: ولماذا تراجعتم وراءنا حتى بلغتكم المعسكر! فأجابه: إنا تراجعوا لنشرب فنجاناً من القهوة ليس إلّا؟... وقد كنا نحارب منذ الصّباح وكادت تغيب الشّمس، وكنا عطشى تعبين.

فاستلقينا على ظهورنا من الضّحك، ثم خرجنا لنرى وسيلة تمكننا من إنقاذ المدينة. إن ينبع بلدة قائمة على هضبة من الأرض المرجانية على علو عشرين قدماً فقط عن سطح البحر وهي محزومة من جهتين بالماء ومن جهتي البر بمنطقة من الرّمال على بعد أميال وأميل لا أثر للماء فيها، فمن الممكن أن تكون منيعة لا تؤخذ عنوة بفضل المدافع والرّشاشات.

وقد ابتدأت ترد إلينا المدفعية، وأنجز «بويل» ما وعد أكثر من كل مرة، فأرسل إلينا في أقل من أربع وعشرين ساعة خمسة مراكب.

وكان الكشف «م - 31» على أتم استعداد ليأخذ موقعاً في نهاية المدخل الجنوبي الشرقي للمرفأ بحيث تكون مدافعه التي هي من عيار 6 إنشات قادرة على كسح العدو في اتجاهه إلى ينبع، وكان الكابتن «كروكر» يلتهب حماساً كي يقذف قنابله. وتباعدت

المراكب الكبيرة في عرض البحر لتمكن من ضرب المدينة عند الضرورة بمدافعها البعيدة المدى، مع مراعاة إمكان تسليطها على العدو الرّاحف من جهة الصّحراء.

وكانت الأنوار الكشافات تفضح ما في السهول. فتشدد العرب لهذه القوات البحرية أمام ينبع وأظهروا استعدادهم لمشاركتنا في احتفال المساء. وأكدوا بأنه لم يبق للخوف أثر في قلوبهم. ولكي نزيد في تهديتهم ونتمكن من شجاعتهم رتبنا لهم مواقع وراء بعض الأسوار ليدافعوا عنها على طريقة الأجيال الوسطى. إلا أن بعض الجدران كانت قد تآكلت وتفتت فدعّمناها بجدران أخرى منفصلة عنها. وملأ الفراغ بالتراب ليقاوم قنابل التّرك. ونصبنا عليها شبكة من الأسلاك الشائكة، وحرصنا على صيانة الآبار المائية الكائنة خارج السور وحفرنا خنادق لإخفاء رجال الرّشاشات وثبتنا مدفعية الشّريف «فيصل».

ولم يكن المصريون أقلّ حظاً من إخوانهم العرب فقد عيّنا لهم مواقع حسنة فكانوا مسرورين شاكرين، وكان السردار قد أعارنا «غارلاند» من أركان الجيش ليقوم بمهمة المهندس والمستشار الفني.

وأُمسّت المدينة على اختلاج متواصل، بعد أن قضت التّهار في اللهو والسّرور وإطلاق العيارات النارية تهليلاً وجذلاً. وانسدل الليل وتحول الضّجيج إلى سكون. وكثيرون هم الذين أحيوا الليل إلى الصّباح إلا أنه في الساعة الحادية عشرة مساء نادى الحراس: المدد. وقد شاهدوا العدو على بعد ثلاثة أميال من ينبع، فطاف «غارلاند» الشّوارع مع مُنادٍ يدعو الجميع إلى تقلّد السّلاح فأسرع كل إلى موقفه المعين وتم الاستعداد على ظهر البواخر دون أقل حركة ولا إطلاق نار ولا ارتفاع صوت.

وبعض البحارة على المآذن يرسلون التعليمات إلى المراكب التي كانت كشّافاتها الكهربائية تملأ المهل بأنوارها وتحزم أشعتها وتزعمها على منطقة هجوم العدو المحتمل. وانتهى الأمر بعدم وجوب إطلاق النّار وفهمنا بعد ذلك بأن الأتراك قد تراجعوا أمام مشهد البواخر الفخم والأنوار المشعة والمدفعية الرّابضة الصّامتة كالصّياد في مكمنه وأيقنوا أن لا سبيل إلى اجتياز هذا المنحدر من السّهل العاري تحت أنوار هذه الكشافات السّاطعة فراجعوا.

فاعتقدت بعدئذٍ بأن الأتراك قد خسروا الحرب منذ تلك الليلة! ثم طلبت بعد ذلك ضيافة المركب «سوثا» *Suva* لأتخلص من الناس وأتمكن من التمتع براحة نافعة لصحتي شاكراً للعدو تعقله، ولقد كنا انتصرنا نصراً مبيناً لو أظهر عناداً وحرداً، ولكني ربما كنت أضحي أكثر من هذا الفخر لأجل نومي الثماني ساعات المتواصلة.



الفصل الخامس

فيصل يتقدم نحو الشمال

وجاء ويلسون نفسه إلى ينبع ليقنعنا بضرورة التآهب السريع لاحتلال «الوجه» أول ميناء بحري على الشواطئ العربية شمال ينبع حيث كان الأتراك يهددون مؤخرة «فيصل» ويكفي بأن تظهر فجأة أمام هذا الموقع لنضمن التّجّاح لحركاتنا.

وكان الشريف جلدلاً لا يوهن عزمه التّعب، ذا نفس وثابة، يقدم كل قوته لكل عمل يقتنع بفائدته، فقرّر السفر في الحال وقضينا نحن الاثنين يوم رأس السّنة ندرس في نتائج هذا الهجوم قبلنا وقبل الأتراك.

وأقر «فيصل» الرّأي بأن نصحب معنا متطوعي جهينة وننتقي عدداً من رجال قبائل: بليّ، وعتيبة، وعقيل، لنظهر للنّاس بأن هذا الهجوم كان بموافقة أكثر القبائل، وصممنا على أن يتجاوب صدى هذا الزّحف إلى الشّمال في جميع أنحاء جزيرة العرب الغربية، وأن تكون خاتمة الحرب في الحجاز الشّمالي. وقد شعر «فيصل» بشيء من القلق لتركه ينبع ثاني مرافئ الحجاز والتي كان يعتبرها حتى هذا اليوم كقاعدة لا غنى عنها...

وحاول أن يجد حيلة يتمكن بها من دفع التّرك عن المدينة إذا أعادوا الكرة عليها، فتذكرنا بأن سيدي «عبد الله» قد جمع خمسة آلاف رجل غير نظاميين مسلحين ببعض المدافع والرّشاشات.

وقرّر فيصل بأن يسير على وادي العيس المشهور بينابيعه وهو على بعد مئة كيلو

متر شمال المدينة المنورة حيث تكون عصاباته خطراً مباشراً على مواصلات التُّرك الحديدية مع دمشق.

وكانت الفكرة جيدة فحملها «رجى الخلوي» حالاً إلى «عبد الله» وجدّ بالمسير ليصل إليه بأقرب ما يمكن من الوقت، وقد كنا على يقين من موافقته عليها بحيث أننا ألحفنا على «فيصل» بأن يخرج من وادي ينبُع ويقطع المرحلة الأولى دفعة واحدة فيبلغ الطريق المؤدية إلى الوجه دون أن ينتظر رداً من أخيه.

وكان «عبد الله» عند ظننا فأقرّ المشروع في 3 يناير سنة 1917 وتوغلنا في وادي مساريح، ثم خرجنا إلى الفضاء لنسير على طريق المرتفعات إلى عويس مجموع آبار تبعد خمسة عشر ميلاً عن شمال ينبُع، وكانت الجبال في ذلك اليوم أبهج ما تكون من الرّوعة والجمال، وقد انتعش التّبت واخضوضر الزّرع وانقلب الشّتاء ربيعاً بعد هطل الأمطار في شهر ديسمبر، وبزوغ الشّمس الحامية على الطّبيعة، واكتست الأودية وشعب الجبال وشقوق الصّخور ثوباً سندسياً زبرجدياً من العشب الأخضر ذي الورق الأسيل ترتع فيه إبلنا وترعى أطرافه المنتصبّة النّدية.

وقد اتفقنا على أن تسير وراءنا قبيلة عقيل فقط، وتصطف باقي الوحدات خطأ واحداً على الطّريق، ويقف كل رجل جنب مطيته الباركة وعند مرور «فيصل» يحيّونه فيجيبهم (السّلام عليكم) لمشايخ الواحد تلو الآخر البركة نفسها. ولما انتهينا من هذا العرض تحرّك الجيش للمسير كل فرقة مع رئيسها، وأخذ بشعب الجبال كالثّعابين تتلوى على الصّفاة الملساء إلى أن بلغنا القمم. وكنا إذا تلفتنا يقصر البصر عن بلوغ نهاية خط جيوشنا الميادة كحقول السّنبل لاعبها التّسيم. وعقب السّلام العسكري صمت عام إلى أن بلغنا أول قمّة، فرأينا من ورائها انفراج الوادي وانبساطه على سهل منشور بالحصى والصّخور التّائهة المرشوشة بالرّمال وظهر في تلك السّاعة ابن دخيل مع رجاله - ابن دخيل شيخ «الرّس» ذلك الرّعيم الذي حرّك بني عقيل لمصلحة التُّرك، ثم أعادهم تحت لواء «فيصل» عندما أعلن العصيان - ظهر ابن دخيل وتراجع بضع خطوات وبعد أن صف رجاله الحسنى التنظيم خطأ مستقيماً أمر بقرع الطّبول.

فتصاعدت الأصوات إلى عنان الجو تنشد نشيد الأمير «فيصل» وآل بيته.

وسار الجميع إلى الأمام بمشهد يخلب الألباب، يتقدمهم «فيصل» مجللاً بالبياض وشرف عن يمينه، وكانت غندورته (درّاعته) وعباءته مصبوغتين بالحناء، وحول كوفيته عقاب من الصّوف الأحمر. أما أنا فكانت متأخراً قليلاً عن شمال الشريف مرتدياً ثياباً بيضاء وحمراً قرمزية معجباً بشبابي وبهذا الجيش الفخم. من ورائي حملة الأعلام الحريرية القرمزية وقد انطفأت ألوانها تحت أشعة الشّمس المحرقة وبفعل الزّمن، وعلى رؤوس عصيها تتلألأ الحراب الذهبية، والطّبول من ورائها تقرع وتوقع على نشيد الحرب، ثم ازدحم حرس الشريف أي رجال معسكره وهم على قلائصهم الجميلة وعدده ألف ومئتي رجل، واختلط الحابل بالنابل وتمازجت ألوان الحرس السّاطعة من ثياب مزركشة معصفرة، وسروج مفضضة مذهبة، فزحنا الوادي بهذا الجيش الغريب فغصّ بنا.

كان يخشى أن تسقط ينبع في يد الأتراك ونحن نجد السّرى إلى الوجه ولهذا السّبب كان من حسن التدبير أن نخليها من جميع المؤن والذّخائر.

وقد قدم لي «بويل» وسائل التّفريغ بأن وضع مركبه «هاردينج» *Hardinge* تحت تصرّفني لهذا الغرض، وكان سطح المركب السّفلي يفتح بأبواب واسعة مربعة فوق خط العوم، ففتحها الكابتن «لينبري» *Linberry* كلها فكوّنا ثمانية آلاف بندقية وثلاثة ملايين رصاصة، وألوفاً من القنابل، وكمية كبيرة من الأرز والطّحين وكمية كبيرة من الثّياب العسكرية، وبراميل من المفرقات الشّديدة الانفجار، وكل ذخيرتنا من الرّيوت.

وهكذا في وقت قصير حمّلنا «هاردينج» ألوفاً من أطنان الذّخائر. ووعدني «بويل» بأن هذه الشّاحنة ستكون بصفة مستودع ذخائر تتحرّك وتقف لدى إشارتك وتموينكم أينما كنتم وعلى قدر احتياجكم. فحلّت المعضلة التي كانت تعرقل غزوتنا.

وشرعت البحرية توحد نقط ارتكازها فتحوّل نصف أسطول البحر الأحمر إلى مياه

يثبع. وكانوا وهم بانتظار قدوم الأميرال يروضون البحارة على طريقة التفريغ السريع، ويطلقون العيارات الثارية ويشحذون الحراب.

وكنت أنعم بآمالي وأعتقد بأن هذه الاستعدادات القاسية لا غرض لها في المستقبل ولن تقع موقعة ما. وقد جهّز فيصل عشرة آلاف رجل وقسمها إلى عصابات تغزو بلاد بليّ وتسلب كل ما يستطيع حمله ويقل عطبه، ولم يبق شك لدينا بالاستيلاء على الوجه وكل ما كنا نمنّاه أن لا يفقد فيصل كثيراً من رجاله عطشاً أو جوعاً. وكانت لحسن الحظ بلاد أملج غير معادية لنا، وهي واقعة في منتصف الطريق بين يثبع، وغرضنا ألا يعترض مرحلتنا الأولى حادث مكدّر. ولهذا السبب قرّر فيصل السير في اليوم الذي وافق فيه عبد الله على مشروع غزوتنا.

وقد علمت في اليوم نفسه بأني عما قريب سأكون حراً طليقاً، فقد نزل «نيوكومب» على أرض مصر مرسلًا إلى الحجاز رئيساً للبعثة العسكرية فيه. وهو كولونيل في الجيش النظامي، وقد تقدمه مساعداه الضابطان «كوكس» و«فيكري» وهما يطوفان البحر الأحمر ليلحقا بنا.

وأوصلني بويل إلى أملج على ظهر «سوفا» Suva ولما بلغا المرفأ نزلنا إلى البر نستطلع الأخبار، فأخبرنا الشيخ بأن فيصل وصل هذا التّهار إلى بئر الوهيدة - مسافي المياه - على أربعة أميال من أملج داخل الصّحراء. فبعثنا إليه رسولاً، ثم سافرنا لنشاهد قلعة صغيرة كان قد ضربها بويل بقنابله منذ عدة أشهر. ولما وقفنا إليها ألفينا ثكنة مزرية فقال لي بويل: «إني لأحمّر خجلاً لضياح ذخيرتي في هذا الوكر الحقير».

بويل هذا كان ضابطاً في البحرية خبيراً في مهنته مطلعاً على دقائقها حتى أصبح أسيراً لها، ولهذا السبب كان صعباً قاسياً مع الأشخاص الذين هم أقل منه دقة وأكثر توسعاً في قانون المهنة. وعلى كل حال فالرجال الشّقر لا ينجحون متى وجب الصّبر. وكان «جنجر بويل» كما كانوا يسمونه رجلاً مسيراً لا مخيراً.

وبينما نحن نشاهد خرائب القلعة تقدم إلينا أربعة رجال من القرية عليهم أسمال

رثة وطلبوا مقابلتنا وقالوا لنا إن مركباً حربياً بمدختين دنا من الشاطئ وخرّب القلعة بمدافعه منذ شهرين ويطلبون منا الآن أن نعيد بناءها لتكون مركزاً للحكومة العربية، فهل لنا أن نطلب من كرم ريان هذه السفينة ذات المدخنة الواحدة! بعض أخشاب ومعدات نتمكن بها من إعادة بناء هذه الخربة.

فلم يصبر بويل على هذا الحديث الغريب وسألني: ماذا يريدون منا؟ فقلت له لا شيء سوى أنهم يصفون فعل مدافع المركب «فوكس» فألقى بويل نظرة إليهم ودار على ذاته وضحك ضحكة رديئة وقال: «إنها لخربة كدرة حقاً».

ووصل «فيكري» في اليوم التالي وكان يفهم اللغة العربية الفصحى واللغة العامية فهماً جيداً، وقد تعلمهما وهو في السودان مدة عشر سنوات في فرقة المدفعية فأغنانا عن ترجمان، فاتفقنا على أن نزور معسكر فيصل حتى نضع خطة حركاتنا، وبعد الإفطار قمنا إلى العمل عرباً وإنكليزاً ندرس الخطة الوحيدة التي تبلغنا الوجه.

لقد قرّرنا أن نقسم الجيش إلى مفارز مختلفة تكون نقطة ارتكازها كلها القلب الذي نشغله نحن وهو «أبو زريبات» في «وادي الحمض» وبعد ذلك لا ماء في طريقنا حتى الوجه. أما بويل فقد رضي بأن ترسو «هاردينج» *Hardinge* ليلة واحدة أمام «شرم حبان»، لعله إذا أمكنه الدنو من الشاطئ أن يفرغ لنا عشرين طناً من الماء! وعرضنا على بويل أن نضع تحت تصرفه بضع مئات من رجال قبيلتي حرب وجهينة الاحتياطي ينزلون عند الهجوم على الوجه مفرزة من البحارة في الجهة الشمالية العاطلة من كل موقع للدفاع ويمكنهم من الدوران حولها حتى المرفأ.

وجّهز بويل ستة مراكب وخمسين مدفعاً وطيارة مائية لتنظيم إطلاق النار كي يشغل الترك عن تقدمنا، ونكون نحن في 20 من هذا الشهر في «أبو زريبات» وفي 22 منه في «حبان» حتى نحصل على كمية من الماء عن ظهر «هاردينج» وننزل المفرزة من البحر في 23 منه عند الفجر بينما يكون رجالنا قد قبضوا على نواصي الطرق التي سيحاول منها العدو الارتداد.

وكانت أخبار رابغ طيبة، ولم يجسر الأتراك على مهاجمة ينبع العاطلة من كل دفاع، وهذه هي مخاطراتنا! إلا أن الأخبار كانت ترد إلينا من كل جهة تثبت شجاعة الجيش وثقتنا به، وكان «عبد الله» قد بلغ وادي «عيص» ووصل في منتصف الطريق إلى الوجه، وعليه فيكون قد تحوّل أمر الحركات الحربية إلى يد العرب، وفي ساعة اغتباط وسرور فقدت فيها رزائتي صرخت صرخة الفوز من الآن إلى سنة نكون على أبواب الشام، فألقت كلمتي هذه في خيمة العرب شيئاً من الشك فتبدد حلمي سريعاً، إلا أنّها لم تكن أحلاماً فقد بلغنا دمشق بعد خمسة أشهر من هذا التاريخ وفي نهاية السنة كنت فيها حاكماً حقاً.

وكان عدد الجيش في بئر الوهيدة 5100 فارس، و 5300 راجل مسلحين بأربعة مدافع كروب جبلية، وعشرة رشاشات تموّنهم حمولة 380 جملاً، وتقرّر السفر يوم 18 يناير بعد الظّهر تماماً لأن فيصلاً أنهى عمله ساعة الإفطار؛ وأمر بالسير حالاً فتقدمنا إلى مطايانا التي أُنِخت على شكل دائرة، وهي مسرّجة محملة والعبيد يدوسون على سيقانها المطوية ليمنعوها من الحراك إلا في الميعاد ودفعة واحدة، ثم قرع الطبل خمس مرات على رأس الجيش بجانب ابن دخيل، ودخل الجيش في الصّمت العميق.

فلم تفارق أنظارنا فيصلاً. فقد نهض عن سجادته، وقال آخر كلمة إلى عبد الكريم، وأمسك بحنو السّرج بكفيه وألقى ركبته على عنق قلوّصه وصرخ: «فلنتوكّل على الله»، ثم رفع رجله الثانية وأدخلها في الرّكاب بخفة ومهارة، وأدخل فضل ثوبه تحته واستوى على السّرج، فتحرّكنا وتحركت الجموع واستووا على ظهور مطاياهم بقفزة واحدة إلا بعض الجمال الحرجة التي خالفت شيم النّوق العريقة المدربة، وسارت بنا سراعاً ونحن نثبت على مؤخر أعناقها، نقودها، ونقومها بإرسانها لتسدّد خطاها إلى الأمام، وضغطنا على بطونها بأقدامنا العارية وربّتنا على صفحات أعناقها لتميلها إلى جهة الشّريف فيصل.

وكان ابن دخيل قد درس طبيعة البلاد فتقدم الرّكب، وأمر بأن يجانب بنو عجيل جناحيننا ويحموهم، ثم قرع الطبل ثانية، إيذاناً بمتابعة السّير، وتغنّى شاعر الجناح

الأيسر بأشعار يمدح فيها الشريف ويتهلل بما سيمنحه فيصل للجيش من السلب
والمسرات في الوجه، والجناح الأيمن يصغي إليه باحترام، ثم أعادها مراراً إلى
الجموع التي حوله بنغمة الافتخار والثقة بالنفس وبنوع آخر من السخرية، ثم تغنى
الشاعر بقصيدة ثانية على الوزن والقافية والزوي لكنها فاقت الأولى بالشعور والتغم،
وصفّق الجناح الأيسر صارخاً صرخة الظفر، وقرعت الطبول ونشرت الرايات العظيمة
ذات اللون الأحمر القرمزي، وغنى الحرس بأجمعه عن اليمين وعن الشمال أناشيد
الجيش المثيرة للعواطف والشجاعة.

فتذكرت أنشودة قديمة عن أحد الأبطال إذ يقول: لقد خسرت بريطانيا، وخسرت
الغول، وخسرت روما، والأدهى من ذا وذا أنني خسرت زوجتي لالاج!

أما العرب ف«تجد» هي التي خسروها وكذلك خسروا نساء «معابده»، والآن وقد
خانهم الحظ وتحول مستقبلهم عن جدة، ففي السويس يجب أن يفتشوا عليه، ومع
ذلك لم تخل أغانيهم من نبرات وأنغام يحلو للثّياق أن تسير عليها بنشاط وارتياح،
فتشرأب بأعناقها وتسحب رؤوسها وتباعد خطاها كأنها في رؤى من الأحلام العذبة
على أهازيج راكبيها.

كان ذلك اليوم جميلاً والطريق سهلاً والحملة تسير على منحرجات من الرمال الثابتة
تموج بين الكثبان اللينة الطويلة جرداء لا أثر للنبت عليها، غير القليل من العوسج في
بعض المنحدرات وأشجار نخل نادرة عقيمة في بعض الأماكن الواطئة الرطبة، ثم لا تلبث
الأرض أن تنبسط، وظهر أمامنا فارسان يركضان هجينيهما للسلام على فيصل وقد عرفت
الأول منهما، ذلك الشيخ الخبيث محمد علي البديوي ذي العينين الغائرتين أمير جهينة،
أما الثاني فقد كانت ملامحه غريبة عني ولما تبينه وجدته بالثوب الكاكي ملتفاً بعباءة عربية
وعلى كوفيته الرديئة الوضع عقاب من الحرير. ولما رفع بصره رأيت أمامي وجه «نيو
كومب» القاني وقد سلخ جلده هواء الصحراء ولما علم بسفرنا وهو في أملج هذا الصباح
أسرع إلى فرس الشيخ يوسف وأطلق لها العنان للحاق بنا.

فقدّمت له مطية ثانية ليصل إلى فيصل ويسلم عليه سلام رفيق مدرسة قديم فباشر

عند وصوله حالاً في الحالة واستعرض معه بعض الخطط وقلباها من جميع الوجوه ولكن بسرعة جنونية.

ومتى ابتدأ «نيو كومب» فلا ينتهي ومتى مشى نسي التوقف، وأثار فينا الهواء الناعم واستعداد الجيش وتأهبه، والحماس والأمل، فلم نكن نخشى ريب المستقبل.

وكنا نسير على توقيت بسيط جداً، وهذا التوقيت مرسوم في مخيلة بعض بني جهينة، فكان نصف النهار عندهم هو وحدة الوقت الصّغرى، أما وحدة الأبعاد فهي المرحلة وهذه المرحلة هي مسافة سير ست ساعات أو ستة عشرة ساعة حسب رغبة المسافر وحالة الجمل. وكان اتصال الوحدات بعضها ببعض من الصّعوبة بمكان. لقلة الرّجال الذين يقرأون ويكتبون وأثّرت في معنوية هذه الغزوة عوامل كثيرة كالتأخير عن الميعاد وفقد النظام ونقص المؤن والماء. وكان من الممكن اجتناب هذه التّقائص والاحتياط لها، لو كان لنا متسع من الوقت للتعرف على الطّريق، فقد حرمت المطايا الطّعام مدة ثلاثة أيام واكتفى الرّجال بغالون من الماء لكل رأس وبدون أي غذاء!! لكي يقطعوا الخمسين ميلاً الأخيرة!.

إلا أنّ هذا الحرمان لم يغيّر من وقفة الجيش فقد دخل الوجه خيباً مبتهجاً ناشداً الأناشيد بصوت أبج!! لاعباً مازحاً على ظهر هجنة ولم يخف عني فيصل ما اعتوره من الوسوس فقد قال لي:

-إن يوماً آخر مثل هذا الحرّ والعطش كان يمكنه أن يهد قوى الرّجال ويثبّط عزيمتهم ويشكل حركة السير.

ولما انتهينا من العمل أسرع مع «نيو كومب» إلى خيمة أنعم بها علينا الشّريف وهي علامة تكريم خصوصي واسترحنا.

والحق يقال إن مسألة التموين كانت أعقد من ذنب الضّب، ولقد تنازلنا نحن الأغنياء عن لذيذ مآكلنا وعزّة مقامنا وعشنا كأولئك الرّجال الذين لم يتمكنوا من حمل كل ما هو غير ضروري.

وإلى ذلك اليوم لم تكن لي خيمة خاصة! فضربنا طنابها على شفا منحدر من الأرض تحت الآكام في منبسط مستدير على قدر مساحة الخيمة تماماً بحيث أن الانحدار يتدئ عند الأوتاد، وعند وصولنا وجدنا «عبد الكريم» الشريف البديوي الشاب في انتظارنا ملتفاً ببرنسه وقماش عمامته الشّف ينسدل على عينيه، وكانت السماء تكاد تمطر. وطلب منا بغلة مسرجة لأن منظر مشاتنا بشبابهم الخفيفة وسيقانهم المتمزلة وحيواناتنا العُبلّة الجميلة النظيفة أسالت لعبه وألهبت شهوته فشئت أن أتعم بهذه الشّهوة وأن أداعب صاحبها، فباعده عن طلبه إلى أجل آخر بشرط أن نكون قد انتهينا من الوجه على سلام. وتنفسنا بعد خروجه ورقدنا إلا أنه نظر إلى الوادي من ذلك المرتفع فرأى ألوف المواقد تضطرم فيها نار الجيش المتفرقة في كل ناحية فدعاني لأرى هذا المشهد، ثم نظر حول الأفق وقال بحزن: «لم نعد قط عرباً بل أصبحنا شعباً». ولم ينقطع رذاذ المطر الليل بطوله وشطراً من النهار فملأت هذه النعمة الغير منتظرة قلوبنا فرحاً فضلاً عن أننا كنا في قرية «سمنة» وتحت خيامنا على أتم هناء بحيث إن أخرنا سيرنا إلى منتصف النهار وقد ظهرت الشمس تلمع من وراء السحاب. وسلكنا جهة الغرب تحت سماء صافية جميلة، ومشى وراءنا بنو عقيل يتبعهم «عبد الكريم» وهو يقود رجاله Gufa، ووراء الجميع حوالي السبعمئة فارس وأكثر من هذا العدد مشاة، والجميع بيض الثياب يغطون رؤوسهم بشيلان القطن العظيمة المعلمة بالأحمر والأسود، ولافتقارهم إلى الأعلام كانوا يلوحون بسعف النخيل الطويلة.

وإلى جانبهم الشريف «محمد علي أبو شرّين» على سرجه وهو شيخ جليل ذو لحية كثة بيضاء تفرض صدره، منتصب القامة، ثابت على متن مطيته كأنه جذع نخلة، وفرسانه الثلاثمئة جميعهم من الأشراف من بيت العياشي المشهور في جهينة، وإن يكن نسبهم غير معترف به رسمياً بين الأنساب الشريفة، لظهورهم فجأة في هذا الملعب، وكانوا يلبسون الغندورة «الدّراعة» تحت برانسهم السود ويتقلدون السيوف. وكل فارس يردف عبده على مؤخر مطيته ليعاونه وقت القتال بالبندقية والخنجر. وليهتم بالمطايا وتجهيز الطعام في المضارب. ونظراً لفقر السواد الأكبر من أسيادهم

فهم يرتدون ثياباً شبارق من تحتها سيقان سود كالعصي، تضغط كأنها ملازم على بطون الجمال الناعمة المخملية، لتتمسك دائماً أبداً بتوازنها خوفاً من ضياعه في الزحام والسير السريع، ويشدون أوساطهم بالحبال المجدولة على قمصانهم المهلهلة ليكسبوا قوة ورشاقة.

ولمياه «سمنة» خاصة طبية عظيمة لأن المغنيزيا أثرت تأثيراً شديداً على الهضم عند الجمال. وكان يتمايل في الهواء خلف الأشراف علم رجال قبيلة «رفاع» آخر أنصارنا في القبائل يقودهم «عودة بن زويد» القرصان القديم الذي سلب بعثة «شتوتزينغن» Stotzingen الألمانية وألقى في مياه ينبع آلتها اللاسلكية وخدامها الهنود. من المعروف أن أسماك القرش لا تبقي على الإنسان لكنها على الأقل لا تتلعب الآلات، ومع ذلك جُسن البحر طويلاً وعرضاً وساعات عديدة فلم نوفق إلى صيد هذه الآلة، وكان «عودة» يرتدي عباءة فضفاضة ثمينة مبطنة بفراء كان قد سرقها من ضابط ألماني. عباءة ما خيطة قط لتلبس في مثل هذه البلاد العربية الحامية، إلا أنها كانت من معروضات السلب وغنيمة من أجمل الغنائم، وكانت هذه المفزعة مؤلفة من ألف رجل، ثلاثة أرباعهم مشاة، بجانبهم «راسم» رئيس المدفعية مع أربعة مدافع كروپ Krupp، محمولة على البغال جاءتنا من الجيش المصري.

واتفق أن أحد الرجال قد اصطاد أرنباً بطلق ناري وهو على السرج فمنع فيصل هذا النوع من الصيد منعاً باتاً، كي لا تبدد الذخيرة على غير طائل. ويمكن اصطيد الأرانب التي تعترض أخفاف الجمال بالهراوة فكانت فرصة ضحك وتسليه، وقد اصطاد الجيش كثيراً من هذا الحيوان فاغتنب الشريف لازدياد المؤونة باللحوم، إلا أنه أظهر اشمئزاً من رجال جهينة الذين كانوا يترაკضون بنهم معيب وراء الضبية والعظايا.

وتوغلنا في سهل رملي نبت عليه كثير من شجيرات شائكة عطرية إلى أن دنونا من الشاطئ، فأنحنينا نحو الشمال لناخذ طريقاً واسعاً ملتدداً كان يسلكه حجاج مصر، ويتسع لأربعين أو خمسين فارساً مجانية، وكانت سلسلة من سيول الحمم البركانية تنتهي إلى السهل على مسافة أربعة أو خمسة أميال، وتتجمع كومة من الصخور البركانية.

وكان الطريق يخترق هذا المجرى البركاني محاذياً منخفضات تحولت وعثاً واضحاً لا تنعكس عليها أشعة الشمس المائلة إلى المغيب. وبلغ الجيش المكان المعد لنزوله فترجلنا وتمطينا، وقد خدرت أعضائنا لطول ركوبنا، ثم تسابقنا إلى البحر نرتمي فيه جماعات جماعات بشغف لا مزيد عليه، فكانت تريك تلك الأجسام اللاعبة العائمة الصاخبة العارية كالأسماك، مثلاً لجميع الألوان التي يصطبغ بها جلد البشر.

وكنّا في انتظار العشاء بفارغ الصبر، وقد اصطاد أحد العربان غزالاً «لفيصل» فكان لحم هذا الحيوان الصّحراوي مشحماً شهياً رغماً من ضالة المرعى وقلة الماء.

وكان سيرنا في اليوم الثاني سهلاً لجودة الهواء يتقدم الجيش حثيثاً متجمعاً إلى بعضه. وكنّا نحن الإنكليز ننصب خيمتنا منفردين في نهاية كل مرحلة. ومن أقسى ما يلاقه الإنسان في الصّحراء هو أن يرغم على أن يعيش برفقة غيره فيسمع كل ما يقال ويرى كل ما يحدث. وكان انقطاعي مع نيو كومب ألف مرة مريحاً عن الحياة المشتركة دون انقطاع.

وكان العمل لا يتحمل انفصال الرئيس من الرؤوس، لأن عادات العرب التقليدية فضلاً عن الطّبيعية أن لا يوجد فارق بينهما إلا بالسلطة التي أعطيت للشّيوخ على قدر استحقاقه، وقد صرّح لي العرب بأنه لا يمكن لرئيس أن يحكمهم إذا لم يؤاكلهم ويلبس لباسهم ويعيش عيشة رجالهم، ومع ذلك يشعرهم بأنهم هم دونه وهو فوقهم منزلة.

جاهدنا منذ الصّباح كي نتقدم إلى (أبوزريبات) على طريق محصوبة، وتوقف فيصل لئيبه الجيش إلى إنحدار شديد سيصلون إليه. وكان أن أبصرنا بعد الظّهر طريقاً عميقاً بعد أن جزنا منطقة من الحجر المرمر وكان ذلك الطريق يهبط من الجبال إلى وادي الحَمْض، وقد ملّت أبصارنا من وحدة المناظر السّاذجة فوقفنا مبهورتين وشعرنا بأننا قد دخلنا في مناطق الأحلام وصعدنا إلى منازل الرّؤى أمام عظمة فن الطّبيعة في قاع ذلك النّهر العميق الجاف، الذي كان يجري قديماً أطول من دجلة في وادي العربية العظيم و«داوتي» هو أول من تكلم عن هذا الوادي لكنه إلى الآن لا يزال مجهولاً غير مطروق.

وألهبتنا الرّغبة لمعرفة ما ينتظرنا فتر حلقنا على المنحدر المحسوب الذي تتخلله بقع من العشب. وفي الساعة الثالثة دخلنا قاع الوادي الذي ينفرج عن ألف متر عرضاً، تتخلله غياض ملتفة الشّوك ومن ورائها الكثبان الصّغيرة المستطيلة التي تتخلل رمالها أرض منبسطة أفقية من الصّلصال الجاف المفلّق وهي في حالة الطّمي شاهد آخر على علو فيضان الماء فكانت مطايانا تتقدم بحذر وصعوبة تسحق الطّين فيتكسر تحت أخفافها تكسر الخبز الجاف بين أيدينا، وتغوص إلى أرساغها فيتصاعد غبار كثيف وينعقد في الجو، ومن وراء هذا وذاك تصد الشّمس وتجلو عن إشعاع يبهّر النّظر، فشق السّير على الرّجال من الوهج، وتقاربت الكثبان وتكاثرت وانقطع طريق الوادي إلى تيه من القيعان القانونية القليلة العمق المنحوتة على مر السّنين بالفيضانات الضّئيلة، وخرجنا منه إلى غياض تكوّمت أشواكها على بعضها، وغطّت وجه الرّمال وتشابكت الأغصان اليابسة المكسرة، نمرّ عليها فتظللنا بغبارها وتسمعنا أصوات تكسير عظام.

وزمنا مقاود مطايانا المزخرفة كي نتقي تشابكها بالعليق وتزملنا بعباءاتنا المنفوخة وحسّرنا رؤوسنا كي نصون عيوننا، وانخرطنا كالزّوبعة في أجمة من مشذب القصب، فقطع الغبار أنفاسنا وهدرت جمالنا لتكسر الأغصان تحت أقدامها والرّجال منهم من يضحك ومنهم من يصرخ إلى أن اجتزنا المنطقة سالمين جذلين.

وقبل أن نصل إلى الشّاطئ الأيمن البعيد من النّهر، التقينا بالأغوار الفخارية حيث تركد المياه السّوداء في مستنقع يبلغ الباع عمقاً والثّمانين طولاً والخمسة عشر عرضاً. وهي نقطة مياه (أبوزريبات) نهاية مرحلة اليوم. وخرجنا من غياض القصب والأشواك إلى الرّملة المكشوفة حيث عسكر فيصل، فترجلنا وحلّ العبيد السّروج ونصبوا الخيام.

وتزاحمت البغال العطاش حول تلك البحيرة واختلطت بالمشاة، فخاضوا ذلك الماء الآسن وخضخضوه بأقدامهم، وكان الوقود كثيراً وهو اللّذة العظمى في هذه البلاد، فأوقدوا النّار جماعات على طول ذلك المعسكر وأضرموها سعيراً لكثرة الحطب لديهم، وللضباب الكثيف الرّطب المتصاعد من الأرض على علو خمس أقدام حتى جلدت عباءاتنا تحت هذا البخار الصّاقع. وكان الليل مظلماً غاب عنه

القمر، والتجوم في سماواتها تتلألاً نوراً فوق مناكب الضباب، ومن فوق أكمة ترى بحراً من الغيوم ملبداً يتموج في الفضاء ويكلل زبد أمواجه الساجية رؤوس خيامنا. ودخان المواقد يتصاعد ويدور على ذاته، ثم يتضاءل ثم يلمع بنوره في الفضاء كلما أضرّمها الجنود، وتمايل إذ ذاك الشيخ العجوز وديع بن زويد عجباً لهذا المنظر الذي أثر في نفسي حقاً وقال:

«ما هذا جيشاً إن هو إلا دنيا زاحفة على الوجه»، فسررت لهذا القول المقنع. أو ليس لنقرب العرب بعضهم إلى بعض، ونخلق فيهم شعور الألفة والتعاون قد زحمتنا أنفسنا وزحمتنا الجيش - في هذا السفر الشاق المضني بجمهور ممن لا نفع لهم!.

وفي تلك اللحظة ظهر الشريف ناصر فجأة قادماً من نواحي المدينة ودخل على فيصل من غير كلفة ولا استعداد، فنهض فيصل بلهفة وعانقه وقدمه لنا فأحسنا عند رؤيته لأول مرة بشعور طيب، لأننا كنا سمعنا عن أخباره وعلقنا عليه آمالاً كبيرة، لقد كان الشريف ناصر في مقدمة جيش فيصل وكان ممهداً السبل للجنود، وكان الرجل الذي أطلق أول رصاصة في المسلمية وراء حلب في اليوم الذي ألقى الترك سلاحهم وطلبوا الهدنة، ومنذ إعلان الحرب على إعلان السلام هو ناصر نقي الصفحة ناصع الجبين.

ورغم ولعه بالعيشة الهادئة الرضية وولعه بحدائقه فقد أرغم على خوض غمرات الحرب منذ حدوثه. كان في ذلك الوقت يبلغ السابعة والعشرين من سني حياته، له جبهة عريضة تحتها عيان جذابتان كبيرتان ولحية سوداء حسنة التشذيب وذقن مستدقة.

وتناولنا عند الصباح غذاءً دسماً طيباً فسرت فينا الهمة والنشاط وتهيأنا للمداولة الطويلة، وكان النصيب الأكبر من هذا الحمل مثقلاً منكبي فيصل، وكان يعاونه بمشوراته ابن عمه ناصر القائد الثاني للجيش. والأخوان يداوى إلى جانبه يشاركانه في مهمته. وكان اليوم جميلاً دافئاً فتزهدت مع نيو كومب على حافة البحيرة حيث لا ينقطع رواح ومجيء الرجال والبهائم.

قد تأخرنا يومين عن موعدنا مع رجال البحرية، فقرّر نيو كومب السّفر إلى الأمام في هذا الليل ليصل إلى (حَبَّان) فيلتقي «بويل» ويفهمه بأننا ستأخر عن ملتقى (هاردينج) Hardinge وأننا سنكون سعداء إذا عاد إلينا هذا المركب في ليل 24 يناير، فنكون عندئذٍ في أشد الاحتياج إلى الماء الذي يخزنه في جوفه. وليرى «بويل» كذلك إذا كان من الممكن تأجيل الهجوم البحري إلى 25 منه، ليتفق مع هجومنا البري في هذا التاريخ.

وابتدأنا السّير عند بزوغ الفجر في (وادي الحَمْض) ثم تركنا الوادي المنعرج إلى الشّمال ودخلنا أرضاً قفراء، وكان الجو بارداً ورياح شمالية قارصة تسحب أذيالها على تلك الأرض المنبسطة ثم تصفعنا بسمومها.

وما لبثنا أن سمعنا دمدمة متقطعة جهة الوجه، فخشينا أن يكون قد نفذ صبر رجال البحرية وابتدأوا بالضرب قبل وصولنا، ومع ذلك فلم يكن ممكناً تعويض الأيام فقدناها، وتابع الجيش سيره الممل من مصبّ إلى مصبّ في (وادي الحَمْض) يدخل من قاع إلى قاع كأنها خطوط الكف، بين الصّخور والمعابر الجافة، ثم خرجنا من هذا الوادي ثم عدنا إليه عند «قرنة»، وقرّرنا المبيت على ذلك الصّلصال الموحد في قاع الوادي.

وحدثت مشاجرة عكّرت صفو المعسكر، وهو أن بعض الجمال كانت ترعى فهاجمها بعض رجالنا من مشاغبي جهينة واستولوا عليها و جاؤوا بها إلى المعسكر، فاستشاط «فيصل» غضباً وأمر بإطلاق سراحها. إلّا أنّ الرّجال كانوا بحالة ثوران فلم يصغوا إلى أوامره. فتناول بندقيته أسرع من البرق الخاطف وأطلقها على أقربهم إليه فسقط عن سرجه مذعوراً وصعق الآخرون، ثم دعاهم إليه وساط المحركين لهذا الأمر المنكر بلا شفقة، وحجز الجمال المنهوبة ثم أخذ عدداً من جمال اللصوص بدلاً من الحيوانات المفقودة حتى اكتمل عدد الجمال المسروقة، وأعادها جميعها إلى أصحابها من قبيلة بيلي.

ولو لم يحكم بهذا الحكم العادل لقامت عليه قيامة القبائل المجاورة حلفائنا

بالأمس، ولكانت هذه القومة نقطة من الزيت تبلغ لطاقتها إلى ما وراء الوجه، وإن التجاح في تلك الصحراء يتوقف أحياناً على اجتناب مثل هذه السّفاسف. وفي اليوم الثاني حاذينا الساحل وماشيناه حتى بلغنا «حَبَّان» الساعة الرابعة زوالية. فكان مركب هاردينج *Hardinge* لحسن حفظنا واقفاً مضارعاً الأمواج وهو ينزل الماء المخزون على الشاطئ بكل مشقة لركة مياه البحر وهيجان الأمواج، فارتوى الجيش وحجزنا حصّة البغال، وفرقنا على المشاة ما يحتاجون إليه، وما أكثر ما يحتاجون إلى الماء!! إلا أنّ قسماً من الرّجال لم يزل ظمآن، يتزاحم حول الأحواض الفارغة معتقداً بأن البحارة سيجازفون مرة ثانية وينزلون الماء.

وهبطت إلى السفينة فعلمت بأن الأسطول قد ضرب الوجه كما لو كان الجيش البري موجوداً، وخشي «بويل» من أن يكون الأتراك قد اغتتموا فرصة تأخرنا فارتدوا خفية. كان خوف «بويل» في محلّه، لأن أحمد توفيق بك حاكم الموقع في «أبو زريبات» ألقى منشوراً إلى جنوده يأمرهم بالدّفاع حتى آخر نقطة من دمائهم، ولما جنّ الليل أسرع إلى ناقته فركبها مع بعض رفاق تمكنوا من اللحاق به، ولم يتنفسوا حتى بلوغوا الخط الحديدي!!!...

أما المئتان الذين لزموا مكانهم فقد صمّموا على المقاومة إلى التّهاية، لكنهم رأوا قائدهم قد فر من الميدان وأنهم أمام قوة تفوق قوتهم أضعافاً وأن ضرب المدافع من البحر لا يبقى لهم حيلة فوق الواقع، وما بلغت ظهر هاردينج *Hardinge* حتى كانت الموقعة قد انتهت واحتلّ العرب والبحارة المدينة.

فشد هذا النّصر قوى الجيش فسرنا به عند منتصف الليل إلى الشّمال، وعند الفجر لمحنا الفرق المختلفة، وتقدمنا بنظام فلم نصادف سوى شراذم مشتتة من التّرك، لم يقاوم منها غير واحدة مقاومة لا تذكر. وترجّل بنو عجيل، ونزعوا عنهم برانسهم ودرّعاتهم (غندوراتهم) وعمائهم، وحاربوا نصف عرّة، معتقدين بأن الجروح على هذه الحالة لا تتعفن، وأن ثيابهم الغالية لا تتمزق!! إنه لمنظر شائق حقاً، وقد تقدم أولئك الرّجال بأجسامهم النّحاسية النّاعمة خلال الوادي الرّملي الملهب

بحرارة الشمس، وأعلام الحرس الأمامي تنعكس بألوانها القرمزية على صفحة الماء
الفيروزية، وسار هذا الجيش بخطى منتظمة واسعة ستة أميال في الساعة.
فبلغوا القمم وتخطوها، ولم يطلقوا عياراً نارياً واحداً، فأيقنا عندئذ بأن الأسطول
ورجاله الذين نزلوا إلى البر، قد قاموا بالعمل المطلوب وكفونا مؤونة القتال.



السير رונالد ستورز
حاكم القدس، حاكم قبرص

الفصل السادس

تكتيك وسياسة

وقد وعدت القاهرة - تحت تأثير هذه الأخبار الطيبة - بالذهب والبنادق، والبغال، والوشاشات، والمدافع. إلا أنه لم يصل إلينا مدفع واحد قط! وكان هذا الحرمان عذابنا الأبدي. وقد قصرنا عن تحقيق كثير من رغائبنا وعن مطاولة مدافع أعدائنا، التي يفوق مداها مدى مدافعنا الضئيلة ثلاثة أو أربعة أميال! إلا أن وصول «جعفر باشا» البغدادي الأصل كان سلوى لنا وتنشيطاً لقوانا، وكان قد اصطفاه «أنور» لتدريب جيوش الشيخ السنوسي، بعد أن عرف فضله في خدمة الألمان والعثمانيين، وكان قد تمكن من الالتحاق بهم في غواصة ألمانية. فأخرج من أولئك الرجال محاربين يرجى منهم في الملمات. ولقد عرف هذا القائد أن يكون لبقاً فنياً في مناوشاته مرتين مع الجنود البريطانيين.

ولما أسر «جعفر» وحجر عليه في قلعة القاهرة مع بعض الضباط التُّرك، حاول الفرار في إحدى الليالي متديلاً بحبل مجدول من قماش ملاءة، إلا أن الحبل لم يقوَ على حمل القائد فهوى به، فانصدع رسغ قدميه فتوى في مكانه وأعيد إلى الأسر.

وأعطيت له الحرية في المستشفى بعد أن أقسم بشرفه وبعد أن دفع ثمن الملاءة التي مزقتها وكسرت رجله! وقرأ ذات يوم أن الشريف قد انتقض على التُّرك، وأن هؤلاء الأتراك قد أعدموا عدداً كبيراً من كبار العرب - منهم الأصدقاء - لنعرتهم العربية، ففهم عندئذٍ أنه يحارب مع الفئة الرديئة، وكان «فيصل» قد سمع كثيراً عن جعفر وودّ لو يسلم إليه قيادة جيشه النظامي، الذي كنا نجاهد في ترقيته بأقصى سرعة، وكان لا يزال

في القاهرة من أصدقائي «هو غارث»، و«جورج لويد»، و«ستورز»، و«ديدز» Deedes وغيرهم، وكانت دائرة الإنكليز لمعاوضة العرب تتسع بسرعة.

وقد لاحظ «السّير أرثشيبولد مَري» متأثراً بأن الأتراك يدفعون العرب بقوات ومعدات تفوق قواتهم ومعداتهم، وأنه كان دائماً يميل إلى قضية العرب، وأظهر الأدميرال «ويميس» من جهته حسن نية لمعاضدتهم وقد برهن عن عطفه عليهم أيام رابغ القاسية.

أما السّير ريغينالد وينغايت المندوب السّامي البريطاني في مصر، فقد رأى بالبرهان أنّ الذي كان يحلم به منذ سنين قد ابتدأ أن يتحقق. ولقد حسدته على هذا التّجّاح. لأن «مكماهون» قبله كان قد أقرّ المشروع وختهم «برسم التحصيل» إلّا أنهم سلخوه من وظيفته وقد نضج الطّبخ أو كاد. وعدت إلى «الوجه» حيث أصبحت الحياة هنيئة مفيدة. وقد نظمنا معسكرنا على بعد ميل من البحر، وأمر «فيصل» بنصب الخيام الفخمة. منها للتّوم، ومنها للاستقبال، ومنها للأركان حرب، وللضيوف، وللخدم، وجميعها متصلة بحافة الهضبة المرجانية الممتدة من السّاحل إلى الرّفوف، المنتصب أمام الأودية الواسعة المتشعبة حول المرفأ الغائر في الأرض من الشّرق والغرب. وكانت خيام الجنود ورجال القبائل متجمعة بنظام في المنخفضات الرّمليّة، بينما كنا نحتلّ المرتفعات المعرّضة للبرد، لأننا نحن رجال الشّمال نعيشنا نسيم المساء، ويحمل إلينا صدى هدير الأمواج البعيد. كأنّه صدى ضجيج المركبات في أعماق شوارع لندن.

وكان بنو عجيل دوننا مباشرة، وقد تجمعوا بخيامهم على غير نظام. ومدفعية «راسم» إلى الجنوب محاذية رشاشات، «عبد الله» المرتبة في خط مستقيم والبهايم في مراتبها في صف واحد.. منظر يتهلل له الجندي النّظامي. وعلى بعد قليل أقيمت السّوق في منبسط من الأرض، والمشترون يدورون على أنفسهم وحول السّلع كالنّمل حول وكره، والنّحل على باب قفيره. وكان متطوعو القبائل يختارون المنعطفات والأماكن الكثيرة الانخفاض ليحتموا بها من الرّيح. وينصبوا خيامهم الخفيفة المهلهلة.

ومن وراء كل ذلك يتبدئ السهل. فتسرح بعض الإبل ترعى الحشائش بين النخل السامق، حول بئر ماء أجاج قريبة من المعسكر. وعلى البعد تنتصب سلسلة الجبال الساحلية بقبتها الصخرية إلى السماء تخالها خرائب قصور غابرة. وقد اتبعنا طريقة التباعد في معسكر الوجه لاتساع السهل وانفراج المكان. وكنت أقضي وقتي بالتنقل من خيام «فيصل» إلى خيام الإنكليز، إلى الجيش المصري، إلى المدينة، والميناء والتلغراف اللاسلكي.

وكنت أتسلق دون انقطاع هذه المدرج المرجانية محتذياً نعلين بسير أو عاري القدمين، وهكذا قد تعودت على أن أطأ أرضاً جافة حامية، وأن أحسن من قوام جسمي الذي أنهكته التجارب القاسية.

وكان كثير من العرب السذج يتساءلون: لماذا يروح ويجيء ماشياً فلا يركب بغلة ولا حصاناً، فلم أكن أكلف نفسي وأبين لهم الأسباب الصحية التي لاشك في أنهم لا يفهمون منها شيئاً. وما الفائدة من إفهامهم بأني أقوي جسمي وأروضه، أو أنني أفضل المشي على أن أرهق هذه الحيوانات من غير داع، مع أن السبين صحيحان.

وكان «فيصل» غارقاً في خيمته يشتغل ليل نهار في سياسته. وقليلون بيننا الذين يمكنهم أن يساعدوه في مهمته. وكان الناس في المعسكر يجتهدون بأن يروّحوا عنا، ويسلونا بالمشاهد المختلفة وضرب النار وأغاني الانتصار. ومن وقت إلى آخر كانوا يحدثون مشاغبات ينتج عنها حالات مميتة لغير ما سبب سوى الجهل، منها أن بعض أولئك الجهلة كانوا يقلبون قنبلة وراء خيمتنا، وكانت من بقايا القنابل التي ضربها «بويل» على المدينة، فطارت شظاياها وقطعت الرجال «إرباً إرباً وتلطخت خيمتنا بالدم، فأمر «فيصل» بإبدالها بخيمة أخرى فاكتفى العبيد الحريصون بغسلها»...

وحدث مرة أن خيمة التهمتها النيران فوقف الناس حولها يضحكون ولا يبدون أقل اهتمام بإنقاذ المصابين، حتى خجلنا في آخر الأمر وأخذنا في معالجة الجرحى، وفي يوم آخر طاشت رصاصة فقتلت فرساً.

وثار بنو عجيل في إحدى الليالي على رئيسهم ابن دخيل بحجة أنه يرهقهم بالضرب ويزهق أرواحهم بالجلد، فدخلوا خيمته وألقوا ما فيها من الأمتعة إلى الخارج وأوسعوا العبيد ضرباً، إلا أن هذا القدر لم يشف غلتهم فتذكروا ينبع فأخذوا طريقهم قاصدين قتل «بني عتية» فلمح «فيصل» هذا الاضطراب من المرتفع المضروبة عليه خيامنا، ورأى نار المشاعل فهبط عليهم كالصاعقة حافي القدمين، ودخل بين المتمردين يضربهم من كل صوب بعرض سيفه، فأوقفته ثورته وتبعه العبيد وحرس الأمير أسرع من البرق الخاطف، يلكمون في ذلك الجمع المضطرب بإغماد السيوف صائحين كالجن الصريع. ثم قدموا لفصل فرساً فركبها، فحمل على المشاغبين كالداهية، ونحن بدورنا قد شتتنا بعض الاجتماعات بإطلاق الأسهم النارية على ملابسهم، فقتل اثنان وجرح عدد من الآخرين، وفي اليوم الثاني قدم ابن دخيل استقالته.

وحاكى فخري باشا خططنا وخداعنا، وإنما الحرب خدعة. فاحتل خطأ دفاعياً قوياً حول المدينة، وأقام عليه المتاريس ليدافع عنها ويحول بينها وبين ضرب العدو لها. مع أن العرب لم تخطر لهم هذه الفكرة قط!..

وكان ما بقي من جنوده منشورين على طول الخط الحديدي. ومخافر قوية كانت تحرس موارد الماء بين المدينة و«تبوك» وبين هذه المخافر مفاوز سيارة تملأ الفراغ ويمكنها أن تحرس الخط بطوله. وقصارى القول كان فخري باشا مستنداً إلى دفاع سخيف.

وكان قد تقدم «غارلاند» إلى الجنوب الشرقي و«نيكومب» إلى الشمال الشرقي من الوجه كي يخربوا قواعد الخط بمتفجرات شديدة، ويقطعوا الأسلاك والجسور ويضعوا ألغاماً آلية تنفجر عند مرور القطار.

فتحول العرب من التردد إلى التفاؤل المكين، ووعدوا بأن يخدموا بإخلاص لا شائبة فيه، وطوى «فيصل» بني بليّ إليه فأصبح سيد جزيرة العرب بين البحر والسكة الحديدية، ثم أرسل بني جهينة ليلتقوا بعبد الله في وادي قيس.

والآن يمكنه أن يستعد لمهاجمة خط سكة حديد الحجاز، إلا أنني نصحته أن يتوقف أولاً في الوجه ويخاير قبائل الشمال الأقصى ويكتسب مودتهم، حتى يمتد عصياننا في المستقبل إلى تلك الجهة فنهدد الخط الحديدي من تبوك - حد منطقة نفوذنا الحالي - إلى معان، وفلسطين، فدمشق، وقد ابتدأ فيصل بالعمل مع جيرانه أهل الشمال بني حويطة. ولزيادة الحرص على نجاحنا، أوفدنا رسلاً إلى الشمال الشرقي لتخاطب بني عطية القبيلة الشديدة المراس، فقدم إلينا عميدها عاصي بن عطية وحلف يمين الإخلاص أمام فيصل، ومنحنا حرية تامة لحركاتنا على جميع أرض القبيلة، ومن وراء بني عطية قبائل تأتمر بأمر نوري الشعلان أمير الرولة القوي، بل أقوى الشخصيات بين أمراء الصحراء بعد الشريف وابن السعود وابن الرشيد.

وكان نوري شيخاً بعد أن حكم ثلاثين سنة على عرب عنزة، وكان بيته في الصف الأول عند أهل الرولة، من غير أن يكون له حق التصدر على غيره عن طريق النسب فلم يكن محبوباً من أتباعه ولم تكن له صفات العميد الحربي العظيم، إلا أنه لشدة مراسه وحدة طباعه ملك زمام السلطة، ولم يتردد عن الفتك بأخويه فتكاً ذريعاً كي يحافظ على هذه السلطة. ثم إنه استمال إليه أتباعاً من بني شرارة وبعض قبائل أخرى، فكان كلامه في تلك القبائل نافذاً لا مرد له، ولم تكن لنوري سياسة دهاء كباقي الشيوخ، فإن كلمة منه كافية لهدم كل معارضة. وأحياناً لهدم حياة المعارضين، فهابته العرب دون استثناء وخضع له الجميع، ولذلك كان من أقصى الضرورات أن نستأذنه، لكي نتمكن من الانتفاع بطرق بلاده ومعايرها.

وكان من السهل الحصول على هذا الإذن، لأن فيصل حظوة في عيني نوري، وكان الشريف يرسل إليه الهدايا من المدينة ومن ينبع، فأوفدنا إلى معسكره من الوجه فايز الغصين. فالتقى في طريقه بابين دغمي أحد رجال عرب الرولة المشهورين الذي أرسل إلينا - هدية ثمينة جداً في ذلك الوقت - بضع مئات من جمال الحرب الشديدة.

ولا يفوتن أن نوري الشعلان كان لا يزال على اتصال وثيق مع الأتراك، وكانت سوق تموينه دمشق وبغداد، فلو أن أعداءنا لحظوا أقل ريبة في أمانته، لكان بإمكانهم

في ثلاثة أشهر أن يهلكوا نصف القبيلة جوعاً، لكننا نعلم جيداً أنه يأتي إلينا في الوقت المناسب، وأننا نحتاج إلى رجاله، أما الآن فيمكننا أن نأخذ منه كل شيء ما عدا انفصاله عن التُّرك.

وفتحت لنا نوايا هذا الزعيم الحسنة نحو «فيصل» معابر وادي السرحان، تلك الأرض الغنية بمواقعها العسكرية، تخترقها مسالك مطروقة تمتد لجهة الشمال على طول تلك التسلسلة من الوهاد الكثيرة المياه، وباتصالها بالجوف عاصمة نوري الواقعة في الجنوب الشرقي من الأزرق، غير بعيدة عن جبل الدروز في سوريا.

وكان من المحتمم علينا أن نكون أحراراً في حركاتنا في السرحان حتى نتمكن من الاتصال بمضارب الحويطات في الشرق وهم «بنو تايه» وعلى رأسهم «عودة» العميد الحربي الأشهر شمال جزيرة العرب، وبالاستناد إلى مثل هذه الشخصية يمكننا أن نتابع خطواتنا بثبات، حتى نبلغ القبائل الضاربة بين العقبة ومعان، ونستعين بها على طرد الأتراك من مواقعهم حول العقبة والاستيلاء عليها، وبمساعده الفعلية فقط نتمكن من الخروج من الوجه، ونباشر الرحلة الطويلة إلى معان. ولقد تنفسنا منذ أيام ينبع!.. ولمع بصيص الأمل في أفئدتنا منذ المقابلة الأولى «لعودة» لعننا نكتسب صداقته.

وفي «الوجه» خطونا خطوة واسعة. إذ وصل إلينا ابن زعل ابن عم «عودة» يوم 17 فبراير. ذلك التاريخ السعيد! وهو من أكبر لجال حرب «أبو تايه». ففي صبيحة ذلك اليوم ظهر خمسة رجال من شرارة أصحاب جاه، قادمين من الصحراء شرق تبوك حاملين هدية بيض نعام يكثر في تلك الجهات الوعرة غير المطروقة. ثم أدخل العبيد «ضيف الله أبو طيور» ابن عم حمد بن جازي شيخ فصيلة من قبيلة الحويطات مقرها المنطقة الوسطى من سهول معان.

وهؤلاء الحويطيون هم رجال حرب أشداء كثيرو العدد إلا أنهم أعداء دم لأبناء عمهم «أبو تايه» لشجار قديم لا يزال عالقاً في أذهان «عودة» و«حمد»، ورغم أن اعتزازنا بقدمهم إلينا، كان ابتهاجنا ناقصاً لأنهم كانوا في أعيننا أقل أهمية ومنفعة لنا لمهاجمة العقبة من «عودة».

وعقب وصولهم قدم إلينا «نواف» بن نوري الشعلان البكر وقدم فرساً لفیصل. وكان شعلان وجازی عدوین لدودین، فلما التقيا تراشقا بشواظ اللّحاظ، فبادرنا إلى تدارك الأمر، ونصبنا خياماً جديدة للضيوف وفصلنا المتنافرین عن بعضهما.. ثم قدم بعدهما «أبو طقایقه» شیخ الحویطات المقیمین على طول المنطقة السّاحلیة، یحمل الثناء والاحترام من قبیلته والغنیمة التي استولت علیها من التُّرك في «ضبا» و«مویلح» آخر نقط احتكاكهم بالبحر الأحمر، وبعد أن أجلسه فیصل على سجادته وأثنى علیه وعلى رجاله الذین حاربوا العدو ببسالة وإخلاص، ولجنا باب الحدیث عن العَقبة.. ولم یکن من الصّواب أن نتطلع إلى هذا الباب. إلّا أنّنا قد لمسناه عرضاً لامتناص بعض ما یهمنا، كالإسفنجة تمتص الماء بسكون وتودة دون أن نشعر محدثنا باهتمامنا لهذا الحدیث.

ثم قدم إلینا «ابن زعل» عند الأصيل على رأس اثني عشر رجلاً من أتباع (عودة) فتقدم هذا الشیخ وقَبِل يد فیصل مرتین مرة عن نفسه ومرة عن عودة!!!...

ثم جلس إلى جانبہ وقال: إنه قادم یحمل السّلام من عودة ویأخذ له بعض معلومات، فکتّم «فیصل» ابتهاجه بقدوم هذا العمید، ولا غرو فهو السّیاسی المحنك الحریص. واکتفی بأن قدمه برزانة إلى أعدائه بالدم. «جازی الحویطات».

وفي خلوتنا معه تحدّثنا ملياً وأعدناه محملاً هدايا ثمينة ووعوداً طيبة ورسولاً خاصاً من قبل فیصل لیقول لعودة: إن الشّریف لا یهدأ له بال إلا إذا قدم إلى الوجه لِحماً ودماً، لأن عودة كان محاطاً بهالة من الشّهرة والتّفوذ، إلّا أنّنا لا نعرف شیئاً عن قیمته الحرّیة. ولا یمكننا أن نجازف وندع المصادفات تلهو بمقادیرنا عند مسألة فی غایة الخطورة، مسألة الاستیلاء على العَقبة. أو نسمح لأنفسنا بارتكاب أقل هفوة فی هذا الأمر، إذن یجب أن یأتی إلینا بنفسه لنسیر غوره بمسبار الکفاءات، ونرسم کلانا بأکفنا خطوط السّیر المقبل. ونتعاون قلباً وقلباً.

ولما انطفأت شعله الشّمس الأرجوانیة فی میاه البحر، وهبَّ التّسیم العلیل وتغلغل بین مضاربنا، اندفع سیل من الفرسان من المرتفعات التي تحجب (أبو زریبات)

وانتثروا حلقة واسعة من حولنا. ثم انفصل عنهم أربعة فرسان وأخذوا يمرحون ويترامحون ويتشابكون ويلعبون ألعاباً فروسية، وظل باقي الفرسان يهزجون وينشدون نشيد عتيبه الرزين. وقد نظم هذه الألعاب الشريف شاعر الذي سلب لبي ونهاي في جده. وكان قادماً من معسكر عبد الله في وادي (عيص) قرب المدينة ليسلم على فيصل.

وكان شاعر عين العتابة أميراً، وإنه لعملاق حقاً على ظهر جواده لا يفاضله عربي قط بفروسيته وبإطلاق النار والفتوة والازدراء بالأخطار والثروة الطائلة، وكان بدوياً صرفاً ببساطة ملبسه وطريقة معيشته وقناعته وخشونة أخلاقه، وكان رجلاً رحولاً من أخمص قدميه المتحجرتين إلى شعر رأسه المجذول جدائل تتساقط على صدغيه ومنكبیه.

ولم يختلف هذا اليوم عن سواه فيما يختص بأعمال فيصل اليومية غير تلك المقابلات التي حملت إلينا أغصان الزيتون في مناقد الحمام، وأصبحت مسالك الوجه تعج بالرسل والوفود والأتباع وكبار المشايخ راكبين على خيولهم، قادمين إلى فيصل ليقسموا يمين الولاء والأمانة لقضيته، وكان رجال بلّى ينظرون إلينا بفطور فأصبحوا بعد أن رأوا هذا الموكب يقابلوننا بوجوه باشة.

وكان فيصل يقدم القرآن للأتباع الجدد بيده فيحلفون بأنهم يتقدمون إذ تقدم ويقفون إذا توقف، ولا يخضعون منذ هذه الساعة للترك، ويعاملون كل عربي معاملة الصديق المحب من حلب كان أو من بغداد، من دم سوري أو حجازي، ويضعون القضية العربية فوق الحياة، وفوق الأهل، وفوق كل نفع مادي.

وكان فيصل يعجل بمجابهة الأعداء والمتخاصمين بعضهم ببعض أمامه ويضع حداً لنفورهم واختصامهم، ويقسم الخسارة والربح بينهم، ويأخذ من هذا ويعطي ذاك ويرضى المعتنين أحياناً من ماله الخاص حتى يعتدل الميزان، وهكذا كان ينجح دائماً فيقيم عليهم المواثيق والعهود. ولازم هذا العمل الشاق ستين كاملتين دون ملل، يجمع ويضبط أموراً اجتماعية لاعدائها في مكانها الطبيعي، ونضب عينيه فكرة لا ثاني

لها وهي وحدة العرب وتوحيد كلمتهم لمحاربة التُّرك إلى النهاية. فأينما سار كان كأنه ماء يخمّد نار الضَّغائن، وكأنه محكمة استئناف عليا لكل جزيرة العرب الغربية حكمها مبرم لا نقض له.

وقد برهن على أنه في مستوى هذه المهمة الشّاقة، فلم يتحيّز قط في قرارة نفسه، حتى إنّه كان يضحّي بعدله لحكمته في مسائل معقدة يخشى منها أن تسبب عراقيل فلم تشب أحكامه شائبة ولم يطعن قط في نزاهته وخبرته بعبادات القبائل وأحوالها فهو يسبر غور الأمور، ويزن الجيد والرّديء بقسطاس الحكمة، ويحفظ في ذاكرته العجيبة كل ما دق وبعد في مطاوي الماضي حتى اكتسب سلطة - لا يختلف فيها اثنان - على جميع القبائل من المدينة إلى دمشق، وإلى أبعد من ذلك، فكانوا يعتبرونه قوة سامية فوق القبيلة. يعيد إلى العشائر رؤسائها الحقيقيين المتحدرين من نسلهم ودمهم ويسود من على جميع المحاسد، وبأهليته وحده تحولت الحركة العربية إلى حركة شعبية حقيقية لها غرض واحد مشترك، واجتث جذور الضَّغائن والخصومات من نفوس القبائل، وقد وجب القول بأن مقدرة هذا الرّجل على تصريف الأمور أسابيع الظّفر القليلة هي التي تمكنت من احتمال شهور الأحلام الطويلة الخائبة بعد إعلان استقلال دمشق.

البدو قوم غريبو الأطوار، ومقام الإنكليز بينهم مدة طويلة أمر لا يحتمل، إلّا إذا تقلّب على الصّبر من جميع نواحيه وتعوّد غضاه وقتاده.

وكنا نلاحظ بأنّ أقلّ شبهة ضغط على حريتهم الشّخصية تصيرهم حردين لا يرتدّون عن فكرة خاطئة، أو ينصرفون غير راجعين، ومتى عرفنا هذه العقليات وتسلّحنا بالصّبر، وعرضنا عليهم قضيتنا على أوجه مخالفة أو جهنا المعقولة أغربناهم وتمكنا منهم، فلا يرتدّون عن مرضاتنا ولو بأشدّ المشاق وأغلى الأثمان. ليت شعري هل النّجاح يوازي هذه الجهود لا يمكن لأحد أن يثبت ذلك، والإنكليز الذين يحصلون على نتائج باهرة بطرق أخرى هينة لا يرغبون - وبالحقيقة لأنهم لا يتمكنون - في ضياع الوقت الذي يبذله الشّيخ أو الأمير كل يوم ليلج التّتيعة الضّئيلة.

وطرق العرب لا سرَّ فيها ولا أحاجي وأدمغتهم كأدمغتنا، ولا يمكن لأحد أن يشكو من عدم فهمهم... الأوليات هي التي تختلف، وليس من سبب ليسمح لنا بأن نقول: هؤلاء لا يعرف لهم كُنه!!.. هؤلاء شريقيون! اللهم إلّا كسلنا وجهلنا بالعالم العربي.

وقد أصبحنا منذ الآن من الوجهة الحربية راسخي القدم في «الوجه»، وقد أرسل إلينا «ألنبي» بعض سيارات مصفحة ورولر رويس ومتقاعدين محترمين من جيش الجنرال «سميث» كانوا في شرق أفريقيا الألمانية يقودهم ضباط ورجال إنكليز، وهم مستعدون لأي عمل يمكنهم القيام به فابتدأوا بتذليل صعوبة السير على الرَّمْل وتخطي الكثبان، وقد أفرغت «ينثع» عند رحيلهم عنها من آخر جندي ومن جميع ذخائرها الحربية.

وهجروا رابع أيضاً فتركها الطائرات وجاءت إلينا، وأرسل إلينا «جويس» و«غوشلت» الحامية المصرية، وابتدأت أعمال الأركان حرب في الوجه. يطوف «نيوكومب وهورنبي» البلاد دون ملل يوحدان القوى ضد الخط الحديدي لا همَّ لهما غير تعطيله ويعملان أحياناً بأيديهما.

وكل شيء كان سائراً سيراً حسناً، وفي أصيل أحد الأيام هرول سليمان المنوط به أمر الضيوف. ودخل خيمة «فيصل» وأسرَّ في أذنه بكلمات فأبرقت أسارير الشريف ومال إليَّ مجتهداً بأن يحافظ على رزائته المعتادة: عودة الباب!! فما تمالكت أن صرخت عودة أبو تايه!! وفي لحظة رفع حجاب الباب، وسمع صوت أجشَّ يحيي «سيدنا ومولانا أمير المؤمنين». رجل ضخم ذو منكبين عريضين، وملامح خشنة. متحمس خطر. دخل الخيمة، هو عودة يتبعه ابنه محمد وعمره إحدى عشرة سنة تكاد تحسبه غلاماً يلعب.

فانتفض فيصل واقفاً فانحنى عودة وقبَّل يده وتنحينا بضع خطوات، ورمى الواحد الآخر قليلاً: زوجان فخمان وشخصيتان متناقضتان لكنهما يحققان كل أمرٍ نافع لجزيرة العرب: ألنبي - فيصل! ورجل الحرب -.

عودة! كلُّ يقوم بمهمته بإتقان، فتحاباً لأول مقابلة وجلسا! وقدمه لنا فيصل فسلم علينا بعبارات موجزة كل على قدره كأنه كتب مميزاتنا على لوح صدره!...

لقد كنا نسمع كثيراً عن عودة ونعلل الآمال بدخول العَقبة على يده، فلم تمر دقائق حتى عرفت كيف ألحظ قوة هذا الرَّجل وأخلاقه القويمة!

لقد جاء إلينا كالشريف التائه يرقب الساعة ليضرب الضربة القاضية، وقد هاج تلكؤنا في الوجه، وفوق ذلك قد لعلت في قلبه نار الشهوة لاكتساب فضل أولية تحرير العرب المستعبدين ولحصد الشهرة في حقول قبائله!...

فلندعه يصل إلى تحقيق نصف أحلامه، لنكون نحن سعداء ناعمي البال! وكانت أفكارنا قد انطلقت من قيودها لسقوط الحمل الثقيل عن عاتقيهما وحُل الملزم القاسي عن صدريهما فدعينا إلى الغذاء.

ونعمت صحبتنا على أتم السرور، فكان نسيب وفايز ومحمد الضَّغلان ابن عم عودة ومستشاره السياسي، وزعل ابن أخته والشريف ناصر الذي يأخذ راحة في الوجه في فترة غزوتين قصيرة إلى بضعة أيام. وأخذت أقص على فيصل حكايات متنوعة عن معسكر عبد الله، وعن السرور الذي حاق بالناس عند تخريب الشبكة الحديدية، وبينما كنا نتحدث صرخ عودة ونهض بقفزة واحدة وقال: «اللهم احفظنا» وخرج من باب الخيمة، وسمعنا مبهوتين مثل ضرب المطرقة على الحجر فخرجت لأرى ما الخبر. ناذا! بعودة يكسر طقم أسنانه على الصخر ويقول: لقد نسيت! لقد نسيت هذه هدية جمال باشا. وها أنا أكل خبز سيدي بأسنان تركية! وللأسف لم يكن عودة يملك إلا ليسير من أسنانه الطَّيعية، فأصبح بعد هذا العمل الطَّائش الجميل لا يحسن مضغ اللحم المحبوب لديه، وكان عليه أن ينتظر ويصبر معدته إلى أن نستولي على العَقبة. قد أوفد إليها السير ريغينالد وينغايت طبيب أسنان مصرياً ليصنع له أسناناً اتحادية!...

كان عودة يلبس ثياباً بسيطة للغاية وعلى عادة أهل الشمال، وهو نسيج أبيض وعمامة حمراء، يزيد عمره على الخمسين. وشعر رأسه أسود تتخلله بعض خيوط

بيض، إلا أنه كان قوياً منتصب القامة، لين القوام كالغصن الأملد، خفيف الحركة كابن
الثلّاثين، له وجه جميل متناسب القسّمت، لولا ندوب من الأحزان لا تمحى مدى
الدّهر على ولده الأحب إليه «عناد» الذي قتل في معركة، فبدّدت المصيبة ألدّ أحلام
حياته، وستكون الأجيال المقبلة عاطلة من ممثّل يحمل اسم «أبو تايه» وعظمته. له
عينان واسعتان سوداوان كالمخمل، ناطقتان بما يكن جنانه، وجبهة عريضة غمّاء وأنف
طويل مسحوب أعقف كمنقار الباشق، وفم واسع وشفّتان تختلجان، وكان ملتجياً وله
شاربان خيطيان مشذبان على طريقة بني الحويطات، مخلوق جانبي المبسم.

وأصل قبائل الحويطات الحجاز هاجروا منذ قرون، ولا تزال تلك القبائل إلى الآن
تفخر وتزهو بأصلها البدوي، وكان عودة في أعينهم الرّئيس العريق والمثال التام،
مضيفاً مسرفاً مستهلكاً، إلا في نظر الذين يدخلون الطّعام على الطّعام من غير ما
جوع وما أكثرهم هناك!! فكان دائماً خالي الوفاض رغماً من مئة غزوة وغزوة ناجحة!
وقد تزوج ثمانية وعشرين مرة، وجرح ثلاث عشرة مرة فقط عند اشتباكه بالعدو مراراً
كثيرة. ورأت عيناه جميع رجاله جرحى والقسم الأوفر من أهله قتلى! وقد صرع
وحده خمسة وسبعين عربياً، لكن في حومة القتال دائماً أبداً.. أما ضحاياهم من التّرك
فلا يمكن حصرهم، لأنّه أهمل معهم كل حساب إلا عملية الضّرب! فأصبح رجال
الحويطات بفضل نفوذه وشجاعته أشدّ جنود الصّحراء مراساً، وأبعدهم صيتاً تضرب
بهم الأمثال، وكان أولئك البدو يشعرون من نفوسهم بالتفوق على غيرهم، شعوراً لا
يفارقهم حتى آخر نسمة من الحياة، وحتى آخر مهمّة يحقّ عليهم البلوغ إلى غايتها.

إنما هذا الإسراف في النفوس والاقتتال مع القبائل مدة ثلاثين سنة متوالية، أودى
برجاله الأشداء فتضاءلوا إلى الخمسمئة بعد أن كانوا ألفاً وخمسمئة عدداً وكان عودة
يقوم بغزواته كلما سنحت له الفرص.

فقادته هذه الرّحلات رويداً رويداً إلى حلب والبصرة، وإلى وادي الدّواسر، يذكي
نار الضّغينة بين رجاله وبين قبائل الصّحراء الأخرى لتتسع شقة الخلاف، ويتسع له
مجال العمل المثمر، وكغاز كان خبيراً ومباشراً لا يجازف حتى في ثورة جنونه، بل

يدرس الخطط قبل التنفيذ بكل دقة وتأن. ويحسب حساب المحتملات والمفاجآت، ويصبر عند العمل صبر الجمال، ويتحمل التقذ والإهانة باحتقار عميق وابتسام عذب، أما إذا غضب تقلصت ملامحه وتعذر عليه وقف تشنجاته، وأصبح في الحال صريع ثورة غضب ونوبة ترجاف لا تسكنان إلا بالدم، وفي هذه الأحوال يكون عودة وحشاً مفترساً تهرب من حوله الرجال! فلا قوة على الأرض تحوله عن عقيدته، ولا يهتم لشعور غيره إذا صمّم على أمرٍ ما.

ينظر إلى الحياة كأنها أسطورة، خرافية، وأن الحوادث لا بدّ من حدوثها، وإن كل من يحتكّ به يكون بطلاً!.. وقد ارتسمت في ذاكرته قصائد طويلة من أشعار الفروسيّة وأخبارها تمجد الغزوات والمعارك يلقيها بفصاحة على سامعيه والمحيطين به. وإذا فاته السامعون فإنه يترنم بها في وحدته فيسمع له هدير عميق يردد البعد صدها، ولم يكن بمقدوره أن يلجم لسانه عن الكلام فكان يسيء إلى نفسه بهذه الثثرة ويجرح شعور أخصائه وأتباعه، ويتكلم عن نفسه بصفة الجمع للمتكلم مقتنعاً بشهرته. ولشدة اعتداده بقوته لا يحجم عن إظهار بعض مساوئه بصوت جهوري. وكان يبدو في بعض الأحيان كأن به مسأ من الجن أو داخله عفريت الشر. فيحكى حكايات أمام الناس مقسماً بصحتها، ويسرد تفاصيل فظيعة مريعة عن حياة ضيوفه ومدعويه العائلية.

ومع ذلك كان محتشماً ساذجاً كالطفل، قوياً، أريباً، حتى من الذين كان يجلب لهم المشاكل.

وقد تغيرت وجهة نظري بعد سقوط الوجه، وبعد السكون العميق الذي استولى علينا فسمحت لي الوحدة بالتفكير والحكم، وبقدر ما كان يبعد تاريخ هذه الحملات دانت تتجلى لعيني طريقة تسييرنا لدفة القتال.

ما زالوا يتبارزون على الخط الحديدي وقد دنا «نيو كومب وغارلاند» من «المعظم» مع الشريف (شرف) و(مولود) ومعهم جمهور كبير من بليّ مع مشاة ورشاشات حملها البغال، وهم يرجون الاستيلاء على «الاستحكام» والمحطة التي بجانبه.

وكان نيو كومب يفكر بأن يستير رجال «فيصل» إلى نواحي «مدائن صالح» فيملكون بذلك خطأ طويلاً من السكة الحديدية لا بأس به، ويعزلون المدينة عن الشمال ويرغمونها على التسليم بأسرع ما يمكن. وكان على ويلسن أن يصل ويمد إليهم يده و«دافنپورت» يستقدم رجالاً من الجيش المصري لأن لديه وسائل الثقل فيضيفون قوة على قوة الهجوم العربي.

وكان هذا البرنامج الذي نظمته بنفسه مطابقاً كل المطابقة للخطة التي اقتنعت بفائدتها بعد الاستيلاء على الوجه لتتقدم إلى الأمام. أما الآن وأنا في زمن البطالة ظهر لي أن هذه الخطط كأنها رديئة، ليس فقط رديئة بتفاصيلها بل بجوهرها أيضاً، وصار من واجبي إذن أن أفسر هذا التغيير الطارئ، وأن أقنع رؤسائي إذا أمكنني ذلك فيسيروا وراء آرائي الجديدة.

وقد تقدمت بثلاثة احتمالات: أولاً - امتناع الجنود غير النظاميين عن الهجوم على النقاط المحصنة! إذن فهم غير أهل لتقرير حالة.

ثانياً - ليسوا أهلاً للدفاع عن موقع محصن ولا للهجوم عليه.

ثالثاً - إن قيمتهم الحربية هي في الغزو والمفاجآت لا في الخطوط النظامية.

فحرب العرب حرب جغرافية: والجيش التركي عارض غير جوهري، ويجب علينا أن نفتش عن الحلقات الضعيفة من السلسلة التي تربط المدينة بدمشق ونسلط عليها معظم جهودنا إلى أن يفعل الزمن فعله المبين على طول خط الاتصال هذا، ووسيلتنا الكبرى هم البدو الذين كان يجب أن يكونوا هم روح الحرب لو أنهم يحسنون الأعمال المنظمة. إنما من مزاياهم الحربية سرعة الانتقال، وشدة المراس، والثقة الفردية، ومعرفة البلاد، وشجاعة مفكرة.

فالقوة مع هؤلاء الرجال هي التفرق. فتكون النتيجة أنه يجب أن نوسع ونمد جبهتنا إلى الحد الأقصى من مقدورنا، فنفرض على الأتراك دفاعاً سلبياً يتمسكون به إلى ما شاء القدر. فإن هذه الطريقة من الحرب من الوجهة المادية هي الأغلى ثمناً

عليهم، ومن جهتنا يحتم علينا أن نصل إلى الغاية المنشودة بأقصى حد من الاقتصاد .الأرواح. لأن حياة جنودنا هي أئمن من الذهب والوقت للقضية العربية. وبشيء من نصبر ولباقة الحركات أن نجالد العدو على طريقة «ساكس» Saxe ونقتنص الظفر دون معارك بالتوغّل في مقاييسنا ومسايرة طباع جنودنا! وكنا أسعد حالاً من العدو من جهة المواصلات والنقل والرّشاشات والسيارات المدرّعة والمتفجرات القوية، وكان يمكننا أن نهجم بجنود متنقلة فقط، مجهزة بأحسن تجهيز ونظهر بمظهر الهجوم في سيط مختلفة عديدة على طول الخط التركي، فنفرض على العدو أن يقيم مخافر كثيرة ، نكل مخفر عشرين رجلاً على أقل تقدير، ونكون بهذا قد وصلنا إلى الفوز من أقرب الطرق.

من العبث أن نستولي على المدينة والتّرك هناك لا ضرر علينا منهم، ففي مصر كان خلفنا الأسير مبالغ باهظة لإطعامه والاحتفاظ به، إذن يجب أن يبقى في المدينة أو في أي نقطة بعيدة عن حركاتنا، ومن رأيي أن تستمر مواصلات السّكة الحديدية، ولكن حالة تشبه حالة العليل المزمن الذي يحتاج إلى طبيب ومعالجة بين حين وآخر. ولا يكون هناك سبيل إلى شفائه، فنكلف العدو مشاقاً وذهباً ووقتاً لا نهاية له لإصلاحها كلما أراد السير عليها! وإذا كان تموينهم مضموناً على هذا الخط فما يضيرنا لو احتفظنا بجميع الخطوط الحديدية في الحجاز وما وراء الأردن وفلسطين وسوريا وأبقوا لنا سعمئة وتسعة وتسعين جزءاً من العالم العربي.

فإذا حاولوا أن يوحّدوا قواتهم في ناحية معينة - ولا شك أنها ستكون مقتصرة - يتمكنوا من التظاهر ببعض النّجاح، فعلياً أن نثبت عليهم ثقتهم بقوتهم ونراجع عنهم إلى أجل، لأنّ بلاهتهم تكون حليفتنا، فإن التّرك يحبون أن يحتفظوا أو يعتقدون بأنهم يحتفظون على قدر استطاعتهم بولاياتهم القديمة، لأن كبرياء الاستعمار الموروثة ابتقتهم في موقعهم الحالي الغريب، أجنحة في كل جهة دون جهات!...

فقدت المشروع بكل دقائقه فجمع بين كل المذاهب. أما السّيطرة على نقطة معينة من الخط الحديدي فهو ما يكلفنا كثيراً وفوق ذلك تكون قوتنا الثابتة في تلك

التقطة المركزية مهددة من الشمال ومن الجنوب... أما اختلاط الجنود المصريين برجال القبائل فله أثر سيئ ونتائج مهلكة لكل حركاتنا. لأنّ البدو ينحنون أمام الجنود النظامية ويتفرجون على الغريب الذي يكفيهم مؤونة الإجهاد والتعب... فينتج عن ذلك تحاسد ونقص عام في العمل. فضلاً عن أن مناطق بلاد بلّي قليلة موارد المياه. وثبات قوة كبيرة قرب السمكة الحديدية هو من الأمور التي تسبب متاعب مادية خطيرة من الوجهة الفنية.

وعلى ذلك لم يكن لاعتراضاتي على كليات الموضوع تأثير كبير ولا على دقائقه، فقد أوقفوا هذه الخطط لأن الاستعدادات كانت قد بلغت شوطاً بعيداً، وكلّ كان غارقاً في عمله الخاص، فلم يفكر أحد بأن يمنحني سلطة كافية كي أتمكن من الشروع في عملي. وكل ما نلته هو جلسة استشارية أقرأ فيها، بأن خطتي التي عرضتها يمكنها في وقت ما أن تفيدنا في تحويل العدو إلى اتجاه مغلوط.

ودرست مع عودة أبو تايه مشروع رحلة إلى الحويطات بين مراعيهم في الربيع في صحراء سوريا، ويمكننا أن نجهز فرقة من الهجانة ونأخذ العقبة عنوة دون مدافع ولا رشاشات، وكانت جوانب العدو غير منيعة ويمكننا أن نمرّ بالمواقع الأقل منعة، ويكون زحفنا مثلاً للالتفاف البديع، لأنه سيحتم علينا أن ندور دورة مسافتها ستمئة ميل في الصحراء لنستولي على خنادق تكون تحت رحمة نيران مدافعنا. وكان عودة يعتقد بأن الذهب والديناميت يمهدان كل عقبة، وأن القبائل العربية الصغيرة قرب العقبة تنضم إلينا، فأقرّ «فيصل» مشروعا لتعرفه إلى تلك القبائل ووعدنا بأن يقدم لنا مساعدته إذا صادفنا شيئاً من النجاح من جهة معان... ومن هناك نزحف بقوة كافية إلى ميناء العقبة.

إلا أن القوات البحرية قد نفذت هذا المشروع، وكنا نحن لا نزال نفكر في كيفية تحقيقه، وأدلى إلينا الأسرى التُّرك بمعلومات ثمينة صيرتني نافذ الصبر للسفر في الحال.



الفصل السابع

الانطلاق إلى سوريا

لقد تم استعدادنا للسفر يوم 9 مايو سنة 1917. فاستأذنا فيصل وودعناه أصيل يوم بهيج مشرق، فردد دعاءه الطيب ورآنا ونحن ننحدر عن التل، والشريف ناصر يقودنا، وهل يطمع الناس ويتمنون أن يقودهم أشجع وأقوى من الشريف، وهم قادمون على غزوة من أشد الغزوات ريبة بالنجاح.

كانت المرحلة الأولى قصيرة جداً فوصلنا إلى قلعة السبيل، وهي على باب البلد، ومن هناك كان يمرّ الحجاج المصريون ويتزودون بالماء، فعسكرنا حول الحوض المبنى بالآجر في ظل تلك القلعة الصغيرة حارسة الآبار، ومن حولها بعض نخلات منتصبة في الفضاء، وهجم الليل ونحن نكمل بعض التقصص في القافلة، وقد ظهر لنا أثناء السير، وكان «عودة» وأقاربه يسرون إلى جانبنا «ونسيب البكري» الدمشقي عامل «فيصل» السياسي المكلف بتمثيل الشريف لدى سكان قرى سوريا، ونسب هذا يحمل في مجتمه دماغاً قوياً، ونظراً لمركزه الحسن فقد نجح في مهمة بعض مخابرات في الصحراء، والذي رغب في أن يصبحنا في هذه الرحلة العظيمة هو مجابهته أشدّ الصعوبات بسرور - وهي صفة نادرة في السوريين!!... - ونفوقه في السياسة ولباقة وخصب طرق إقناعه وظرفه، وفوق كل ذلك وطنيته التي كانت تخفف فيه غريزة الطرق المعوجة الموروثة منذ القدم، وكان نسيب يرافق «زكي» الضابط السوري ويتعاونان.

وكانت قافلتنا مؤلفة من 35 عقيلياً يقودها ابن زعير، وهو ذو عقل مطبق طائش نافر

يكفي نفسه شرّاً غيره! وسلم إلينا فيصل عشرين ألف دينار ذهباً، وهو كل ما يمكنه أن يقدمه لنا، وكانت هذه القيمة فوق ما طلبنا إليه لندفع أجور الرّجال الذين نجدهم في طريقنا، ولنزكي نار الشّهوة للذهب في قلوب الحويطات فيعاونونا بحماسة.

وضممنا إلى العقيلين - مخيمراً ومرجان وعلي - شاباً قروياً من إحدى قرى حوران يدعى محمّد لونه أكمّد نحاسي مطيع وديع الأخلاق «وقاسم من معان» لونه أصفر ليموني، فكاه نائمان، وكان هذا الأخير قد التجأ إلى الحويطات لقتله موظفاً تركيا في مناقشة حادة على ضريبة مواشي، وكنا نرثي لحال مرتكبي الجرائم ضد الجبابة فاستفاد قاسم من هذا العطف، رغماً من أن أخلاقه لا تستحق هذا المبدأ الرّئيف؛ وربطنا الأحمال على الحيوان عند هبوط الليل، وأخذنا الطّريق، وكان دليلنا ناصر قد خبر تلك الأرض فكان كأنها أرض بلاده، فسرنا على ضوء القمر الصّافي وتحت القبة ساطعة النّجوم، وسار أمامنا ناصر وهو مأخوذ اللب يحن إلى داره وأهله، وكان يكلمني عن بيته المبلط بالحجر، والمسقوفة حجره بالحجارة المعقودة اتقاء حر الصّيف، وعن حدائقه المملوءة بالغراس المثمر وطرقها المظلمة بالأغصان الخضراء الملتفة، يمرّ تحتها الإنسان فلا تنفذ إليه الشّمس، ووصف لي البئر وطريقة أخذ الماء منها بدلاء من الجلد تربط في جبل جرار على بكرة متينة براكوبة مرتفعة فوق فتحة البئر. ثم ترفع تلك الدّلاء مناوبة وتفرغ في حوض مثقوب يمرّ منه الماء إلى المسكن ثم إلى القنوات لرّي الحديقة، وحوض السّباحة الكبيرة المصقول «بالإسمنت» المظلل بالدّوالي المتسلقة والمتسللة على أعراض من خشب. فهناك كان ناصر وبيت أخيه ينعمون بحمام الظّهيرة.

كان ناصر حزينا منقبض القلب تظهر على وجهه بشاشة إلّا أنّها كانت كاذبة، وسألني تلك الليلة باستفهام إنكاري: لماذا! أنا أمير المدينة الفتى المقتدر النّاعم بالحياة الهادئة في قصري وحدائقي. لماذا تركت كل ذلك لأكون قائداً خاملاً وأجاذف في الصّحراء بهذه الرّحلات الخطيرة. ولي سستان وأنا كالمنفي أحارب دون انقطاع في طليعة جيش فيصل. وأكلف القيام بالصّدّات المهلكة وتمهيد طرق الانتصار. إن البئر العظيمة

نفسها التي تنن منذ ستمئة سنة وتدور بمروحها الرّحوية قد صمنت وصامت!!
وشر البكرات الصّائمة! وبارت الحديقة وتشققت أرضها لشدة الحر والعطش،
أصبحت جرداء قاحلة كتلك التلال التي نتغلغل بينها.

وبعد أن سرنا أربع ساعات توقفنا قليلاً ونمنا ساعتين، ثم تابعنا السّير. وخارت
قوى التّوق الحمولة من شدة الجرب الملعون الذي أصابها في الوجه، فكانت تتباطأ
وترعى الحشيش الضّئيل على حافتي الطّريق. وكان بإمكاننا نحن الرّاكبون على مطايا
خفيفة الحمل أن نسبق القافلة، لكن عودة لم يرض بذلك ومن الواجب علينا أن نرفق
بسطايانا للسّاعات الحرجة. فسرنا ست ساعات تحت الشّمس المحرقة وانعكاس
أشعتها على الرّمال البيض والصّخور الملّس العارية منذ خروجنا من الوجه، وكان
سهرنا ويقذفنا بأموّاج من اللهب الخانق. فاستولى علينا دوار شديد. وأراد عودة أن
ينبع المسير فاعترضنا بشدة وترجلنا وتمدّدنا تحت ظل الأشجار من السّاعة الحادية
عشرة إلى السّاعة الثّانية والنّصف، فكنا نقطع الأغصان الخضر ونلقّوها على رؤوسنا
حي نكثر من كثافة الظّل.

ومشيّنا ثلاث ساعات على أرض مستوية حتى دنونا من انحدار وإدٍ صخري،
دعّاءت لنا جنات الكور الغناء وخيام هرمية بيض تتخلّل النّخيل، وما كادت أقدامنا
طأ الأرض حتى وفد للترحيب بنا راسم وعبد الله ومحمود والطّيب ومولود الشّيخ
ذئك الفارس المقدام الباسل، وأفهمونا بأن الذي نطلب مقابلته في «أبورجا» -
سرحلتنا القادمة - ذهب في غزوة لبضعة أيام، فلم يبق فائدة من إسراعنا، فاسترحنا
بومين كاملين في الكور..

لم يبق في هذه القرية من البدو غير «ضيف الله» الأشيّب الذي يشتغل ليل نهار مع
ناتته في قطعة أرض ورثها عن أجداده واقعة في أسفل الوادي، محاطة بسور من الحجر
ليس لمنع الفيضان، وفي وسط الأرض بئر ماء صاف عذب يرفع بالشّادوف. وهو
ساية عن ذنوفتين من الصّلصال يعترض رأسيهما أفقياً خشبة متينة تحمل في وسطها
معدناً طويلاً، وفي أحد طرفيه دلو وفي الطّرف الآخر مثقلة من طين مجفف أو حجر،

فيشد الدّلو فيهبط في الماء فارغاً ويصعد بخفة ملآن ويفرغ في قناة قرب الشّادوف لتروي الحديقة على هذا التّمط. وكانت سعف التّخيل الآتة تلقي ظلّها الدّائم على الخضرة والمزروعات فتقيها حرّ الشّمس المهلك، فكان «ضيف» يزرع الطّباق وإيراده لا بأس به، ومربعات من الفول والبطيخ والخيار والباذنجان حسب فصول السّنة.

ويعيش هذا الشّيخ مع زوجاته في كوخ من أغصان الشّجر بجانب البئر. وقد أظهر نفوره من سياستنا، وسألنا كيف يتاح للعربي أن يكون أكثر راحة وبحبوحة لدى هذه الجهود القاسية والتضحيات البليغة. وكنا نمزح معه ونشرح له بعض التّطريات عن الحرّية. واستقلال العرب ونزجيه بالنكايّة حتى ننعم بمحادثاته وحماسه، وقلنا له: «ألم يكن من الواجب أن يكون هذا البستان ملكاً لك وبقي دائماً لك من غير منازع». فلم يشأ أن يفهم، لكنه انتفض واقفاً وقرع صدره وقال: «أنا! أنا كَرّ».

فشكرناه لأنّه قانع بقسمته وقد ألقى علينا درساً في الحكمة نحن عبيد التّهم والشّهوة، وشكرناه كذلك لأنّه باعنا من بقوله وفاكهة حديقته، فتحسنت حالة غذائنا الذي كان من المحفوظات التي جلبها لنا راسم وعبد الله ومحمّد.

وكان غناء وعزف حول النّار كل ليلة. فلم تكن تلك الأصوات الحلقية ذات الصّخب العريضة لدى رجال القبائل، ولا تلك الأنغام الشّجية المملة عند بني عقيل، بل مقاطع من الأصوات العالية الرّأسيّة، تقف فترات على الرّبع، ونبرات تتصاعد بنغم سليم كعادة قرى دمشق.

وكان «مولود» يعرف من بين رجاله موسيقيين حين فكان يحضرهم كل ليلة فيعزفون على المزمار ويغنون أغاني مقاهي دمشق وأناشيد قراهم الغرامية!... وكان المعسكر كله يصغي بصمت عميق ويتهدّون من كل جهة لنهاية كل مقطع. إلّا إذا استثنينا ضيفاً الذي تابع خضخضة الماء متأكداً من عودتنا إلى الشّراء من بقوله بعد الانتهاء من هذه الأصوات الخارجة من الحلق. ولم يكن هذا البستان في نظرنا نحن سكان الحواضر سوى تذكارات البلاد التي كنا نعيش فيها، بيد أنّه لم يقصّ علينا جنون الحرب ولا نزال على قيد الحياة! ولم نكن بعد قد انخرطنا في مجاهل الصّحراء.

أما عودة فكان يعتبر عرض مثل هذا الخصب الزراعي مفسدة وأي مفسدة!...
وكان يطمح بنفسه إلى أفق الصحراء الأكثر خشونة، ولذلك قد قصرنا ليلتنا التالية،
ليلة التعميم الفردوسي، ورحلنا عن ذلك المكان في الساعة الثانية صباحاً متابعين خط
الوادي. وكان الليل حالكاً وضوء النجوم أضال من أن ينير المعابر الضيقة التي كان
ملينا أن نخترقها، وعلى رأسنا عودة يوقر آذاننا ويسحق رؤوسنا بصياحه وينهئها بهذه
الأنشودة الحويطية الحماسية هو! هو! هو! الموقعة على ثلاثة أنغام عالية صاعدة ولم
يكن نفهم منها شيئاً، ومع ذلك قد شكرناه بعد مدة على هذه الألحان عندما اخترقنا
مفريقاً في غاية الالتواء لم ننح من التيهان فيه إلا بفضل صدى صوته! وتوقفنا عند طلوع
الشمس للاستراحة، لأن تلك المرحلة في الظلام كانت شاقة للغاية. ولم يكن معنا ما
ياكله غير طحين الحملة فخففنا شيئاً عن ظهور جمالنا المسكينة. أما «شرف» فلم
يكن قد عاد إلى «أبو رجا» فليس من الضروري إذن أن نحث ركابنا. بل علينا أن نسير
الهويني قدر ما يسمح لنا تمويننا بالماء. وكنا كالأمس نتفياً تحت عباءتنا المنشورة
على الشوك ونتقل مع الفيء اتقاء الشمس المحرقة، ولكنه لم تكن لدينا وسيلة لاتقاء
غيوم الذباب الذي كان يضرب سرادقات على أجسامنا.

وبكرنا الساعة الخامسة صباحاً وتابعنا السير والوادي يضيق بنا، فدرنا حول أكام
ذات انحدار خفيف فتسلقناها، فبلغنا طريقاً ضيقاً بل مدق حوافر الماعز يتلوى
كالثعبان على جوانب تلك التلال، فترجلنا وقدنا المطايا نسير أمامها حبواً، ولم نلبث
أن تعاوننا على المشي خوف السقوط إلى أسفل، ومن ورائنا عبيد يحثون النوق ومن
أمامنا عبيد يرتون على صفحات أعناقها ويزجونها بأصواتهم لتتابع السير وتتجلد
عند الممرات الوعرة. مع مراقبتهم لتوازن الأحمال على ظهورها، وهي في كل لحظة
مهتدة بالسقوط.

ولقد بلغنا معابر بين الصخور كانت خطرة حقاً، وكانت المطايا تنطرف إلى الحد
الأقصى من تلك الطرق، فتكاد تصطدم أحمالها بالجلاميد فتهوي إلى غور الوادي،
فالتزمنا أن نعيد شد أكياس الطحين والمتفجرات على ظهورها. ومع كل حرصنا قد

فقدنا في طريقنا هذا جملين أنهكهما التعب. وجهاز عليهما بنو الحويطات في المكان الذي توقفنا فيه عن السير فقطعوا أوردها بسكاكين ماضية وتقاسموا لحمهما في الحال.

ولما عبرنا المضيق تراءى لنا واد طغى عليه الرمل وغطته بعض الشجيرات، واتخذ انحداراً قليلاً، وكلما قطعنا مسافة من ذلك الوادي ومررنا بمهاوٍ عميقة تتجلى أكوام الرمال في الأفق تحت ألوان الفجر البنفسجية. وبعد سير ساعة في ذلك الوادي المنحدر، دخلنا في مضيق رسم عليه طريق قادنا إلى وادي «جزل» بعيد الغور يبلغ اتساعه المئتي متر.

فنصبنا خيامنا فوق أحد الكثبان المرتفعة ذات الحشيش الرديء، ومن حولها أرض رسبت عليها طبقة من طمي الشتاء تتخللها أضحال من الماء. وقد أرسلنا رجلاً يخبر «شرفاً» بوصولنا، وقد أبصرنا على البعد خيامه مضروبة فوق الوادي بين مشذب من شجر الغار الوردي. وكان بانتظارنا منذ أمس. فقضينا ليلتين في هذا القاع الموحش بين الجدران الصخرية التي تردد صدى حركات المعسكر. وكان مأوّه الأجاج نعيم إبلنا ونعيم جلودنا عندما ارتمينا فيه عند الظهيرة، ثم تغذينا وملنا إلى قيلولة طويلة ثم نهضنا نتنزه في منحنى الوادي وتأمل، ونعجب من هذه الصخور المكونة من الرواسب المطبقة طبقات أفقية مختلفة الألوان من وردي وكستنائي وأصفر وأحمر تتمازج وتحل إلى لون تغلب عليه الحمرة، وتصبغ هذه الجلاميد المنتصبة بلون مميز غريب، وكنا نلهو بتكسير هذه الطبقات الملونة كأنها من مستدق الخذف، فتساقط بألوانها المتعددة إلى أسفل الصخر، وقضيت ما بعد الظهر أستنشق الهواء الناعم الدافئ منفرداً متكوماً وراء صخرة مصففة كالحظيرة صنع أحد الرعاة ليزرب فيها قطيعه. وأسمع بلذة اصطدام الهواء من فوق رأسي بالصخر الذي يقيني من هبوبه ليمر بالوادي فينشر عليه عبير السلام.

وكنت أحلم وعياني مطبقتان فسمعت صوتاً قريباً، وإذا بمجهول من بني عقيل وهو بحالة اضطراب يدنو مني ويرجو أن أشفع لصديقه عند سعد شيخ بني عقيل كي لا يقيم

عليه حدّ الجلد. لأنّ صديقه فزّاجاً حرق خيمتهما مزاحاً. ثم وصل سعد فاستطلّعه الخبر فأخذ يقصُّ عليّ القصّة والرّجل مبعوث فاغر الفم مقلص الشّفتين، تتدلى على عينيه أهذاب طويلة من أجفان مختلجة.

ولم يُرض خطاب سعد هذا الأحمق المدعو داود. لأن الصّاحبين كانا يفعلان مساوئ عديدة بين آونة وأخرى، حتى أنّ «شرفاً» في المرة الأخيرة أمر بمعاقبتهما بشدة ليكونا أمثلة وعبرة لغيرهما، وجل ما يمكنهم أن يراعوا خاطري به هو أن يقاسموا داوداً القصاص! فانتفض داود سروراً لهذا التّصيب وقفز إلى يدي وقبلها وقبل يد سعد وأخذ يتوقل على صخور الوادي بينما كان «سعد» يروي حكايات هذين الأحمقين!..

إن فزّاجاً وداوداً يمثلان تلك العاطفة التي لا بدّ من أن تنمو وتزكو بين شابين محرومين من كل امرأة!... والصّداقة من هذا التّنوع تؤدي حتماً بين رجلين إلى حب وشغف عميقين.

وفي اليوم الثاني لم يحضر شرف فقضيت سحابة الوقت قبل الظّهر بالمداولة مع عودة عن مرحلتنا الآتية، بينما كان ناصر يلهو بإشعال عيدان الثّقاب أمام خيمته ويرسل شراها إلينا. ونحن جدلان ناعمان بحديثنا الهادئ، مرّبنا سراعاً شكلان مقوساً الظّهر بعيون رسم عليهما الألم وشفاه قلصتها ابتسامات مصطنعة وسلّما علينا. وإذا هما داود حدّ المزاج وفزّاج صديقه. وكانت عينا فزّاج دامعة لركة مزاجه ونحوه وتخته وملامحه العذبة البريئة، ثم وقفّا تجاهي وتقدما لخدمتي، فلم أكن بحاجة إليهما وأفهمتهما بأنهما لا يقويان على ركوب الخيل بعد ضربهما بالسّياط فأجابا بأنهما ركبا إليّ على ناقة عارية. فقلت لهما أنا رجل رقيق الحال لا أقوى على خدم يحيطون بي، فأدار داود ظهره مدمماً غاضباً، أما فزّاج فأغرق في الإلحاح وقال نحن نخدمك بكل عواطفنا حتى نبدي لك شكرنا وإنك لا محالة محتاج إلى الخدم. ثم تقدم إليّ ناصر وركع أمامه كي يشفع لهما عندي وعرض كل ما لديه من العواطف الجذّابة لكي يقنعنا بصدق رغبته. فأذعنت نهائياً لمشورة ناصر واستخدمتهما عندي، يشفع لهما شبابهما ومظاهر نظافتهما.

ولم يصل «شرف» إلا صبيحة اليوم الثالث فقد أخذ أسرى على الخطوط الأمامية

وضرب خطوطاً حديدية وهدم جسراً، وأخبرنا بوجود مياه في وادي درعا على الطريق التي سنسلكها، قد تجمعت في المنخفضات بعد المطر الأخير. فبعثت فينا هذه الأخبار بارقة أمل إذ إننا لا نكون محرومين من الماء مسافة الخمسين ميلاً حتى نبلغ «فجر» فتركنا «أبورجا» صبيحة اليوم التالي، وقادنا عودة في وادي ثانوي اتسع أمامنا في سهل «شقّ» الرّملّي. وعلى هذه الرّمال شتات من الجلاميد كأنها قطع من الجليد والطريق تدور حول هذه الجنادل الهاوية المتآكلة قواعدها بفعل الحرارة والمطر والهواء والتي تحسبها تسد عليك المنافذ فإذا لها معابر خفية لا تراها إلّا إذا بلغت إليها. أما عودة فكان يسير على هدى، حاثاً هجينه بفخذه رافعاً يديه محاذاة كتفيه.

ولم يكن من أثر لأقدام على الرّمال لأنّ الصّبا يسفي الرّمال سراعاً فتعفو الرّسوم ويجمعها كثنائاً ثابتة متجمعة كأمواج البحر داعبها الرّيح، غير أن بعر الجمال الخفيف وروث البغال الهش يتدحرج مع الهواء الخفيف ويتكون في الحفر هنا وهناك. وربما كان هذا الأثر الأسود على الرّمّل الأبيض الناصع الدليل الوحيد لسير عودة. فضلاً عن أن عودة كان جريئاً لا يجارى في هذا المضممار لغريزته ودقة شعوره.

ولما توسطنا مرحلتنا لمحنا خمسة أو عشرة من الفرسان يبدو أنهم قادمون من جهة الخط الحديدي. فتقدمت أنا وعودة وشعرنا بالهزة العذبة التي تعترى المسافرين في قلب الصّحراء عندما يلتقي بمجهول ويقول له: «عدو أم صديق» حتى أننا لم نحذرهم فحشّنا مطيئنا وتقدمنا شاهري السّلاح لإطلاق النّار عند أول حركة تريئنا. ولم نلبث أن تبيناهم غرباء عن رفاقنا البدو. وعن الدّيار. الأول يركب هجيناً غليظاً بدون اهتمام على الطّريقة الأوربية وعلى سرج من خشب كالسّروج التي تصنع في مانشستر لفرقة الهجانة البريطانية، وكان إنكليزياً ذا شعر أشقر ولحية كثة وبزة مهلهلة شبارق، فقدرت بأني سألتقي بـ «هورنبي» تلميذ «نيو كومب» المهندس الشّجاع المغوار الذي كان يزاحم أستاذه في فن تعطيل الخطوط، وبعد أن تبادلنا التّحية - وكانت أول مرة تعرفت إليه بها - أخبرني «هورنبي» بأنّ «نيو كومب» سافر إلى الوجهة مؤخراً ليتحدث إلى فيصل عن الصّعوبات التي لقيها والتي يجب تذليلها.

وقبل غروب الشمس بلغنا الحدود الشمالية لتلك البقعة ذات الصخور المكونة من تلاحم الحصى والرمل. وتابعنا السير إلى أن بلغنا نجداً مبعثرة عليه مثل تلك الصخور. إلا أن هذه القطع السود المرمرية الكثيرة العدد الصغيرة الحجم كانت تغطي الرمال كالحصى الملس على شواطئ البحار.

وكانت عتمة لا يضيء فيها غير شعاع النجوم الذي تمتصه كمدة الأرض.

وتوقفنا الساعة السابعة فلم يتمكن من اللحاق بنا سوى أربعة أنفار وانشر الآخرون وراءنا كالعقد المنفرط، وإذا بنا في وادٍ لين يشقه مجرى سيل لا يزال ندياً موحلاً، ومن جانبيه نبات غزير شائك، ولكنه للأسف لا يصلح مرعى لمطايانا فأخذنا منه شيئاً كثيراً وكومناه فأضرم عودة فيه النار، وإذا بأسود طويل خرج من بين الأغصان وانسل بيننا فكنا عند قول المثل: كحاطب ليل. فأجهزنا عليه وألقيناه في النار، ثم اشتد اللهب وتصاعد في الجو مشعلاً غريباً فأضاء فضاءً واسعاً، فأبصرنا جمالنا متصل تباعاً مثقلة بالأحمال. وكان الرّجال يغنون ملء حناجرهم لتتشجع الجمال وتقوى على السير، وعلى تحمل الجوع الفاضح في تلك الصحراء القاحلة، ليفهمونا بأن القادمين أصحاب لا أعداء.

وضلّ قسم من الجمال في البرية طلباً للمرعى، فطاف الناس عليه حتى تمكنوا من إعادتها، وكان عندنا متسع من الوقت لنعجن ونخبز الملة بالملال ونفطر عند الفجر، وتابعنا السير فجزنا حقلاً من الحمم البركانية لكننا شعرنا بالنشاط والراحة، وظهرت لنا الصخور زاهية والرّمال جافة ثابتة كأرض ملعب «التنس!»، ومشينا شوطاً واحداً إلى الساعة الثالثة بعد الظهر مرغمين لا مختارين، لأننا خشينا أن تدمى أخفاف إبلنا على تلك الأرض المملوءة حجارة مكلّسة حادة الأطراف بفعل الشمس والعوامل الطبيعية الأخرى. وقد تعودت الإبل أن تطأ الأرض اللينة على سواحل البحر فتتوقف عن التقدم! ثم استرخنا. وما كدنا نثبت على سروجنا حتى قابلتنا صخور عظيمة مشتة، فدرنا حولها لنخلص من الحجارة ذات الزوايا الحادة، ومن مستنقعات ذات ماء أخضر آسن.

وكانت تلك المكسرات من الصخور مشحودة الجوانب كشفرات الخناجر تنتشر عن تلك الصفائح التي هي أشبه شيء بمغاور وبنابات للإنسان الأول، تنذر بالسقوط

اليوم وغداً، ومالبت تلك الجنادل أن تكاثفت وتجمعت أماننا كما في اليوم السابق، فحاولنا الانخراط بين عاتمها ومضيئها.

وعدنا إلى تعجبنا من مهارة عودة الذي يقودنا في هذا التيه من الصّخور. وما أن خرجنا منه حتى وقعنا على أرض بركانية جديدة لها فوهات متجمعة اثنتين اثنتين وثلاثة ثلاثة. وسيول من الحمم تنفرش على سطح التلال. وفي بعض الأماكن حجارة ملس صغيرة مربعة تتكوّم بمرور الزمن على أرض حمراء.

وكانت خطى المطايا منذ أقدم العصور تتجدد على هذا الطريق وتترك أثراً ظاهراً ضارباً إلى الزرقة.

أخيراً، أرانا عودة عرفاً يبلغ علوه الخمسين قدماً، يظهر أنه كومة من نتيجة ثورة بركان كان يقذف المرمر فتساقط على بعضها ملتوية متقلصة لولبية قمعية الخ... وتتجمد بأشكالها فجأة، ثم انتهينا من الأرض البركانية وأبصرنا سهلاً مفتوحاً أماننا متجمعاً، هو وادي عيسى، رمله ناعم ذهبي تثبت عليه أعشاب قصيرة وأشواك خضر كثة. وقد نقص ماء الحفر في تلك الرملة لأن بعض الناس قد أفرغوها بعد المطر الذي سقط غزيراً ثلاثة أسابيع قبل ذلك، فعسكرنا قريباً من تلك الرملة، وهذه هي المرة الأولى بعد «أبورجا» تمكنا من أن نقدم لركائبنا علفاً كافياً، فتركناها ترعى إلى غروب الشمس.

وبينما كانت مشتة في تلك التواحي، ظهر في الأفق لجهة الشرق رجال على الهجن، يرکضون مطاياهم جهة مورد الماء الذي نحن عليه، وما لبثوا أن أطلقوا النار على ماشيتنا، فأسرع رجالنا يتسلقون الصّخور والتلال ويصرخون بأعلى صوتهم، ويطلقون بنادقهم على القادمين، فتشت اللصوص لهذا الصّراخ، ولهذا الوابل من الرصاص، ورأيانهم في الأفق عند غروب الشمس، يتجهون نحو خطوط العدو. وكانوا يبلغون العشرة أو كادوا. فانشرحت صدورنا لهذه الهزيمة، ويعتقد عودة أنها كشافة لقبيلة شمّر.





الأدميرال وليم بويل
ضابط البحرية البريطانية في البحر الأحمر

الفصل الثامن

الصحراء الحقيقية

استويننا على سروجنا منذ الفجر ووجهتنا «طرة» وهي مرحلة قصيرة نلاقي في نهايتها مستنقعات كان قد حدثنا عنها شرف إلى أن بلغناها بعد الظهر، وكنا على مقربة من السكة الحديدية، فعلينا إذن أن نتزوّد بالماء الكثير فنملأ القرب قبل أن نباشر السفر الطويل إلى «فجر».

ولما توقفنا، تقدم عودة من فراج وداود ليراقب تديليكما هجيني بالسمن، وهي الوسيلة الوحيدة لدينا لتخفيف حكة الجرب التي لا تطاق وقد انتشرت على جلده حتى بلغت فكيه، وقد فتكت المراعي اليابسة بحيواناتنا في بلاد بلي والأعشاب الرديئة حول «الوجه» فتكأ ذريعاً فلم يسلم هجين واحد من هجن فيصل من هذه العلة. وكانت جمالنا الركوبة كالحمولة تضعف وتسقم يوماً عن يوم، فخشي ناصر من أن تنفق هذه الحيوانات البائسة في سفرنا المقبل الشاق، فيضطر كثير من فرساننا التمرجل في قلب الصحراء.

ولم يكن لدينا دواء شافٍ من الجرب، وكل عناية بهذه الجمال كانت ضائعة لا تخفف شيئاً من آلامها، إلا أن هجيني كان يشعر بشيء من الارتياح، كلما تمكن فراج وداود من دلكه إذا أصابا قليلاً من السمن من الدّخيرة، وكان خادماي الحديث العهد يرضيانني بشجاعتهما وبشاشتهما وبحسن ركوبهما واستعدادهما للعمل لأول إشارة.

وحوالي الساعة الرابعة عدنا إلى سروجنا، ونزلنا في وادي «طرة» ومررنا على كئبان مرتفعة متنقلة منحدره انحداراً سريعاً تتخللها أعراف صخور حمر، فصعد بعض

منا إلى مرتفع وهم يُحبون عليه حبواً ليشرفوا على خط السكة الحديدية، ولم تكن في تلك الساعة نسمة هواء، وكنا في غنى عن هذه الرياضة إلا أنها أتت بالفائدة المطلوبة، وكان الخط الحديدي هادئاً موحشاً وسنجازاه بدون خطر.

وتابعت هجنا المثقلة المسير في الوادي حتى اجتازت الخط، ولم تتوقف إلا في الطرف الأقصى من السهل، حيث تمكنا من إخفائها عن الأبصار خلف التلال الصخرية، واشتغل العقيليون في هذه الآونة بوضع المتفجرات على طول الخط، وأضرموها فيها فتائل النار وأسرعوا فانضموا إلينا بنظام، وأعاد إلينا الوادي صدى الانفجار المتواصل.

وكان عودة إلى ذلك الحين يجهل الديناميت وعظم مفعوله، فكان فرحه فرح الطفل بلعبته لما استعمله لأول مرة، وأخذته نوبة شعرية فتغنى بقوة هذه الآلة الغريبة! فاستغربت الحيوانات هذه المقاومة وحاولت التخلص من الأسلاك فلم تفلح فأذعنت للأمر، وانحدرت إلى أسفل التل من جهة الشرق تجر وراءها الأسلاك والأعمدة متشابكة بعضها ببعض، إلى أن ثقلت الأخشاب التي تجرها وراءها فثقلت عليها فامتنعن عن السير، فأخلىنا سبيلها وتابعنا السير إلى أن هبط الليل فاسترحنا جذلين لنجاح مشروعنا.

وعند الساعة الرابعة صباحاً أمر عودة بالرحيل فصعدنا كثيراً من المرتفعات إلى أن بلغنا أعلاها، فانبسطت أمام أعيننا سهول لا حد لها تضيع في الأفق البعيد لجهة الشرق بين الضباب الكثيف الأزرق الداكن. ولما طلعت الشمس غمرت ذلك الفضاء الشاسع بنور متمائل يلقي إلى الأمام أظلال القمم والأعراف الضائعة في تلك الأجواء... إلا أنها كانت رؤية سريعة الزوال، وابتدأت الأفياء تتضاءل وتستدق كلما انبلج النهار وسطع التور، إلى أن اضمحلت كأن إشارة خفية أمرتها بالاختفاء!..

واستولى علينا الصبحر عندما اشتدَّ الحرُّ وماج على تلك الصحراء.

وكان بدو «فجر» يسمون هذه المنطقة «الهول» لو حشتها وقد سرنا النهار بطوله

ولم نر حياة ما على تلك الرمال. ولا أثراً لأقدام غزال أو ضباً أو عصفوراً، وكنا نشعر بأننا صغار جداً في الفسيح الذي لا نهاية له. إن الصمت العميق يسحقنا سحقاً وكل مجهود يضيع عبثاً ما عدا صدى صوت اصطدام بعض الحصى الملساء، بأخفاف إبلنا أو باحتكاك الرمل الحامي المنحدر إلى الغرب، وقد فتتته الأعاصير على كر العصور.

وكان هواء من غير هبوب! له وهج الأتون كأيام الخماسين في مصر، وكلما دنت الشمس من الزوال ازداد الهواء كثافة مشبعة بغبار صحراء «التفود» الكبرى في جزيرة العرب الشمالية، التي كنا على مقربة منها يخفيها عن أبصارنا الضباب الكثيف. وهبت الريح كالزوبعة الصغيرة عند الظهر، تشقت لها شفاها، وتقلصت وجوهنا وجحظت عيوننا من الغبار الدقيق، فأصبحنا في أشد حالات الألم والعذاب إلى أن انقضى النهار.

ولم يكن من الممكن، بل كان من المستحيل علينا أن نتوقف. وكنا نتقي الحر بعباءتنا ليتاح لنا الوصول إلى «فجر» في هذا اليوم سالمين نحن وجمالنا. ولم يكن يخطر لنا أمر سوى اقتراب الليل وسكونه، ورطوبة هوائه وسمائه المتلألئة بالنجوم، فقطعنا خمسين ميلاً واسترحنا. وفي اليوم الثاني بلغنا البئر المنشودة عند الظهيرة وكان عمقها ثلاثين قدماً، وجدارها الداخلي من الحجر العاري وهو دليل على قدمها، ماؤها أجاج إلا أنه مقبول إذا شرب بارداً ويعكر في القرب سريعاً. ويظهر أن أثر الفيضان لم يزل باقياً من السنة الماضية، لأن الجفاف أخذ يطغى على المراعي. فسرحنا المواشي ترعى وأرويناها ثانية، ثم حصرناها في منخفض على بعد نصف ميل من الماء فباتت إلى الصباح.

وهكذا أخلينا سبيل البئر لبعض قاطعي الطرق الذين يغتمون فرصة الظلام ويتزودون بالماء، إلا أن حراسنا لم يسمعوا صوتاً ما.

وحسب عادتنا ركبنا المطايا قبل طلوع الشمس وبلغنا «خبرة عجاج» Khabr Ajaj عند غروب الشمس بعد أن مللنا الركوب والصمت في تلك البادية الخرساء، وكان المستنقع يحفظ مياه أمطار العام الماضي فكانت تصلح للجمال إلا أنها غير صالحة البتة للإنسان. وحسبنا أننا سنلتقي بالحيوانات غير أن العشب كان محشوشاً إلى ما

ساوى الأرض وعكرت مواشيهـم المياه وقد اختفوا عن الأبصار، فسار عودة على أثرهم فلم يعثر عليهم لأن الرّيح أضاءت معالمهم. وكان لنا الأمل بلقائهم إذا تقدمنا نحو الشّمال.

وفي اليوم التالي وهو اليوم الرّابع عشر منذ خروجنا من «الوجه»! كنا في طريقنا قبل طلوع الشّمس على مرتفع من الأراضي الكلسية المغطاة بالرّمال في إحدى زوايا صحراء (التّفود) الكبرى حيث الكثبان المرتفعة تفصل جبل شمر عن صحراء سوريا.

ولقد عبر كلّ من «بالغريف» Palgrave والزّوجان «بلنت» Blunt و«هوبر» Huber و«غرترود بل» Gertrude Bell وغيرهم هذه المنطقة في الزّمان الغابر، وقد طلبت من عودة أن يدور بنا دورة قصيرة حتى نحظى نحن أيضاً باختراقها. فقال لي وهو واثق ومتدّمّر: إنّ المرء لا يُقدم على اجتيازها إلّا مُرغماً وفي بعض الغزوات مثلاً. حتى إن من كان ابن أبيه «أي الشّجاع» لا يجسر على ركوب هذا المركب الخشن على ناقة منهوكة القوى يأكلها الجرب، وغايتنا الوحيدة أن نصل أحياء إلى «عرفجة».

وهكذا تابعنا سيرنا بحكمة على الرّمل الملهب المملّ. وعلى أرض أشد اتقاداً ومللاً، هي أرض «جيعان» Giaan الشّاسعة التي لا نهاية لها، تلك الأرض التي جفّ وحلها فأصبحت ملساء لامعة شهباء منبسطة كورق الشّجر، تصفّعنا أشعة الشّمس الغادرة وتلهب جفوننا المسكينة التي هي أضعف من أن تقى عيوننا وهج الجحيم. وقد كانت تمر علينا من حين إلى آخر موجات من الألم والدّوار فنكاد نسقط عن ظهور مطايانا فاقدى الرّشد. ثم يزول هذا الدّوار أمام شبه دريئة تتراءى سوداء أمام شبكية العين. وفي تلك الفترة القصيرة نقتنص نفساً عميقاً نخزنه في صدورنا بانتظار عذاب آخر.

ولم نعد نقوى على النّطق والكلام، إلى أن دقت ساعة الخلاص، الساعة السادسة فترجلنا وتعشنا خبز الملة الذي خبزناه في الحال ونمنا بسكون وراحة بعد عذاب التّهار اللاذع. إلّا أنّ الليل لم يخل من العواصف ونسف الرّمال. أما عودة فقد تشاءم من اليوم القادم. وخشي إذا دهمتنا زوايع الرّمال أن نتأخر أربعة وعشرين ساعة، وفي

اليوم الثالث نكون محرومين من الماء بتاتاً، ولهذا السبب أمر بالرحيل قبل الفجر حتى بلغنا سهل «البسيطة» ذلك السهل الذي صغره القوم تهكماً لا متداده الشاسع المنبسط إلى ما لا نهاية له، إلا أن أرضه المحصوبة بالحصى السود أراحت جفوننا ولو أنها كانت رديئة تحت أخفاف الإبل التي أصاب أكثرها الوجى من طول الوجيف.

والجمل لا يتحمل الاغتراب إلا مرغماً، وأخفافه اللينة التي تعودت السير على الأرض الرملية الناعمة في سواحل جزيرة العرب، لا تقوى على السير في الشمال على الحصى والحجارة وتحت وهج الشمس الأبدي، فإن جلده يتفلق وتتابه الفقاقيع، ولا تلبث أن تنفجر فينسلخ الجلد عن اللحم فتعترى هذا الحيوان المسكين آلام مبرحة. ورغماً من هذه الحالة المؤلمة يمكنه أن يسافر إلى ما شاء الله على الرمل. أما إذا اتفق واصطدم بحصاة فيعثر ويعرج ويتأخر كأنه يمشي على جمر أو يخطو على قتاد، إلا إذا كان بالغاً حادّ الصبر والجلد والانقياد فيتابع سيره إلى أن تخونه قواه فيتوقف فجأة، وعند ذلك لا سبيل إلى دفعه إلى الأمام ولا إلى الوراء خطوة واحدة.

وكان علينا إذن أمام هذه الحالة أن نسير برفق. وكنت مع عودة أمام القافلة فأراه يتناود يمينه ويسرة ليختار الأرض الخالية من الحصى فيمرّ عليها الركب، وبينما نحن في ذلك أبصرنا نفحة من الغبار تدور أمامنا مع الريح، فقال عودة: «هذا نعام». وركض أحد الرجال إلينا حاملاً بيضتي نعامة كبيرتين بلون العاج. فتوقفنا في الحال لنفطر على هذه الأكلة التي جادت بها «بسيطة». إلا أن الوقود كان أندر من الكبريت الأحمر، فمضيت ربع ساعة لم نحصل فيها بعد التفتيش إلا على حزمة من القش الهش وبينما الركب يمرّ أمامي وقعت عيناى على حزم الغراء المفرقع وهي (مادة الجيلاتين تمتزج مع المفرعات) ففتحنا ربطة وأخذنا نلقم النار بسراند الهلام (الجيلاتين أيضاً) شيئاً فشيئاً حتى قدرنا أن ننضج البيضتين المعلقتين بين اثنتين وترجل ناصر ونسيب وأخذنا يهز أن من طبختنا ومطبخنا، ثم أخذ عودة خنجره ذا التصاب الفضي وأعمله في قشرة إحدى البيضتين فانشقت عن رائحة ننته لا تطاق. فهربنا منها مسرعين ودحرجنا - ككرة القدم - البيضة الثانية الحامية إلى أن بعدنا بها عن الجيفة! وكانت هذه طازجة إلا

أنها من الداخل صلبة كالحجر، فوضعناها على شظية من الصوّان، صحافنا الفريدة في الصحراء وتساردناها. حتى أنّ ناصراً نفسه الذي لم يتدنّ إلى أن يمدّ يده إلى مثل هذه البيضة قد اقتنع أخيراً وشاركنا في وليمتنا، ولم نجهل أن طعامنا كان جامداً ييساً، إلّا أنّه في «البسيطة» كان لذيذاً!..

وقد اكتشف «جهل» أثر غزال فوقف في فترة إلى أن توفّق إلى صيده فقطعه قطعاً وعلّقه على الجمال المحمولة إلى أن نبلغ آخر المرحلة. وعدنا إلى السّير وقد أبصر بنو الحويطات غزلاً أخرى ولحمها شهّي لدى أولئك القوم. وكانت هذه الحيوانات البُله تهرب قليلاً ثم تقف وتُنظر إلينا بعيونها النّجل الكحيلة، بينما الصّيادون يسرون إليها خفية ويقتنصونها. وكانت بطونها البيض تخونها وتدل عليها على حد المثل: «دلّت على أهلها براقش» لأن السّراب يزيد في حجمها فتظهر البقع البيض كبيرة فاضحة لحركاتها.

وكنت أشعر من نفسي بالضجر والسّأم بحيث لم أשא أن أتحنّ عن الطّريق القويم لكي أصطاد أندر حيوانات في العالم. فتابعت طريقي ووسعت قلوصي الخطى فبلغت رأس القافلة. وكان رجالي في المؤخرة يمشون على أقدامهم لأنهم خشوا أن تنفق مطاياهم إذا هبت عاصفة بشدة، فكانوا يقودونها برفق على أمل الوصول إلى آخر المرحلة بسلام.

وكنت أقارن وأعجب من الفرق بين محمّد البدوي الشّديد الضّخم وبين فزّاج وداود مثالي عقيل في الخفة، يقفزان على أقدامهما العارية ولهما عضل دقيق متين كأنهما فرسان موصولتان. ونادينا أفراد القافلة فكان قاسم غائباً فاعتقد رفاقه بأنّه مع بني الحويطات نظراً لطبعه المقبض الموحش على غير ما هو عليه الجنود من المرح. وكان يحن إلى البدوي الذي يشبهه في كثير من طباعه، ولم يكن أحد متلکئاً من الرّجال، فتراجعت إلى المؤخرة لأرى حالة مطية قاسم فوجدتها من غير راكب، يقودها أحد بني الحويطات، والخرجان والبندقية والرّاد كلها معلقة بالشرج. فقدّرنا بأن قاسماً البائس قد ضلّ في البرية، لقد كان الموقف حرجاً. إذ إنه من المستحيل أن ترى قافلة

بكاملها على بعد ميلين بين الضباب والسرّاب. وإنّ هذه الصّحراء لا تترك عليها أثراً.
فمن المستحيل أيضاً أن يلحق بنا قاسم على قدميه!..

وتابع الرّجال سيرهم معتقدين بأنّ قاسماً تائه بين القافلة. وقد كان الطّهر فإذا حسبنا
الوقت الذي مضى يكون قاسم على بضعة أميال إلى الوراء، وحمولة جملة تدل على
أننا لم نتركه نائماً منذ أن مشينا عند الفجر.

واعتقد العقيليون بأنّ السّموم قد صفعته فسقط عن ظهر مطيته ميتاً. ومن المحتمل
أن يكون قد ذهب ضحية انتقام. وبالاختصار لم يكن أحد يعرف من الأمر شيئاً. ولم
يهتم له أحد لأنه كان كالغريب بينهم لأخلاقه الشاذة!..

لم يبق شك في أن قاسماً أصبح في عداد الأموات. وللأسف لم يكن هناك شك
أيضاً في أنّ محمّداً - مواطنه ورفيقه في العزلة - يعرف طرق الصّحراء، ومن تحته
هجين أنهكه الإعياء فلا سبيل إلى التفكير بأن نرسله للتفتيش عليه.

ونظرت إلى رجالي المشاة نظرة حائرة وتساءلت، إذا كان من الممكن أن أسير على
الأقدام مع القافلة وأتنازل عن قلوصي لأحدهم فيعود إلى الوراء. وكان من البديهي
أن يعتقدوا بأنّي أنا الغريب البسيط أتقاعس بحق بل أرفض القيام بهذا الواجب. إلّا
أنّ هذه الحجة تقام عليّ لا لصالحني، فكيف يمكنني أن أجابه بها وقد تعهدت منذ أن
وطأت الصّحراء بأن أعاون العرب بجميع الوسائل في حال عصيانهم. ومع ذلك فإنه
نسن الصّعب على الأجنبي أن يضغط على وطينة شعب آخر. لأنه لمن الشاق جداً على
مسيحي حضري دائم القعود أن يقود قبائل رحلاً من المسلمين، وكنت أكون وقفت
موقفاً غريباً، لو أنّي طالبت بامتيازات هاتين الحالتين الواحدة أوربية والأخرى عربية.
وعليه رأيت أن لا أطالب القوم بالتفتيش على العبد الضال، وأستحث وطينتهم، وأن
لا أتقاعس عن القيام بهذه المهمة الخطرة بنفسني!...

وأدرت رأس هجيني دون أن أنطق بكلمة فعاند وحرد، فأرغمته على أن يترك رفاقه
ويمرّ بالقافلة مودعاً ويضرب في صحراء لا نهاية لها عائداً أدراجه إلى الوراء. ولم

أشعر قط بروح البطولة في نفسي لأنني كنت حانقاً على خدمي الآخرين، وحنقاً على ذاتي لأنني أمثل دور البدوي، وحنقاً على قاسم ذلك التكررة المقبض الذي كان يهم بالانسحاب لأقل سخرة، على ذلك الشخص ذي الطباع السيئة المخاتل الشرس الذي ندمت لاستخدامه، ولقد صممت على الاستغناء عنه عند أول بلد أمين، أليس من سوء التصرف أن أغرر بنفوذ في قضية العرب من أجل رجل واحد لا قيمة له البتة.

ولقد شاركني قلو صبي رأيي دون شك لأنه مازال يحرد ويهدر ويتلصكاً، وهذه هي عادة كل ناقة تهان وتشاكس! إلا أنها عادت إلى الصواب بعد أن قطعت ميلين، وأخذت تسير من غير انحراف إلا أنها تبطئ لتبدي عدم الرضا.

لقد كنت في الأيام الأخيرة أخط مقاييس الطريق ببركاري الزيتي، ولهذا قد اعتقدت أن أبلغ أول المرحلة سبعة عشر ميلاً إلى الورااء.. وقد مرّ عليّ نصف ساعة وأنا أسير سيراً حسناً، لأنني تمكنت عند هبوب الصبا أن أرفع الحجاب عن عيني، وأنظر إلى الأفق بدون عذاب شديد إلى أن أبصرت فجأة جسماً غريب الشكل، ربما أن تكون عليقة ضخمة وعلى كل حال إنه شيء أسود متكوم. غير أن السراب الخادع كان يخفي العلو والمسافة، وابتدأت ألحظ بأن هذا الجسم يتحرك قليلاً على يمين الطريق، فأملت عنان مطيتي للقدر ولم ألبث أن تبينت قاسماً الملعون. فناديت فتوقف مخزياً. فدنوت منه فوجدته مبهوراً وذراعه ممتدتان إليّ، وفمه فاغر جاف. وكان بنو عقيل قد أفرغوا ما بقي من الماء في قربتي فقدمته له فأخذه مسرعاً وأهرق القسم الأكبر منه على وجهه وصدره ثم أخذ يش من شقائه. فأردفته وأسرعت إلى الأمام. فاستأنس هجيني باعتدال الطريق وتنسم ريح القافلة فسار يوسع خطاه رغماً من ازدواج حملة. وأحياناً يمدُّ بعنقه ويحني رأسه ليميز أثر الركب على أرض ناعمة.. تلك صفة في هذه الحيوانات تكتسبها بالسليقة والمران.

فعجبت لغريزة هذا الحيوان اليقظ كما أنني سررت لرجوعي سريعاً، حاملاً لقيتي ورائي وما فتئ قاسم يئن من شدة عطشه أنيئاً مشجياً، فحاولت عبثاً أن أسكته. فكان كالأصم لدى أوامري. بل ازداد نواحه وتقلقله على كفل مطيتي يتناود يمناً ويسرة

كالسكران مما كدر علي صفائي وأثار غضبي. وخشيت أن ينهك المطية بهذا التقلقل والاضطراب على كفلها.

فدعوته لآخر مرة كي يمتنع عن هذا الصخب فزاد عناداً وصراخاً! عندئذٍ صفعته وحلفت بأن أرميه إلى الأرض لأول آنه يثنها. فأيقن بشدة غضبي وأني جادّ في تهديدي فاعتدل وارعوى، عابساً حارداً، إلا أنه لم ينبس بكلمة.

فسرت أربعة أميال إلى أن أبصرت فقاعة من الهواء سوداء تركض وتترجرج أمامنا في السراب. وما لبثت أن انقسمت إلى ثلاث كل واحدة منها تنبسط وتتعاظم كالرؤيا في الأحلام، فتساءلت ربما كانوا أعداء، لكن جزعي لم يطل فقد اضمحل ذلك البخار بسرعة شأن هذه الظواهر الغريبة في الصحراء، وتبينت عودة ورجلين من رجال ناصر قادمين للتفتيش عليّ! فأفرغت جعبتي قادحاً مازحاً مستهزئاً مؤنباً بسخرية وهذر تركهم رفيقاً في الصحراء هدفاً للموت المحتم! فقبض عودة على لحيته وزمجر، ثم قال: والله لو كنت حاضراً لما تركتك تخطو خطوة واحدة وراء هذا الكلب. وأمطروا قاسماً وابلأً من الشتم والتعنيف ورموه على ظهر حيوان وسرنا جميعاً هملجة.

ولم تمض ساعة حتى اجتمعنا بناصر ونسيب على مرأى من القافلة. وكان نسيب حانقاً عليّ لأنني جازفت بحياة عودة وحياتي لهوس جنوني، وكان نسيب يعتقد بأنني حاسب أن لا بدّ «لعودة» من اللحاق بي والتفتيش عليّ!.. إلا أن ناصرأ هاج لهذه الملاحظة الخالية من الشّهامة. أما عودة فلم يخف ارتياحه لتنديدي بحضري مثل نسيب ولإلقائي درساً في الفروق بين القبيلة والمدينة، مقابلاً بين مسؤولية المجموع وتأخي عصابات الصحراء من جهة، ومن جهة أخرى بين الاستئثار بالنفس والتزاحم القاسي الذين ينهشان الأوساط المزدحمة بالسكان.

وقد كلفنا هذا العارض ساعات طويلة ومع ذلك كنا نشعر بأن النهار يطول ولا ينتهي، وقد ازداد الحر احتداماً فأصبحنا أقل احتمالاً له من أي وقت آخر. وكان نواسف الزمل ولوافح الشمس تتركب غيوماً من الغبار، وترتج أمواجاً من اللهب أمام المطايا فتوقف سيرها وتشوي وجوها وتغطيها بغبار من الكلس. وسرنا على أرض منبسطة

إلى السّاعة الخامسة إلى أن اعترضت طريقنا مرتفعات، فجزناها إلى تيه من الكثبان يتخللها الحمر فعاودتنا الرّاحة والهدوء. وإذا بنا داخل حدود «وادي السّرحان».

وقد حبست التلال والأشجار أنفاس الهواء. ومالت الشّمس إلى المغيب تضيئنا بنورها القرمزي... فدوّنت إذن في صحيفتي بأن السّرحان جميل!..

ولم يكن لدينا جرعة من الماء وبالطبع لم نأكل شيئاً. فكان ليل الحرمان!! إلّا أنّ الأمل بوجود الماء في الصّباح هوّن علينا الرّقاد.

ولم ننس أن ننام على بطوننا لتخفيف ألم الجوع ولمنع الحوية وهي خاوية من الانتفاخ. ومن عادات العرب أن يرتووا قدر طاقتهم ويخزنوا الماء في معدهم إلى أن يشربوا من البئر القادمة، وإذا تزوّدوا ماءً فإنهم يهرقونه هدرأً عند أول توقف للشّرب وعجن الملّة.

وبكرنا في الصّباح نتسلق تلاً بعد تلٍّ من تلك التلال المنفصلة عن بعضها بسهولة تبلغ الثلاثة أميال اتساعاً. وعند السّاعة الثّامنة ترجلنا عند آبار «عرفجة» وسمى هذا الثّبت الشّائك العطر كذلك لانتشار رائحته الزّكية.

وكانت الآبار غير مكّلسة يبلغ عمقها الثّمانية عشر قدماً، وماؤها لزج عكر ذو رائحة قوية وطعم أجاج، إلّا أننا شربناه بشره ولذة. وكانت حول البئر مراعى نضرة لحيواناتنا، فقرّرنا الإقامة يوماً كاملاً لنستريح.



الفصل التاسع

ولائم لدى القبائل

وفي اليوم الثاني كانت مرحلة هيئة إذ شبت الجمال ورتعت على منابت الحشيش ومناهل المياه يوماً كاملاً، وبلغنا بعد خمس ساعات إلى منخفض واحة من النخيل القصير سيئ النمو المختلط بشجر الحمر. وكان الماء غزيراً وأقل ملحاً من ماء عرفجة، غير أن مياه السرحان تعرف عند الاستعمال! وإذا كانت مقبولة الطعم عند الظم الشديد فإنها لا ترغي الصابون، وإذا حُفظت في وعاء مقفل يوماً أو يومين اكتسبت رائحة كريهة تشغل البال، وطعماً يفقد كل لذة القهوة والشاي وخبز الملة.

لقد نفد صبرنا حقاً واكتسبنا شقاءً في وادي السرحان رغماً من تهليل نسيب وزكي لهذه الزاوية من الصحراء، إذ كانا يحلمان منذ ذلك الوقت بغرس الأشجار والمزروعات في ذلك الوادي على حساب خزينة الحكومة المقبلة. فكانت هذه الأحلام تبين عقلية السوري الحقيقية! فإن رجال دمشق يهوّنون كل شيء، إلا أنهم يسرعون إلى إلقاء المسؤولية على ظهور جيرانهم.

ولقد قلت مرة لزكي: إن هجينك مغطى بالجرب! فأجابني بحزن: للأسف! وبالأسف! ولكننا سندهنه بالمرهم عند غروب الشمس.

وعند المرحلة الثانية أعدت الحديث عن مرض جمالنا. فقال له زكي:

- «لقد خطرت لي فكرة طيبة، إننا عندما يتم إنشاء حكومتنا الجديدة ونكون أسياد دمشق الحقيقيين سننشئ مكتباً للطب البيطري، وللجراحة، وللطب الآدمي،

ومستشفى لتعليم الطلبة، وللجمال وللخيل ولللحمير والبقر، ولم لا يكون للغنم والماعر أيضاً، وسنشئ معامل للتحليل الميكروسكوبي، والدّروس العلمية لجميع أمراض الحيوان ومعالجته. ثم... ما رأيك في إنشاء مكتبة فنية تحتوي على الكتب الأجنبية؟! ومستشفين داخلية تخفف عن مستشفيات المدينة. ويكون لكل ذلك مفتشون يطوفون بجميع هذه الإنشاءات».

وهكذا بفضل زكي ومعاودة نسيب قطعت أوصال سوريا وقسّمت إلى أربعة تفاتيش عامة وإلى عدد من التفاتيش الثانوية!.

وفي اليوم الثاني عدنا إلى الحديث عن الجرب. وقد نضجت فكرة الإنشاء في ذلك الليل واهتموا في الصّباح لتحقيقها. «لمن المشروع ناقصاً يا عزيزي، لأن من طبعنا أن نحب الإتقان في كل عمل. وأنه ليسوؤنا أن نراك ترضى بالقليل وتقع بما هو حاضر. وعلى كل حال فهذا نقص في عقلية الإنكليزي».

فأسرعت إلى مجاراتهم وقلت: «يا زكي، ويا نسيب ألا يقودنا الإتقان ولو في الأعمال الدنيئة إلى نهاية العالم. وهل أصبحنا أهلاً لأن نصل إلى الكمال؟ لكل شيء إذا ما تم نقصان، فإني عندما أغضب أطلب من الله أن يقذف أرضنا في جوف الشّمس المتقد كي نقي الذين لم يولدوا بعد من الشّقاء. ولكن لما يفيض عليّ السّرور أطلب إليه تعالى أن أكون متفياً دائماً أبداً في الظل، إلى أن أتحوّل إلى ظل».

فتملماً من تهكمي وانتقلا إلى الحديث عن تربية الخيل. وبعد ستة أيام نفق الجمل الأجرّب المسكين. وقد لاحظ زكي نفسه بأنه نفق لعدم الاعتناء به. أما عودة وناصر وجميعنا فقد حافظنا على حيواناتنا ولازمنا تدليكها ودهنها فبقيت في حالة حسنة. وربما يمكننا أن نجانب الخطر إلى أن تبلغ إحدى المعسكرات المستعدة لمعالجة الحيوان بالأدوية الفعّالة.

وتقدم فارس نحونا فتأملناه. فلم يلبث بنو الحويطات أن عرفوه ونادوه باسمه. فكان أحد رعيانهم، فتحدثوا بصوت خافت وسلموا سلاماً هادئاً على طريقة سكان

الصّحراء، لأن الصّوّضاء عندهم أمر شائن، فهو من عادات سكان المدن. وقال لنا الرّاعي إن معسكر الحويطات يمتد من عيسوية حتى التّبك. وأنهم على أحرّ من الجمر لتسقط الأخبار. وكل شيء عندهم حسن، فزال اضطراب عودة وعاد إليه حماسه، ومشينا ساعة بلغنا «عيسوية» حيث خيام «علي أبو فتنة» وهو أحد رؤساء قبائل عودة، وكان علي عميق المحجرين غائر العينين، له لحية شقراء لم يمّسها مشط فهي كالعليقة المتشابكة تحت أنف طويل مصاب برشح مزمن.

فاستقبلنا بحرارة وحماس ورجانا أن نقبل ضيافته تحت خيمته، فرددنا طلبه لأننا كثيرون ونزلنا بقرب خيامه تحت شجيرات شائكة، وعاوننا رؤساء الخيام على تعداد رجالنا وتعهدوا - كل عدد من خيامهم - بأن يقوم بإعالة عدد من فرقنا. وكان من المحتمل أن يستغرق تجهيز الطّعام وقتاً طويلاً فلم ندع إلى الأكل إلا بعد غروب الشّمس. وقد أخذتني سنة من التّوم فاستيقظت فجأة وعثرت عند ذهابي إلى خيمة علي بإحدى الأطناب، وبعد أن أكلت شيئاً من الطّعام عدت إلى جمالنا ونمت ثانية.

وكان القسم الأول من سيرنا موفقاً، وكنا قد التقينا بالحويطات ورجالنا على أحسن حال. ونقودنا ومتفجراتنا سليمة لم تمس. إذأ لقد تأهبنا لساعة المداولة ونحن على أتم استعداد، وكان على الجمعية أن تتشاور علناً في كيفية قيادة الحملة، ولقد وافقت على إعطاء ستة آلاف دينار ذهباً لنوري الشّعلان لأنه سمح لنا باجتياز وادي السّرحان. وكان علينا أن نحصل منه على سماح بأن نبقي في أرضه مدة لنجمع الرّجال ونعطيهم بعض دروس في فن الحرب، وأن يحافظ على عائلاتهم وخيامهم ومواشيهم بعد رحيلنا.

إنها لمسائل ضخمة حقاً. فتقرّر انتداب عودة نفسه رسولاً شخصياً لدى نوري يتفاوض معه حياً وصادقة. وفي غضون ذلك نطل مقيمين إلى جنب عليّ مع التّقدم برفق وأناة إلى الشّمال بفضل رجاله «الدوّار» فنقترب من التّبك حيث يكون عودة قد عتّن نقطة اجتماع كل رجال «أبو تايه» وأنه سيجتمع بنا بعد عودته قبل اجتماع رجاله إلى بعضهم... انتهت المداولة على هذا القرار.

فألقينا ستة أكياس ذهباً في خِرَجَة عودة فسافر حالاً. وتقدم رجال «فتنة» وأكدوا لنا بأن لهم الشرف في أن يسلموا علينا مرتين في اليوم عند طلوع الشمس وعند غروبها، إلى أن نسافر، وقد كان قولهم صدقاً حقاً، لأنَّ ضيافة الحويطات لا حدَّ لها. لقد امتنعوا أن يتمسكوا بعبادات العرب القديمة الشَّحيحة في الصَّحراء! وهي ضيافة الضَّيف ثلاثة أيام!! إلَّا أنَّ هذا الظَّرف، وهذه المجاملة تتخطيان الحدود في بعض الأحيان إلى المضايقة، ولا تترك لك مخرجاً للتخلص من هذا النَّوع من الإرهاق، الذي يعده البدوي ارتياحاً ونعيمًا.

وكانوا يقودون إلى خيمتي كل صباح عدداً من الخيل المؤصلة بسروجها وسروعها. فكنت أركب ويركب معي زكي ونسيب ويتبعنا جمع مشاة، فنسير في الوادي على الطَّريق الرَّملي وعلى جانبيه العليق. ويقود كل حصان أحد خدمنا. وكان الخبب والجري السريع مخالفين «للپروتوكول» فنصل هكذا كل يوم إلى خيمة الوليمة. لأنَّ كل عائلة تحرص على دعوتها لنا لتضيفنا كل واحدة بدورها، ولكانت تشعر تلك العائلات بالإهانة العميقة لو أنَّ «زعل» ابن أخت «أبو تايه» الموكل بالحفلات قد زاغ عن الجادة وفضَّل عائلة على غيرها غير مراعاة حقوق التصدر.

وكانت الكلاب تنقض علينا وتَهَرَّ عند لقيانا فيطردها بعض الفضوليين القادمين لرؤية المشهد. وعند وصولنا إلى باب الخيمة المعهودة، نترجل وندخل القسم المخصص للمدعوين، وقد وسعوه على قدر المستطاع متخذين قسماً من خيمة الحرم. سادلين أغطية خشنة لتصدعنا الشَّمس المحرقة.

وكان المضيف يظهر من آن إلى آن ويتمتم بعض عبارات الترحيب ويختفي. ثم أن السَّجاد الأحمر البيروتي كان مجللاً أطراف الخيمة المرفوعة قليلاً عن الأرض، والتي كانت تفتح مجالاً للهواء. وكان من الممكن أن تضيف هذه الخيمة أكثر من خمسين شخصاً يأكلون.

ثم يظهر المضيف على باب الخيمة ويسند ظهره إلى العمود، وكان يجلس بيننا باقي المدعوين مثل «دغلان» و«زعل». وباقي الشَّيوخ يقاسموننا المساند التي نتكئ

عليها، وهي مجموعة حشايا من السّجاد واللبّاد تلف فتتحول إلى متكات، وقد وسعوا علينا أمام المضرب، وأبعدوا الفضوليين الذين لا شغل لهم.

أما الأطفال الممسكون بأيديهم بعضهم بعضاً، فقد كلفوهم أن يطردوا الكلاب التي تدور حول المكان.

وأما صغار الأطفال فكانوا يرتدون ملابس خفيفة تبرز منهم بطونهم. ويتبعون المدعويين بعيونهم المدعويين بعيونهم السّود الشّائحة كالذباب، ويوازنون وقوفهم بأبعاد سيقانهم عن بعضها... وهم عراة يمضّون أباهمهم ويقدمون لنا بطونهم المستديرة، على أمل أن يصيبوا بعض فضلات الوليمة.

وكان أصحابنا في بعض الأحيان كي ينقذوا موقفهم الممل، يفتشون على تبديد الصّمت فيلفتوا نظرنا مثلاً إلى صقر مربوط على موقعة أو إلى ديك صتّاح يقسم هجعات الليل، وقد قدموا لنا مرة تيساً أليفاً. وفي يوم آخر غزالاً. وإذا انتهوا من هذا العرض يحاولون أن يحولوا انتباهنا بتوافه الأحاديث عن ضجيج العائلة التي يفصلها عنا حاجز من القماش، وعن أحاديثها با لطعام وكيفية تقديمه وما إلى ذلك. إلّا أنّ كل هذا لا يمكنه أن يحوّل معاطسنا عن شم رائحة الشّحم المسلى على النّار، ولا عن استقبال الدّخان المتصاعد من الحنيد الذي ننتظره.

ثم يعقب ذلك سكوت عميق فيسرع المضيف أو سواه إلى واحد منا ويقول له همساً: «أسود أم أبيض» أي تريد قهوة أم شاياً، وكان ناصر يجيب دائماً «أسود» وعندئذ يتقدم العبد وييده إبرىق القهوة له عنق طويل أعقف كعنق الأوزة وفي اليد اليسرى هرّم من الفناجين الصّيني الأبيض، فيصيب في الأول شيئاً من الشّراب الأسود، ويقدم لناصر ثم يصيب في الثّاني ويقدمه إلّيّ ثم في الثّالث لنسيب. ويتراجع قليلاً ويستمر في مكانه ونحن نشرب صفوة القهوة ونستطيب مصاصها، كأننا أعرف النّاس بها، إلى أن تأتي على الثّقل وهو أطيبها، حتى إذا ما انتهينا من شربها جمع العبد الفناجين الواحد داخل الآخر وأعاد صبّ القهوة فيها وقدمها في غير حفاوة مناوبة لكل المدعويين. ثم يعود إلى ناصر ويصب له فنجاناً آخر. وتكون هذه الدّفعة أعذب وأنفح من سابقتها، لأن

القهوة تكون أثخن وأفعل في الدماغ كلما نقصت في الإبريق فضلاً عما يرسب في
الفناجين من فضلات الشاربين!!... وهذه الثمالة الناعمة الراسبة هي خاصة بقهوة
العرب في الصحراء.

وما أعذبه شرباً وأنفحه طيباً في الدورة الثالثة أو الرابعة، إذا اتفق ولم ينضج اللحم
فيصبرونا بشرها.

وأخيراً. جاء رجلان يتسللان بين الجموع المرتجة يحملان الأرز واللحم على
جفنة شاسعة من النحاس المبيض عرقها خمس أقدام، تلقى على قاعدة منخفضة
كبيرة. ولم يكن في القبيلة أعظم من هذه الجفنة وقد كتب على حافتها «الحمد لله
وشكراً لرحمته! هذه الجفنة ملك عبد ربّه عودة أبو تايه» فكانت تنقل إلى جميع الخيام
التي تضيفنا فتقابل كلانا بابتهاج عند كل وليمة، وكنت في كثير من الأحيان أصاب
بالأرق لدوار في رأسي ولنزوعي إلى العمل، فأبصر هذه الجفنة السحرية تدور في
المعسكر، ولما تبزغ الشمس وحيثما تقف كنت أحزر خيمة الضيافة في ذلك اليوم!.

وكانت هذه الجفنة الفائقة حد الاتساع توضع أمامنا مملوءة إلى الجمام أرزاً
كالتطاق الناصع البياض حول تل من أفخاذ البهم وأضلاعها، ولا بد أن تكون الضحايا
عديدة لتشييد مثل هذا الهرم الفخم من الرّاد والحجم المقرّر في «پروتوكول» البدو!..
وكانت الرؤوس على عروشها في الوسط مسلوقة ومقلية وقائمة على عصّ رقابها.
وآذانها الشقر تنتشر كالأوراق الجافة على وجه الأرز، وفكوكها العارية كأنها تضحك
ساخرة من السماء أو تنبح القمر عند مطلعها، وتفسح لألسنتها الوردية فترى كأنها
رصّعت بين الأسنان السفلى، وتتألاً لأنايها فوق جلود مناخرها إكليلاً ناصعاً بين
ابتسامة الشّفاء السّود الجهنمية، يهبط هذا الطّبق الفسيح أمامنا وسحاب من البخار
المشحم يتصاعد ويحوم فوق رؤوسنا.

وخدم من الصّف الأدنى يتقدّمون حاملين الأواني النحاسية التي كان يُطبخ فيها.
ومغارف بيض حديدية من جميع الأشكال ملبّسة بالقصدير، مثانة متلوية مهانة يغرفون
بها المرق من هذه الحلل إلى الجفنة الكبرى. وتُرى سابحات من قطع المعاء الضفر،

وجلد الدهن البيض. وفتات من العضلات السّمر وسرائد من اللحم. وشرائح من الجلد لا يزال عليها وبرها، عائمة في السّمن السّائل والدهن المسلي الذي قليت به الغنم!!..

وكانت عيون التّهمين من المدعويين تتبع هذه المغارف والدّسوت بجذ واهتمام وترقص أحداقها طرباً لكل قطعة لحم مختارة تسقط على السّجادة. ولقد كان الشّحم يغلي في الحلل، وقد يحدث أن يكتوي أحد الخدم بحرف الوعاء الحار فيلقيه عنه ويضع أصابعه المكتوية في فمه ليخفّف الألم. وبعضهم لا يصبر على رنين الملاعق تقعقع في أسفل الدّست ليلتقط الأكباد التّائهة في المرق المخثر فيغوص بيده ويصطادها ثم يعلقها - كأنها أسلاب الحرب - على الفكوك الفاغرة. ثم يأخذ الدّست خادمان ويفرغانه على تلك الأنقاض المكوّمة. فتمتلئ الفوهة المسوّرة بسور الأرز وتغصّ على اتساعها، وهما يمعنان في التفرغ رغماً من صياحنا واستغرابنا، إلى أن يفيض الدهن ويسيل ويتجمد على غبار السّجادة، حتى يتم تركيب هذه المحرقة. وعندئذٍ فقد يدعونا المضيف إلى الأكل.

فتظاھرنا بعدم الانتباه إلى دعوته - كما يقضي واجب اللياقة في الصّحراء - إلى أن ردّد الدّعوة فنهضنا، وتناظرنا مبغوتين كل يدعو جاره إلى التّقدم أمامه. إلى أن قام ناصر متعشراً بأذيال الخجل، وبأذيال عباءته وقام الجمع وراءه، الواحد تلو الآخر وتقدموا من الجفنة الكبرى، وزمّوا أردانهم إلى أكواعهم، وتراضوا عقداً من واحد وعشرين رجلاً حول هرم اللحم الهاوي، فرفعنا أكمائنا متمثلين بناصر وتمتمنا جميعاً:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم» وباندفاع بديع واتحاد عام غاصت الأيدي في الكومة!..

إلا أنّي، أنا وحدي، قد مددتُ يدي بحرص إلى هذا الحمام الدّهني الذي لا يزال حاراً، فلا تقوى أصابعي التي لم تتعود بعد مثل هذه الغمسة الكاوية. وعملت على انتزاع قطعة مستعرضة برفق وتؤدة وتركتها يهدأ حميها إلى أن ينتهي رفاقي من نبش الأرز وفصل حصتي عن حصتهم.

وكلُّ يُجهد نفسه كي لا يلطخ كف يده، بل يعجن بأصابعه كرات الأرز الصّغيرة الممزوجة بسرّائد الأكباد واللحم. وبعد أن يضغظ عليها ضغطاً كافياً ينفقها بإبهامه وسبابته وهو منحرف فتندفع كالبرق في فمه!..

فإذا كان الضّيف أنيقاً لبقاً على مثل هذا الخوان، أمكنه أن يحفظ شكل هذه اللقمة الكروية بعد ازدرادها، ويخرج من اللعب نظيف الكف. إلّا أنّه إذا كان السّمن كثيراً وبعض سرّائد اللحم بارداً وقد لصق بالأصابع، فمن المحتمّ إذا لعقها باعتناء حتى تنزلق اللقمة القادمة عن الأصابع إلى الفم بسهولة.

وكان مضيفنا يدور حولنا ويثير فينا شهوة الأكل بعبارات طيبة. وكنا كالمدفوعين بسرعة جنونية. نرفع، ونقطع، ونمزّق القطعة تلو القطعة، ونحشرها في فكوكتنا حشراً دون أن ننبس ببنت شفة. لأنّ أقلّ محادثة أثناء الأكل تكون عيباً ونقداً للطّعام... إلّا أنّه من المسموح به أن نتسم إذا كان أحد أخصاء صاحب الدّعوة يقدم لك قطعة مختارة، أو أن محموداً الصّغلان يناولك عظماً مجرداً ويتمتم «بسم الله الرّحمن الرّحيم» وعندئذٍ يمكنك أن تبادله المجاملة بمثلها وتقدم له شيئاً من الكرّش. غير المرغوب فيه. فيتملك الحويطيين الضّحك، أما ناصر فيظهر أنّه لم يكن يرضى بهذا المزاح فيحافظ على رزاقته الأرستقراطية.

ويحدث أن أحد أولئك الأكولين الشّجعان يشعر بأنّه لم يعد يقوى على الأكل، فيبتدئ باللعب بالطّعام وقرض الأسنان وهو شائع البصر برفاقه الذين هم أيضاً قد همدت حرارتهم وخفت حركة أيديهم على جفنة الأكل. وكلما انتهى واحد منهم يسند كوعه على ركبته ويرفع يده فوق الجفنة، فيسيل من أصابعه السّمن على بقايا اللحم والأرز فتصبح مادة جامدة، لزجة كالغراء..

إلى أن يشبع الجميع، فينهض ناصر وينهض المدعوون بعده صائحين:

«خَلَفَ الله على المعازيب»..

ونخرج مع الجميع، فينهض ناصر وينهض المدعوون بعده صائحين: «خَلَفَ الله على المعازيب».

ونخرج مع الجمع ونسلك بين المضارب، بينما العشرون الآخرون يرثون فضلان وليمتنا. والأكثر أناقة منا يدور حول الخيمة ويحاول رفع شرائح الدهن المتجمدة عن يديه، ويمسحها بما تدلى من قماش الخيمة الخشن، المنسوج من شعر الماعز وقد أصبح على طول الاستعمال لامعاً لئناً مزيّناً. ثم نعود ونحن نتنفس الصّعداء ونجلس في أماكننا على طول جدار الخيمة، فيتقدم منا بعض الخدم وقد تركوا مؤقتاً نصيبهم من الوليمة - رؤوس الغنم - ويقدمون لنا طاساً من الماء ووعاءً فارغاً وصابون القبيلة! فنغسل أيدينا على قدر ما تسمح به الحالة فوق فنجان القهوة! ثم يقدمون لنا شيئاً من القهوة أو الشاي المحلى بالسكر كالشّراب، بينما الجماعات تتناوب المقاعد حول تلك الجفنة التي لا ينضب معينها. ثم يأتون بخيولنا فنسرع إلى ركوبها، دون أن نسي تقديم ما يجب من الشكر والدعاء لمضيفنا الكريم.

ولا نكاد ننصرف خارج الخيمة حتى يهجم الصغار على الوليمة ويفتكوا بما بقي من الفضلات العزيزة كل على قدر مخالفته. ويذهبوا وراء الأشواك خارج الخيمة يلتمسون ما أصابوا. وتعتقد كلاب القبيلة بأن لها نصيباً فتتردد حول الخيمة لتصيب نذراً من العظام، إلا أن المضيف يحفظ أطيب الفضلات لكلبه السلوقي.

وكنّا في «عيسوية» نضيف القبيلة على هذا التّمت، ففي اليوم الأول نأكل مرة واحدة، وفي اليوم الثاني والثالث مرتين في اليوم.

وفي 30 مايو رفعنا الأحمال على الجمال، وتحركت الفرقة في أمن وابتهاج وسرنا بين حقول من الحمم تغطيها الرمال الناعمة كالقطن، إلى أن اعترضنا واد فيه آبار يبلغ عمقها سبع أقدام وماؤها أجاج.

وكان رجال «أبو تايه» قد قلعوا الأطناب وسافروا معنا ليرافقونا في رحلتنا ثم سربوها حولنا عند وقوفنا، وقد شاهدت لأول مرة قبيلة تقوّض خيامها للرّحيل وكنت أنا نفسي مع الرّاحلين. وقد اختلفت عليّ هذه الضّجة وتبدّلت سامة المراحل ومللها بهذه الحركة الدائمة الكثيرة الأشكال. فإن مسافات بعيدة من الحجارة والأشواك كانت تموج وتضطرب، كالألّ لحركات الرّجال المشاة والرّاكبين والحيوانات

المحمّلة أثقالاً من فراد أقمشة الخيام المنسوجة من شعر الماعز. والجمال على ظهورها الهودج العالية. تلك الهودج العربية المقفلة بالأقمشة ذات الوبر لنقل النساء والأطفال. وأخيراً تلك التّوق ذات الأشداق المموّثية، منها ما هو مختلط بالرّخل، وأكثرها في المقدمة تتمايل على ظهورها أعمدة الحور الفضية لرفع المضارب. خلاط لا ظلّ فيه لنظام السّير أو التوقف. ومجامع من الأسر تقوم وتقعّد وتشد وتنقض حسب الطّروف والمفاجآت في الصّحراء بالغريزة والوراثة البدوية الغارقة في القدم. ولقد اهتزت الصّحراء فجأة ودبّت فيها الحياة بمرور هذا الحشد الهائل من قواتنا، بعد أن كانت على كر العصور لا قيمة لها إلّا بأفرادها المشتتين على رمالها هنا وهناك.

ونحن الذين كنا نحرص على حياتنا وحياة رجالنا أسابيع طويلة، قد تحوّل اهتمامنا إلى ارتخاء واستسلام لا يدركان بين هذه الجموع التي شاركنها الاستخفاف بالمخاطر، وكان أكثر فرساننا يقظة قد شاركوا القوم بالاستسلام وفقدوا رزانتهم المعتادة.

أما المهوّسون منهم كعفريتّي «فراج وداود» فكانا طبعاً في مقدمة المرحى. وأن حرماننا الشّديد المستمر في مراحلنا السّابقة لم يغيّر قط من بشاشتهما ونشاطهما. وكان مكانهما من الفرقة بؤرة تنفّلت منها جميع الاضطرابات والمفاجآت البريئة منها والخطرة.

فلا ينضب معين ابتكارهما لتمثيل الأدوار السيّئة.

وكان ذلك بدء نفاد صبري وقد أصبحت أعصابي منتشرة على سطح جلدي، جزعاً لتلك الدّاهية التي حلّت بنا في «وادي السّرحان» داهية الأفاعي التي أقصّت مضاجعنا من يوم نزولنا به. وعلى اعتقاد البدو أن عد أفاعي هذا الوادي أكثر من كل واد من أودية الصّحراء.

ويعرفون أيضاً أن السّرحان في هذه السّنة يغص بالأفاعي والأساود ذوات الأجراس والقرون! وكان الطّواف في الليل خطراً. وعلى كل واحد يخرج من الخيمة أن يحمل

عصا يضرب بها الأشواك في طريقه كي لا تلدغ عقبه العارية.

وأني لأذكر عادة غريبة لهذه الحيات، فإنها تأتي في الليل وتلتف على نفسها حولنا أو على أغطية أسرتنا أو تحتها مجذوبة بحرارة أجسامنا. فما عتمنا أن أخذت منا اليقظة كل مأخذ، فلا نتحرك أو ننزل عن السرير إلا بهدوء واحتراس شديدين.

والخبيرون منا كانوا لا ينامون حتى يضربوا الفرش والأغطية بالعصي، كي يتثبتوا من خلوها من كل ضيف ثقيل، وكان رجالنا الخمسون يقتلون عشرين ثعباناً كل يوم تقريباً. فتحولت أعصابنا إلى أسلاك متقدة يقظة وهماً، وأشجعنا لم يكن يجسر أن يضع رجله على الأرض في الظلام.

أما من كان مثلي دائم الهم والنكد فقد كان ينظر بفارغ الصبر إلى خروجه من هذا الوادي «وادي السرحان».

أما «فراج وداود» فلم يشاركا القوم بنظرياتهم، بل وكانت في أعينهم مواضع لألا عيب جديدة. وكانوا ينعمون بإزعاجنا ويصرخون لرؤية أي غصن متدل أو ممدود على الأرض ويوسعون ضرباً بعصيتهم. وقد منعته منعاً باتاً عن محاكاة صفير هذه الزواحف. وكنت مرة جالساً على الزمل بقرب أحمالنا، والتكاسل على الأرض يوحى السكون وعدم الحركة. غير أن أشياء كثيرة كانت تشغل الفكر عما حولي، وقد جلست أكثر من ساعة، فلم أتنبه أن خادمي الملعونين كانا جالسين بجواري يتسلمان ابتسامة جهنمية ويتدافعان بكوعيهما. وقد تبعت أبصارهما المحدقة على عليقة قريبة منا. فأبصرت حية رقطاء ترمي علي شواظاً من عينها فقفزت بعيداً، ودعوت «علياً» فهرول إليّ وضرب الحية بهراوته وانتهى الأمر. وبأمري ضرب كل من الخادمين الخؤونين اثنتي عشرة خيزرانة لأفهمهما بأن الأوامر لا يعمل بها على علاقتها، ولا سيما على حسابي. وكان «ناصر» نائماً فاستيقظ وصاح فرحاً: أن اضربوهما ست خيزرانات أخرى على حسابي. ونسيت أمر أمره. «وزكي» و«الضغلان» تمسك بنا وأمرنا بضربهما. وضع الكثيرون من رجالنا طالين الانتقام، فوهنت عزيمتهما أمام هذه السياط المتساقطة كالبرد فأوقفت هذا النوع من الإصلاح القاسي، واكتفيت بأن أعلنت ذنبهما فكان قصاصاً أدبياً لهما، وقررنا إلحاقهما تحت إمرة النساء كي يحطبا

ويملأوا القرب ماء لتموين الفرقة. لقد بلغ الصّبر جمام الكأس في وادي السّرحان، فكانت الصّحراء تفيض بالشّجون التي لا مثيل لها في رحلاتنا السّابقة. رمال وصوان من الصّخور وصحراء وإن تكن توحى العظمة المشجّية كجمال الحزن العميق والبيداء القاحلة إلّا أنّ روحاً مشؤوماً، وسراً مخفياً يعمل في وادي السّرحان، ذلك الوادي محبوب الأفاعي، الفيّاض بالماء الأجاج والأشواك الرّديئة، التي لا تصلح لمرعى الإبل، كما أنه لا يصلح لسكنى البشر.

وعليه، فقد سرنا يومين كاملين وراء «غوطة» ذات الآبار الفيّاضة بالماء العذب. ولما دنونا من «عقيلة» أبصرنا مضارب عديدة وحملة من الفرسان تخب لمقابلتنا. فكان «عودة أبو تايه» المتدب لدى «نوري الشّعلان» والذي قضى مهمته على أحسن ما يرام يتبعه «نوري» و«درزي بن دُغمي» الرّجل العملاق ضيفنا القديم في «الوجه» والذي كان وجوده دليلاً على رضا الشّعلان، فوق ما كان يتبعهم من فرسان «الرولة» الذين ملأوا الفضاء صياحاً ودعاء بوصولنا وتأهياً بنا، ومادوا في تلك السّهول وترامحوا على ظهور خيولهم، وصمّت آذاننا من إطلاق البنادق والمسدسات في الفضاء وغشيت أبصارنا من التّقع تثيره سنايك الخيل.

وكانت أعمالنا تسير سيراً حسناً، وكان ثلاثة رجال يصنعون القهوة لزوّار «ناصر» الذين يتوافدون جماعات وفرادى من الرّؤساء. ويحلفون يمين الإخلاص والطّاعة «لفيصل» في القضية العربية كصيغة القسم في «الوجه» وتعهدوا باللحاق بناصر مع رجالهم أينما اتجه.

وكان ذراع عودة متصلاً لجرح قديم في مفصل الكوع فلم يكن بإمكانه أن يطوي هذا الذراع المتوتر ويحك جلده الملهب. إلّا أنّ الحاجة تفتق الحيلة، فكان يدخل عصا عقفاء في قميصه ويحك ظهره وصدره من كل جهة. ويظهر أنّ هذه الطّريقة كانت تريحه، فيستفيد من العصا أكثر مما نستفيد من أظافرنا.

* * *



الكولونيل ويلسون
الممثل الدبلوماسي البريطاني في جدة

الفصل العاشر

البدو وحياة البادية

مرّت خمسة أسابيع منذ خروجنا من «الوجه» وقد نفدت نقودنا وأكلنا غنم الحويطات وأخذنا راحة كافية. واستعضنا عن الجمال التي نفقت بجمال أخرى واستعدنا قوانا ونشاطنا. فلم يبق إذن ما يخيفنا عن التقدم نحو غرضنا. وكانت لا تزال بهم عند عودة فأقام لنا وليمة الوداع ليلة الرحيل. أعظم وليمة إلى الآن! وفي خيمة شاسعة الجوانب، كان المدعوون بالمشات فملأوا الجفنة المعهودة خمس مرات متتالية، وهرم اللحم ينهار ويضمحل وهو لمّا يبلغ الخيمة.

وغابت الشمس حمراء كالأرجوان، فتقدم المدعوون إلى مواقد النار وجلسوا القرفصاء بجانب أباريق القهوة. فكنا نتكاسل ونتملّل تحت النجوم، وعودة يقص أخباره... وقد توقف مرّة عن الحديث، فقلت من غير اهتمام بأني مررت بعد الظهر بخيمة محمّد الضّغلان كي أشكره على النّاقة الحلوب التي أهدانيها فلم أره في الخيمة. فتهلّل عودة في الحال وأخذته نوبة من الضّحك. ثم أرانا محموداً جالساً قرب جرن اللبن وقال مازحاً: «أتعلمون لماذا لم ينم محمّد تحت خيمته منذ خمسة عشر يوماً!» فسر الجميع لهذه المصادفة وحبسوا ضحكهم في أكمامهم ولم ينطقوا ببنت شفة. وتمدّدوا على الأرض قابضين على لحاهم بأيديهم ليسمعوا القصّة التي سمعوها قبلاً أكثر من خمس عشرة مرة. أما النّساء - نسوة عودة وزوجة «زعل» وبعض نسوة لمحمود - فقد تركن أشغالهن قليلاً وتقدمن من الحشد وبطونهن تتقدمن، وترتج أوراكن لأنهن تعودن حمل الأثقال على رؤوسهن. ولما وصلن إلى الستار الحاجز

وقفن، أخذن يصغين كباقي الجمهور لحديث عودة وهو يقول بصوت جهوري: «كان محمد قد اشترى يوم السوق في الوجه عقداً جميلاً من اللؤلؤ. إلا أنه صمّم أن لا يهديه إلى أحد من زوجاته، ومن ذلك الحين قامت قيامتهن بعضهن على بعض، وعلى محمد الزوج الشائع وطرده من الخيمة»... كل ذلك كان اختلاقاً طبعاً من مخيلة عودة، إلا أن مزاجه الخبيث قد تنبه وأزكته نار العصيان والانتفاض فأعطى مجالاً واسعاً لخياله! وكان محمد المسكين في الخمسة عشر يوماً هذه يطوف معنا في المضارب ويلازمنا عند أهل الضيافة ويستعيد بالله من عودة، ويدعوني شاهداً على كذبه الفاضح، وكنت أستعد للتدخل بينهما، إلا أن عودة أسكت الجميع وطلب مني أن أزكي كلامه.

فقلت مبتدئاً: «بسم الله الرحمن الرحيم» وهي العبارة التقليدية: «كناسته في الوجه: أنا، وعودة، ومحمد، وزعل، وقاسم، ومفدى»، وفي إحدى الليالي عند الفجر تماماً قال عودة: «فلنمش إلى السوق قليلاً»، فقلنا: «توكلنا على الله» ومشينا. وكان عودة لابساً «غندورته» دراعة بيضاء وعمامة حمراء، وقاسم محتدياً «بابوجاً»، وكان محمد حافياً وفي ثوب من الحرير ذي ألوان «الملوك السبعة»، أما زعل فلقد نسيت كيف كان شكله!...

وأما قاسم فقد كان يرتدي قفطاناً من القطن، ومفدى ثوباً من الحرير مُعلماً بخطوط زرق، وعلى رأسه عمامة مطرزة. أما أنا فسكنت كما أنا وكما ترونني الآن، وتوقفت، وتوقفت أنفاس السامعين في حلوقهم. فاستسلمت عندئذٍ لسخرية خفية مقلداً حديث عودة الفخم، واهتزاز يده فاستسلمت عندئذٍ لسخرية خفية مقلداً حديث عودة الفخم، واهتزاز يده الأبدي وهو يرتفع ويهدد ويخفت كي يجدد النكتة الدقيقة من حكاياته الخالية من النكت!.. ولم ينطق الحويطيون بكلمة إلا أنهم كانوا يتلوون ضحكاً في قمصانهم الصلبة من أملاح العرق ويرمقون عودة، لأنهم يعرفون جميعهم طريقة سياق حديثي! وكانت سخرיתי هذه شيئاً جديداً عندهم كما هي عند عودة نفسه، حتى أن عامل القهوة «مفدى» وهو رجل لاجئ من «شمر» وقد هرب منها لحادث قتل في عائلة تحكمت بأفرادها الضعيفة - وهو ما يقال له فيعرف القبائل (خصام الدم) - حتى مفدى هذا، ترك القهوة ونسي أن يلقم النار حطباً ليسمع حكايتي.

وحكيت أنا كيف تركنا الخيام، وعددت الأفراد، وكيف نزلنا إلى القرية. وكنت أصف كل جمل وكل فرس وكل عابر طريق يمرّ بنا. وأصف أعراف الجبال التي كانت كلها جرداء! لأنّها والحق يقال بلاد جرداء!.. وتابعنا السير مسافة تدخين لفافة (سيجارة) فسمعنا شيئاً فتوقف عودة وقال: إني أسمع شيئاً أيها الشّباب. فصرخ محمّد وقال: أيها الشّبان إني أسمع شيئاً. وقال زعل: والله إنكما على صواب، وتوقفنا لنرهب آذاننا للسمع فلم نسمع شيئاً. وأنا كذلك لم أسمع شيئاً. وقال زعل: وأنا والله لم أسمع. وقال محمّد: والله لا أسمع شيئاً. وقال عودة: والله الحق معكم!..

ومشينا ولا نزال نمشي والأرض خرساء لا تسمع فيها حركة ما. إلى أن مرّ إلى يميننا عبد زنجي راكباً حماراً. والحمار أبرش وله أذنان سوداوان وقدم سوداء وكان مرسوماً على كتفيه هكذا. «هي علامات خطوط متلوّية» وكان ذنبه يتحرّك وفخذه يضطربان، وراه عودة وقال: والله هذا حمار. وقال محمّد: والله العظيم، حمار وعبد. ومشينا وكان أمامنا تلّ كبير، كبير مثل هذا الذي هناك، ماذا يدعى هذا الذي هناك؟. ومشينا إلى أن بلغنا قمّة التل فكان أقصر عارياً وهذه البلاد جرداء جرداء... ومشينا وماذا يدعى هذا الذي ما وراء.. هناك هناك.. وكان كذلك ما هو أبعد من هناك! ومن هنالك!.. وبعدها تل، والتل أجرد. وكل هذه الأرض كانت جرداء، وبما إنا وصلنا إلى هذه القمّة، وكنا على حرف هذه القمّة. وإنّا قد بلغنا الطّرف الأقصى، وإلى الطّرف الأقصى. وحرف هذه القمّة، وأقسم بالله، والله قد طلعت علينا الشّمس». وانتهت القصة عند هذا الحد.

وكان السّامعون قد سمعوا من عودة عشرين مرة عند شروق الشّمس خلطاً لا مزيد عليه وعبارات متشابكة الواحدة تلو الأخرى مكررة مراراً عديدة بحماس متصاعد إلى أعلى درجة من درجات الهوس، وذلك ليحبس أنفاس السّامعين ويزيد في رغبتهم إلى بلوغ نتيجة غزوته التي لم تكن إلّا في مخيلته وعلى لسانه أمام هذه الأفواه الفاغرة، والأذان المرهفة... وكنت في سرد حكايتي قد تفنّنت ولوّنت ووصفت حتى أحاكي حكايات عودة السّحرية، وعلى كل حال كانت حكايتي لا تخلو من حوادث حقيقية

اتخذت موضوعها من مرورنا بسوق الوجه، وكان يرافقنا إذ ذاك كثير من السامعين الذين تولتهم نوبة ضحك متواصلة لم يقووا على إيقافها، وهم يتمرغون ويتقلبون على الأرض. أما عودة فقد كان أكثرهم ضحكاً وتقلباً، لأنه كان يهوى الحكايات الغريبة والمضحكة. وقلت في نفسي: ألم يشعر بأني كنت أحاكيه بحكايتي البليدة وأريه مقدرته على وصف غرائب الحوادث التي لم تعرض له قط. ثم نهض وعانق محمداً وأقرَّ بأن حكاية العقد كانت مختلفة. فسرَّ محمد لهذا الإقرار الجمهوري. وعربوناً على سروره وشكره دعانا إلى خيمته لتناول فطور الصّباح قبل أن نأخذ الطريق للانقضاض على العقبة. وقال لنا بأنهم طبخوا لنا فصيلاً مسلوقاً باللبن الرائب. وأن نساء مشهورات بطبخ هذه الطبخة الوطنية التقليدية.

وسافرنا يوم 19 يونيو سنة 1917 الساعة الحادية عشر صباحاً. وكان يقودنا «ناصر» وهو ممتطٍ ظهر «غزالة» ناقتة ذات السنام، وكان ظهرها كقنطرة الرّومي، وأضلّاعها البالغة حد الاتساع تنافس بطن سفينة، ووساقها ساقا نعامة. وكانت هذه الناقة قوية متناسبة الأعضاء ترتفع عن رفيقاتها قدر قدم على أقل تقدير. توحى إلى الشعراء أساطير الحروب وأخبار الفروسية في الجاهلية. وهي من أشرف وأعرق نوق الحويطات، تتحدر من تسعة أنساب متوالية كلها مشهورة بذرايحها الكثيرة المؤصلة.

وكان «عودة» راكباً محاذياً جانب «ناصر»، وأما أنا فكنت راكباً «نعامة» وهي ناقة لم يفطر نابها مؤصلة سريعة الجري قد امتلكتها بالشراء. وتبعني العقيلي مع محمد الأكتع وأحمد المماثل لرفيقه محمد هذا.

وكانت مفزتنا مؤلفة في ذلك اليوم من خمسمئة رجل. فكيف كان يمكننا أن نخشى خضلنا في مهمتنا هذه وأماننا هذا الجمع المرح من شباب الشّمال المتين البنية، الممتلئ قوة وثقة بنفسه. يتباعد عن الحملة ويجري جرياً جنوبياً ليصطاد الغزلان. وقد حضر رؤساء «أبو تايه» تلك الليلة وتناولوا العشاء معنا، وجلسنا شبه حلقة حول النّار التي أوقدوها لعمل القهوة، ولتدفئتنا في الليل البارد على مرتفعات الشّمال العالية. وقضينا السهرة في الحديث عن أشياء مختلفة وتذاكرنا في حوادث قديمة العهد.

وكان «ناصر» مستلقياً على ظهره يرقب النجوم بنظاراته. ويعتبر مواقع بعضها، ويرى نجوماً غريبة أو يكتشف لمعاناً لم يكن ظاهراً لعينه من غير نظارة فيصرخ متعجباً.

وسألني «عودة» عن التلسكوب وماهيته وعن المراصد الكبيرة. وكان يريد أن يعرف كيف تمكنوا من التقدم في الاكتشاف منذ ثلاثة عصور فقط، ومن بناء مرصد عظيم بحجم هذه الخيمة، يمكنهم به أن يعدّوا ملايين الملايين من النجوم!! والنجوم، ما هي هذه القناديل؟...

وتطرقنا إلى ذكر قرص الشمس الذي يدور حول الشمس العديدة وعن أحجام هذه الشمس التي تفوق حد تصورنا، وسأل محمّد: «وماذا يكون من أمر هذه الكواكب، وهل يرتقي العلم إلى أكثر من ذلك. وهل يتوصلون إلى صنع عدسات أعظم من التي في عصرنا هذا تكون نسبتها لها كنسبة هذه العدسات إلى مرآة غاليليو! وهل يكتشف الفلكيون ألوفاً أخرى من النجوم التي تفلت الآن من آلتنا، ويغيرون إذ ذاك خريطة السماء ويعطون أسماء لهذه العوالم الجديدة. وإذا توصلنا إلى رؤيتها كلها أيزول الليل من السماء؟..»

وقال عودة بلهجة التحدي: لماذا يريد الغربيون أن يعرفوا كل شيء ويضموا إليهم كل شيء، فإننا نرى ربنا ما وراء نجومنا هذه القليلة العدد. وهو لا يوجد وراء ملايين نجومكم! عزّ وجلّ.

فأجبتُه: «إننا نريد أن نبلغ نهاية العالم يا عودة»، فتأثر زعل لهذا الجواب المريب، وقال: «إنّ هذا من اختصاص الله» وأما «محمّد» فلم يشأ أن يقلب الحديث. وسأل: «وهل يسكن بشر في هذه العوالم التي هي أكبر من عالمنا؟..»، فأجبتُه: «الله أعلم». وهل يوجد في هذه العوالم نبي وسماء وجحيم، فقاطعه عودة وقال: «أيها الشبان: إننا نعرف صحراءنا وجمالنا ونساءنا. أما المجد والبقاء فلله القوي السرمدي، وإذا كانت نهاية الحكمة أن يضاف نجم إلى نجم. فجهلنا الساذج إذن يكون عذباً جميلاً!..»

ثم تكلم عن الذَّهب وعن قصص أعادت السَّروور إلى السَّامعين، ثم همس بأذني بأن أطلب له من «فيصل» هدية جميلة عندما نحتلَّ العَقبة.

وذَرَّ قرن الشَّمس فاستوينا على سروج مطايانا، وأفهمني عودة بأنه يتقدم إلى «باير» وطلب مني أن أرافقه. فمشينا سراعاً إلى أن بلغنا المكان المطلوب في ساعتين. وهو على منحدر تل. فرجع عودة على قبر ابنه «عناد» الذي قتله أولاد عمه الخمسة غيلة. فقد وقع في كمين نصبه له المطالقة بنو عمه الخمسة. وقتلوه أخذاً بشأراً مصارعهم «عبطان» الذي صرعه عودة في مبارزة. وأخبرني عودة بأنَّ «عناداً» مات كما يموت الأبطال بعد أن أبلى بلاءً حسناً أمام خمسة من أعدائه. ولم يبق له إلا الولد الأصغر... «الصغير محمَّد». وقد دعاني إلى هذا المكان كي أشاهد بكاءه على موته وأشهد على آلامه.

وكنّا عند ذهابنا إلى القبر قد فوجئنا بدخان يدور ويتلبد فوق البئر، فغيَّرنا اتجاه سيرنا في الحال وتقدمنا في حذر نحو الخرائب، وكانت الأرض مقفرة، إلا أنَّ كومة من الرُّوث كانت لا تزال تعمل فيها التَّار، والبئر متهدمة، والأرض منبوشة ومفعمة بالسَّواد في مثل انفجار، وفحصنا البئر من الدَّاخِل فإذا جدرانها المكلسة قد تشققت بفعل مقذوف ناري، وصخور تساقطت فسدت مأخذ الماء، فاستنشقت الهواء فإذا هو ريح الدِّيناميت.

فهرول عودة إلى البئر «عودة» إلى البئر الثَّانية على طريق الودي تحت المقابر، فإذا بها قد تأثرت من نسف الدِّيناميت، وقد تهدَّم أعلاها وغص قاعها بالحجارة. فقال «عودة»: «هذا فعل جازي»، ثم مشينا على أقدامنا إلى البئر الثَّالثة «بئر بني صخر» فإذا هو ثقب هتكَ في تلك الأرض الشَّهباء، ووصل «زعل» في تلك اللحظة وأظهر تأثراً عميقاً لهذه الكارثة.

فأمعنا الفحص في الخان فإذا آثار خيل. ومن المقرَّر بأن قدر مئة فارس قد باتوا الليل الماضي هنا، وتحولنا إلى بئر رابعة إلى جهة الشَّمال من غير ما أمل، وقلنا في أنفسنا: «ليت شعري! ماذا يحل بنا لو أن «باير» كانت كلها خراباً»، ولحسن حظنا قد تبددت مخاوفنا عند وصولنا إلى تلك البئر الرَّابعة.

وتحققت نبوءة «عودة» إذ كانت هذه البئر ملكاً «لجازي» فلم ينسفها! واضطربنا بعض الاضطراب خوفاً من حيلة الأتراك الشديدة، وخشينا أن يكونوا قد تحولوا أيضاً لجهة «الجفر» شرقي معان فينسفون الآبار التي قرّرنا أن نؤخذ قواتنا من حولها قبل مهاجمة «العقبة». فإذا حوصرت هذه الآبار قبل أن نصل إليها نكون قد وقعنا في حيرة قاسية. أما الآن ففي وسعنا بفضل البئر الرابعة أن نتزود ماءً كافياً، وإن يكن الأمر مكثراً مؤلماً، إلا أنها لا تكفي لأكثر من خمسمئة جمل دفعة واحدة، فعلياً أن نصلح مايمكن إصلاحه، فتحولنا إلى البئر الأولى التي كانت النار إلى جانبها لفحصها فحسباً دقيقاً إذ كانت أقل تخريباً من سواها، فعاد ناصر وعودة وعدت أنا معهما إلى البئر.

وقد قدّم لنا آل عقيل صندوقاً فارغاً من مفرقات «نوبل» استعمله الأتراك بدون شك لنسف الآبار. ودلت الآثار على أنهم نسفوا الآبار. ودلت الآثار على أنهم نسفوا خارجها ثم أعادوا الكرة ونسفوا داخلها، لأننا بعد أن ألفت أعيننا الظلمة أبصرت ثقباً كثيرة إلى عمق عشرين قدماً حديثة العهد في جدار البئر من الداخل، ولحسن الحظ لم تنفجر هذه المفرقات، لأن الفتائل كانت لا تزال متدلية، ولأنّ عقداً من هذه المتفجرات لا يزال سليماً، إما لسوء وضعه، وإما أن هذه الفتائل وضعت لوقت معين وأخلفت، فربطنا حبال الدلاء بعضها إلى بعض، وثبتنا في أسفلها خشبة كافية الاتساع وجلسنا عليها وهبطنا إلى البئر من منتصف الباب، محاذين مس الجدران التي تصدعت من فعل الديناميت، وصار يخشى عليها من السقوط لاحتكاك الحبل بها، فتحققت عندئذ بأن كل حشوة لا تزيد عن «ثلاث ليرات» من المفرقات، وإنها كانت مركبة كالعقد على سلك تليفون المعسكرات. ومن هذا يكون إما أن الأتراك قد ربطوا العقد ربطاً سيئاً، وإما أن يكون الكشف قد أطلعهم على وصولنا قبل أن يشعلوا النار في الفتائل، فامتلكنا بئرين على حالة لا بأس بها مع ربح ثلاثين ليبرة من الديناميت تكرم علينا بها العدو، وكان قد تقرّر أن نتوقف أسبوعاً كاملاً في «باير» السعيدة، إلا أنّ النقطة التي يجب أن نفهمها جيداً هي حالة آبار «الجفر» وقد أضيف هذا الاضطراب إلى الاهتمام بالحصول على المؤن والمعلومات الكافية، عن حالة

القبائل النفسية الضاربة بين معان والعقبة، فأرسلنا رجلاً إلى «الجفر» وجّهنا قافلة صغيرة من الجمال الركوبة، وأرسلناها إلى ما وراء الخط الحديدي حتى «الطفيلة»، وكان رجال القافلة الأربعة من قبيلة لا يشتبه الأتراك في انتدابنا لهم وتواطئهم معنا، وكان عليهم أن يشتروا ما يصيبون من الطحين ويعودوا إلينا بعد خمسة أو ستة أيام.

أما القبائل القريبة من العقبة فكان علينا أن نكتسبها لتعاوننا معاونة إيجابية ضد الأتراك في بداية هجومنا حسب الخطة التي قرّرناها في «الوجه». وكانت خطتنا أن نشب وثبة تقربنا من «الجفر» عابرين الخط الحديدي، ونحتلّ دون أقل تأخير معبر «شتار» حيث يمرّ الطريق الذي ينحدر عن مرتفعات في أرض «الجزيرة الحمراء».

ولكي نتحكم في هذا المعبر، يجب علينا أولاً أن نحتلّ «أبا اللّسن» وينابيعه العظيمة التي على بعد ستة عشر ميلاً من معان. لكن حاميتنا كانت قليلة العدد فأملنا أن نفاجئهم مفاجأة، أما عن طريق الجنوب فإنه سيكون مقطوعاً فلا يتلقى جنوب الحراسة ذخائر فتستسلم قبل انتهاء الأسبوع، وفوق ذلك فإنّ صدى نجاحنا ينزل قبائل الجبال إلينا سراعاً، ويعاونوننا على إبادة العدو عن آخره.

وكانت مهاجمة «أبا اللّسن» هي النقطة الدقيقة في خطتنا! وعلينا أن نخشى من وجود وقت كاف لخروج حامية معان، وطرّدنا من هذا الموقع واحتلال معبر «شتار» ثانية، فإذا تضاءلت قوة العدو إلى طابور واحد كما هو الآن فإنه يخشى أن يتحرّك، ومتى تركونا نحتلّ المضيق وإلى أن تأتيهم التّجدة تكون العقبة قد وقعت في أيدينا. وبهذا الانتصار نكون قد أنشأنا قاعدة بحرية جديدة وتكون مضايق «إضم» حازراً مئعاً بيننا وبين العدو. فيجب علينا إذن أن نلقى سباتاً عميقاً على جنود معان إذا شئنا، ونغنّم فرصة ضعفهم، وندعهم لا يدركون البتة أننا بجانبهم.

إلاّ أنّه للأسف لم يكن في الإمكان مطلقاً أن نخفي حركاتنا مادمنّا نجاهر بالعصيان، لأنّ بعض العرب المكابرين، والتّافرين من لجاجتنا وإلحاحنا، كانوا ينبّهون العدو، وكان العدو على علم بسيرنا في وادي السّرحان حتى أن العقل السّقيم يفهم من حركاتنا أننا نقصد العقبة وهي هدفنا الأوحد، وقد بلغتنا الأخبار بأن العدو قد نسف

سبع آبار «الجفر» وهذا دليل على أن العدو كان في هذه التواحي، وعلى حذر تام، وربما كان علينا أن نتحاشى المرور «بالجفر». إلا أن التخريب الناقص في آبار «باير»، قد عمر أفئدتنا بالأمل. وقلنا لعل هؤلاء الأتراك المكروهين قد أبقوا لنا شيئاً يصلح في آبار «الجفر». وكان ضيف الله - أحد رؤساء «جازي الحويطات» والذي جاء إلى الوجه وحلف يمين الإخلاص للشريف - حاضراً في الجفر. لما نسفوا بئر الملك بالديناميت، فإنهم أحاطوها بالرّجام ونسفوها. وقال لنا إنه يعتقد بأن البئر سليمة، غير أن فوهتها قد تخربت ويمكن إصلاحها ورفع الحجارة المتساقطة بسهولة في الحال. وهذا ما كنا نؤمله، فتركنا «باير» في 28 يونيو وسافرنا للاستكشاف. فجزنا سهل «الجفر» المشؤوم سراعاً. وبلغنا البئر ظهر اليوم الثاني. ولأول وهلة استولى علينا اليأس وضغط الكرب على أفئدتنا، إذ رأينا أن الآبار قد انقلبت ظهراً لبطن ونسفت من أساسها، ليت شعري... أهنا سنلاقي الصدمة الأولى بعد أن كنا حسبنا لغزوتنا مايمكن وما لا يمكن أن يكون، وقسنا الصعوبات والطوارئ بمقاييس العقل الدقيقة. وهل يكون لهذا العائق العارض مدى طويل! ولم نغفل أن نتقدم إلى البئر - ملك عائلة عودة - التي حدثنا عنها ضيف الله. فجسسنا الأرض من حولها، فتبين لنا أن لها زينياً تحت ضربات المدق، فناشدنا البنائين والحفارين فتقدم بعض العقيلين الذين يقودهم «مرزوق» وجمال ناصر الشاب اللبق النشيط وأخذوا يعملون حالاً ببعض أدوات كانت معنا، وكنا حولهم ننشطهم بأغانينا وبرنين الذهب اللّامح حالما يظهر الماء. ويالها من مهمة شاقة تحت شمس الصيف المحرقة! لأن هضبات «الجفر» منبسطة انبساط الكف، أرضها وحل متجمد لشدة الحرارة، أشهب يعمى البصر، يتلأل منه الملح البارز من الأرض على مسافة نحو عشرين ميلاً، وكان ضيق الوقت يزحمننا فإذا لم نعر على الماء وجب علينا أن نسير خمسين ميلاً لنبلغ أقرب مورد له. فأسرعنا في العمل وقسّمناه بين فريقين مناوبة في ساعات الحر الشديد، وكان من حسن حظنا أن الانفجار قلب الأرض، فكان جرف التراب سهلاً.

وكلما تقدم العمال في التّبش ظهرت أماننا الحجارة التي لم تزل معلقة متشابكة

إلى بعضها، آيلة إلى السقوط في البئر. وكان رفع هذه الحجارة عملاً شاقاً ودقيقاً إلى أن قاربت الشمس إلى المغيب، فصرخ العمال التشيطون وبشرونا بوصولهم إلى الأرض البكر. وأنّ البنيان أصبح سليماً، ما عدا بعض قطع من التراب كانت تتساقط وتخضخض الماء، على بعد بضع أقدام من فوهة البئر الهتكة.

ومرت نصف ساعة، وإذا قسم من البنيان قد فقد توازنه، وسمع جرجمة شديدة وصراخ في البئر فأسرعنا وأضاء مرزوق مشعلاً فوجدنا البئر فاعرة عميقة على شكل قمع عشرين قدماً، والماء أسود، وفي وسطه دائرة بيضاء يعلو عليها الزبد ويدي العقيلي المسكين مرتفعتين، تتخططان خوفاً من العرق، فأخذ العرب ينظرون إليه من الفوهة هازئين، إلا أنّ عبد الله دلّى حبلاً في الحال ورفع العقيلي مستحماً سليماً لكنه ناغم صاخب، وذبحنا لأولئك الفعلة الشجعان فوق أجرحهم جملاً منهوكة، كان يجب أن نذبحه في المرحلة الأخيرة، فأخذوا الماء طول الليل، بينما جماعة أخرى من العقيليين قد أصلحوا رجام البئر وما حولها وهم ينشدون الأناشيد، حتى أخذت البئر مظهراً لا بأس به. ولبثنا أربعة وعشرين ساعة ننزع الطبقة العليا من ماء البئر لأن الماء كان خبيثاً فلم يطب إلا قليلاً، وكانت الإبل لا تزال تظهر نفوراً منه.

وللحقيقة لم يجد جدنا إلا لما تركنا «الجفر» فتقدم بعض الفرسان إلى الأمام نحو خيام «الدمانية» لينظموا خطط الهجوم الذي وعدوا به ضد فويلة - الاستحكام الموضوع على مدخل مضيق «أبا اللسن» - فقرّرنا شق هذا الحاجز قبل مرور الذخيرة بيومين، لأن قافلة الذخائر تأتي مرة واحدة كل أسبوع لتموّن المراكز الممتدة على طول الطريق. والجوع يخضع هذه المواقع بسهولة لأنها بعيدة عن معان، ويفهم رجالها بأنهم أصبحوا مفصولين نهائياً عن إخوانهم.

وكنا في «الجفر» على نار في انتظار نتيجة هذه الحركة، وكان تقدمنا متوقفاً عليها ومع ذلك كان مقامنا طيباً ومضحكاً، لأننا كنّا تجاه معان والسرّاب يسترنا، إلا أنّه لو فطن الأتراك لأحسنوا استعمال عيونهم ونظاراتهم ليرقبوا السهول من حولهم، وكنا نحن نرود مع القدر مسرورين ببئرنا التي أخذت جدتها، ولم نكن نخشى العدو لأنه

كان يحسب أننا لا نحصل على الماء بعد هذا التخريب هنا وفي «باير». ونهزهزوا في أحلامهم العذبة اعتقاداً منهم بأننا قد أخذنا في الفخ مع فرقة الخيالة في السرحان، وأنه لم يبق لنا أمل في النجاة.

وكنت أتفياً إثناء أشعة الشمس ساعات طويلة تحت شجيرة عوسج دقيقة الظل، مستلقياً ظاناً بأنني سأنام وأغفو، ولم يكن لي من وساد غير كمي الحريري أتوسد على جزء منه والجزء الآخر أحمي به وجهي من جيوش الذباب. وكان عودة جالساً بجانبني يرهقني بأخباره وتواريخ غزواته بلهجة قوية بهلوانية.. فلم ألبث أن تصدع رأسي من هذه الثثرة، فأخبرته وأنا أبتسم بأنه يتكلم كثيراً ويفعل قليلاً. فأجابني بأنه لا يمكنه أن يملك نفسه من الفرح بمجرد افتكاره بالعمل الذي سيقوم به قريباً.

وفي اليوم الثاني عند الفجر قدم علينا فارس كانت تظهر عليه علامات التعب والهزال. وأخبرنا بأن رجالنا حين وصولهم بالأمس هاجم «الدّمانيون» موقع «فيلة»، إلا أنه قد فاتهم أثر المفاجأة. وكان للترك متسع من الوقت فجمعوا رجالهم خلف معقل الحجر الجلمد فأرغم العرب على الارتداد والاحتماء من رصاص العدو الذي اعتقد أن هذه المفاجأة لم تكن إلا لعبة ساذجة لبعض البدو، وأرسل قسماً من الفرسان فهاجمت أقرب معسكر عربي، إلا أنهم لم يعثروا في الخيام إلا على رجل عجوز وست نساء وسبعة أولاد فذبحوهم ذبحاً، فثارت ثائرتهم فنهبوا المضارب وكانت قد فاتت الدّمانيين الفرصة لينزلوا عن التلال للدّفاع عندما علموا بالنكبة. إلا أن الغضب أخذ منهم كل مأخذ فاندفعوا كالصّاعقة على الطريق التي سلكها القتلة حتى بلغوا الموقع ثم ارتدوا عليهم في منتصف الطريق، وأفنوهم عن آخرهم، وأمعنوا في الانتقام فانقضوا على المعقل وأخذوه عنوة ولم يرضهم أن يأخذوا رجاله أسرى!...

وكانت مطايانا قد أسرجت، وفي عشر دقائق كانت الأحمال على ظهور الجمال فسرنا سراعاً إلى «غدير الحج» أول محطة للسكك الحديدية جنوب معان على طريقنا المستقيم إلى «أبا اللّسن» وفي الوقت نفسه أرسلنا مفرزة تعبر طريق السكة الحديدية شمال معان لتشاغل بها العدو ونهدد قطعان الجمال المرسلة من فلسطين، وقد حجزها

التُّرك في مراعي «الشَّوَبِك» إلى أن تستريح وتستد وتقوى على الخدمة في الجيش. وحسب تقديرنا لا يصل خبر نكبة «فويلة» إلى معان قبل الصُّبح، فلا يتمكن إذن التُّرك أن يلموا قطعان الجمال ويضعوها تحت حماية نار الموقع - على فرض أن غزوتنا لم تكلل بالنَّجاح ولم نتمكن من اللحاق بها - ولا أن يرسلوا نجدات إلى الشَّمال قبل شروق الشَّمس. فلو كنا في هذا الوقت على استعداد لمهاجمة الخط الحديدي في «غدير الحج» لكان الأتراك أخذوا في التفتيش علينا، ومفاجأتنا في تلك النواحي. وبهذه الوسيلة نكون قد أصبحنا أحراراً مطلقين دون أقل عائق إلى العَقبة.

وعلى هذا الأمل امتطينا نياقنا وسرنا دون توقف كالذي يتبع السَّراب، والسَّراب يهرب منه دون انقطاع، إلى أن كان الأصيل فدنونا من الخط الحديدي وأخليناه من الحراس والكشافات، وقصدنا الجسور الكثيرة الخالية من الخفراء ونسفناها، وخرجت حامية غدير الحج مصادفة لتصد جنودنا رغماً من الضُّباب الشَّديد الذي كان يعمي أبصارهم، فأرغمهم العرب على التقهقر بعد أن قتلوا بعض الرِّجال.

إلا أنَّهم في معان كانوا يعلمون بما يجري من الحوادث تليفونياً، وكان قد بلغهم بلا شك تخريبنا للجسور وسمعوا دوي متفجراتنا. وكنا نأمل أن يأتينا العدو إلى هنا فلا يلاقي أحداً بلا يلاقي آثارنا في الجسور العديدة المتهمة... لأننا كنا نشغل قليلاً ونهدم كثيراً. وكانت مخازن بارودنا تحت القناطر تحتوي على أكثر من ثلاث أو خمس ليرات من الدِّيناميت، ولا تلبث النَّار أن تشتعل بالفتائل، وفي مدة ست دقائق تهوي القنطرة وتتصدع الدَّعائم وتشقق الأكتاف. وهكذا عطَّلنا ثانية جسوراً ومسافات كبيرة من الخط. ولم نتوقف حتى نفذت منا ذخيرة الدِّيناميت تماماً.

ولما انهزم النَّهار وحلك الليل وتمكنا من إخفاء حركاتنا عن العدو، مشينا مسافة خمسة أميال حتى وجدنا ملجأً لجأنا إليه. وما كاد ينضج خبز المِلَّة ويرد في أيدينا حتى طلع علينا ثلاثة فرسان وهم يجدون خبيأً دراكاً وأخبرونا بأن مفرزة معادية من مشاة ومدفعية سافرت من معان وظهرت في «أبا اللُّسن» وكان «الدَّمانيون» قد تفرَّقوا بعد انتصارهم السَّابق وأرغموا على الارتداد عن مواقعهم دون أقل دفاع. وانتظروا في

البّراء. وهكذا فقدنا «أبا اللّسن» والمعقل، والمعبر، وأفلت منا طريق العَقَبَة دون أن نطلق رصاصة واحدة.

وقد فهمنا بعد ذلك أن هذا الحماس غير المعهود عند التُّرك كان مصادفة، ولكنه كان شؤماً علينا، فاتفق أن طابور «بدل» قد بلغ معان في ذلك اليوم وفي ساعة وصول خبر مظاهرة العرب أمام «فويلة» وكان لا يزال في رصيف المحطة فأمر في الحال بأن يتجه نحو الجنوب. بعد أن ألحقوا به ذخائره التي لا تزال على ظهور الجمال وزوّدوه بقسم من المدفعية تجرها الحيوانات. ليعاقب العرب الذين - على اعتقاد العدو - يحاصرون المعقل.

وقد تركوا معان صباحاً وساروا على طريق المركبات بتمهّل، لأن الرّجال المعتادين على طُلُوج بلادهم في القوقاز، كادوا يختنقون من شدة الحر وكانوا يقفون عند كل بئرٍ ليروو ظمأهم.

ثم تسلقوا الجبل بعد (أبا اللّسن) واتجهوا نحو المعقل القديم! إلّا أنّه كان خاوياً تحوم عليه العقبان، فخشي قائدهم أن يثبّط هذا المنظر المحزن عزيمتهم، ويفقد من معنوية هؤلاء الجنود الفتيان، فعسكر إلى الوراء على جانب الطّريق قرب نبع «أبا اللّسن» فقضوا الليل هادئين وفي تناول الماء، في قاع المعابر الضّيقة الملتوية.



الفصل الحادي عشر

نضال لبلوغ البحر

ومثل هذه الأخبار تزجينا إلى الاندفاع، فشدنا متاعنا على الجمال وانخرطنا بين الكثبان المتنقلة على هضبات سوريا، وكان خبز الملة في أيدينا لا يزال ساخناً، وطعمه يمتزج بطعم غبار الجيش المتحرك في قاع الأودية، ورائحة الريحان الغربية القوية الثابت على المنحدر، تنتشر وتعطر تلك الأرجاء. وكان الليل في تلك المعابر الضيقة، والجو الخالي من كل نسمة، ومشقة الأسفار في أيام الصيف الطويلة، كل ذلك كان يضرب على أوتار أعصابنا، وما أغربها من أسفار لمثلى وراء قوافل من الجمال لا نهاية لها، تسير مثقلة تحت أعبائها بخطى بطيئة، ومن تحت أخفافها تتكسر أغصان الريحان العابق، فيرتفع عن الأرض عطر يؤرج الهواء.

أما في القيعان فكان الثبات غزيراً يغطي الثرى، كأننا ونحن نجد السرى بين خمائل منورة الثبت يستر الظلام جمالها الرائع. وفي السهل يرن الصوت لأقل حركة. وكان «عودة» يغني بعيداً ويردد الرجال غناءه من الأمام ومن الورا بنظام وعظمة، فتجيش النفس وتشعر بأن الجيش مقبل إلى المعركة.

فقطعنا الليل سائرين وترجلنا عند بزوغ الفجر على أعراف التلال بين «بطرة» Batra و«أبا اللسن» تمتد أمامنا مروج «قويرة» الخضر الزمردية إلى أن تصطدم بحبال حمر كالعقيق، تلك الجبال التي تستر عنا البحر والعقبة.

وكان «قاسم أبو دميك» شيخ قبيلة الدمانية ينتظرنا بفارغ الصبر، محاطاً برجال قبيلته المحاربين الشجعان، وعلى وجوههم الدامية شارات معركة الأمس، فاستقبلوا عودة

وناصراً بأبهة ووقار، فأوقفنا حركاتنا في الحال، وذهب كل إلى عمله المسؤول عنه، وقد تحققنا بأنه لا يمكننا التقدم نحو العقبة، والجيش التركي يأخذ علينا المعبر، فإذا لم نتمكن من زحزحته وإخراجه في الحال ضاعت جهودنا ومجازفتنا طوال الشهرين الماضيين، ولم نحصل على أقل نتيجة.

ولحسن الحظ كانت غباوة العدو أكثر مما نرجو، فبلغنا أملاً كان منذ هنيهة يأساً وقنوطاً. فالعدو لا يزال يغط غطيّاً في ذلك العقيق، ونحن نحتل رؤوس التلال ونحذق به من كل جانب، ثم أصليناه ناراً حامية لا انقطاع لها، فانسحب من كل التواحي على المنحدرات، وبين الصّخور وعلى موارد المياه، بينما «زعل» وبعض الفرسان يقطعون أسلاك التلغراف والتليفون الممتدة في السهل المتصل بمعان، وكنا نعتقد بأنهم سيهاجمونا مجابهة ويحاولون إخراجنا من مواقعنا فلم يفعلوا.

ومضى النهار في مناوشة والشمس تؤج أجيجاً، فلم أشعر قط بحرّ أشد منه في صحراء العرب. وكان القلق والانتقال المتواصل يعرقلان خططنا، وبعض من رجال العرب الأشداء لم يقووا على مجالدة هذه الشمس المحرقة، فتمدّدوا على الأرض منهوكين، وكان علينا أن نلقيهم في ظل بعض الصّخور كي يستعيدوا نشاطهم، ونركض ركضاً إلى فوق وإلى تحت وإلى كل صوب، نحاول أن نخفف من شقاء رجالنا بالتنقل، ونهتدي إلى بعض المواقع السهلة العبور، على تلك التلال المتسلسلة كي نحبط حركات العدو، إلّا أنّ المنحدرات كانت وعرة تأخذ بالأنفاس، والحشائش المتمددة تلتف على سيقاننا، كأنها أيد خفية تشدنا إلى الوراء، وشطف الصّخور الكلسية الناتئة على المرتفعات تدمي أقدامنا. فكنا قبل هجوم الليل نرى آثار دماء أشد رجالنا على الثرى.

وحميت بنادقنا لشدة حرارة الشمس وشدة إطلاقها وحرقت أيدينا، مع أننا لم نفرط في ذخيرتنا، ولم نطلق بنادقنا إلّا على هدف معين، حتى أن الصّخور التي كنا نرتمي عليها لنسد الرماية، كانت حامية تلفح أذرعنا وصدورنا، فيرتفع الجلد ويتناثر نثراً، وتلتهب أفواهنا من شدة الألم والظّم، لأن الماء كان عزيزاً وكان من المستحيل أن

نطلبه من «بطرة» نظراً لقلّة عدد رجالنا، وإذا كان لا بد من العطش فلنبق كلنا عطشى، لا أن يشرب فريق ويظل فريق يتقلّى.

وكنا نتعزّى ونقول: «إنّ الوادي الذي نحشر فيه العدو لهو أشدّ حرارة من مواقفنا على رؤوس الجبال المكشوفة للهواء. وأن الثُّرك ذوي الجلود البيض أقلّ تحملاً لهذا الضّرام». ولقد كنا تنسلق المرتفعات ونتعقبهم ونسد عليهم المنافذ والتجمع، حتى يظلّوا مشتتين لا سبيل لهم إلى اللحاق بنا واكتشاف مواقعنا. وعلى كل حال، كانوا لا يقوون على أي عمل موفق ضد المهاجمين. لأن رجالنا كانوا يدورون حولهم بسرعة وخفة لا مزيد عليهما، فلم يبقوا لهم هدفاً ثابتاً يرمون عليه، وكنا نهزأ من مدافعهم الجبلية الصّغيرة، التي كانت مقذوفاتها تتعدانا وتنفجر وراءنا، رغماً من أن هم يروننا جيداً من أعماق الوادي. وكان يمكنهم أن يسددوا الرّماية إلى قمم الجبال التي يتحصن بها عدوهم.

ولقد شعرت فجأة في رائعة النّهار بأنّ الشّمس قد رعتني، لقد انحلت قواي، ولم أعد أفكر فيما يؤول إليه هجومنا، وحملت نفسي إلى حفرة حيث يسيل عِرْق ماء عكر من ثغرة في الجبل، فألقيتُ كمي على هذا هذا الوحل أمتصّ النّشع من فوقه، فتبعني ناصر مقطّع الأنفاس وشفّاته مغلّتان دامتان وهو يتقلص ويتلوى ضيقاً ويأساً. ثم ظهر «عودة» بدوره يتقدم بخطوات واسعة وعيناه جاحظتان محتقتان كالدم، ووجهه متوتر من شدة الوهج والهباج.

فسخر منا الخبيث لما رأنا نتمرّغ على الأرض ونتلمس قليلاً من البرودة في هذا المنحدر. وهاجمنا بهذا السّؤال: «إيه، ما رأيك في أبناء الحويطات» - فقد والله أجبته بمرارة: - «لأنني كنت حائقاً على العالم وعلى نفسي» - «ألا يزال الكلام كثيراً بدون طائل، إنهم يطلقون كثيراً والإصابة نادرة...»..

فانتفض «عودة» لهذا الرّد القاسي وتميّز غيظاً واصفر غضباً ومزّق عمامته وألقاها أمامي، ثم تسلق الأكمة إلى القمّة كالمجنون ونادى رجاله بصوته المرتعد الأبح، فتجمعوا حوله لحظة ثم تفرقوا على سفح الجبل، فخشيت أن يكون قد انقلب الأمر

إلى ضده وأجهدت نفسي كي ألحق به، وهو على القمة منتصب وحده يحدّد إلى العدو نظرات مريعة، فنظر إليّ وقال: «إذا شئت أن تنظر إلى أفعال الرّجال الشّيخ فاذهب وفتش على هجينك...». وأرسل «ناصر» يطلب هجينه وركبنا...

وانسل العرب إلى ملجأ أمين خلف رفرف من التل. وكنا نعلم بأن انحدار التل الثاني هيّن ومتصل بوادي «أبا اللّسن» الرّئيسي تحت نبع الماء. فتجمع محاربونا الأربعمئة هناك على غفلة من العدو فلاحقنا بعميدهم وسألناه عما جرى وأين ذهب الفرسان؟ فأوماً إلى الوادي الثاني ما وراء الجبل ثم قال: «هناك مع عودة» وبينما نحن نتكلم وإذا بصعقة ما وراء الأكمة زلزلت الأرض. وقصف رعود ومطر رصاص من بنادق رجالنا حوّلت الأرض من حولهم لجة من لجج جهنم. فحشّنا مطايانا ونحن نلتهب لرؤية الخمسين خيلاً ينقضون كالمنهزمين ولكن إلى الأمام من السّفح التل حتى الوادي الأكبر، فسقط منهم إلى الأرض اثنان أو ثلاثة، أما الباقون فقد لاحقوا انقضاضهم كالعاصفة الهوجاء على المشاة التّرك المتجمعين من غير نظام تحت الصّخور، يفتشون يائسين عن مخرج يبلغون منه معان تحت ستر الليل الموشك على الانسداد. إلّا أنّهم ماجوا اضطراباً وتقطّعت أوصالهم لشدة الصّدمة، وتشتتوا من كل جهة لهول الصّعة التي ألّقاها «عودة» في قلوبهم.

وناداني ناصر وشفتاه تقطران دماً، وقال: اتبعني، وأركضنا مطايانا فكانت تحتنا أشباه الجن وانحدرت بنا على سفوح التلال كي نلتقي بطليعة العدو المولي الأدبار، ولم يكن المنحدر وعراً للهجن الرّاكضة، إلّا أنّه كان على كل حال صعب المسالك، لنخشى عاقبة السّرعة التي لم يكن بإمكاننا إيقافها، والتحكم في مطايانا الهائجة. وقد نجح العرب باكتساب مواقع عن اليمين وعن الشّمال بإطلاقهم النّار باطّراد على العدو عند دغشة الليل! وكان الأتراك قد صعقوا صعقاً لاندفاع «عودة» الجنوني، فلم ينتبهوا لدنوّنا من المنحدرات الشّرقية فأخذناهم على غرة من الجناح. وأي قوة يمكنها أن تقاوم هجمات قلاص تركض ثلاثين ميلاً في السّاعة.

ولقد دخل أولاد الحويطات في ثورة من الغضب لا خمود لها لأن جريمة ذبح

نسائهم في الليل الماضي التي اقترفها الأتراك أحييت فيهم فجأة منظرًا مرعباً مشؤوماً
وشرعة حرب غريبة عن شرائع الحروب.

ولذلك لم يأخذوا سوى مئة وخمسين أسيراً، وثلاثمئة قتيل يتوسّدون الثرى في
منعطفات ذلك الوادي.

وتمكن بعض الجنود من الهرب مع بعض رجال المدفعية وبعض الرّاكبين وضباط
تحت إمرة مرشداهم «جازي» فبعثهم محمّد الضّغلان، مسافة ثلاثة أميال إلى «مريجة»
وهو يمتطروهم شتماً وسباباً، وعرفّهم بنفسه حتى لا يتحملوا القياه مرة ثانية على الطّريق.

أما خصوم عودة مع أولاد عمه فقد كان ينمو على غير علم محمّد. هذا الرّئيس
العاقل اليقظ الذي هو وحده دون رفاقه عرف كيف يكتسب محبة كل رجال قبيلته.
وقد عرفنا من بين الفارين ضيف الله العربي الذي خدمنا في الجفر بمناسبة آبار الملك.

ولحقنا عودة متبختراً وعيناه تشعان ابتهاجاً والكلمات تخرج من فمه سريعة
متقطعة... «شغل... شغل!!.. رصاص أبو تابه! أقوال من غير أفعال!» ورفع يديه ليرينا
نظاريته المفتتين وحماثل سيفه الممزق. لأنّ وابلًا من رصاص الأعداء كان مصوباً
عليه، فقتلت فرسه تحته واخترقت ست رصاصات ثيابه ولم يصب جسمه بأذى!..

وبعد انقضاء زمن أسرّ إليّ «عودة» بأنّه ابتاع اثنتي عشرة سنة عوذة قرآنية بمئة
وعشرين ذهباً وبفضل هذه العوذة لم يجرح قط منذ ذاك الوقت البعيد. وللحقيقة كان
الموت يتغاضى عنه ويفترس أولاده وإخوته وخلصاءه! فيالنكايّة القدر!.. ولم تكن
هذه التميمة سوى نسخة من كتاب مطبوع في «جلاسكو» تباع بثمانية عشر بنساً! إلّا
أنّ إيمان «عودة» السّاذج الحار لا يدعو إلى الضّحك. ولم يكن أحد يهزأ من اعتقاده
الثّابت.

ولقد تهلّل عودة وبلغ منتهى الغبطة بالفوز في ذلك النّهار. وكان يزداد ابتهاجه
كلما شعر بأنّه أفحمني وأدهشني بما يمكن أن يقوم به رجال قبيلته من العجائب، إلّا
أنّ محمّداً كان حانقاً علينا، ويعتقد بأننا الإثنين مجنونان - وكان يريدني بهذا القول

أكثر من عودة. لأنني أغضبت هذا الأخير وأهنته في حومة الوغى، وكنا نوشك أن نكون جميعاً ضحايا هذه الإهانة، وللحقيقة لم يقتل سوى رجلين من جانبنا! رجل من الرولة، وواحد من شرارة.

وإذا كان فقد رجلين من رجالنا العرب أمراً يؤسف له إلا أنه لم يكن الوقت وقت حصرة، فغلينا احتلال معان بأي ثمن كان، والهجوم على المخافر المتسلسلة أمامنا إلى البحر وإرغامها على التسليم.

ويمكنني بملء إرادتي أن أضحي بأكثر من اثنين من رجالنا العرب لبلوغ الهدف الذي نصبو إليه. وأن مثل هذه المواقف الدقيقة لتبرّر كل تضحية، وكل غال يرخص أمام نجاحنا المقبل.

وقد سلب العرب التُّرك بعد الموقعة ونهبوا الذخائر والمواقع، ولما أطلَّ القمر من وراء الأكمة أمر عودة بالسير والتقدم. أما ناصر وأنا فقد تلقينا هذه الدّعوة بتململ، لأن الهواء في تلك الليلة كان يهبّ من الغرب ناعماً بليلاً، وكان على هضاب «أبا اللّسن» - على علو أربعمئة قدم - برد يتمشى في عظامنا ويجدد آلام جروحنا ورضوضنا. وكان عرق الماء الفضي وخرير الهادئ وانسيابه على حصباه كاللؤلؤ بين الأعشاب الخضراء كالزّمرّد، يغرينا لقضاء بعض تلك الليلة، لا نبرح ولا نحور، لأننا كنا ناعمين براحة عذبة ملتفين بعباءاتنا ونساءل: هل يساوي انتقالنا حتى تحضير بعض الطّعام هذا الهدوء المنشود!...

وكنا في تلك السّاعة عرضة للعار الجسماني، بعد شرف الانتصار. وما من شيء يساوي الرّاحة بعد التّعب. وإنّا لم نقم بعمل نطلب لأجله مديحاً.

فألحَّ عودة بالرحيل لأسباب عديدة. منها أنّه قد تملكته الوسواس لوجود هامة الموتى من حوله. وأنه ربما عاد التُّرك إلينا بقوات تفوق قواتنا، ولربما كذلك يفاجئنا جماعة من بني الحويطات ونحن منهوكين من التّعب ومأخوذين بسكرة الرّقاد، وبينه وبين بعض أفرادها عداوات دم عائلية، ويطلقون علينا النّار، ثم يتمحلون الأعذار بأنهم حسبوا معسكرنا معسكر عدو.

فنهضنا وامتطينا الهجن وقذفنا بالأسرى أمامنا وهم في حالة وهن وتضعضع... وكان من المحتم على أكثرهم أن يسيروا مشياً على الأقدام. وقدر عشرين جملاً من جمالنا لم تعد تصلح للخدمة، منها المقتول، ومنها المجروح جروحاً قاتلة، ومنها المنهوك لا تقوى على حملين فوق ظهرها. وقليلة كانت المطايا التي تحمل رجلين عربياً وتركياً. ومن الأسرى من هو مجروح جروحاً خطراً لا يقوى معه على الاحتفاظ بنفسه على السرج، فاضطربنا أن نترك عشرين أسيراً في مكانهم فمددناهم على الحشيش الأثيث بجانب الساقية، وهناك على الأقل لا يموتون عطشاً. ولم يكن من أمل في الحياة بعد جروحهم البالغة أو في وصول الإسعاف إليهم من معان.

وطلب ناصر أغطية لهؤلاء القوم التّصف عراة المتروكين للقدر، وبينما الرّجال يشدون الأحمال، هبطت الوادي لعلي أجد على القتلى بعض الثّياب يمكنني أن أنزعها عنهم، إلّا أنّ البدو كانوا قد سبقوني إلى هناك ولم ألاق إلا أجساماً عارية تماماً. وهذه هي غاية الشّرف عند أهل البادية. وأعز سلب عند العربي هو ثوب العدو المقتول. ولذلك رأينا رجالنا على ضوء الصّباح في اليوم الثّاني، ويرتدون دراعات الكاكي الثّركية وهي بحالة جيدة، ويظهر أن جيش الأعداء قد بلغته من الشّمال ملابس جديدة بجميع لوازمها.

وتابعنا السّير ندور حول المرتفعات القريبة منا، ثم توقفنا في منح ساكن لا يهب عليه هواء فنام الرّجال نوماً عميقاً من شدة الجهد. وحررنا رسائلنا إلى رؤساء حويطات السّاحل نعلمهم بانتصارنا كي يقرّروا محاصرة العدو القريب منهم ومنعه من الخروج من مخافره لحين وصولنا. وكان أحد الضّباط الأسرى المغضوب عليهم من الثّرك والذّي عاملناه بالحسنى، قد رضي بأن يكون كاتم أسرارنا إقراراً بالفضل لنا. فاستكتبناه باللغة الثّركية إلى رؤساء مخافر «قويرة» و«كثيرة» و«حدرة» مؤكدين بأننا لا نلحق بهم ضرراً إذا استسلموا دون مقاومة وأنا نكتفي بأسرهم ومعاملتهم معاملة طيبة، ولا نلبث أن نطلق سراحهم حال وصولهم إلى مصر.

ولم تنته من هذه الرّسائل إلّا عند بزوغ الشّمس، وقادنا عودة وهو على رأس الحملة

إلى نهاية الوادي المغطى بالخلنج، والذي يتسع بين تلين مستديرين منحدرين انحداراً خفيفاً.. فشعرنا كأننا في منازلنا وبين أهلينا تحت هذه الأشجار المخضوضلة، وأنه لكالحلم اللذيذ مالمبث أن تبدد عند نهاية هذا المنحدر الظليل، وإن ما بعد ذلك لفضاء لا نهاية له. وتلك كانت مفاجأة غير منتظرة ملأتني حيرة. وكنا عندما عبرنا هذا الرّوض الطّبيعي الذي لم تتعب فيه يد الإنسان نتمنى لو أننا مررنا به ثانية. حتى أن قلوبنا تقوّمت ورفعت عنقها الطّويل إلى الأمام، لتودعه من وراء عرف الوادي في الأفق الهارب.

وكانت تنحدر تحتنا صخور «شتار» على مسافة مئات من الأقدام. تعوج وتفتتح وتتسامى وتنخفض كالأبراج، تصطدم بها غيوم الصّيف عند السّحر، وتحت أقدامها تنشق وتنسبط سهول «قويرة» وربى «أبا اللّسن» المستديرة كالأنداء التّواهد، كانت مفروشة بالحشيش الأخضر مظلمة بأشجار الخلنج المنتصبّة النّضرة. أما «قويرة» فكانت كأن مجهولاً ألغها بيده على بساط من الرّمّل الوردي المغمّم بخطوط العليق والعوسج التي تدل على مجاري الأودية، ومن هنا ومن هناك جزر من الحصى، وحلقات صخرية مشرشرة بفعل الأمطار، وتأكل الهواء. لها لون ذوبته الشّمس ومزجته مزجاً عجيباً.

وبعد أن سرنا أياماً على المرتفعات وفي الأعقة الضّيقة كأنها السّجون. كانت تلك الأماكن الخلوية الخالية لدينا كالرّؤى النّادرة. وكأنها كانت - مكافأة لجهدنا الماضي - تفتح لنا نوافذ على حائط الحياة.

فترجلنا ومشينا في معابر «شتار» الملتوية فقدرناها حق قدرها لما حوته من الجمال الرّائع، لأننا على ظهور جمالنا كنا نتهادى نعساً ونتوجس سقوطاً فلم يكن لنا هاد يهدينا إلى هذه الرّوائع، ولم نكن نجسر أن نميل بنواظرنا يميناً أو شمالاً خوفاً من فقد الموازنة والسّقوط. وتلقت جمالنا في القيعان بعض الأشواك السّائغة فحرّكت فكوكها الجافة. وكان قد بعد رجائنا فتوقفوا وتململنا على الرّمّل النّاعم كأنه الرّغب ورقدنا. وما هي إلا لحظة حتى انقض علينا «عودة». فدافعنا عن راحة أسرارنا المنهوكين، فأجابنا

بأن متابعة السّير تميّتهم هم وحدهم نصباً. أما إذا تأخرنا نحن، فالظّافرون المتصرون يموتون أيضاً. وللحقيقة لم يبق لدينا غير النّذر اليسير من الرّاد والماء. ولم يبق لنا من حيلة نحتال بها على «عودة» فسرنا خمسة عشر ميلاً وقضينا بقية الليل على مرتفع فوق «قويرة» حيث ينتظرنا الشّيخ ابن جاد. ذاك الشّيخ الأصيل المتردد الذي كان ينتظر أقوى الخصمين فينضم إليه. ولما سمع الثّعلب الهرم بانتصارنا القريب العهد، لم يبق لديه شك في تفوقنا، فجأة يخطب ودنا، ويجانبنا بجلد الحمل ويجاملنا بمعسول الكلام.

وكانت الحامية الثّركية المؤلفة من مئة وعشرين جندياً طوع أمره، فاتفقنا على أن يقودهم إلى العقبة وقرأنا التقويم فإذا التاريخ في ذلك اليوم 4 يوليو. وكان الوقت يضيق بنا والجوع يهددنا. والعقبة مفصولة عنا بمعقلين تركيين. أما مخفر «كثيرة» فقد امتنع بتاتاً عن مخابرتنا وهو أقربهما إلينا. وكان كالقلعة الصّغيرة فوق الصّخور الوعرة يتحكم بالوادي، فمهاجمته تكلفنا أرواحاً ووقتاً طويلاً.

فقرّرنا ونحن نمزح بأن نكلف ابن جاد ورجاله الأبطال بهذه المهمّة الجميلة، وأشرنا عليه بأن يقتحمها في الليل المقبل. فراجع ابن جاد أمام هذا الأمر الشّديد الوعورة محتمياً بحجة نور القمر الفاضح. فأجبنه بأن القمر سيختفي وقتاً ولو قصيراً. وحسب مفكرتي سيكون خسوف القمر في ذلك الليل. وبالحال فرصة من سوانح الفرص.

فقد انقضّ العرب على المخفر واجتاحوه ولم يفقدوا رجلاً واحداً، بينما الثّرك البلهاء المولعون بباطل الاعتقادات، يصوبون بنادقهم إلى السّماء ويطلقونها، ويضربون بهوس وحماس على حللهم النّحاسية، كي ينجدوا القمر المهدد ويخلصوه من محنته. وهذا روعنا من هذه النّاحية، فسرنا بين سهول شاسعة، وناصر يحمي إلى جانبه «نيازي بك» قومندان الطّابور من البدو بأنه أهانه بلفظ تركي مشين. فاعتذرت إليه وأفهمته بأن أولئك البدو قد حفظوا تلك العبارات البذيئة من حكامهم إخوانه الثّرك! والعربي الآن يدفع ما لقيصر لقيصر، فلم يقتنع قيصر.

ثم أدخل يده في جيبه وأخرج قطعة من الخبز متكسرة متجمعة على بعضها، وسألني: هل هذا فطور يليق بضابط تركي؟!...

واتفق أن اشترى توأماي أو ملاكاي الحارسان داود ورفيقه، أو سرقا جرایة أحد الأسرى التُّرك، فقسمنها أربعة أقسام. فأجبتُه بأن هذه القطعة من الخبز هي فطورك وعشاؤك، وربما فطورك صباح الغد.

وأنا نفسي الضابط أركان حرب في الجيش البريطاني الذي هو ليس بأقل نعمة وبجوحة من الجندي التُّركي، التهم هذا الجزء من الجرایة التهام طيبات النَّصر!.. وقد كان ذلّ الانكسار عالقا في حلقة. لا خبث الجرایة! ودعوته أن لا يحسبني مسؤولاً عن معركة كان شرف كلينا موقوفاً على نتيجتها سواء بسواء، وكانت معابر وادي «إضم» كثيرة الرِّفارف والمنحنيات، كلما زدنا فهيا توغلاً زادت وعورة. وقد هجرت الحاميات التُّركية مخافرها المتسلسلة فوق «كثيرة» على طول الطُّريق وانطوت على «خضرة» وهو موقع منيع محصَّن على مصب «إضم» للدِّفاع عن «العقبة» ضد كل احتلال من البحر.

ولسوء حظ العدو لم يخطر بباله أنه سيكلّف ضد هجمة خصمه من البر، ولم يكن في التحصينات التي تكفل العقبة موقع ما أو جبهة أو خندق يمكنها أن تصمد لأي صدمة من هذه النّاحية. وكان تقدمنا الفجائي صعقة عامة لأولئك القوم.

وبلغنا هذا الموقع الهام عند الأصيل. وقال لنا عرب النّواحي بأن رجال المخافر دعوا للحاق بفرقهم، ولم يبق منهم غير ثلاثمئة رجل تقريباً يأخذون علينا طريق البحر، فترجلنا للمداولة والاستشارة.

وكان العدو في حمى منيع ضد قنابل البحر، ولديه بئر ارتوازية حفرها حديثاً، فهو إذن يتمكن من مقاومة الحصار طويلاً، ولكن هل نصدق عفواً الأقاويل التي يرددها أهل النّاحية بأن الزّاد ينقصهم.

ولم تكن لدينا معلومات أكثر من ذلك. إننا والحق يقال كنا في مأزق لا نرى لنا

مخرجاً منه. وتشعبت الآراء، وكان الحريص منا كالمجازف، كل يرد الحجة بالحجة قدر المستطاع. فتكهربت الطّباع، وتوترت الأعصاب في ذلك الجو الملتهب داخل المعبر المطبق. وأعراف الصّخور الصّوّانية ترسل إلينا لعباً من الأشعة الحامية ونحن في هذا القاع الكثير الأغوار. لا تهب علينا نسمة تخفف من أجيجها. وتزاحمت قواتنا في ذلك الخندق الطّبيعي، وفاضوا على الجانبين حتى بلغوا إلينا. وقد قطعنا حديثنا مراراً لأننا رأينا أنه ليس من الحكمة أن يسمعون رؤساءهم يتشاحنون على هذا النّحو! فضلاً عن أن رائحة العرق في ذلك الجو الجهنمي تتصاعد من أجسام أولئك الجنود المحرومين من الاغتسال مدة طويلة فتصبح الإقامة غير محتملة.

وأرسلنا إلى الثّرك الإنذارات المألوفة ورفعنا لهم علماً أبيض للمخابرة، وأرسلنا إليهم أسرى ليجيبوا دعوتنا، فأجابونا بإطلاق الرّصاص علينا، فهاج العرب لهذا وفهموا الأمر من وجهته الرّديئة، وبينما نحن نتداول تسلقوا المرتفعات وأمطروا العدو وابلّاً من الرّصاص، فركض ناصر حافياً ليصد هذا الاندفاع، لكنه طلب نعلين يحتذيهما لأن الصّخور كانت حامية كالجمر، وكنت أتحايل على ظل ضئيل وقد أنهكني التّصب من هؤلاء الرّجال، فلم أهتم بمن منهم يمكنه أن يذل اندفاعهم الهائج.

وحاولنا مرة ثالثة أن نتخابر مع العدو بوساطة رجل شاب كان مطلوباً للقرعة العسكرية. فقبل أن يقوم بالمهمة ولم يخش الدّنوّ منه ورافقنا الجندي الشّاب لجهة الخنادق ودعونا ضابطاً لموافاتنا ومخابرتنا. فأطل علينا الضّابط وهو يتردد. فأفهمناه بأن الحالة دقيقة جداً، وأنا قد استولينا على جميع المخافر والمعازل ورائنا، وأن قواتنا تتعاضم دون انقطاع، وفوق ذلك ليس من المستطاع بل من المستحيل تخفيف غليان رجالنا المتحفزين، وبعد الأخذ والرّد صرّح بأنه سيسلم غداً عند الفجر. وهكذا كان لنا نصيب مرة أخرى، بأن نذوق طعم الكرى رغماً من الظّماً الذي كان يحرق أحشاءنا.

وفي الصّباح ألفينا المعركة تنفجر من فوق التلال التي حولنا. لأن قوة كبيرة من رجالنا قد وصلت في الليل ولم تعلم باتفاقنا مع العدو، فأصلته ناراً حامية فصمد لها بشجاعة.

فر كض ناصر يرافقه «ابن دغثير» ورجاله العقيليون وهبطوا الوادي فتوقف رجالنا عن إطلاق النار وتوقف الثُّرك من ناحيتهم، لأن العدو لم يبق لديه أمل ما في المقاومة. وقد فرغ منه الزّاد تماماً، وفوق ذلك كان يحسب بأننا ممونون أحسن تموين. فتم التسليم على أفضل الشُّروط.

ولاحظت بينما كان العرب منهمكين بالسلب ضابطاً من السِّلْك الهندسي يرتدي ثوباً رمادياً وله لحية شقراء وعينان زرقاوان في حالة اضطراب. فكلّمته بالألمانية! وكان قد أرسل قريباً ليفتش عن الطّبقة المائية وينبش بئراً توازية للجنود، لأنه من المختصين بهذه الأعمال. ولم يكن يعرف الثُّركية، وقد كن مستغرباً هذا الحادث في الصّحراء المسالمة! فأجبتّه بأنّ العرب قد انتقضوا على الحكم الثُّركي. وبالطبع لا يمكنه أن يفهم سر هذه الحوادث دفعة واحدة. ثم سألتني: من يقود هذا العصيان؟ فقلت له: «شريف مكة»، فأجابني: إذن سأكون أسيراً في تلك المدينة!! قلت له: «بل في مصر» وكان يريد أن يعرف ثمن السّكر، وانشرح صدره لما علم بأنّ السّكر موجود بكثرة وبثمن بخس!

وقد رضي هذا الضّابط الفني بفقد كل شيء واستسلم للقدر، ولكنه أسف جداً لتركه البئر التي كادت أن تنتهي، ولكانت تكون من حسناته في الصّحراء... وأراني موقعها وكيفية استعمال آلاتها ورفع لنا دلواً من مائها الوحل فشربنا شيئاً منه لنخفف من ظمئنا. ولم نلبث أن دهمتنا عاصفة من الرّمال وقذفتنا مدى أربعة أميال وذلك في 6 يوليو بعد خروجنا من «الوجه» بشهرين، وهكذا عدنا وارتمينا في أحضان مياه البحر.





دائید جورج هوغارٹ

الفصل الثاني عشر

العقبة والسويس والنبي

وبلغنا الشاطئ ننظر إلى جماعات من الناس يمرّون أمامنا بوجوه أوربية لا أثر للشعور في ملامحها. وكانت العقبة محط آمالنا وأفق أرواحنا شهوراً عديدة. ولم يكن لنا هم ولا لذة إلا بذكر العقبة. والآن وقد تحوّلت الرّؤيا إلى حقيقة فقد شعرنا بكل احتقار نحو أولئك الرّجال الذين ضحوا بكل قواهم ليصلوا إلى نتيجة لم تبدل شيئاً لا من الأفكار ولا من الأشياء.

ولقد أخرجنا الجوع من سباتنا العميق. وعلينا في العقبة أن نطعم سبعمئة أسير وخمسمئة من رجالنا عدا الذين نتوقع وصولهم وهم نحو ألفي رجل من حلفائنا. ولم يكن لدينا مال. ثم أنه لم تكن هناك أسواق سوى العقبة لتمويننا بالغذاء. وكانت آخر أكلة أكلناها منذ يومين، مع أن لحوم جمالنا كانت تكفينا ستة أسابيع، إلّا أنّ هذا الحل كان رديئاً لأنّ جمالنا غالية الثمن، وفوق ذلك لا بدّ من يوم تنفد فيه حيواناتنا ويصبح جيشنا الصّغير عديم الحركة لفقده وسائل التّقل.

وكان إذن من المحتم علينا أن نوصل خبرنا إلى البريطانيين على بعد مئة وخمسين ميلاً في الصّحراء التي تفصلنا عن السويس، ونطلب إرسال سفينة تنجدنا في الحال.

فقرّرنا بأن أسافر ومعي ثمانية أكثرهم من رجال الحويطات يركبون قلاص الجيش النّجبية. وكانت «جدة» بين تلك القلاص لا تتجاوز السّبعة أعوام، والتي من أجل امتلاكها نشبت حرب خليج العقبة كنا نتباحث عن كيفية تنظيم السّير، فإذا مشينا الهوينى كي نرفق بمطايانا تعرّضنا للهلاك جوعاً. وإذا سرنا سراعاً أنهكنا هذه

الحيوانات الطيبة، فتسقط في وسط الصحراء أو تتوقف عن السير مفلعة الأخفاف.

فقر رأينا على أن نسير بين بين!... وخير الأمور أواسطها، حسب طبيعة الأرض. ونقطع مسافات كل يوم حسب مقدرتنا على البقاء على ظهور مطايانا. وعند الانتقال والأسفار إذا تدخل عامل الوقت في الأمر - وعلى الأخص للرجل الغريب عن البلاد - فالإنسان يموت من التعب قبل الحيوان.

وأنا شخصياً كنت أقطع منذ شهر كل يوم خمسين ميلاً، حتى بلغت الحد الأقصى من المقاومة. وإذا تحملت هذا التعب يمكننا أن نكون في السويس بعد خمسين ساعة. وكى لا يغرينا تحضير الطعام إلى التوقف، فقد سلق كل منا قطعة من لحم الجمل وشوى شيئاً من الثمر، ولففناها بقطعة من قماش وربطناها في مؤخر السروج. وعند منتصف الليل كنا في «ثمد» وهو مورد الماء الوحيد في طريقنا. وكانت الآبار في قاع واد صغير ومنظرها يشرح الخاطر، وهي قائمة تحت مخفر الحرس وقد هجره حرس سينا. فتركنا قلاصنا تنفس وتشرب، بينما نكون نحن قد أروينا ظمأنا. ولم نلبث أن طوينا السرى في ذلك الليل البهيم الآخرس وتلفت وراءنا كأننا نسمع حساً غريباً في تلك التيماء المبهمة. هميس أخفاف إبلنا على الرمال، وبين مشدّب من الثبات العطري يرتفع طيبة إلى معاطسنا كشذى الخزامى. وما هي إلا أوهام من أعصاب تعب أنهكها السهر والفكر.

وطلع الفجر متلكتاً. والشمس لا تزال وراء الرمال بين الأودية التي تنفرج، ثم تتقابل على طريق العريش. فتوقفنا لنمني إبلنا بالراحة والرعى بضع دقائق، وعدنا على سروجنا حتى منتصف النهار، ولما رأينا خرائب قلعة «نخل» الحزينة ترقص في السراب وقد تركناها عن يميننا توقفنا ساعة كاملة، ولم يبق للإبل حيلة وليس لنا قوة. إلا أن «مثلجاً» صاحب «جدة» القلوص العملاق دعانا لتلبية الأمر. فركبنا كأننا أصنام هاوية، فتسلقت بنا الإبل جبل «مثلاً» وطلع القمر على هذه الأعراف الكلسية، وتلاأت الصخور البيض كأنها مرصعة بالبلور الذي لا عدّ له.

وعند الفجر مررنا بجانب حقل مزروع بطيخاً لأحد العرب. وهي شقة حرام
تفصل بين المتحاربين! فتوقفنا رغماً من وقتنا الغالي الثمين لنسرح بهائمنا على تلك
المنخفضات، لعلها تلاقى شيئاً أخضر تقضمه، وقطفنا بعضاً من تلك الفاكهة، وبللنا
شفاهنا المشققة من لفح الهواء وسفع الرمال. وسرنا دائماً إلى الأمام، وفي يوم دائم
القيظ. إلا أنه لم يكن مضمياً في ذلك الوادي لهبوب الصبا عليه من خليج السويس.
وانخرطنا بين كثير من الكشبان المتنقلة القريبة المنحدرات كأنها «جبل روسي» إلا أننا
رجعنا عند الأصيل إلى السهول المنبسطة، وشعرنا بأننا نلمح خطأ في الأفق يرقص
على السراب لجهة منخفض القناة، فأيقنا بأننا أمام السويس.

ووصلنا إلى صفوف خنادق كثيرة مسورة بالحواجز والأسلاك الشائكة. وكيفما كنا
نتجه نلاقي طرقاً وبعض أطراف خط حديدي خرب.

فاجتزنا كل ذلك ولم ينتبه إلينا أحد. وكان «الشط» نهاية مرحلتنا وهو المخفر القائم
تجاه السويس على الضفة الآسيوية من القناة. وكان ذلك في الساعة الثالثة بعد الظهر
بعد أن مشينا تسعة وأربعين ساعة من العَقة.

وأنها لسرعة حسنة جداً لدى البدوي في غزوته. فكيف بنا ونحن كنا في العَقة
منهوكي القوى قبل أن نبتدئ برحلتنا.

وكانت الفوضى سائدة في «الشط» فلم نلاقِ ظل حارس قط، وكان منذ ثلاثة أيام
قد تفسّى الطاعون ودخل بين المضارب دخول الذئب على الحظيرة. فنقلت المخافر
القديمة وهُجرت الخيام على حالها التي كانت عليه، وآوي رجالها إلى قلب الصحراء.
ولهذا السبب كنا ضائعين بين المكاتب الخالية. ولا نعلم كنه الحقيقة. إلى أن وقع
تحت يدي تليفون. فطلبت اتصالي بمركز قيادة السويس العام لأنني أريد التسليم!!
فأجابوني آسفين. لأن ذلك لم يكن من اختصاصهم، إلا أن «مصلحة نقل المياه» هي
التي تهتم لهذا الأمر بحسب طرق التقلع عندها من ناحيتي القناة. وكنت ظننت أنني
فهمت - لطنين في أذني - بأن هذه الطرق لدى المصلحة لا علاقة لها مع أركان حرب
العام. فطلبت مكاتب «الماء والخبز» وأفهمتهم أنني قادم من الصحراء الآن ولدى

المعلومات يجب أن أقدمها للأركان حرب في الحال وأطلب وسيلة للوصول، فأسفوا ألف مرة كذلك. لأنه لا يوجد مركب في القناة يمكنه أن يعبر بهم إلى الضفة الثانية. وأنهم في الغد سينقلونني إلى المحجر الصحي دون تأخير! وهنا انتهت المخاطبة.

فقلت لنفسي هأنذا قد قضيت أربعة أشهر في صحراء العرب دائم الحركة لا أملك يوماً أنفاس فيه، ووصلت إلى هنا بعد أن قطعت ألف وأربعمئة ميل على ظهر جمل لا أرحم جسدي كلما قضت الحاجة للتقدم نحو الانتصار. فإني أرفض أن أقضي ليلة واحدة باطلة مع الحشرات التي تنهش جلدي. إني أطلب حماماً وبعض الشراب المثلج وأطلب تغيير ثيابي اللاصقة بقدرها على جروحي الدامية، وأكل شيئاً طيب طعماً من البلح الفج وغضروف الجمال! فطلبت الاتصال هذه المرة بحدة... وهذه المرة قفلوا في وجهي!! إلا أنني سمعت من تليفون مكتب الجيش صوت لهجة أبناء الشمال يقول لي بلطف: «لا فائدة يا سيدي من الإلحاح مع مثل هؤلاء القوم».

وكان هذا الكريم المجهول الصوت على حق في كلامه! وأسرع ووصلني بمكتب القوارب الذي كان رئيسه الميجور «ليتلون»، الدائم الإنهماك. وقد خطر له أن يضيف إلى مهامه الكثيرة مهمة تموين العرب. فكان يحجز كل مركب حربي يجاذف بالدخول في مياه السويس، ويقنع ربانه بأن يضع على ظهر سفينته ما استطاع من الذخائر والمؤن «برسم»، «الوجه»، و«يثبع» وكان بعضهم جذاً لمثل هذه المهمة.

وهكذا كان يسلبنا ألوف رجالنا وطرونا على مرأى منا، كأن هذه الممارسة اليومية كانت سلوى طيبة بين مهامه الشاقة. وكان مع ذلك يجد وقتاً ليبتسم لأعمالنا الغريبة التي نقوم بها. نحن أولئك الناس الأكثر غرابة.

وعليه. فلم يهملنا قط. ولقد علم بالعراقيل التي أقامتها أمامنا شركة الشحن فمهد لنا كل عقبة في لحظة. وكان زورقه مجهزاً وسيكون على «الشط» بعد مرور نصف ساعة. وما كدت أطا أرض الضفة الغربية حتى هرولت إلى مكتبه. ولم أطلع كائناً ما على هذا الحادث. إلا بعض الأخصاء بعيد انتهاء الحرب.

لأنه لا يمكن لزورق صغير أو كبير أن يطوف على مياه القناة «كلية القداسة» دون أمر سابق من مجلس الإدارة، لكنه أمر ونفذ أمره. وأرسلت رجالي وجمالهم شمالي «الكوبري» kubri وتكلمت بالتليفون إلى السويس ليضيفوهم ويطعموهم في معسكر الحيوان القائم على الصفة الآسيوية. وبالطبع قد كوفئ رفاقي بعد مدة بقضاء بضعة أيام بديعة في القاهرة.

ولحظ ليتلون التعب الشديد الذي أعانيه فأرسلني إلى فندق متواضع كنت أعرفه من زمن بعيد. إلا أنني تخيلته الآن فخماً. ولقد عانى رجال الفندق كثيراً من الجهد لتخفيف تأثيرهم السيئ نحوي. بل لقبول غرابتي ووضاعتي وضالة جسمي وأطماري. ولم يحجموا عن أن يقدموا لي كل ما احتجت إليه. فلقد حصلت أولاً على حمام. وعلى شراب مثلج يُقدّر بست كؤوس على الأقل، وعلى غذاء طيب، وفراش طالما كان يراود أحلامي.

وعرف أحد ضباط الاستعلامات الشهم الهمام - نظراً لخدمته في دائرة التجسس - بوصول رجل أوروبي في الزي العربي ونزوله في فندق سيناء. فثبت إقامة رجالي على «الكوبري» وسهل لهم أمورهم، وطلب لي جواز سفر لأسافر من الغد إلى القاهرة.

وغيرت القطار في الإسماعيلية لأقل القطار السريع القادم من بور سعيد. وأنست الأميرال ويميس Wemyss، وبورمستر Bormester، ونثيل Neville. ينزلون من الصالون الفخم وهم يتبعون جنراً ضخماً جداً ذرتبة عالية. وكان الضباط الواقفون على الرصيف كأنهم مسمرّون في أماكنهم احتراماً وقلقاً وجمهور الرؤساء الكبار يغدون ويروحون من هنا وهناك، منهمكين بمحادثات لاشك بأنها على غاية من الأهمية.

وكانوا يؤدون التحية مرة واحدة - ثم مرتين... وأما ذوو الرتب العالية فكانوا يخطون خطواتهم الكثيرة... ثم سلم الضباط مرة ثالثة. وكان ذلك كثيراً حقاً، ثم انصرف فريق وراء الحواجز ووقفوا بحذر. مستعدين للسلام أيضاً. إنهم لذوي نفوس مستعبدة! وكان البعض منهم يختبئ، فهم أصحاب النفوس المكروهة. والباقي كان يدير ظهره

ويتقدم إلى باعة الكتب ويقرأ العناوين بلهفة، وفي وجل، ولم يجرو غير واحد فقط أن يكون ذا جَلْبَة!!..

وفاجأتني عين «بورمستر» وبيّنت باصرتي الواقعة عليه وتساءل: من أكون يا ترى؟ لأن وجهي الذي حرقة حرارة الشّمس كان أحمر «كالقرفة» أو كأنه صُبغَ بحبر الأخطبوط. ونظراتي التائهة كانت تنم على تعبي البالغ من جراء تغربي الطويل، وقد دفعتنني الرّغبة إلى معرفة وزن جسمي فلم يكن أكثر من سبعة ستونس. أي أربعة وأربعون كيلو جراماً وأربعمئة وثلاثة وأربعون كيلو جراماً!! ورغماً من شكلي غير الجذّاب فقد واجهني «بورمستر» وتقدم إليّ فأطلعته على غزوتنا الأخيرة دون أن نفشي سرها إلى أحد. فحرّك كلامي عواطفه! وطلبت من الأميرال أن يرسل شحنة إلى العقبة في أقرب وقت مستطاع. فأكد لي «بورمستر» بأنّ مركب «دوفرين» *Dufferin* الذي عاد إلى السويس في ذلك النهار سيأخذ ما يمكنه من المؤن من ذلك المكان ويسافر حالاً إلى العقبة، ثم يعود بالأسرى التّرك على أحسن حال. وقد نفذ الأوامر اللازمة لي بنفسه كي لا يشوش على الأميرال محادثته مع النّبي. فصحت به: «النّبي! وما شأنه هنا.. فأجابني بأنه هو القائد العام الآن: ومري!! مري! عاد إلى إنكلترا!!».

لقد ألمني هذا الخبر البالغ الأهمية، وسقطت حقاً من علوي وخفضت من غلوائي! وتساءلت ألا يشبه هذا الرّجل الضّخم القاني الوجه أسلافه الكثيرين من القواد الذين كانوا يجهلون الشّرق! وهل يحتم عليّ أن أعيد الكرة وأدرسه كتاب الشّرق مدة ستة أشهر أخرى. ولقد ذكرت «مري Murray» وبليندا *Belinda* فلم تكن بلادتهما في بداءة أمرهما لتبلغنا النّصر. بل تلبّغنا إلى قول رؤساؤنا لنا «تفضلوا وانصرفوا» ولم ننجح إلّا مع الوقت وبعد أن برهنا عن حمية ونشاط متواصلين، في أن نهدي السّير أر تشيولد وكاتم سرّه الأركان حرب إلى الصّواب. فأقنعناهما إلى حدّ أنهما كتبا إلى قلم المخابرات يوصيان خيراً بالحركة العربية، ويطلبان تثبيت فيصل قائداً لها. وبهذا قد أبديا حقاً كرمًا وشهامة، وانتصرنا نحن انتصاراً سحرياً، لأنّه كان من المستحيل أن يلاقي المرء شخصين متناقضي الطّباع مثل «مري» وليدن بل *Lynden Bell* سكرتيره!

فلقد كان الأول كله دماغاً ومخالب! عصبي المزاج، ناعم الملمس، متقلباً، وكان هذا الأخير المثل الأعلى للموظف والأسير الأعمى لأحكام وظيفته وقوانينها.

وكنت، وأنا في القاهرة أحتذي نعلين، وأتسلل صامتاً في دهاليز سافواي الهادئة الموصلة إلى «كلايتون» هذا الضابط الذي كان يحرص على وقته وأمانة مهنته إلى حد أنه كان يختلس من ساعة إفطاره ليسرع ويعود إلى عمله الذي يتكاثر كلما أكثر هو من الجهد. وعندما كنت أدخل عليه كان يرفع بصره ويقول بالعربية «مُش فاضي» "Mush fadi" التي معناها باللغة العامية (مشغول)، لكني لما كنت أتكلم كان عدم اكترائه يتحول إلى اهتمام ويريد عندئذ أن يحسن استقبالي!

وكنت قد كتبت في ليلتي بالسويس تقريراً موجزاً. فكان حديثنا يدور فقط على المواضيع الأكثر أهمية، ولم تمض ساعة حتى بشرنا الأدميرال بأن السفينة «دوفرين» Dufferin قد وُسقت طحيناً وستقوم إذن بسفرها الطارئ، فانتزع كلايتون من الخزانة الحديدية ألفاً وستمئة جنيه ذهباً وأمر بشحنها، محروسة إلى السويس في قطار الساعة الثالثة. وكان مثل هذا العمل السريع محتملاً علينا، لكي يتمكن ناصر من تسديد حساب نفقاته.

أما السندات التي كتبناها على ورق تلغراف الجيش وبالقلم الرصاص في «باير والجفر وقويرة»، فقد كانت عهداً علينا ندفع قيمتها لحاملها في العقبة. إن هذه الطريقة بسيطة في حد ذاتها، إلا أنه لم يجسر أحد إلى الآن أن يجازف، ويصدر مثل هذه التحاويل لحاملها، لأن ثياب العرب لا جيوب لها. ولأنه لا خزائن حديدية تحت خيامهم، ليتمكنوا من الاحتفاظ بمثل هذه الأوراق!..

وكنت لما عدت إلى الفندق أخذت أسعى لأحصل على ثياب ألبسها تكون على الأقل غير ملفتة للأنظار، مثل ثوبي العربي الغريب في ذلك الوسط. إلا أن خزانة ثيابي كان قد سطا عليها العث ونخرها نخرأ، فبقيت ثلاثة أيام حتى تمكنت من الظهور ولو بحالة مزرية بثوب إنسان متمدن!..

وكننت لا أزال منهمكاً في تغيير هندامي، فدعاني القائد العام إليه وهو يلتهب رغبة إلى ما سأقصه عليه، وكننت في تقديري قد تغلغلت في مطاوي التاريخ، وذكرت صلاح الدين الأيوبي وأبا عبيدة، ونوّهت عما للحركات الحربية عند القبائل السورية الشرقية من الأهمية، وبما يحتم علينا القيام به، لنهدد مواصلات التّرك بمدينة القدس، وكانت هذه الوجهات غاية أطماعه، فأراد أن يسبرها معي دون أقل تأخير.

ولم تخل مقابلتنا من بعض الأمور المضحكة، لأنّ النبي كان ضخماً قوياً ممتلئاً واثقاً من نفسه، مرتفعاً، أديباً، متسامياً فوق المعاونين المتوسطي الحال، وكان لا بدّ من مضي وقت ليصل شعور مقامنا الصّغير إلى عقله. وكان غارقاً في كرسيه. ولم ينظر إليّ مواجهة - وتلك كانت عادته - بل رمانني بلحاظه من زاوية عينيه كمن يخشى أن يدس له.

لقد قدم من فرنسا حيث كان هناك زمناً طويلاً إحدى أضراس تلك العجلة الهائلة، التي كانت تطحن العدو ببطء، لكنه كان مشعباً بمبادئ الغريبيين، الذين يقدمون قوة المدفع على كل قوة أخرى - وما أخطأها فكرة في حربنا الأسبوية! وكان النبي - بصفته ضابطاً قديماً في فرقة الفرسان - متردداً في أن يضرب صفحاً عن نظريات المدرسة الجديدة في هذه البلاد الأسبوية المختلفة كل الاختلاف، أو يسير وراء «چيتوود» Chetwode و«داوني» على هذه الطّريق المطروقة بحرب التدريبات والحركات.

ولم يكن شيء أغرب على النبي من أن يرى أمامه إنساناً غريب الشكل مثل شخصي التافه، إنساناً ضئيل الحجم، عاري القدمين، متعثراً بأذيال ثوبه الحريري الفضفاض يتقدم لعرقلة سير العدو، ناشراً لواء الجهاد والحرب المقدسة في قبائل الصّحراء ضد التّرك. وأن هذا الكائن الغريب لا يطلب سوى التمويل، ومقدار مئتي ألف دينار من الذّهب لتثبيت أولئك المهتدين في عقيدتهم الجديدة وإدارة حركاتهم.

فلم يصل النبي إلى فصل ناحية الحقيقة من ناحية الشّعوزة في هذا الشّخص الغريب، وعلمت من نظراته أنه يعمل على حل هذه العملية. وأنا لا أتقدم إلى معاونته. وقد سألني أسئلة قليلة، وسكت، إلّا أنّه أخذ يدرس الخارطة التي أمامه، على حين كنت أشرح له شيئاً عن سوريا الشرقية وسكانها.

وأخيراً رفع عينيه ونظر إليّ وجهاً لوجه. وقال لي: «حسناً حسناً! سأعمل لك مايمكنني عمله». وانتهت المفاوضة.

الحق أني لم أكن أعلم إلى أي حد قد جذبته إلى ناحيتي. لكنني علمت بالاختبار شيئاً فشيئاً، بأنه كان يفكر فيما يقوله تماماً، والذي تمكن الجنرال آلنبي من عمله، كان كافياً لأطمع أصغر خدّامه.



الفصل الثالث عشر

تغيير تشكيلاتنا القتالية

أما عند كلايتون فقد كشفت عن أعماق نفسي. فلقد أخذنا العَقَبَة بفضل تدييري وجهودي أنا وحدي، ورأسي وأعصابي يدفعان الآن جزية نجاحي، ولقد كنت مستعداً لأن أقوم بأكثر من هذا - وكنت أشعر بقدرتي على ذلك - لو صدر حكم بأن لي الحق أن أكون سيد نفسي. فالعرب يعتقدون بأن قرودهم غز لان، وأنا أيضاً كنت أعتقد ذلك اعتقاداً صادقاً.

فسلّم كلايتون بأن قرودي تفيض حماسة نافعة، إلا أنه عارض فكرة عدم صلاحية تسليم قيادة العرب إلى ضابط أقل أقدمية من زملائه، وعرض بأن يكون «جويس» حاكماً على العَقَبَة، فكان هذا الإلهام موافقاً لرغباتي تماماً، لأنّ «جويس» كان رجلاً يعتمد عليه. ولو أن قيامه العالم قامت علينا! وكان رزيناً نيراً محباً ومنشطاً لصاحبه. يكثرث بالرجال والأشياء، ويقوم بعمله على أحسن وجه وإن يكن محدود الإقدام والبداهة.

وأما باقي التشكيلات فكان أمرها ميسوراً: فقد عيّن «غوشلِت» ضابطاً إدارياً... «غوشلِت» التاجر اللندني الذي خلق من الوجه - ذلك الخلاط الذي استولينا عليه - مدينة نظيفة جذابة. أما الطائرات فلم يكن قد حان الوقت بأن تنقل من مطاراتها، إلا أن السيارات المصفحة كان يمكنها أن تسافر في الحال. كذلك سفينة الحرس إذا شاء الأميرال أن يكون كريماً. ودعونا «روسلين ويميس» إلى التليفون فرضي عن طيب خاطر بأن ترسو «أوريالوس» *Euryalus* - باخرة الأميرالية - بضعة أسابيع في مياه العَقَبَة.

وكان هذا القرار من بنات الفكر، لأن تقدير قوة الباخرة الحربية إزاء العرب قائم على عدد مداخنها. وكانت «أوريالوس» ذات أربع مداخن نادرة الوجود في المدرّعات

الطّافية على البحر الأحمر وشهرتها ستحمل حقيقة انتصارنا إلى أعلى الجبال، وفوق ذلك فإن بحارتها الكثيرين، سسينون لنا بإلهام «إثرار فيلدينغ» Everard Feilding رصيفاً جيداً على الميناء فيلهون ونتفع به.

وقد طلبنا أن تكون مدينة «الوجه» - نظراً لشعبها الصّعب المراس ونظراً للغلاء ثمن الحبوب - مقفلة في وجه الوطنيين، وأن ينتقل فيصل بكامل جيشه إلى العقبة لتكون مركزه العام.

ورأيت بأن يستند جناح آلنبي الأيمن إلى هذا الجيش، الذي وإن يكن يبعد عنه مئة ميل فقط، ولكنه يبعد عن مكة ثمانمئة ميل. ويتقدم العرب ويقتربون من فلسطين رويداً رويداً، على قدر مجهودهم وفوزهم ورؤى من حسن المنطق أن ير حل فيصل عن منطقة الشّريف حسين في الشّمال، وأن يعين قائد جيش في اتحاد جيوش الحلفاء بالقطر المصري تحت قيادة آلنبي.

وإزاء هذه الأمنية واجهتنا بعض مشكلات، وتُرى إذا رضي فيصل بهذا الحل، وقد كنت حدّثته في «الوجه» منذ بضعة أشهر. وهل يرضى المندوب السّامي هو بدوره؟ ومن بين جميع الوحدات الحجازية، كان جيش فيصل أهمها وأحسنها قدرة على العمل. وكان المستقبل الباهر مفتوحاً أمام جهاده.

وأما الجنرال «وينغايت» نفسه وقد أخذ جميع الحوادث على مسؤوليته في أظلم ساعات الانتفاض العربي، فهل يخذل في تعهداته وتثلم شهرته العالية. وهل نجسر أن نقول له بعد أن وصلنا إلى عتبة النّصر، تنحّ عن قيادة المعركة؟!...

إلا أن كلايتون كان يفهم وينغايت ولم يخش أن يكلمه في هذا الموضوع، وقد أجاب الجنرال حالاً، بأنه في حالة تمكن الجنرال آلنبي من الاستفادة من فيصل مباشرة سوف يكون مسروراً، وفي الوقت نفسه يقوم بواجب التنازل للرئيس الجديد حبّاً بنجاح المشروع.

وقد يمكن أن ينفجر عائق ثالث من الشّريف حسين، هو الخوف من أن لا يضحى بأنانيته العزيزة لديه لأجل توحيد القيادة. فرفضه يعرض خطتنا للحبوط. ولذلك

عرضت أن أذهب إليه وأحاول إقناعه. فأمر فيصل وأطلب إليه أن يزكّي بكل قوته كتاب «ويلسن» المقدم للشريف. فقبل اقتراحي وسافرت إلى جدة حال رجوع مركب «دوفرين» *Dufferin* إلى العقبة لهذا المهمة الجديدة.

وجاء الحسين من مكة ودافع عن نفسه وهو يجول وينتقل من موضوع إلى موضوع جولاناً غريباً، ولكنه قرّر، بفضل ويلسن، أن ينتقل جيش فيصل تحت إمرة ألبي دون جدال. فاعتنم الشريف حسين هذه الفرصة ليعرب مرة أخرى بلهجة قوية عن شهامته وإخلاصه لاتحادنا، ثم أنه انتقل فجأة إلى الحديث عن نزعاته الدينية، وأنه لم يكن بالشيعي المتمكّن ولا بالنسني الملتهب، إلّا أنّه يطبق مبادئ القرآن كما جاءت قبل الافتراق إلى مذهبين.

وما لبثت أن فهمت كيف ينظر الناس إلى موقف فيصل العصري بعين الحسد في قصر والده. كما فهمت كيف تمكن أولئك الذين يلعبون بالنار من زعزعة نيات الشريف الطيبة.

وبينما نقوم بهذا الدور الهام في جدة، وافتنا رسالتان بالتلغراف من القطر المصري كدّرنا فجأة صفو اجتماعنا. الأولى تفيدنا بأن الحويطات يتخابرون سرّاً مع معان، والثانية تشكو عودة لموافقته على هذه الخيانة. ولقد كانت الضربة قاسية على ويلسون الذي اختبر شهامة هذا الرجل، والذي لم يعد يشك قط في إخلاصه. أما محمّد الضّغلان فقط كان من الممكن أن يلعب هذه اللعبة المزدوجة. ولم يكن من المعقول الآن أن نعتمد على إخلاص ابن جاد وأصحابه الاعتماد الكلي. فتأهبنا للرّحيل حالاً إلى العقبة. ولم يكن ناصر، ولا أنا كذلك، عند تخطيط طرق الدّفاع عن هذه المدينة، قد تنبّهنا لاحتمال وقوع خيانة ما.

ولحسن الحظ كانت السفينة «هاردينج» *Hardinge* على أهبة الرّحيل في المرفأ، وفي اليوم الثالث عند الأصيل كنا في العقبة، وتحقق ناصر بأنه قد حدث حادث غير طبيعي. فتمنيت أمنية واحدة وهي أن أذهب وأحيي عودة! فأعارني قلوّصاً ودليلاً. وعند الفجر كنت كأني هبطت على عودة ومحمّد وزعل من الغمام، وهم مجتمعون تحت خيمة في «قويرة» فاختلط عليهم الأمر عندما رأوني بينهم من غير سابقة إنذار،

إلا أنهم أكدوا لي بأن كل شيء على ما يرام، وأفطرنا معاً كأننا أصدقاء!...

وجاءنا بعض الحويطات فكان حديثنا عن اتجاه الحرب. ووزعت هدايا الشريف، وأفهمتهم بأن ناصر أقدم منح شهراً إجازة ليذهب إلى مكة. فتهللوا لهذا الخبر، ثم عظفت وقلت: إن الشريف مبتهج جداً لنتيجة هذه الثورة العربية، ومعتقد بأن كل خدامه لا بد أن يكونوا قد اقتحموا الأهوال دفاعاً عنها.

ولم يكن يشأن أن يأمر بزيارة مكة. وهؤلاء الرجال المساكين المحرومين من نسائهم يرون، بأن الخدمة العسكرية المتواصلة شاقة جداً.

وكم كنا نمزح مع ناصر بقولنا: إذا أخذنا العقبة فإنك تستحق إجازة حقاً. ولم يكن يعلم من الأمر شيئاً، إلا ليلة تسليمي إليه كتاب الحسين بالسّماح له بالسّفر، فباعني «غزالة» إقراراً بالجميل، «غزالة» تلك القلوص الجميلة مركب الأمراء، وربيبة الحويطات. ولقد عظمت قيمتي تجاه بني «أبو تايه» لمجرد اقتنائي مثل هذه المطية!..

وبعد أن تناولنا الغذاء صرفت الزّائرين مدعياً التعب وطلب الراحة. ثم دعوت عودة ومحمّد ليرافقاني لزيارة القلعة الخربة وحوض الماء. ولما خلا لنا الجو وخلت الأرض من الآذان السّامعة، لمحت لهم عن المخابرات الدّائرة بينهما وبين الأتراك، فضحك عودة وغضب محمّد، وبعد ذلك أفهماني في تفصيل بأن «محمّداً» أخذ خاتم «عودة» وكتب إلى حاكم معان يعرض عليه ترك قضية الشريف، فسر التّرك لهذا العرض ووعدوا المرتدين بمكافأة جزيلة. ولما علم عودة بالأمر يّمّ طريق معان وتعرّض للرّسول القادم منها واستولى على الهدايا المرسلّة من التّرك باسم محمّد، ولم يشأن أن يتقاسماها، ففقهقها كثيراً لهذه الواقعة المضحكة!...

ولكن... على دخن!... وتذمر رفيقاي لعدم وصول نجدة من الرّجال والمدفعية. واستغربا كيف أنه بعد الاستيلاء على العقبة لم ينال أية مكافأة. ثم سألاني: كيف علمت بتصرفهما، وإلى أي حد وصل إليه علمي. وكنا ننزحلق على منحدر خطر، فلبعت برباطة جأشهم وتظاهرت ببهجة لم تكن في محلها، وأخذت أتلو مازحاً

عبارات كاملة من الكتب التي تبادلها مع العدو كأنها من مخترعاتي - وهكذا خلقت الجو المرح المطلوب.

وأخبرتھما عرضاً بقرب وصول فيصل مع كل جيوشه، وأن أنبي سيرسل إلى العقبة بنادق ومدافع ومتفجرات وذهباً! ثم دسست عبارة: بأن عودة يحتاج الآن بدون شك إلى نفقات باهظة للاستقبالات والضيافة وسألت عما إذا كان يرغب في أن يأخذ مبلغاً على الحساب ليستعين به مؤقتاً، هذا فضلاً عن الهدية الثمينة التي سيقدمها له فيصل حين وصوله. فلمح عودة وميضاً من الغنم السريع. وفهم بأن قدوم الشريف سيكون مثمراً، ولا بد أن يكون قد قال في نفسه: «وعلى كل حال فالتُّرك أمامنا في كل وقت إذا نصب معيننا، من هذه الناحية»، فرضي إذاً مع الشكر بأن يأخذ مبلغاً سلفاً ليطعم الحويطات ويقضي لهم حاجتهم.

وقاربت الشمس المغيب، وكان زعل قد ذبح خروفاً فتعشنا على ذكر صداقتنا وعدنا إخواناً متحابين كأمس الفاتت. ثم استويت على السرج يتبعني «مفدى» الذي سيحمل المبلغ من النقود المخصص لعودة - وعبد الرحمن خادم محمد، الذي همس في أذني بأن سيده يرضي بسرور ما ترسله معي إليه سراً. وعند وصولي إلى العقبة، أيقظت ناصراً في الحال وتداولنا في الحادث الأخير. ثم انسلت إلى زورق مهجور وجذفت حتى بلغت «هاردينج» Hardinge والفجر يتلألأ على أعراف الجبال الغربية.

ونزلت إلى سطح السفينة السفلي، واغتسلت، ونمت إلى ما بعد الضحوة وكان المركب في تلك الساعة يشق مياه البحر على طول الخليج الضيق قاصداً شواطئ القطر المصري. وكان لظهوري على ظهر السفينة وقع شديد، إذ لم يكن أحد يصدق بأنني سافرت إلى «قويرة»، وأنهيت أعمالني وعدت إلى العقبة، وقفزت إلى باخرة تمخر العباب!...

وكنا قد أبرقنا إلى القاهرة بأن موقف «قويرة» لا بأس به، وأنه لا يوجد فيها محاولة ماء، للقيام بخيانة ولا في أي مكان آخر، وكان تأكيدنا مجازفة، ولم يكن يخلو من موارد. ولكن بما أن مصر تحرم نفسها القوت لتعولنا، فمن حسن الفطن أن نخفي عنها شيئاً من الحقيقة، حتى نبقي دائماً موضع ثقة هذه الأم المرضع، والبقرة الحلوب،

ونضع تجاهها هالة ظفر على رؤوسنا، لأنّ الجمهور يطلب دائماً أبطالاً كما في الكتب.
ولا يفهم بأن عودة كان إنساناً رحيماً أكثر من أي وقت بعد المعركة والمجزرة، وأنه
شعر بعطف وتأثر أمام هذا العدو المغلوب المعرّض للقتل أو للعفو حسب دوافع الزمن.
ولم يكن قط عدو أكثر جاذبية لهذا الرّجل البدوي الصّحراوي.. الذي كان بالأمس
تحت رحمة هذا العدو وبين مخالفه...



الشّريف شاكر

الفصل الرابع عشر

إنهاك قوى العدو

ارتقت السفن إلى خليج العقبة، ونزل فيصل إلى البر يرافقه جعفر من أركان حربه، وجويس «ملائكتنا الحارسة»، ووصلت إلينا في الوقت ذاته سيارات مدرّعة و«غوشلّت» وفلاحون مصريون وآلاف من الجنود. وكان «فون فالكنهاين» von Falkenhayn قد أتى حاملاً المشورة للترك بعد صمت ستة أسابيع. وقد صيرتهم فطنته الحربية البديعة جديرين بلا شك بمقاومتنا. ومنطقة معان هي شبه قيادة خاصة تحت إمرة بهجت القومندان القديم لمنطقة سيناء. وكان لديه ستة آلاف من البيّاد، وطابور سوارى ومُشاة (بيّاده) راكبين. وبنفوذه كانت معان محزومة بخط دفاع لا يؤخذ على الأقل في عيون المسحورين بحرب التنقل. وكانت طائرات كاشفة تطير في كل يوم. وقد أفرغت في المستودع المنشأ حديثاً ذخائر كثيرة.

وأتمّ التُّرك استعدادهم وابتدأوا في التقدم وجهتهم «قويرة»، وكان هدفهم العقبة طبعاً يزحفون عليها بالطريق الأفضل، واندفع ألفا رجل من المشاة حتى «أبا اللسن» وحصّنوا هذا الموقع، ولزم الخيالة خارج الموقع ليتداركوا غزوة محتملة يقوم بها العرب من ناحية وادي موسى. فكانت عصبية العدو شعارنا. فأخذنا نمازحهم ونقلب الأدوار إلى ضدها، وندحرهم رويداً رويداً في ذلك الوادي الذي يغصّ بالعقبات الطّبيعية الهائلة، وإن الرّجل المفرد الرّديء الدّفاع، ليتمكن في ذلك الوعر أن يقاوم كل مهاجمة.

وحرّكنا العرب في نواحي «دلاغة» مترقبين دنو التُّرك من الشّصّ. فتهافتوا بحماسة

على الطعم وتراجعوا بخسارة جسيمة، فأظهرنا لهؤلاء الفلاحين في وادي موسى عظم الغنيمة التي التقطها خصومهم بنو «دلاغة»، وكمن «مولود» رجل الحرب أزرق التاب مع رجاله الهياذليين في خرائب البتراء المشهورة. فتشدد الليانة متمثلين برفاقهم وأخذوا يغزون المرتفعات تحت قيادة خليل الشيخ الأعور، وقد توقفوا ثلاث مرات إلى سلب عربات ذخائر العدو واقتياد الحيوانات المسرجة والحمولة وسلب أسلحة رجالها. واستمر هذا التمرن الشائق عدة أسابيع مما أثار غيظ العدو.

ويمكننا أيضاً أن نلحق بالترك أضراراً جسيمة إذا طلبنا إلى الجنرال «سالmond» أن يأمر حسب وعده بغزوات جوية على مسافات شاسعة ضد معان. وقد كان الشروع في هذه الغزوات الخطرة من الصعوبة بمكان، فاختر لها الطيار «ستنت» وبعض رفاقه المجريين من «رابغ» و«الوجه» وأوصاهم بأن يعملوا كل مايمكن عمله لخبرتهم الواسعة بالتزول القهري في قلب الصحراء، والوصول إلى الأهداف المجهولة بين الجبال التي أهملها المساحون. وكان ستنت يتكلم العربية بفصاحة وله خبرة ودراية. متسربلاً بالحيل والدهاء، قادراً على التلاعب بطيارته برشاقة وخفة.

واتفق أنه أمر رفاقه بأن يسقوا ليتمكنوا من إصابة الهدف. فطاروا سقيفاً فوق معان وألقوا اثنتين وثلاثين قنبلة على المحطة وما جاورها. ولم يكن لينتظر الناس مثل هذا النوع من المفاجآت. إذ سقطت قنبلتان على البيوت الخشبية، فقتلت خمسة وثلاثين رجلاً وجرحت خمسين. ووقعت ثمانية منها على مخازن العدو والسقاييف فعطلت كثيراً من الآلات والبضائع والأدوات. وسقطت واحدة في مطبخ القائد فمزقت الطاهي تمزيقاً وأوقفت الفطور فجأة! وكان نصيب المطار أربع قنابل، وعاد طيارونا سالمين غانمين، بالرغم من رصاص بنادق الترك إلى الأرض الممهدة للطائرات في كنتيله Kuntilla فوق العقبة.

واستمر الطيارون بعد الظهر في ترتيب طائراتهم وتنظيفها وفحص آلاتها، ثم قضوا الليل على أجنحتها.

وأعادوا الكرة عند الفجر، فطار ثلاثة منهم إلى «أبا اللسن» فافتتن «ستنت» Stent

بمراى معسكر العدو المنظم. فضربوا صفوف الخيل وهي على مرابطها، فقطعت هذه الحيوانات أرسانها وهاجت هيجان الجن، فقوّضت الخيام وشتتت التُّرك، ثم أسفّوا مثل أمس فأصابهم بعض رصاص العدو إصابات لم تكن خطيرة، وعادوا قبل الظّهر إلى «كتيلَه» ثم قدّر «سنتت» Stent ما بقي لديه من القنابل والزيت فرأى أن يهجم هجمة أخرى ويحاول أن يكشف مكامن المدافع التي أفلقته في الصّباح، فطار الطّيّارون في وقت الظّهر. ولم يتمكنوا من الارتفاع كثيراً لثقل الذّخائر حتى بلغوا قمّة ما وراء «أبا اللّسن» على علو ثلاثمئة متر من الوادي. وباغتوا التُّرك الغارقين في قيلولتهم الموروثة، بثلاثين قبلة أسكتت المدفعية وقتلت الرّجال والحيوانات بالعشرات، وانطلقت في أجواز الفضاء وطوت مجاهل الصّحراء وجثمت على العريش!...

فسر العرب لهذا التّجّاح، أما التُّرك فقد أصبحوا حقاً قلقين. فأمر بهجت باشا بحفر ملاجئ لرجاله. وبعد أن أصبحت طائراته في حالة صالحة عرضها، غباوة منه، على الهضبة المكشوفة للدّفاع عن المعسكر.

وهكذا قد ألقنا راحة العدو بطريق الجو... وبالغارات المتواصلة المثيرة، كنا نخدع حسبانه فيقع في الفخ! - والحرب خدعة - والوسيلة الثالثة لدينا كي نبطل هجومه هي تعطيل الخط الحديدي الذي كانوا يحتاجون لحراسته إلى نثر الجيوش المعدة للقتال. فتتلاشى القوات في صيانة هذا الخط.

ولذلك قد فكرنا في تخريب عدة أماكن في منتصف شهر سبتمبر. وعزمت على تحقيق فكرة قديمة: وهي بثّ ألغام تنفجر بمرور القطار. إلّا أنني لم أكن واثقاً كل الوثوق من الآلات الأتوماتيكية، فاهتديت إلى طريقة أقرب إلى التّجّاح وهي إشعال النّار في اللغم بواسطة السّلك الكهربائي حال مرور القاطرة. فشجعني الفنيون البريطانيون على هذه التجارب، أخصهم الجنرال «رايت» Wright أحد كبار الضّباط الفنيين الملحقين بفرقة القطر المصري. وأرسل إليّ الآلات اللازمة، وعدة الانفجار، وحبلًا عازلاً، ولمّا حصلت على هذه الآلات نزلت إلى سفينتنا الجديدة الرّاسية «هَمبر» Humber وتقدمت إلى قبطانها الكابتن «سناغ» Snagge.

ومن حسن حظ «سناغ» أنه وقع على سفينة جديدة لأن «همبر» كانت قد بنيت للبرازيل فهي مريحة، وفرشها أفضل من فرش السفن الكشافة البريطانية. وكنا مغتربين بوجودها في البحر أماناً، كما أننا اغتبطنا بحسن ضيافة قبطانها. وكان «سناغ» يريد معرفة ما يحدث في البر وما يحق بنا من الشقاء. ويأخذ كل شيء حتى الجد في معرض الهزل. ويضحك لكل فشل. وكان يمنحني لكل طريقة حمماً ساخناً مع الشاي وتوابعه اللذيذة. فأنسى، ولو هنيئة، رمال الصحراء. وأغتننا شهامته مؤونة السفر إلى مصر لإصلاح ما يتعطل من الأدوات. وساعدتنا على القيام بحركات مثمرة ضد الأتراك مدى شهر، كنا فيها بين اليأس والرجاء.

وكانت آلة الانفجار ملفوفة وموضوعة في صندوق كبير أبيض ثقيل جداً وهو مقفل بالمفتاح، وكان علينا أن نشقّه لنحلم من داخله. وأنزلنا الآلة إلى مخزن الفحم وفحصناها، فوجدناها سليمة فأحطناها بسلكين موصلين، وأجبنا أن نتحقق من أن المجرى الكهربائي يمر بحالة جيدة، وأخذت في تجربة الآلة فلم أفلح فخاب رجاؤنا. إلا أن «سناغ» دعا أحد رجال المدفعية الخبيرين بالكهرباء، فأشار علينا بدون أقل تردد أن نستعمل لهذه الآلة عدداً للانفجار غير هذه. يوجد ست منها على ظهر السفينة. فجرّبنا واحدة بهزة واحدة فحدث الانفجار على أتم حال، فأعطونا منها ثلاث، فتحققت عندئذ بأن بملكي قيادة الآلة، لأنني أعرف طريقة استعمالها جيداً، ولم يبق إلا أن نهتم بدرس دقائق الغزوة.

والنقطة التي اخترناها لغزوتنا، بل النقطة التي يكون تعطيلها ضاراً كثيراً بالعدو هي نقطة «المدورة» وهي محطة لتموين الماء على مسافة ثمانين ميلاً جنوب معان. فإذا خرّبنا الخط في تلك الجهة سببنا للعدو قلقاً شديداً مستمراً. وعرفت أن أنتقي رجال العمال من بين رجال الحويطات الذين اختبروا ذلك قبلاً، وأضفت إليهم على سبيل التجربة ثلاثة من فلاحى حوران كانوا في خدمتي.

ولما كنا سنقوم بعمل حربي دقيق في منطقة حوران، كان من الحتم علينا، أن نتعلم لهجة البلاد وطريقة تنظيم قبائله السياسية، والأسباب التي من شأنها أن تلقى الشقاق

بين بعضها بعضاً!... وكان علينا أيضاً أن نعرف أسماء الأشخاص الممتازين وطرق البلاد السلطانية.

وسأتحدث إلى هؤلاء الرجال الثلاثة: رُحيل، وعَسَاف، وحُميد، ونحن في الطريق، فيطلبونني على مشاكل العائلات عندهم دون أن يشعروا وعلينا أن نحصل على مدافع ورشاش حتى نتحكم في القطار بعد نفسه، ولم لا يكون عندنا مدافع هاون للخنادق ومدافع هاون للخنادق ومدافع «لويس». وبناء عليه عيّنت لنا مصر جاوِشين مدرّبين جيءَ بهما من مدرسة الزّيتون وأرسلتهما إلى العقبة، ليدرّبا العرب على استعمال هذه الآلات. وأضافهما «سناغ» على ظهر سفينته لأنه لم يكن لدينا على البر في المعسكر مكان يأويان إليه.

ويمكن أن يكون إسمهما «يلز Yells، وبروك Brooke». أما رجالنا فكانوا يدعونهما باسم الآتين «لويس Lewis، وستوكس Stokes». ... إذن لويس كان استراتيجياً كبير السن نحيلاً مثثياً. وهذا الثني في جسمه - كأنه ثني أفعوان - لم يكن من صفات الجندية بشيء. لقد كان له وجه خشن، وحاجبان مقوسان، وأنف أعقف كمنقار الباشق، إنه على طراز الاسترالي المقدام الذي يخفي تحت قناعه العزم الأكيد والعمل السريع الحسن. أما «ستوكس» الفلاح الإنكليزي - الضخم المتجمع على بعضه، فقد كان مثال العامل الصّامت المجدّد الواقف في الفترة لسمع الأمر وينفذه في الحال.

كان تخيّل «لويس» فيّاضاً، ولم يكن يقوى على ضبط ابتهاجه عند تنفيذ عمل ناجح. أما ستوكس فلم يكن يجازف بآرائه قبل العمل. وكان يقلب في قلنسواته ويدعكها دعكاً وهو يجهد فكره لعمل ما. ثم يشرح الأغلاط بعد ذلك ويصف طرق اجتنابها. فكان الإنسان عاملين بارعين! وكانا يتفاهمان مع تلاميذهما العرب على أحسن ما يكون. رغماً من أنهما لا يفهمان لغة أبناء الصّحراء. وكنا من ناحيتنا لا نطمع بأكثر من هذا. ويظهر أن التعليم بطريق الاختبار يوافق عقلية غزائنا، أكثر من التعليم النظري الكامل!..

وكلما تقدمنا في تنظيم غزوتنا زادت قابليتنا إلى العمل. وكان يظهر لنا أن محطة

المدوّرة قابلة للإثلام. وأن ثلاثمئة رجل يمكنهم أن يفاجئوها ويأخذوها عنوة. ويكون التّجّاح له أهمية كبرى نظراً لبئرِها العميقة الوحيدة في تلك المنطقة غير المأهولة جنوب عمان، وانقطاع الماء عن القطار يكون مشكلاً من أغرب المشاكل في تسييره.

وزادت أطماع الاسترالي فطلب بحماسة أن يشاركنا هو ورفيقه في هذه الغزوة، فلم يكن هذا العَرَض ليسوءني، لأن القسم الفني يكون مكفولاً، على حين نكون منهمكين باقتلاع المعقل. وبما أن للجاويشين رغبة أكيدة بمرافقتنا، فعلياً أن نكافئهما على عملهما الشّاق المتواصل، إلا أننا أفهمناهما بأنه ليس هناك نزهة طيبة، وأن السّير في الصّحراء يفقدتهما كل معاملة ممتازة. وكل معاملة من جهة المشي والطّعام والإشتراك في المعركة. فعليهما إذا رافقنا أن يطرحا عنهما كل أمل في الرّاحة، وفي المعاملة التي يتمتع بها الجندي البريطاني. وأن يتقاسما حظهما من الأكل والنّظام مع العرب - ما عدا الغنيمة ! - ويتحملا طرق معيشتهم الشّاقة.

فأجاب لويس بأن هذه المفاجأة الشّاذة في الدّنيا هي التي تجذبه. وقال ستوكس: إذا كنتم عازمين على القيام بهذه الغزوة، فمن الواجب أن أشارككم في هذا المجهود. ومع ذلك أعرتهما هجينين من هُجّني الممتازة، وحشوت خرجيهما بيضاً وأطعمه محفوظة وبسكويت. وصعدنا جميعاً في 2 سبتمبر سنة 1917، في وادي «إضم» لنصحب في طريقنا حويطات «أبو عودة» إلى قويرة.

وكنا نعامل الجاويشين بالرّفق ونعوّدهما على ركوب هذا المركب الخشن رويداً رويداً أقل مما توعدناهما به، فسرنا في هواة إلا في المناطق المريبة، ولكونهما لم يركبا قط هجيناً في حياتهما، فكان يخشى عليهما الهلاك لشدة الحرارة التي ترتدّ عن صفحات الصّخور العارية الجبّارة في وادي إضم فيموتان قبل القيام بأي عمل ما ! - شهر سبتمبر عادة شهر للغزوات مشؤوم - فإن ميزان الحرارة في العَقبة منذ مدة وجيزة كان متصاعداً إلى 50 درجة (سنتغراد) أي 120 فهرنهايت، فتوقفنا في منتصف النّهار تحت صخر هائل. ثم تابعنا السّير مسافة عشرة أميال، وترجلنا وقضينا الليل وأصبحنا والحر لا يزال شديداً ونحن نتقدم إلى «قويرة»، بين سهول الرّمْل التي يتخللها الشّوك

والعليق الأخضر الرمادي المريح للنظر. وما هي إلا لحظة حتى سمعنا أزيز محرك. فقفز الركب دفعة واحدة وترك الطريق المكشوف وتشتت في الأرض المجاورة فاختفت الجمال بين الأشواك القائمة، ويمكنها هناك أن تغفل من نظارات الطيارين الأعداء، لأن المقذوفات المحشوة بالغراء مخربة مريعة - وهي من النوع المفضل بنظري - فإذا سقطت في قلب أحمال الذخيرة، تكون ضيفاً ثقيلاً رديئاً على «ستوكس» وقنابله وعلى كل المقذوفات التي نحملها.

ولزمتنا سروجنا من غير حركة إلا أن حيواناتنا كانت تقضم بعض رؤوس الأعشاب بجانب الطريق. فدار العدو مرتين برأس جبل «قويرة» وألقى ثلاث قنابل كان لها دوي مريع ومضى ومضينا في سيرنا.

وكان نظام التهاار في «قويرة» قائم على قدوم الطيارة. فكان العرب ينهضون عند الفجر ويتنظرون قدومها فيرسل «مستور» عبداً إلى إحدى القمم ليعطي إشارة الخطر الأولى. ومتى دنت ساعة الغزو المألوفة يتقدم العرب ويتمشون كأنهم في نزهة حول الصّخور، وهم يتحادثون ثم يتسلقون كل واحد على تل، ويصعد «مستور» مع رفاقه العبيد، ويجلسون على أعلى مرتفع ويسيطون سجادة ويجلسون ويصنعون القهوة على موقد غاز، وأحياناً يجلس مستور وعودة في ظل أحد الصّخور ويتمازحان ويثرثران، إلى أن يسمعا أول أزيز يتردد في معابر شتار فيحدث في نفوس أولئك القوم، في أركان تلك الجبال ومنحنياتها رعدة خفيفة، كل واحد يتكّوم على ذاته في شقوق الصّخور صامتاً منتظراً مرور العدو من فوقه، يدور دورته فوق تلك الجلاميد الغربية الشكل القرمزية اللون القائم عليها آلاف من العرب بثيابهم البيض، يعيشون كالنّسور في أوكارها، وكانت الطّائرة تلقي من ثلاث إلى خمس قنابل ترك دخاناً كثيفاً يعلق بنبات العليق الأخضر. ثم ينقذ عصائب ثم يدور لوالب في جوٍ ساجٍ إلى أن يضمحل في الأعالي. ورغماً من عدم خوفنا من أي خطر كان تنجس أنفاسنا تحت هذا للمحرك الذي يحشرج فوق رؤوسنا، ثم يرسل تلك القنبلة التي تصمّ آذاننا عند سقوطها على الأرض!...

وتركنا طنين «قويرة» بابتهاج وهدأت أعصابنا. ولم نتوقف حتى فرطنا على طول

الطريق فولى الذباب الذي كان يهاجمنا. ولم يكن هناك للحقيقة داع إلى الإسراع وقد اكتوى رفيقانا المسكينان بوهج لم يحلما به منذ أن ولدا. وهج كان يشدُّ على وجوهنا كقناع من حديد متقد. لكنهما صبرا صبر الجمال، وعاندا هذه القوة عناد العرب أنفسهم حباً في نجاح الغزوة. ولقد كان إغراقهما بالصبر والصمت على الألم أكثر مما يطلب منهما، وجهلها لغة البلاد مما زاد في ثبات جنانهما، مع أن العرب كانوا يتذمرون ويضعجون من هذه الشمس القاسية الحردة والجو الخانق المطبق، فكنت أنتقل من هنا وهناك وأدور حول المركب ألهو وأمزح لأثبت جنان ضيفي البائسين!...

وتابعنا السير حتى المساء وقصدنا إلى أشجار الحمر وهو مكان ظليل جميل ووراءنا جبل من الصخور يعلو أربعمئة قدم فوق رؤوسنا تلقي عليه أشعة الشمس الغاربة كمدة فوق حمرة القاتمة. وتحت أقدامنا أرض صلبة صهباء ملساء كالخشب المصقول تمتد ميل ونصف ميل تقريباً من كل جهة وعلى جانب واحد من هذه البحيرة الجامدة ينبت شجر الحمر الذي كانت رؤوس أغصانه المتباعدة، ذات الورق الأخضر اللين، قد تحولت بفعل الحرارة والجفاف إلى لون أخضر فضي يماثل ورق الزيتون.

وأخذنا وجهة رمّ وهو مورد ماء شمال منطقة بني عطية فشعرت بابتهاج عظيم لدنونا من هذا المكان الذي كان بنو الحويطات - القليلو التقدير للمناظر الطبيعية - قد وصفوا لي جماله. وهكذا ستهدي لنا الطبيعة صبيحة اليوم الآتي شيئاً جديداً.

وكانت النجوم لا تزال تتلألأ في سمائها فأيقظني «عيد» الشريف الحارثي المتواضع الذي كان يرافقنا، وتقدم مني، وقال لي بصوت خارج من أعماق القبر: «لقد أصبحت أعمى أيها السيد» فمددته على بساط خشن، فإذا به يرتعد كأنه قد أخذته حمى البرداء، وقال إنه قد استيقظ من النوم لا يرى شيئاً وأن الشمس قد حرقت عينيه.

وماكاد يطلع النهار حتى تغلغلنا بين رؤوس من الحجارة الصوانية، ثم بلغنا منحدرأ خفيفاً يتهاوى عن الجبال على شكل قبب أمانا والأرض كلها مغطاة بالحمر، فقبل لنا إنها بداية وادي رمّ ويمتد من ناحية وسط الوادي، وإلى يميننا جلاميد تتصل بسلسلة من التلال الضخمة المنخفضة ذات اللون العقيقي. وعدنا فتسلقنا منحدرأ وشققنا طريقنا

بين أشذاب ذات أغصان قصفة. وكلما توغلنا في تلك العصيان ازدادت الأشجار أثاثاً واخضوضلت أغصانها، يتقابل لون خضرتها الصّافي بألوان الكثبان الوردية الزّاهية، وهان الصّعود، وسهل التّجد، فاندفعنا في سهل متمعج مثن تسوره من كل ناحية جلاميد عظيمة. وكانت الجبال التي تستقبلنا تناغي السّماء بأعرافها الرّشيقة، تاركين وراءنا جدراناً من الصّخور الحمر المتجمعة المنخفضة. وفي نهاية هذه الجبال والصّخور ينشق ممّز عرضه ميلين، محصور بين جبال متقابلة يبلغ ارتفاعها نحو ألف قدم فوق رؤوسنا، كأننا نمشي في دهليز شاسع الأطراف.

ولم تكن تلك الأسوار متصلة تمام الاتصال. فهناك صخور هائلة مفصلة عن الجبل كأنها ممّرات على جانبي الشّارع الجبار. وبينها الممرّات العميقة على اتساع خمسين قدماً تفصلها عن بعضها بعضاً، وعلى رؤوس تلك الصّخور المبتورة بفعل الشّمس والهواء دوائر وأشكال غريبة تبين طبقات هذه الصّخور المنضدة كأنها برت لأعمال جيولوجية. وفوق تلك الصّخور مغائر فاغرة الفوهة، ذات فتحات معوجة كحنايا التّوافذ، منها المرتفعة ومنها المنخفضة كأنها أبواب عظيمة دائمة الفجر ومهاو عن الحجارة السّود ممتدة تحت ظل الحائط الطّويل على مسافة مئات من الأقدام كأنها المساحب السّود القذرة على جدران معاملنا وبعض مساكننا. والصّخور مقسمة خطوطاً عمودية على نتوءاتها الخشنة المرتفعة نحو مئتي متر. ورجام هائلة من الحجارة المتكسرة ذات ألوان وصلابة أقتم وأمتن من الجلاميد. هذا هو الوادي الذي لا يمتد كغيره من الأودية المثنية المغطاة برجام الحصى النّاعم؛ كلا بل هو تتابع غاروف من الحجارة المتصدعة يسند بعضها بعضاً أشبه شيء بدعائم البنيان.

وترتفع فوق قمم هذه الصّخور أشكال كالقبيب لونها وردي أحدثت فيها يد الطبيعة ترويباً غائراً فتذكرنا عند رؤيتها الفن البيزنطي، وتقدمنا في هذا الطّريق الذي لا يمكن للعقل أن يتخيل مشهداً أروع منه، واختفت روعة الجيش العربي، وكان كأنه قد ضاع في ذلك الفضاء الذي لا حدّ له. وكان في إمكان فرقة الطّيارين أن تدور بطائراتها بنظام حول تلك الجبال، وفي ذلك الدهليز العديم التّظير، وشعرت قافلتنا بضآلتها

أمام عظمة الطيّعة فسارت صامتة كأنها استحييت من عرض تفاهتها أمام تلك الجبال العجيبة. وزادت المرائي والصّور التي تأخذ بالألباب عند تقدّمنا، جلاءً وظهوراً، إلى أن عرضت لنا فجوة كانت أعجب ما رأينا، فجوة على اتساع ثلاثمئة متر ثغرة صغيرة لمدرج صخري!! مدرج بيضوي الشّكل متناسب عند مدخله إلى أن يتسع على البعد إلى حجمين مجوفين من اليمين ومن الشّمال.

جداراهما عموديان ككل جبال رمّ، إلّا أن علوهما كان شاهقاً إلى حد بعيد كأنهما يسحقان الملعب الشّاسع الذي تضاعل كأنه بين ماردار والأبلق أمام عظمة هاتين الفليقتين من الجبل.

واختبأت الشّمس وراء الجدار الغربي إلّا أنّ نورها المتوهج لا يزال يتلأل على جدران المدخل ويغمر الصّخور المتجمعة في التّاحية الثّانية من الوادي الكبير، وكانت أرض المدرج رملية رطبة مغطاة بالشّجيرات.

أما أقدام الجوادين الماردين فقد غاصا في ركام من الصّخور المدوّرة الكبيرة كالبيوت وأحياناً كالقلعة بكامل حجمها، قد تدهورت من الأعالي وانغرزت في هذا السّهل، فاتخذنا طريقاً مطروقاً متشياً إلى أن بلغنا تلك الصّخور فضؤل أثره على حرف منحّن تحده بعض شجيرات أثيثة. وهنا طرقت أسماعنا مفزعة آتية من فجوات الصّخور. وصدى يتردد كنغمات موسيقية غريبة لأصوات أناس من العرب يسقون جمالهم على ينابيع متدفقة من الجبل على علو ثلاثمئة متر فوقنا.

واتجه محمّد إلى الجدار الأيسر حيث العرب ببراعتهم قد اكتشفوا أرضاً منبسطة تحت رفر من الصّخور، فترجلنا وأنزلنا الأحمال، وهجم الظّلام وشيكاً تحت هذا الكنف المصون وشعرنا ببرودة الليل في هذا الجوّ الرّطب الحار، وجمع بنو الحويطات جمالهم وحرصوا على القذائف التي في عهدتهم. وأخذوا يتلهون بالصّياح ليرسلوا صدها إلى العرب القائمين على المياه ليخبروهم بأنهم عائدون إلى «قوية». وأوقدوا ناراً وطبخوا أرزاً شهياً للنفس ليدفع ضيوفنا إلى أكل اللحم الذي يتزودون به. وجّهز رجالي القهوة إكراماً للضيوف الذين قد يأتون إلينا.

فتراكض العرب الضّاربون عند الينابيع ليستطلعوا الخبر. ولم تمضّ ساعة حتى كان حولنا رؤساء قبائل الدّراوشة والزّلباني والزّوايدة والطّقايقه وخاضوا في أحاديث لا قيمة لها. وكان «عيد» الشّريف الذي فقد بصره كبير القلب شهماً، وكان يقوم مقامه في هذه الاستقبالات التي لا حدّ لها، وكانت مهمّة شاقة لا يقوى عليها إلا من كان ممارساً عادات العرب، فلم يكن من الهين أن أقوم بها وحدي.



الفصل الخامس عشر

الغام على سكة الحديد

وخرجنا من رَمّ يوم 18 سبتمبر سنة 1917 عند بزوغ الفجر. وألح علينا «عند» الأعمى بأن يسافر معنا وأكد بأنه يتمكن من الركوب والبقاء على السرج وإن يكن قد فقد حسن الرماية. ويرجو أن يكمل مسعانا بالتجّاح فيستأذن فيصلاً إذن ويعود إلى بيته ليقضي بقية حياته على غير أمل وهناء. وقاد «زعل» الخمسة والأربعين فارساً من التواصرة القادمين من قبيلة كانت تابعة «لعودة» وهي مشهورة في جميع الصحراء بجودة إبلها. وكان هؤلاء الفرسان يتهجون إذ يقال لهم بأنهم رجالي، وقد فتنهم تحملي الصبر على الركوب. وهم بنو الصحراء والركوب والمجادة. وكان «مُتلج» الأعور صاحب القلوص «جَدَّة» أجمل ناقة في شمال جزيرة العرب معتلياً منها وهو يسير أمامنا. وكنا نرمق هذه الناقة بعيون معجبة وأفواه فاغرة متلهفة كل حسب علاقاته مع صاحبها. أما «غزالي» فكانت أعلى ذروة وأسرع خطى وأشرف نسباً إلا أن سنّها كان يمنعها من الجري السريع. وعلى كل حال كانت هي الوحيدة التي كان يمكنها أن تتشبه «بحدّة» في كل هذه المقاطعة من الصحراء، وكانت شهرة هذه «الغزالة» تسبغ عليّ ثوباً من الشهرة.

وكان باقي الرجال يمشون جماعات جماعات من غير نظام. فالتزم الجري كالصيصة ذهاباً وإياباً على طول الركب أكلم شيخاً حرداً مقطب الجبين وأتقدم إلى آخرين يتناظرون فأوفق بين الجميع وأحاول تخفيف العداوات والمناظرات حتى إذا جاء وقت العمل ودقّت الساعة يكون المتحاربون متمكنين من بعضهم البعض، ألا

يذعنوا لأوامر «زَعَل» فيما يختص بخطة السير رغماً من أن زَعلاً هذا كان أثبته من جميع المتحارين وأكثرهم خبرة وتجارب وفي اعتقادي أنه هو الوحيد الذي يمكن للمرء أن يثق به ويتوكل عليه.

أما الباقون فكان كلامهم عندي ومشوراتهم حتى وبنادقهم غير موثوق منها، وتوقفنا عند الظهيرة في مكان خصب، وقد أنبت الربيع حشيشاً أثباً مخضلاً أخضر قصباً نعمت به إبلنا. وكان الجو ناعماً طيباً مثل شهر أغسطس في إنكلترا. وتكاسلنا على تلك البسط الخضر وحللنا قيود أفكارنا لحربية طيلة هذه الأيام السابقة للسفر إلى الكفاح. ولهونا عن هذا الانقباض العصبي الذي لا مفر منه عند ترك المكان الذي نزلنا عليه لو وقتاً قصيراً. وإن للمرء في ظروفنا هذه ليأخذ جذوراً في الأرض ولا يبغي انتقالاً.

وعندما مالت الشمس إلى المغيب تصوّينا إلى أسفل الجبل ودخلنا عقيقاً ضيقاً على جانبيه صخور صوانية معتدلة الارتفاع. وقبل أن تغيب الشمس دخلنا أرضاً منبسطة مغطاة بالوحل الأصفر كالتّي مررنا بها فكانت توطئة لعجبية رم!... ثم نزلنا على حواشي الوادي. وقد جنيت عندئذ ثمار تعب ذلك النهار لأن المعسكر قد انقسم إلى ثلاث جماعات فقط حول النار المتقدة بحطب الحُمَر، وكان رجالي حول واحدة من تلك الوقفات يتعشون، وحول الثانية زعل، والحويطات يتحلقون حول الوقدة الثالثة. وبعد أن شبع الرؤساء من لحم الغزلان وخبز الملة واستراحوا، دعوتهم فتجمعوا من حولي وتناقشنا بهدوء حول النار «المحايدة» بخطة السير غداً.

ويظهر أننا سنأخذ ماءً عند غروب الشمس من آبار المدوّرة على بعد ثلاثة أميال من محطة المدوّرة، في وادٍ يحجبنا عن الأنظار. وعند دَغْشة الليل يمكننا أن نتقدم إلى جهة المحطة لنفحصها ونتحقق إذا كان بإمكاننا أن ضرب ضربتنا فيها رغماً من قوتنا الضعيفة. وهذا كان رأيي الخاص رغماً من الآراء السائدة حولي - لأنّ هذه النقطة هي أهم المواقع على طول الخط. إلّا أنّ العرب لا يفقهون لهذه الأهمية. ودماغهم لا يمكنه أن يقدر مجموع الجبهة التركية ومشكلة تموينهم حق قدرها. غير أنّ الاتفاق

كان حاصلًا وحُسن التّية بيننا لا يشوبُه شائبة وعاد كل إلى مكانه هادئًا مستعدًا لنوم هنيئ.

ومشينا عند الصّباح دون فطور لأن المسافة أمامنا لا تزيد عن ست ساعات! فبعد أن جزنا سهل الوحل الجاف، دخلنا أرضاً منثورة بالحصى والصّوّان الأملس الأسمر وقد صقلته العوامل الطّبيعية على مرّ الأيام ثم ظهرت التلال المنخفضة تتخللها بطون من الرّمال النّاعمة نسفتها الرياح إلى تلك المنخفضات المطمئنة ثم دخلنا أودية غير بعيدة الغور وخرجنا منها. فاعترضنا مجاز ضيق غاص بالحجارة الضّخمة فجزناه. فاستقبلنا السّهل الواسع بشمسه الوهاجة تتخلله كثبان منخفضة مختلفة الاتجاه.

وتوقفنا عند الظّهر حال دخولنا الأرض المأهولة وبلغنا البئر قبل الليل ولم يكن هناك بئرٌ حقيقية إن هو إلّا ضحْلٌ على منخفض من الرّمل والصّوّان لا يبلغ وسعه أكثر من بضعة أمتار، وكان الماء راكداً محجوباً عن الأبصار بطبقة خضراء لمحنا تحتها لطخاً دهنية واسعة فنفرنا من هذا الماء الخبيث وقال لنا العرب بأن التّرك ألّقوا جمالاً قد نفقت ليفسدوا علينا الشّرب، إلّا أنّ هذا الحادث كان بعيد العهد ولا بدّ أن تكون قد خفّت وطأة الفساد والتحول!!!...

ولم يكن لدينا ماء قط نشرب منه إلّا إذا أخذنا «المدوّرة». إذن لا بدّ من الشّرب. فملاً كل قربة. فانزلق أحد الحويطات على الأرض الوحلة وهوى في الماء وأسدل عليه ذلك البساط الأخضر واختفى. ثم لم يلبث أن ظهر على وجه الماء وخرج منه ونحن نضحك. وترك وراءه ثغرة سوداء انتشرت منها رائحة كريهة واعترانا منها غثيان وأفسد خُم اللحم التّن هواء ذلك الوادي.

وتسللتُ إلى الأمام عند الغلّس يرافقني «رَعَل» والجاويشان وبعض الرّجال ودنونا بعد مسير نصف ساعة من خنادق العدو المدعمة بمعاقل حجر يبس. ولم يكن هناك حارس من أولئك التّرك في موقف دفاع تحت ذلك الليل البهيم. وتحت هذه الخنادق على منحدر خفيف كانت المحطة مضاءة مفتحة التّوافذ ونور أصفر يدل على مطبخ الموقع. والبنائات تبدو لنا قريبة في الظّلام إلّا أن مدى مدافع «ستوكس» لا يبلغ أكثر

من ثلاثمئة متر. فتقدمنا حتى أننا سمعنا حركات رجال الحامية. لكن الخوف تولانا من استرواح الكلاب لنا فتنتهك مكاننا. وأخذ «ستوكس» يفتش في الأرض لعله يجد أمكنة لمدافعه فلم يفلح.

وزحفت مع «زعل» كبنات عرس إلى أن تمكنا من عد الخيام وهي غير مضاءة وسمعنا أحاديث الجنود ورأينا واحداً قد خطا بعض خطوات نحونا متردداً فتبيناه وبينما هو يشعل لفافته بالثقاب وهو ضابط شاب شاحب الوجه عليه وشاح من المرض توقف هنيهة ثم قرفص قليلاً لقضاء حاجته وعاد إلى خيمته والجنود سكوت عند مروره.

وعدنا إلى التل حيث موقع ترصدنا الأول وتشاورنا بصوت خافت. فوجدنا أن مساحة البنايات كبيرة، وأن جدرانها المبنية بالحجر متينة لا تقوى على ثلْمها مدافعا الحقيمة، ولا بد أن تكون الحامية مؤلفة من مئتي رجل تقريباً وليس معنا نحن إلا مئة وستين بندقية غير متجانسة. فإذا دهمنا العدو نكون قد غررنا بنصيب ليس لنا سواء، فسلّمت برأي القائلين بأن ننصرف إلى موعد آخر دون أن ننبه العدو. فنَجّت «المدوّرة» مؤقتاً لأسباب كثيرة ولم تلق نصيبها الذي كان مخبأً لها إلا على يد هجّانة «بكستون» في شهر أغسطس سنة 1918.

ولحقنا بجمالنا واستسلم كلُّ منا لنوم عميق. وعند الصّباح عدنا إلى الطريق الذي سلّكناه بالأمس والذي كان يخفينا عن أنظار العدو وأخذنا وجهتنا إلى الجنوب على سهل به آثار الغزلان والتيوس البرية والتعام. وتبيننا بينها أثر حيوان مفترس، وسرنا بين تلال منخفضة على طريق مقابل لطريقنا الأول مصممين على نسف قطار! وأفهمني «زعل» بأن نهاية هذه التلال متقّى الخط الحديدي الذي يعود إعو جاجاً موافقاً لخطتنا وسيكون لنا دعائم تسيطر على هدفنا وتخفي مواقع رشاشاتنا. وسرنا شرقاً إلى أن بلغنا جبلاً على بعد نصف ميل من الخط. وتوقفت المفرزة في عور وإد يبلغ الثلاثين قدماً. وسرت مع بعض الرّجال نستطلع موقع الخط المائل إلى الشرق ليدور حول مرتفع من الأرض. وينتهي بخط أفقي مقابل للشمال ثم يشق الوادي على عمق

خمسین قدماً ويمرّ على جرف عال يقطعه جسر ذو دعامتين لانبجاس الماء العارض عند نزول الأمطار. فظهر لنا بأنّ المكان صالح لوضع اللغم. ولأول مرة سنستعمل الإشعال بالكهرباء ولا ندرى ماذ تكون النتيجة. إلّا أنّ سقوط الجسر لا بدّ منه مهما كان خط القاطرة. وعلى كل حال سيتحول القطار عن القضبان الحديدية.

وعدنا إلى ركبنا وأنزلنا أدوات اللغم وسرّحنا بهائمنا ترعى في ركن منزوي بين جلاميد عظيمة تردعنا أبصار العدو وحيث بعض العرب هناك يستخرجون الملح من الصّخور. ونقل الرّجال مدافع «ستوكس» وقنابلها. ومدافع «لويس» والغراء وأداة الانفجار والأسلاك المبطنة العازلة وأدوات الحفر ووضع الجاويشان هذه الأدوات على صخرة منبسطة ملساء وذهبنا نحن إلى الجسر لنحفر نقرة بين عارضتين من الحديد نضع فيها الخمسين رجلاً من المواد القابلة للانفجار. ونزعنا الورق عن المقدوفين وعجناهما تحت حرارة الشّمس حجماً واحداً يتقلق كالعجين وأدخلناه في كيس تراب.

ولم يكن من السّهل دفنه لوعورة الجرف وكانت الأرض مستورة التي نقوم عليها تمتد على بطن التل إلى كتيب من الرّمال كومتها الرّياح. وأنا وحدي الذي تجاسر وقطع هذه المسافة تاركاً وراءه أثر خطوات عميقة. وكان من المحتم أن تُخفى فتات الصّخور والرّمل المتساقط من النّقرة فنقلته مراراً في عباتي وألقيته في ساحوب لينحدر بسهولة إلى أسفل الوادي. فقضيت ساعتين كاملتين حتى تمكنت من وضع الرجل في حفرة. إلّا أن عقبة اعترضتني! وهي دفن الجبال الهابطة حتى ما وراء التلال لتتصل بأداة ثقب التّار. وكان سطح الرّمل جافاً وعلينا أن نكسره لندفن الأسلاك، حتى أن هذه الخيوط القاسية لم تشأ أن تنتشر وتمدّد في حفرها وكنت إذا بسطتها من جهة تقوّست ونفضت الأرض من جهة أخرى، أو ترتفع فيحدودب ظهر الرّمل فوقها وتتمعّج ثنيّاته تمعّج ظهر الأفعى. فعمدت إلى حيلة أخرى وهي تثبيت هذه الأسلاك في حفرتها بوضع حجارة فوقها. ولكي لا تبدو هذه الأجسام الثّابتة على أرض منبسطة كالكف كان عليّ أن أحفر وأمعن حتى أخفي بقدر الإمكان السّلك المثقّلة معاً. فظهرت على وجه الأرض نتوءات معيبة. وعمدنا إلى الأكياس الفارغة نجزّها على سطح الرّمل

لنعيد إليها تشنيتها الطبيعي فتخفي معالمنا... وخطرت لي فكرة نسف الهواء فحاكيته بعباءتي ألاعبها كالمروحة أو المنفاخ فتغطي الرمال شكلاً معروفاً كأن الريح سحبت عليها أذيالها. فقضينا خمس ساعات متوالية لقضاء هذا العمل الشاق إلا أن النتيجة كانت منشطة ناجحة ولم يكن أحد قط ولا أنا أيضاً يمكنه أن يهتدي إلى اللغم ولا إلى الأسلاك الممتدة على مسافة مئتي متر وراء المرتفعات حيث يترصد زماننا بمدافعهم. وقد كانت الأسلاك كافية لتصل إلى أداة ثقب التار بفضل قطع في الجبل أذن بمرورها من غير مداورة، وما أحسنه موقعاً لهذه الأداة ومديرها ولو أنه لا يرى الجسر مباشرة. وكان في الإمكان وضع مراقب على علو خمسين متراً يمكنه أن يرى الجسر وثاقب التار معاً. فطلب سالم أركى عبيد فيصل أن يقف هذا الموقف. موقف الشرف فَمُنِحَ ذلك وهو يتهلل حبوراً... وقضينا الوقت بعد الظهر بتمرين سالم على الأداة التي بالطبع لا تزال مفصولة عن الأسلاك إلى أن أحسن استعمالها وضربها بقبضة يده حالما رفعت ذراعي عند مرور القطار المزعوم.

وعدنا إلى المعسكر وتركنا حارساً قرب الخط الحديدي. فوجدنا جميع الأدوات والأمتعة منثورة هنا وهناك وفشنا فلم نلاق أحداً من رجالنا إلى أن رأيناهم متمددين فوق تل عالٍ في الشمس الهاربة. على الرمال الناعمة الذهبية. فصرخنا بهم أن انبطحوا أو انزلوا فلم يزددهم نداؤنا إلا عناداً وإهمالاً. وكانوا كسرب من الغربان القابعة معروضين ببلاهة على نظارات العدو من الشمال والجنوب.

فأحوجنا الأمر إلى التسلق إليهم وإرغامهم على النزول. ولكن للأسف بعد فوات الوقت. فقد أبصرهم الترك من موقع صغير قرب «حالة عمّار» على بعد أربعة أميال من الشمال فأطلقوا النار على طول الظل المنحدر عن التل إلى المعسكر. إلا أن العرب أبناء الصحراء كانوا خبراء ماهرين يملكون فن الاختفاء والازدراء ببلادة الترك فلم يحاولوا أن يدافعوا ويدفعوا نار العدو. وكانت تلك القمّة معرضة لأنظار الموقعين موقع «حالة عمّار» وموقع «المدورة» ففوجئ الترك بهؤلاء العرب الشاخصين إليهم كأنهم في موقف تهديد وتحدي ووقع الرعب في كلا الموقعين.

إلا أن الظلام أخذ يسبل ستائره رويداً رويداً ويضمّنا. وعلمنا أنه من المحتوم علينا أن نتجلد تلك الليلة ونجتهد أن ننعم بالكرى. فربما يقتنع التُّرك بأننا ركبنا الليل وبعدنا من هذا المكان إذا رأوا المكان خالياً فأشعلنا النار في حفرة عميقة وتمكننا من محل مريح وخبزنا وتعشينا. وقد علم الجميع بأنه لم تبق لدينا سوى فكرة واحدة وعمل واحد. وأخجل الطّيش على قمة الجبل كلّ أفراد الرّكب وأقمنا «زعل» رئيساً علينا باتفاق جميع الآراء.



الكولونيل ستوارت فرانسيس نيوكومب

الفصل السادس عشر

انتصار وغنائم

وطلع النهار على صمت الصحراء فوقفنا نرصد الخط الحديدي ساعات ونرقب المعسكرات من حوله فلا مرّ قطارٌ ولا تحرّك جنود. وقد كان سهر زعل وابن عمه الحويطي الأعرج ويقظتهما كفيّلين بالتزام الرّجال مخابئهم. وكانت مهمتهما من الصّعوبة بمكان نظراً لتقلقل العرب وعدم ثباتهم عشر دقائق في مكان واحد. فلهم في كل لحظة حركة ولأقل فكرة شيء يقولونه. وهذه الأخلاق الموروثة منذ القدم تجعلهم على طرفي نقيض من الإنكليزي الثابت الجنان الصّبور الذي يجالد ضغط الانتظار الشّديد لدى المواقف الحربية. وهذا هو السّبب أيضاً الذي يجعل البدوي عديم الصّبر في المعارك الهجومية. وكان ذلك اليوم يوماً عصيباً علينا لعدم انتظامهم واستكانتهم.

وربما يكون قد لمحنا التّرك. لأنّ شرذمة منهم تركت خيامها نحو الساعة التاسعة وكانت معسكرة قرب قمّة الجبل جنوب «حالة عمّار» وتقدّمت صوبنا ثم انتشرت على شكل خط ضرب النّار، فإذا تركناهم وشأنهم يقتضي لنا أكثر من ساعة لنبتعد عنهم ونكون تركنا اللغم. وإذا هاجمناهم وهم أقل عدداً منا تنبّه السّكة الحديدية وتمتنع عن تسيير قطارها مؤقتاً وهذا هو المأزق الذي لا مخرج منه. فسرنا مع التقادير. وحاولنا أن نحل الموضوع بإرسال قدر ثلاثين رجلاً ليشاغلوا الكشافة التّركية ويجذبوها إلى التلال المطروقة ربما تخفي عنهم بهذه الحيلة مركزنا الرّئيسي ويعتقدون بأن هذه القوة الضّئيلة لا يُعتد بها. وقد مرّ هذا العارض في بضع ساعات كما كنا نرجو وأصبح

إطلاق الرصاص بعيداً ومتقطعاً. ومرت كشافة أخرى معتدة بنفسها وعبرت على الأسلاك المطمورة وتقدمت إلى «المدوّرة» دون أن تشعر بوجودنا. وكان عدد هذه الكشافة ثمانية عساكر وأونباشي ضخّم ما برح يمسح العرق عن جبينه وكانت الساعة الحادية عشرة والجو يلهب من وهج الشّمس. وبعدما طاف الأونباشي برجاله مسافة ثلاثة أخذ التعب منه كل مأخذ فمال بهم إلى جسر يمرّ الصّبا تحت حناياه وتمدّدوا على الرّمّل النّاعم. وشربوا من مطرّاتهم وأشعلوا سجائر ثم مال بهم النّعاس. فقدّرنا أنّهم يحتفلون بالقيلولة وهي العادة المقدّسة عند التّركي الحقيقي في جزيرة العرب... وبما أنّهم سكنوا إلى اطمئنّانهم. ولم يظهر أكل هاجس تحت هذه القنطرة الباردة أيقنا بأنهم لم يتنبهوا لوجودنا أو على الأقل لم يعتدوا بحركاتنا وعليه فلا خوف من هذه النّاحية.

إلا أنّ ساعة الظّهيرة أقلقتنا. فقد أرّنتني نظّاراتاي بعيدتا المدي. قدر مئة جندي تركي خارجين من محطة «المدوّرة» متجهين نحو السّهل الذي ينتهي إلى مكمننا. وكانوا يتقدمون دون شك على غير رضى منهم وقد فقدوا ساعة القيلولة العزيزة لديهم. إلاّ أنه رغماً من تلكؤهم في السّير لا يحتاجون إلى أكثر من ساعتين للوصول إلينا. فابتدأنا في رزم الأحمال تأهباً للرّحيل وقد قرّرنا أن نبقي اللّغم والأسلاك في مخابئها مجاذفين. غير أن هذا التصميم يدعونا إلى العودة مرة أخرى دون أن تتكلف عناءً جديداً. وأرسلنا رسولاً إلى كشافتنا القائمة إلى الجنوب لتوافينا إلى هناك عند تلك الصّخور المهشّمة الواقفة كالدرّية أمام جمالنا السّارحة. وبعد أن سار قليلاً. نبهنا الحارس على رأس الأكمة إلى دخان كثيف يتصاعد فوق «حالة عمّار» فاندفعت واندفع ورائي «زعل» إلى القمّة فتبينت قطاراً واقفاً على المحطة دون أقل ريب. وما كدنا نحدّد نظاراتنا إليه حتى تحرّك إلى جهتنا. فصرخنا بملء حناجرنا إلى الرّجال ليقفوا بسلاحهم مستعدين لإطلاق النّار. وكانت صيحة، وكان خلاط جنوني. وتراكم وتقاذف من كل ناحية على الرّمّل والصّخر أما «ستوكس ولويس» المقيدّين بجرموقيهما فلم يتمكنّا من محاكاة حركات العرب الخفاف إلاّ أنّهما قد بلغا القمّة معنا رغم الآلام الدّوزناتريا.

وكمَن حَمْلَةُ البنادق على طول الخط وراء المعقل من مواقع المدافع إلى الوادي مارين أمام أداة ثقب التَّار. حيث يتمكنون من هناك من إطلاق بنادقهم على مسافة مئة وخمسين متراً فقط على الشَّاحنات المتدهورة. بينما مدافع ستوكس ولويس يمطرانها على مسافة ثلاثمئة متر ناراً حامية وكان أحد رجالنا العرب على رأس إحدى التلال يهدينا إلى حركات القطار.

فمثل هذه الاستعدادات الدَّقيقة كانت لازمة لحفظ كياننا، إذ لو أنَّ القطار كان حاملاً جنوداً وأنزلهم على سفح الجبل فمن المحتمل أن نصمد لهم وجهاً لوجه في الحال وندافع دفاع المستميت عن أرواحنا، على طول حرف الوادي، ولكنه لحسن الطَّالع تابع القطار سيره قدر ما تسمح له قوة القاطرتين الموقدتين حَطَباً!..

وأخذ العدو يقترب من المكان الذي اكتشفنا فيه وهو يطلق التَّار على غير هدى. فسمعت هذه الضَّجَّة من فوق التل حيث كنت جالساً غير بعيد من الجسر حتى أدى الإشارة إلى سالم الذي كان يرقص على ركبته حول أداة الانفجار ويزمجر هائجاً مستعظفاً!..!!

تالله! لو نجحت العملية!... وما زال التُّرك يطلقون الرِّصاص فيردد صدها الوادي. وكنتُ أسائل نفسي. كم نفرأ من جنود الأعداء يقاوم رجالي قليلي العدد وهم لما يبلغوا الثمانين إذا خاننا اللغم أو فسد تركيب الأدوات الثَّاقبة عند آخر لحظة!.. وكان يمكن أن يكون جهازنا الكهربائي أقل تعقيداً وأبسط تركيباً!..!!

ولقد ظهر أمامي القطار وصغيره يصم الآذان يتهدى في سيره وقد بلغ مدخل العطفة يجر وراءه شاحنات عديدة بعض منها مملوء خيلاً ومدافع كثيرة ملأت التَّوافذ والأبواب بفوهاتها وعلى سطحه أكياس رمال مكْدَّسة يتلصص وراءها جنود ببنادقهم على أهبة إطلاق التَّار. ولم أحسب أن سيكون للقطار قاطرتان معلقتان. فخطرت لي في الحال فكرة نسف اللغم تحت القاطرة الثَّانية حتى لو بقي القطار سليماً لا يمكنه أن يستفيد من القاطرة الأولى التي تكون قد انفصلت عنه نهائياً..

وما كادت القاطرة الثانية تبلغ الجسر حتى رفعت يدي لسالم فلزلت الأرض زلزالها في ذلك الوادي ولم تلبث أن سكنت الصّعة وتعالى دخان كثيف وغبار أسود قاتم إلى ارتفاع مئة قدم. مع أصوات تقصّف الخشب ورنين الأدوات المعدنية المتكسرة، وشظايا الحديد والخشب تتناثر بين الدّخان. وقذف دولا ب من دواليب الشّاحنة بأكمله إلى الجو وهو يدور فوق غمام الدّخان. ومر فوق رؤوسنا كالرّجم ليرتمي بثقله ما وراءنا في الصّحراء وساد بعد هذه العاصفة سكون القبور. لا صراخ ولا طلقة نار. ومر الدّخان من أمامنا هباءً لينعقد على رؤوس التلال الغربية.

وركضت في هذه السّكّنة نحو الجنوب إلى الجاويشين، وأمسك سالم بندقيته وحشاها ولم أبلغ مدافعنا حتى كانت قد اتقدت ناراً وألقت على الأعداء أوارها، والأجسام السّمُر في الوادي تتحرّك وتتقدم إلى الأمام لتضمّ العدو ضمة دونها الفناء. ثم نظرت إلى ما حولي بعد أن انقشعت الغيمة فإذا بالقطار قد همد والشّاحنات متفجّرة متمدّدة على طول الخط لا تزال أخشابها تتفلق من وقع القنابل. والعدو يحاول أن يهرب من الأبواب ليختبئ وراء جرف الخط الحديدي من الجهة الثانية.

وبينما أفكر في هذا المنظر المروع رأيت رشاشاتنا تفعل فعلها فيمرّ الرّصاص فوق رأسي إلى العدو فيتساقط الرّجال كورق الخريف وقد حصدهم الرّصاص من غير رحمة، بين الأخشاب والحديد. وعند وصولي إلى «ستوكس ولويس» كان الموقف قد أخذ شكلاً آخر. إذ توارى الثُّرك وتحصّنا خلف جرف الخط المرتفع أحد عشر قدماً وبين عوارض الحديد وعجلات القطار المحطّمة ويرمون رجالنا بالرّصاص وهم على عشرين متراً منهم. إلا أنّ «ستوكس» قد أحسن الرّماية فأصاب أول قبلة مراكز العدو فأمال خط الرّماية قليلاً وأطلق القبلة الثانية فسقطت في قلب المخبأ وانفجرت بين تلك الأجسام فحوّلت المكان إلى مجزرة بشرية حقاً. فلم يبق من العدو إلا النّذر اليسير ترك مهماته وسلاحه وهرب إلى قلب الصّحراء. ودقت ساعة مدافع لويس فأصاب الجاويش الهدف فغطّ الجثث وجه الأرض. وأطلق «مشرف» الشّاب الشراري مدفعه الثاني طلقة الختام ثم تركه وأخذ بندقيته وصرخ صرخة ارتجّ لها

الوادي ولحق برفاقه الذين كانوا كالوحوش الكاسرة وكسروا ما بقي من أدوات القطار وابتدأوا بالسلب والتهب - وقد جرى ذلك بأقل من عشر دقائق. وركضت بدوري لأرى بنفسى فعل اللغم فلم يبق هناك جسر بلا هوة سقطت فيها شاحنة مملوءة مرضى جهّز عليها الانفجار إلا ثلاثة أو أربعة كانوا يتقلبون في جروحهم ودمائهم. وما دنوت من الشاحنة حتى سمعت واحداً منهم يقول - تيفوس.. تيفوس (طاعون) - فقفلت عليهم الباب في الحال وتركتهم إلى القدر المحتوم. وكانت الشاحنات الأخرى محطّمة والأدوات المعدنية الملتوية غير قابلة للإصلاح. والقاطرة الثانية وكأنها تل من قطع الحديد لا يزال الدخان يتصاعد من أحشائها. وطارت الدواليب في الجو حاملة معها الموقد. وموقف السائق وخزان الفحم محطّمان موشدان الأرض وقد ضاعت معالهما بين حجارة ردم الدّعامّة في حالة لا تصلح للعمل مطلقاً. أما القاطرة الأولى وإن تكن قد هوت عن القضبان، ورغمما من تعطيل موقف السائق كان لا يزال مرجلها يشتعل وأدوات القيادة سليمة.

وأخذ الوادي منظراً خيالياً. وقد جُنَّ القوم لهذا الكسب يركضون من هنا ومن هناك بأسرع من البرق مكشوفي الرؤوس عاريي الأجسام يصرخون ويطلقون النار في الفضاء ويتلاكمون فيما بينهم ويتخذّشون الواحد الآخر عند تحطيمهم الشاحنة. ويتمايلون لثقل حزم الثياب فيحلونها ويتنقون ما يصلح لهم ويرمون ما رثّ منها في الفضاء.

سجاد بالعشرات مُلقى على التراب وعشرات من الفرش. وأغطية مزهرة مزرّكة كوّمت كوماً وثياب من كل شكل وجنس للرجال وللنساء. وساعات كبيرة. وقدّر من الحديد الملبس بالصّيني وذخائر ومؤن وأدوات زينة وسلاح. تلك هي الغنيمة التي يتشاحن المُغيرون لأجلها. وثلاثون أو أربعون امرأة في إحدى الأركان قد أصبن بنوبات عصبية، فمزّقن أحجبتهن وقطّعن ثيابهن وزمجرن كالمجانين. فلم يرث المُغيرون لحالهنّ بل استمرّوا في سلب أمتعتهن الخاصة وكل ما يمكنهم حمله. وأصبحت الجمال مشاعاً للجميع. كل واحد يحمل حصّته على ظهر النّاقة القريبة منه

أحمال قد ترزح أحياناً تحتها، ثم يقذفها أمامه إلى جهة الغرب لاحقاً بغنيمته..

ولما رأت النسوة بأنّي غير مكترث لهذه الفوضى. تقدمن إليّ وتعلقن بشيبي وطلبن شفاعتي صارخات ضارعات. ولم يقنعن بوعدِي الصادق بل أغرقن بالبكاء والعويل. فتدخل بعض أزواجهن وفصلوهن عني. ثم ارتموا على ركبتيّ وتعلقوا بقدمي كأنهم في ساعة التزع وحسرة الموت. وما أقبح مشهد الرّجل وهو في حمأة الدّلّ والهوان. فنفضتهم عن قدمي العاريتين وتخلّصت. وتقدم لويس وستوكس ليحتميا بي. وفي الحق شعرت بقلق نحوهما. لأنّ المغيرين وقد طاشت رؤوسهم يمكنهم أن يظنّوهما عدوين.. ألم أدافع عن نفسي وعن أمتعتي ثلاث مرات وقد تجاهل بعض الرّفاق معرفتي؟

إلا أنّ درّاعتي الجاوشين الكاكي الملطختين بدم المعركة وزيت الآلات لم تجذبا شهوة المُغيرين ولم تُسلّ لعابهم. وسار لويس لجهة الشرق كي يعد ضحايا قبلته ويفتّش في جيوبها وجعبها عن بعض الذهب وثمان السّلب.

وتغلغل ستوكس بين خرائب الجسر فرأى عشرين تركيا وقد طُحنوا طحناً بقبلته الثانية فخرج منها مهرولاً. وعاد إلى أحمد يحمل غنيمة ملء ذراعيه فأنزلتها عنه وأرسلته ليأتي بناقتي والهجن الحمولة لنحمل المدافع. والآن وقد هدأت الحركة والصّراخ ابتدأنا نسمع طلقات نار العدو بوضوح، إلا أنّ العرب قد اختفوا عن الأبصار في الجبال يقذفون الجمال أمامهم رازحة تحت الأثقال وكانت خطة رديئة بأن تترك المدافع مطروحة على الأرض لآخر ساعة. إلا أنّ الحيرة تملكتنا لدى الفوز فعمينا عن الحكم الصّائب.

أما «أحمد» فإنه لم يعد إليّ قط. وتشتت رجالي في جميع التّواحي مع رجال البدو وقد بطروا للغنائم واعتراهم جنون الطّمع وحب الاحتفاظ بما سلبوه. وبقيت وحدي مع جاويشيّ أمام تلك الأكوام الخربة وقد ساد عليها سكون مخيف. وابتدأ الخوف يدب في قلوبنا بعد ثورة الظّفر وكحدنا نترك مدافعنا مسجاة على تلك الرّمال. وإذا بحملين عليهما «زَعَل» وبعض الحويطات يبحثون عني.

وكنـت أجمع الأسلاك وهي البقية الباقية من غزوتي. فـترجـل «زعل» وألح عليّ بالركوب فحملت الأسلاك على الجمل بدلاً مني. فضحك «زعل» لهذه اللقطة التي كنت أهتم لها بينما القوم يحملون الذهب والفضة!.. ولم يتمكن «حويمـل» من السير لعرج قديم فبـتـناه على ظهر ناقته وأردفناه مدفـعي «لويس» مربوطين من وسطهما. وقدم ستوكس يقود جملاً حمولاً من منخرية كان تائهاً في تلك التواحي فحملناه هاون الخنادق.

وركب ستوكس المسكين الذي أنهكه داء الزحار «الدوزنتاريا» على ناقة «زعل» وسلمنا قيادة الثلاثة جمال إلى «حويمـل» الأعرج وأخذنا طريقنا. تاركين وراءنا الدمار والموت.

وبينما كنا نشد الجمال كان «زعل»، و«لويس» قد انحدرنا إلى منخفض مستور عن الأبصار وجمعا الرصاص والمواد الملتهبة والأدوات التي تركها العدو وبعض ذخيرة بقيت عن جشع المدفعين «ستوكس ولويس» وأضرما فيها النار وأسرعنا إلينا. فلم تلبث أن انفجرت ألوف من المقذوفات وكثير من القنابل وتطايرت شظاياها في الجو يتجاوب هديرها في تلك الأغوار كأنه هدير البعران، وانتشر فوقنا سحب كثيف من الدخان والغبار. وكان قد اقترب منا العدو فصعق لهذه الدممة وقد اهتزت الأرض من هولها فتوقف وحاول أن يختفي ويتخذ معاقل له. ثم أراد أن يدور دورة ويلتف حولنا حسب الفن القديم البالي! فتوارينا عنه خلف مارـد الجبال وجبار الصخور. وختمت غزوتنا بأحسن مما كنا نحلم. ولم تكن خسائرنـا غير مطايا الجاويشين وحوائجنـا الخصوصية. إلا أننا لا نحرم طعاماً في وادي «رَم» وأن حاجاتنا الضائعة ستكون دون شك بين أحمال التوق في المعسكر. فلم يكذبنا فألنا. فإن رجالنا قد حملوا كل ما وجدوا أمامهم على ظهور المطايا وجدوا السير. فنزعنا الغنائم عن هجنتنا، وركبنا في الحال ثم سألنا عن عدد جرحانا.

فأجاب واحد قائلاً: قتيل واحد وهو «ابن شحنة» وكان هذا المسكين شاباً شجاعاً مقداماً وربما كان قد تغلب عليه طيش الشباب فكان أول المهاجمين بعد سقوط القطار.

وهذه الهجمة كانت غير ضرورية ولم أمر بها لأن مدفعي «لويس» و«ستوكس» كانا ينهيان العمل بعد انفجار اللغم إذا انفجر في الوقت المناسب - فلم يكن عليّ أن أشعر بثقل المسؤولية في موت هذا العربي.

وكان ثلاثة من رجالنا قد جرحوا جروحاً خفيفة. ثم أن أحد عبيد فيصل أقرّ بفقد سالم فجمعنا الرجال نستعلم منهم الواحد بعد الآخر. فقال واحد منهم بأنه رأى سالمًا ساقطاً أمام القاطرة جريحاً وتذكر «لويس»، بأنه رأى عبداً أسود مجروحاً جرحاً مميتاً ولم يدر أنه من رجالنا.

ولم يقولوا لي ذلك إلا بعد فوات الوقت. فأخذتني ثورة الغضب. لأنّ نصف رجال الحويطات لا بدّ أن يكونوا قد رأوه على تلك الحال ومن جراء إهمالهم قد تركت صاحباً للمرة الثانية إلى الورا.

فطلبت متطوعين أن يلحقوا بي للتفتيش عن سالم وإسعافه إذا كان ممكناً فتقدم «زعل» بعد قليل من التردد وأفرني على رأيي وأتانا عشرة من التواصرة وطلبوا اللحاق بي فسرنا خيباً سراعاً إلى أن وصلنا إلى أكمة تحجبنا عن موقع الوقعة المروعة. وفوجدنا التُّرك كالتمل يدورون حول كوم الحديد والخشب والصّخور والجثث وبلغ عددهم المئة والخمسين تقريباً. وكان الدنوّ منهم ضرباً من الجنون وسعياً إلى التهلكة. وسيكون التُّرك قد أجهزوا على سالم لأنهم لا يأسرون العرب! وربما يكونون قد مثلوا به أشنع تمثيل وقد خضعنا بدورنا لإرادة القدر وأجهزنا على أسرانا البؤساء وخلصناهم من آلامهم المبرحة ولكثرة جراحهم المميتة لم يكن في الإمكان نقلهم أو تركهم لقساوة هذا القدر في الصّحراء.

وقرّرنا أن لا سبيل إلى إسعاف سالم وعاد الرّكب حزيناً. وكان بين التسعين أسيراً عشر نساء من القبائل الموالية لنا جئن من المدينة. فطلبن الذهاب إلى مكة بواسطة «فيصل». وكان لدينا إثنان وعشرون جملاً لا راكب لها. فركبت النساء على خمسة جمال. وأركبنا الجرحى مثنى مثنى. على ظهور المطايا الباقية. ودنا الأصيل وقد أنهكنا التعب وألهنا العطش وقد جاء الأسرى على آخر نقطة من الماء. فكان علينا

أن نملاً قَرَبنا من آبار «المدوّرة» القديمة في تلك الليلة حتى نستعيد قوانا. ونتمكن من الوصول إلى «رَمّ».

وكان علينا كذلك أن نجدّ في السّير ونصل إلى الآبار قبل أن يشعر بنا العدو ويتبعنا إلى هناك. لأنّ موارد المياه مجاورة للمحطة فيفتك بنا وما من دافع يدفع الغائلة عنا. وانقسمنا إلى فرق صغيرة وأسرعنا إلى الشّمال.

إنّ النّصر يبلبل الجيش العربي دائماً، فلم نكن جيشاً يتقدم للغزو، بل قوافل مثقلة تمشي ببطء وراء أحمال باهظة ومقتنيات شخصية تغني قبيلة بدوية سنين عديدة.

وطلب إليّ الجاويشان سيفين تذكّاراً لأول معركة اشتركا فيها فعلياً فتقدمت وانخرطت بين الرّكب لألبي طلب هذين الشّهمين الكريمين وإذا بي أمام عبيد «فيصل» وقد أردف أحدهم سالماً المسكين وراءه مربوطاً فاقد الرّشد مخضباً بدمه! فأسرعت إلى «فرحان» واستطلعته خبر صاحبنا سالم. فقال: إنه بعد أول قنبلة أرسلها ستوكس على القطار هجم سالم على القاطرة فأصابته رصاصة من رصاص العدو في ظهره. وقد خرجت قرب السّلسلة الفقرية دون أن تمسها - على زعمه - وأن سالماً على زعم جميع رفاقه لم يكن مجروحاً جرحاً خطيراً. وقد سلبه رجال الحويطات عباءته وخنجره وبندقيته وعمامته، وقد تعرّف عليه «مُقبل» أحد العبيد فحمله على ناقته وسار به سراعاً إلى كوخه ولم يُعلم بذلك أحداً. إلّا أنّ فرحان قد التقطه في الطّريق وخلّصه من مقل.

وقد شفي سالم بعد مدة ولم ينس أن يحفظ لي حفيظة لم تذهب بها المعذرة.. لأنّي تركته ورائي في حالة توجب الشّفقة... فكان ذلك مني إخلالاً بعهد المحبة!!..

ووصلنا إلى البئر بعد سير ثلاث ساعات دون أن يعترضنا عارض فتموّنّا ماءً وسرنا عشرة أميال وهي مسافة كافية لا نخشى بعدها لحاقاً. وتوقفنا ونام الجميع. وعند الصّباح استيقظنا على عذوبة التّعب. وكان ستوكس قد تألم كثيراً من داء الرّحار «الدّوزنتاريا» إلّا أنّ التّوم خفف منها فاستيقظ مرتاحاً خالي الهم وشعر بالشّفاء.

وكانت مطايانا الثلاث فقط لا تحمل أثقالاً فتقدمنا الرّكب وجزنا سهلاً من الطّين الجاف لا نهاية له إلا أن بلغنا غور وادي «رّم» عند غروب الشّمس.

وقد كان لهذا الطّريق في نظري أهمية كبرى. لأنّ العشرين ميلاً التي قطعناها على بساط الوحل الجاف الملبّد تصلح لسير السيّارات المصفحة فنبلغ بها «المدوّرة» ويمكننا عندئذٍ أن نوقف القطار في أي وقت نشاء. وقد ولجنا لأجل هذه الفكرة وحدها دهليز «رّم» الذي لا يزال رائع المناظر تحت أشعة الشّمس الغاربة وقد اصطفت على الأرض وفي السّماء جلاميد حمّر كالورد وسحاب مُنقّذ كالأرجوان يخفر الكوكب الملتهب كجنود جبابة في تشابه زيهم وتساوي علوهم. ولقد شعرنا بأن مناظر «رّم» هذه بصفائها وروعها قد عملت على تهدئة أعصابنا المتوترة. فيالها من عظمة تضغط على مناكبنا وتروع قلوبنا وتوقف على شفاهنا ضحكات السّلوى والاستخفاف التي كنا نتمتع بها على ظهور مطايانا في الصّحراء التي لا نهاية لها.

ومرت ساعتان بلغنا فيهما العقبة. فدخلناها معجبين بنفوسنا متهللين لفوزنا مثقلين بالغنائم، وقد اكتشفنا الطّريق الذي به يكون من الآن خط سكة حديد جزيرة العرب تحت رحمتنا، ونزل الجاويشان إلى البحر على ظهر سفينة سريعة ذاهبة إلى القطر المصري. وقد افتقدتهما القاهرة وتململت لعدم رجوعهما إليها! ولكنهما يرضيان بأن يتحمّلا غُضَبَ رؤسائهما بسرور. ولقد ربّحا الموقعة بدون مساعدة وتجملاً لداء الرّحار وعاشا على لبن النّوق وتعلما أن يقطعا خمسين ميلاً في اليوم على ظهر جمل دون كثير عناء، وكان جزاؤهما وسامين من النّبي!....



الفصل السابع عشر

وضع خطط جديدة

كان أكتوبر شهر فترة وانتظار، وكنا نعلم بأنّ آلنبي مع «لويس» و«داؤني» ينويان الهجوم على غزة وبئر سبع.

كانت غزة محاطة بنطاق دفاعي حديث تتبعه صفوف من الخنادق على أكمل ما يكون من الاستعداد على الطريقة الأوربية. فكانت دون منازع أمنع نقطة للعدو. وقد عازمت القيادة العليا مرتين على غزوها رأساً. وكان قد وصل آلنبي من فرنسا حديثاً فألح بأن يكون الهجوم قائماً على عدد ساحق من الرّجال والمدافع مجهزين بكامل وسائل التّقل ومن كل نوع.

وكان «داؤني» يناقض هذه الفكرة ويعتقد بأن قرض قوات العدو بوسائل أخف كلفة وأقل قعقة هو الأجدى. وأشار بأن يمتد رأس خط مستطيل إلى طرف الخط التّركي الشّرقى من جهة بئر سبع. ولكي يكون الانتصار قليل الثّمّن كان يريد أن يحتفظ بالقوة الكبرى إلى ما وراء غزة معتقداً بأن هذا الموقع يكون قريب المنال إذا أخفى البريطانيون تجمعهم في جهة الشّرق بنوع أن التّرك يمكنهم أن يعتقدوا، بأنّ هجومنا على جناحهم خدعة لا حقيقة.

أما نحن في الجهة العربية فكنا قائمين على قدم المساواة مع العدو وكنا أشبه بعائلات متمازجة، فمن ضباط عَرَباً كانوا يخدمون قبلاً في الجيش التّركي ويعرفون الرّؤساء، ومن تقارير من شعوب لا يزال التّرك محتلين أرضهم تأتينا تباعاً دون رشوة ولا استجداء. ومن العبث التفتيش عن مكتب استعلام أوفى وأوسع وأدق من نظامنا هذا في الصّحراء.

ولقد كنا نعرف مواطن الضعف في العدو وأهمية وسائل البريطانيين أكثر من النبي، وكنا لا نعتد كثيراً بكثرة مدفعيتنا وزحف مشاتنا وفرق فرساننا، فقد كانت كل هذه القوات تصاب بشيء من الشلل عند الزحف فتتقدم ببطء على ظهر سلحفاة. فليُسهل الحظ النبي شهراً واحداً ليتم استعداده ونحن كفيلون بأنه يحتل ليس فقط القدس بل يحتل حيفا أيضاً ويكتسح أمامه على تلك الجبال جميع قوات الترك المتقلقلة.

وعندئذ تدق ساعتنا! فنكون على أهبة الانقضاض كالعُقبان على الموقع الذي لا ينتظرنا فيه العدو. على تلك النقطة التي تكون لقواتنا وحركاتنا أحسن النتائج. وفي نظري أن الذي يجذبنا إليه هو محطة «درعا» نقطة الاتصال بين حيفا - دمشق - المدينة، قلب الجيش التركي في سوريا. ولقد شاء القدر أن تكون تلك البقعة ملتقى جبهات الترك. قلت لقد شاء القدر المحتوم أن تكون مستودعاً هاماً للمحاربين العرب. مستودع رجال لا يُمسَّ إلى الآن إلا أنه مدرّب بعناية «فيصل» ومسلح من مستودع العقبة.

وكنت أسائل نفسي ألا يجب أن ندعو إلى نصرتنا جميع الأعوان من الآن ونستولي على مواصلات الترك بكل قوانا، فإذا كنا لبقيين وحسني السياسة يمكننا أن نجتمع إثني عشر ألف رجلاً عاملين ينقضون على «درعا» ويستولون على الشام فجأة ويعطلون جميع الخطوط الحديدية. وإن حركة واحدة من حركاتنا هذه تضع جيش بئر سبع في مأزق حرج، وكنت أغالب نفسي وأفكر في هل أطلع القيادة العامة حالاً على النتيجة المحتملة.

كان أهل البلاد يطلبون ذلك بإلحاح، ولقد لجَّ الشيخ طلال الحريديني في الطلب يبعث الرّسل تلو الرّسل ويقول إذا كان في الإمكان الاعتماد على بعض من فرساننا ليين لرجاله أننا نتعاون مع العرب يمكنه أن يسلمنا «درعا». وطلال هذا هو شيخ المنطقة الصحراوية حول هذه المحطة. وكان يكون هذا العمل العظيم العلاج الوحيد الشافي لمشروع النبي إلا أن فيصلاً لم يكن يقوى على القيام به إذ كان لا يرجو أن يتخذ مقره في تلك المنطقة في الحال. فإن الاستيلاء على «درعا» فجأة والتراجع حالاً إلى الورا يسبب مذابح وفناء لأولئك الرجال البواسل فلاحى الصحراء.

وإن أولئك المحالفين الموالين لنا لا يمكنهم أن يحاولوا الانتفاض إلا مرة واحدة. وعليه يجب عليهم أن يوحدوا كلمتهم ويستجمعوا كل قواهم للقيام بالهجوم الحاسم. فإذا دعوناهم الآن للعمل جازفنا بالضربة القاضية التي ينتظر فيصّل سنوح الفرصة ليضربها. نعم نكون جازفنا لأجل انتصار غير مضمون وعلى شرطين أساسيين منهما: أن يقوم النبي بهجوم أول يقذف به العدو بعيداً. والشرط الثاني أن يكون شهر نوفمبر غير مطير فيتقدم البريطانيون إلينا بسرعة.

وكنت كثيراً ما أزن الجيش البريطاني في وحدتي إلا أنني في الحقيقة لم أكن متأكداً من قوته. لقد كان الرجال في الغالب من خيرة الجنود. إلا أنه في الغالب أيضاً كان القواد يضيعون ما ربحوه من غير أن يعرفوا السبب. ولم يكن النبي قد وُضِعَ على المحك فكان يقود جنوداً أضعوا شيئاً من طيب أخلاقهم في عهد مري وبسبب عهد مري. إننا بدون شك كنا نحارب لنصرة الحلفاء، وبما أن الإنكليز هم من الشركاء الأصليين فمن المحتم علينا عندما تضيق بنا الحيل أن نضحي بالعرب لأجلهم. ولكن هل ضاقت الحيل ولم يبق غير هذا المنزع في الوتر. إن الحرب كانت تتمايل بين الشك واليقين فلا هي ناجحة ولا هي خاسرة. وتدل الدلائل على أن لدينا متسعاً من الوقت في العام المقبل لنقوم بمحاولة أخرى. وهكذا قد صمّمت على تأجيل المجازفة حياً بخير العرب.

وكانت الحركة العربية لا تزال حيّة بفضل النبي. فمن الضروري أن نقوم بأعمال قد اتساعاً من الانتفاض العام على ساقية العدو. أعمال لها أهمية الغزوات لا تدخل فيها الشعوب الساكنة وتكون كافية لأن تُرضي النبي. أي أنها تكون دعامة مادية نقدمها للحملة البريطانية ضد الترك. وعند التأمل وجدت أنه ما من شيء يملأ «خانات» هذه شروط المتعددة إلا نسف أحد الجسور الكبرى في «وادي اليرموك». في ذلك الغور الضيق الوعر. غور جدول اليرموك حيث تمر سكة حديد فلسطين لتصعد إلى حوران على طريق دمشق. وقد ذلل المهندسون لمد هذا القسم من الخط عقبات كثيرة في وادي الأردن الغائر ومرتفعاته الشرقية الصعبة المسالك. وكان عليهم أن يمشوا

منعرجات الوادي كثيرة الالتواء ويتخطوا مجاري المياه لبناء جسور متعدّدة. وكانت الأعمال الفنية القائمة على طرفي الخط الشرقي والغربي من أدق الأعمال وأشقها.

فإذا نسفنا جسراً من تلك الجسور نكون قد فصلنا قوة التُّرك الفلسطينية عن قاعدتها دمشق مدة خمسة عشر يوماً وحرمانها من كل وسيلة تمنع تقدم آلنبي. ولكي نبلغ اليرموك قادمين من العقبة يجب أن نمرّ بالأزرق ونقطع مسافة أربعمئة وعشرين كيلو متراً. وكان التُّرك يعتقدون بأن هذه المنطقة غير مهدّدة فأهملوا حراستها. فعرضنا هذه الفكرة على آلنبي فأقرها على شرط أن تنفذ يوم 5 نوفمبر أو في الثلاثة الأيام التالية لهذا اليوم.

وكان ناصر الذي ينظّم خططنا غائباً، إلّا أن علياً بن الحسن عميد بني صخر شريف بني الحارث الشاب الجذاب التّيبّل كان موجوداً بيننا. وقد اشتهر هذا الشاب ببسالته أيام فيصل العصية حول المدينة. وأظهره بعد ذلك ضروباً غريبة من الشّجاعة حول «العُلا» ففاق بهذه الصّفات «نيو كومب» نفسه.

وقد كان ضيفاً على جمال باشا فترة من الزّمن فعرف شيئاً كثيراً مما يتعلق بأحوال سوريا، فرجوت فيصلاً بأن يضعه تحت قيادتي. لأنّ بسالته وإقدامه وحسن تصرفه وحيلته، تلك الصّفات المجربّ بها من زمن بعيد تكون لي خير معوان. فلم تكن عقبةً مهماً كان خطرها تقف أمامه فيحجم عنها. وما من نكبة قط لم يقابلها بثورة من الضّحك والاستهزاء.

وقد كان متين البنية، لا طويلاً ولا ضخماً. إذا ركع على ركبتيه وكوعاه إلى الأرض وكفاه مبسوطتان في الفضاء كان يقوم حاملاً رجلاً على راحتيه. وفوق ذلك كان يربح الرّهان إذا سابق مع هجين وهو حافٍ ثم يقفز بعد جري نصف ميل على سرج الحيوان الآتي ثانياً.

إلّا أنّه مع هذا كان حرداً، دعياً، لا يبالي بما يقول وبما يفعل. وإذا تكلم في التّاس استحث رغبتهم. وهو متعلم علماً راقياً يكفيهِ بأن يفوق أقرانه ويشبع مطامعه كرجل

بدوي - من فنون الحرب والفروسية والرياضة البدنية.

وقد درست خطتي بإمعان وتدقيق وهي أن أثب وثبة تحت قيادة «رافع» هذا الشيخ الظريف الذي لحق بي في شهر يوليو وأقطع مرحلة أو مرحلتين من «الأزرق» إلى «أم قيس» مع حفنة من الرجال يبلغ عددهم الخمسين.

وأم قيس تقع بالدقة فوق جسر غربي اليرموك وهذا الجسر مثال الفن الفولاذي، وهي ليست سوى «غادارا» Gadara المدينة المشهورة منذ القدم بتذكارات منيپوس Menippus وملياغر Meleager اليوناني السوري الذي دلت كتاباته الغرامية على ازدهار الأدب السوري في ذلك العصر الغارق في القدم.

فإذا قمت بتدمير هذا الجسر أكون قد حصلت عن جدارة على لقب «فندالي» واشتهرت بالهمجية.

ولم يكن في ذلك الوقت غير ستة حراس يحرسون الدّعائم والكتل الحديدية. وستين حارساً يتبادلون الحراسة مناوبة إلا أنّهم كانوا يسكنون في بنايات على محطة «الحمة» حول بنايع «غادارا» التي لا تزال جارية حارة يقدرها المرضى هناك حقّ قدرها. وكنت أرجو أن أقنع بعض رجال «أبو تايه وزعل» فيتبعوني. لأنّ معونة هؤلاء الفهود تكفل لي التّجاح. ويكون علينا أن نكتسح الحامية التي تجسر أن تأتي من مساكنها على محطة «الحمة» وتدنو من الجسر، برشاشاتنا التي يكلف بإطلاقها المتطوعون الهنود تحت قيادة الكابتن براي Bray، من فرقة الفرسان الهندية التي كانت مرابطة في فرنسا تحت إمرة جامادار حسن شاه.

وكان تخريب الأقواس الفولاذية التي ترفع ظهر الجسر عملاً دقيقاً شاقاً، تحت نيران العدو. فدعونا المهندس الفني «وود» Wood من العقبة كي يساعدنا على العمل عند الاقتضاء فلم يتردد بالقبول رغماً من مشورة الأطباء له بعدم الإجهاد لأنّ رصاصة كانت قد احتلّت رأسه في ميدان فرنسا.

وقد أسف «لورد جورج لويد» الذي قضى بضعة أيام في العقبة لعدم تمكنه من

مرافقتي حتى «الجفر» لأنه كان مدعواً للإشتراك في جلسة استشارية بين الحلفاء في فرساييل . وما كدنا ننهي استعداداتنا حتى هبط علينا حليف من السماء على غير انتظار في شخص الأمير عبد القادر الجزائري حفيد عبد القادر بطل الجزيرة المشهور بحروبه ضد فرنسا.

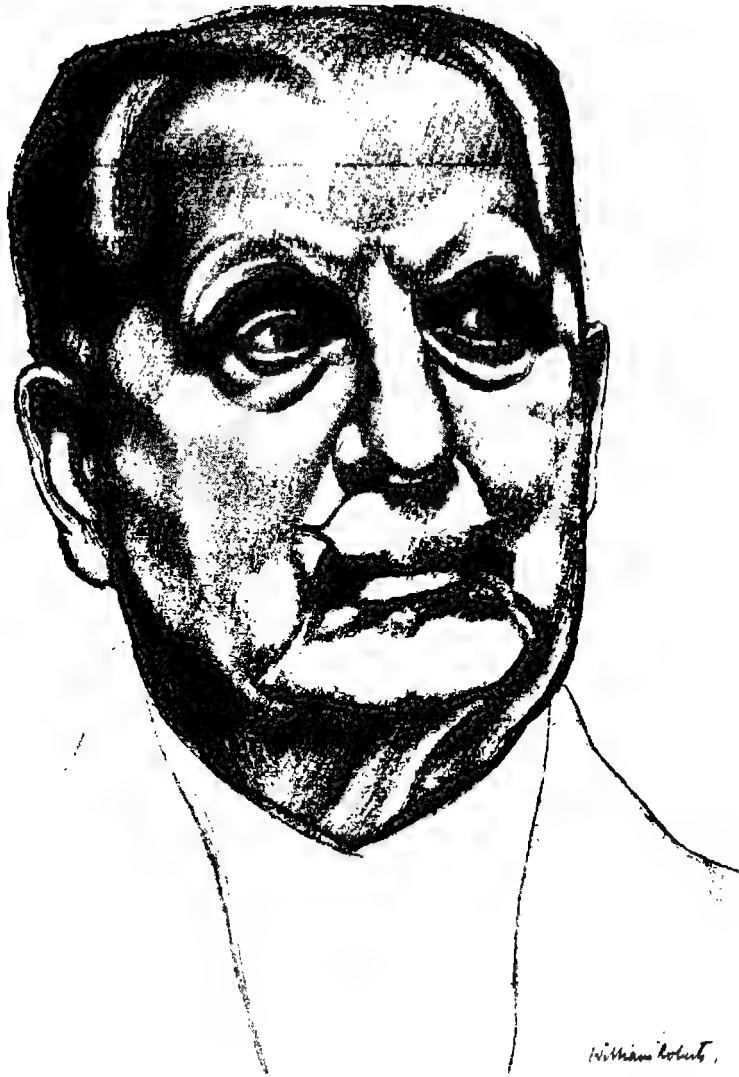
قدم هذا الأمير رجاله روحاً وجسداً وهم منفيون جزائريون أشداء إذا ضربوا عطبوا. ولقد صعدنا على مناكب الخط فأقمنا وقتاً ولو قصيراً عند استعراضنا قسم السكة الحديد الأوسط في ذلك الوادي الذي تقوم عليه ثلاثة جسور من أهم أعمال الخط الفنية. وكان من المحتمل أن لا يشترك عرب الضفة اليسرى معنا ولا يحركوا ساكناً، لأنهم يعتبرون الجزائريين غرباء ممقوتين لا تجب معاملتهم.

وعليه قد توقفنا مؤقتاً عن دعوة رافع إلى الأزرق ولم نُوح بكلمة قط من كل هذا إلى زعل. لأن أفكارنا ظلت متجهة فقط إلى وادي خالد وجسوره.

وبينما ننظم خططنا ونمهد لعملنا الخطير وإذا بيرية من الكولونيل بريمون تفهمنا بأن عبد القادر جاسوس على حساب التُّرك. فياله من نبأ مبلى، فقال لي «فصل»: «أنا أعرف بأنه مجنون إلا أنني أعتقد بأنه شهم.. أحرصوا رؤوسكم وانتفعوا به». ولزمننا ثقتنا بهذا الجزائري على مبدأ أن الرجل الخائن لا يزداد إيماناً بشهامتنا. وأنه من الممكن تحويل الرجل الصادق الأمين بسرعة إلى رجل خائن إذا اتُّهم.

وفي الواقع كان عبد القادر متعصباً لإسلامه وقد هَوَّرَتْهُ نعرته الدينية إلى الحد الأقصى من الاعتداد بنفسه فصار ممسوساً. وكانت تأخذه عزّة النفس فيتألم لمرافقتي أبناء دينه ولا استقبالهم إياي بأحسن من استقبالهم له ولمعاملتهم لي بأطيب من معاملتهم له. وكاد هذا الحرد الأحمق يُفقد علينا ثلاث مرات رباطة جأشه ويفك قيود صبره. وقد حدث بينهما أمور مؤلمة وكانت جهود عبد القادر تقصد غرضاً واحداً أقل مافيه أنه يعرقل سيرنا. إذا كان في مقدوره. ويقلب خطنا ويقضي علينا ساعة نكون فيها واقفين على حافة الهاوية.

* * *



الجنرال سير ريفينالد وينغايت
قائد الجيش والمندوب السامي البريطاني في مصر

الفصل الثامن عشر

عبر الخطوط مرة أخرى

وكان سفرنا يوم 24 أكتوبر فتغدينا في المعسكر غداءً طيباً وسافرنا عند هبوط الظلام. وكان سيرنا معتدلاً مدة أربع ساعات. والمشي في أول الرحلة يكون بطيئاً عند الإنسان مثله عند الحيوان لأن كل سير إلى مجازفة جديدة مكروه، وكانت الأحمال متقلقلة محلولة فلزم ربطها بالحبال وحزم بطان الجمال. وكانت المطايا مفتقدة فلم تألف هؤلاء الناس الغرباء عنها. وكانت لنا فوق جمالي الخاصة - غزالة - الجدة العجوز التي ستضع قريباً، و«ريما» الناقة الشرارية التي سرقها بنو صخر من الرولة وجمال حرسى الخاص. وكان عليّ أن أركب الهنود وأعير «وود» ناقة وهو لا يكاد يثبت على السرج حتى يطلب إبدال ناقة بناقة أخرى. وهكذا كل يوم. وأعرت أخرى لـ «ثورن» الجندي التابع «للويد» وكان هذا الرجل يثبت على السرج كالعربي ويخاله من يراه في عمامته وعباءته المُعلّمة التي تخفي تحتها الكاكي أنه بدوي صميم. و«لويد» ذاته كان يركب نجيباً أصيلاً استعاره من «فيصل». وهي قلو ص جميلة سريعة الجري واسعة الخطى إلا أنه قد جزّ صوفها حتى ظهرت بشرتها لجرب أصابها فهزلها.

ولم تلبث عصابتنا أن انتشرت، فتأخر «وود» إلى الورا فكان رجالي الحديشو العهد قلقيين خوفاً من عدم انتظام الهنود وقد غابوا عن أبصارهم. ووجد «وود» مع «ثورن» بعيدين عن كل احتكاك بالحملة.

ومالبث هذا الأخير أن اتجه نحو الشرق وانخرط في معابر عميقة مُظلمة لا تسلك حتى يتعالى القمر ويرسل ضوءه إلى أغوارها. وما زال يسيران على طريق قويرة على

غير هدىً إلى أن توقفا. وانكمشا في قاع الوادي. ولم يكونا يثقان بالعرب لحدائث عهدهما بالبلاد فتناوبا الحراسة طوال الليل. ولما لم نلقهما عند توقفنا خشينا أموالاً كثيرة وجالت في أذهاننا احتمالات شتى. وما أن بزغ القمر حتى رجع أحمد وعزيز وعبد الرحمن إلى الورا وكانوا منقسمين على تلك الطرق المطروقة وكان عليهم أن يعيدوهما إلى «رَم».

وبقيت مع «لويد» والركب كي أقودهم إلى رَم بين منحدرات الحصى الوردية وأودية الحُمر المخضرة. ودخلنا المعابر والشمس متقدة فوق الجلاميد العجيبة وأرسلت أمواجاً من الأشعة على الأرض التي لا تزال معطرة ومنتعجة تحت ظلال الأعراف الرشيقة التي تحاكي دعائم قائمة على مدخل الملعب، وكان قد وصل «وود وثورن» وانتظرانا على ينابيع المدرج الفيضة، وكان «وود» مريضاً فانتحى ناحية رصيف مُعسكري القديم واستراح وظن بأنه لن يرانا قط! لذلك نظر إلينا بعدم اكتراث لما رأنا واقفين مبهوتين خاشعين خشوع التقوى أمام عظمة الطبيعة ولم نهتم لآلامه، وكنا نجيبه بكلمة نعم على شكواه ثم نتركه ممدداً ونغوص إلى أعماق الفكر ونرود مرة أخرى ونتحدث بهدوء مملوءين روعة وابتهاجاً لهذا المشهد الفريد. ولحسن الحظ أن أحمداً و«ثورن» لم ينسيا أن يأكلًا.. وعادت العلاقات حسنة بينهما أمام السَّماط. وفي اليوم الثاني ونحن نسرج المطايا طلع علينا عليّ وعبد القادر. ففطرت أنا ولويد معهما مرة ثانية لأنهما كانا على وشك الخصام وكان وجود ضيفهما ضرورياً ليضعا حداً للقتال ولويد هذا كان من أولئك السياح الذين يمكنهم أن يأكلوا أي طعام مع أي إنسان، وفي أي مكان، ولما انتهينا من الأكل استأنفنا السير في السَّهل بمشقة لنبلغ التَّركب، فبلغناه كأننا عاصفة تسعى وراءه فقوجت المطايا واختل نظامها، ونُحرت جمال الهندود وزمزمت ولم تهدأ حتى أنزلت عنها الأحمال وساد الهدوء ومشينا الهوينى على كتف وادي «حفيرة» ذلك الوادي الذي كان في وسط الهضاب كأنه منفلق بصربة حسام. وفي مدخله طريق يصعد إلى أن يبلغ «بطرة» فلم نحث مطايانا في ذلك اليوم كسلاً لاحتياجنا إلى الراحة والاستجمام. واحتجبنا عن الأنظار على كتف

الوادي العميق. وأوقدنا ناراً كبيرة لتتقي برد الليل. فأضأت إِبالتنا المشتعلة جوانب الرّكب الجذلان وطبخ لي فَرّاج أرزاً وهو أكلّي المألوف أما «لويد» و«وود» و«ثُورن» فقد حملوا معهم من الجيش البريطاني لحم بقر محفوظاً في علب وبسكويت فتحلّقنا وضائق حلقتنا حول ذلك السّماط الشّهّي.

وعند طلوع النّهار تسلّقنا المعبر في طريق كثير التعاريج وتركنا تحتنا حشيش «الحفيرة» يمتد على سفوح تل مرتفع مخروطي الشّكل كالقُمع المقلوب. وتظهر ما وراء ذلك بجلالها وهيبتها، تلك الأهرامات الهائلة، والقُبب الرّمادية العجّابة يحسبها الإنسان من أعمال الجن وهي تحيط بوادي (رَم). وكانت أعرافها في ذلك اليوم مكلّلة بسحاب ضخّم كأنه يقف أمام عظمتها مبغوتاً متأملاً. وشاهدنا الحملة تسير بهدوء وتبلغ الأكمة جمالاً وعرباً وهنوداً وأحمالاً دون حادث ما. فابتهجنا وانحدرنا في أول واد أخضر تحميه الجبال من هبوب الشّمال وتدفعه حرارة شمس الخريف الصّفراء على تلك المرتفعات العالية.... وأعاد أحد الرّجال التحدث عن الأكل. وعمدت إلى الاستكشاف فأخذت عَوّاداً معي وسرنا شمالاً. وعوّد هذا جَمّال من وادي (رَم) قد استأجرته لا لشيء إلاّ لبنيته المتينة ومنظره الجميل. وكانت الجمال كثيرة لدينا أخصّها الحَمولة. وكان الهنود لا يحسنون شدّ الأحمال على ظهر المطايا وقيادها. فدعاني الأمر إلى أن أتنازل عن حَرسي لمساعدتهم ورفضت ركوبهم حولي. حتى أنّ «شواخ» Showakh قد قدّم لي ابن أخته وهو خيال شراري يريد أن يخدم تحت إمّرتي بأيّ وجه كان وعلى أيّ شرط أعرضه. فقبلته لأوّل وهلة معتمداً على مراقبتي له فأرى مايمكنه أن يقوم به من الأعمال الشّاقة.

ومررنا بـ «أبا اللّسن» لتتأكد من سكّون الثّرك وبطالتهم الشّريفة!. وكان من عادتهم أن ينقضّوا على جهة «بطرة» لأقلّ كشافة راكبة. إلّا أنّي لم أشأ أن أزج حملتنا في أمر لا فائدة منه مستعجلة. وكان عواد رث الثّياب أسمر الجلد عمره ثمانية عشرة سنة، قويّ البنية، له عضلات وأعصاب، مصارع صنديد، خفيف كالهر، ثابت على السّرج، سريع الكرّ والفرّ. وكان عوّد حَيّياً مرتبكاً أمامي. مَرِحاً طروباً بين رفاقه، وكان دخوله

في خدمتي حظاً لم يكن ينتظره وأمرأ كان فوق أخلامه. يقوم على ذل الانتظار وقلق التخمين إلا أن أبدت رأيي في تعيينه، وكان علينا الآن أن نرود الهضاب حول «معان» لنلفت إلينا أنظار الثرك. حتى إذا لحقوا بنا ركوباً على بغالهم انسحبنا من أمامهم شيئاً فشيئاً وانفصلنا عن الحملة وجررناهم إلى جهة بعيدة عنها. فاهتم عواد لهذه الخدعة وأخذ بندقيته التي صار يحسن استعمالها.

وصعدت وعواداً وحدثنا على رأس تل يشرف على «سلي» والأودية الهابطة إلى أن شاهدنا رأس الحملة التي تتسلق مناكب المضيق فأسرعت إلى ملاقاتها وخبرت بأننا فقدنا في الصعود أربعة جمال وأخبرني عليّ بأنه تماسك مع عبد القادر، وأنه يصلي ويدعو الله كي يخلصه من صمم هذا الرجل وكبريائه وأخلاقه الخسنة، وكان على الركب أن يسافر قبل هبوط الليل. وقد سلمته عواداً ليقوده وكان موعدنا تحت خيام عودة. وركبنا في أودية تنفتح على رؤوس التلال. إلى أن غابت الشمس على مكعب «غدير الحاج» الذي كان يترأى لنا بالغاء في الإرتفاع عن الأرض وبعيداً عنا أميالاً.

وكنت مع «وود» نجوس المكان تحت «شدية» تماماً في النقطة التي نعب منها الخط الحديدي. ولما لمعت التجوم في الجبل الأعلى توافقنا على أن نمشي على يد الجوزاء فسرنا وعيوننا شاخصة إلى هذا النجم ساعات. فلم يدن منا بل ازداد بعداً. ولم يدلنا على أن هناك شيئاً ما. وخرجنا من بين الجبال إلى سهل مُمل لا آخر له ممتد من الوادي على خط مستقيم أحسبه على ضوء الكواكب الباهت كالشهاب خطوط السكة الحديدية تلمع وتلألأ. وهي القضبان التي كنا نفتش عنها. وكانت الأرض صلبة تحت أخفاف الإبل والضبا يهب علينا. فجذ الركب في ذلك الليل هادئاً ناعماً، وكنت أمشي مع «وود» في الطليعة دائماً. أفضل الخط الحديدي عن الحامية كي لا تقع في كمين. وأن تندفع إلى معقل من معاقل العدو أو تلتقي بكشافة ليل. وتسير جمالنا البعيدة الخطى سيراً حثيثاً منتظماً وهي خفيفة الحمل إلى أن تخطينا ركب الهنود المثقلة. وفصل «الجما دار حسن شاه» رجلاً ودعاه إلى الأمام كي لا نغيب عنه ولا ينفصل عنا. ولم يلبث أن أرسل وراءه رجلاً آخر ليفتش عنه ثم ثالثاً في إثره بحيث أصبح ركبهُ عقداً

منثوراً. فطلب منا أن نخفف من سيرنا، إلّا أنّ رسوله بعد أن مرّ بثلاث لغات مختلفة وصل إلينا غير مفهوم العبارة أخيراً توقفنا على ضوضاء الخِلاط والأصوات المختلفة ومال العشب اليابس بالمطايا تقضمه وتبلغ به على نسيم الصَّبَا الهارب. ثم مشينا على مهل ساعات طويلة ضاع فيها الزّمن ويظهر أنه قد حَدَعْنَا النّجم وضللنا الطّريق. وكان «لويد» يملك إبرة مغناطيسية، فتوقفنا للتفتيش عنها في خُرْجِه الشّاسع وتقدم «ثورن» ووضع يده فسلّ الإبرة من الخرج! وتجمعنا حولها ننظر إلى زبانتها ترقص رقصها المعلوم وقرّرنا ترك الجوزاء والاهتداء بنجم آخر إلى الشّمال. فتابعنا سيراً مملاً لا آخر له إلى أن جذب «لويد» رسن مطيته بحدة وانقطع نفْسُهُ ومدّ أصبعه على طول ذراعيه في الظّلام. فقد بدا له تحت ستار الحَلَك وعلى طريقنا المستقيم مكعّبان أقْتَمَان بلون السّماء إلى جانبيهما سطح رفيع مخروطي الشّكل. إذن أننا نسير رأساً إلى محطة «شدية». ولقد أصبحنا تحت أقدامها.

فملنا يميناً وجزنا أَرْضاً مكشوفة خطيرة على قافلتنا. ولا بأس من تضليل بعض المتوأمين في المؤخرة إلّا أنّ الأمور سارت على ما نروم، وفي بضع دقائق كنا محجوبين عن الأبصار في منحن نلهث ونتبادل شعورنا بالإنكليزي والثّركي والعربي والهندي. وقد خَفَّ وراءنا نباح الكلاب في معسكر الثّرك. إلّا أنّ قلوبنا كانت لا تزال تختلج.

لقد قدرنا الآن موقفنا وعلينا إذن أن نميل قليلاً عن اتجاها الأول لتجنب معقلاً قائماً جنوب «شدية» فسرت في الطّليعة مع رفيقي وكلّي أمل في اجتياز الخط.. إلّا أن السّاعات لا تزال تتباطأ ولم يَدُقْ جرس النّجاة.

ومشينا ست ساعات وانتصف الليل. و«لويد» لا ينفك عن التذمر بحرارة لأنّه كان يعتقد أنّه سيصل إلى بغداد عند الفجر!!

وقد لمح «ثورن» في الحَلَك على البعد صفّاً من الأشباح السّود فأخذنا بنادقنا استعداداً للمقاومة. فكانت تلك الأشباح أشجاراً! وتغلغل اليأس في جميع الرّكب. فسرنا منهوكي القوى مقوّسي الظّهور على مطاينا التي شاركتنا اليأس والنّصب مهتدلي الجفون من التّعاس. وكان الهنود لا يزالون متأخرين عنا. فسرنا قدر نصف ساعة إلى

أن التقينا بسند السكة الحديد لكنه كان مختلفاً عما كنا نعهده، لقد كان مستقيماً تظهر عليه في الظلّة أجسام سود متباعدة لعلها فتحات المجاري تحت الخط. وانتهى بنا الوادي إلى مرتفع عليه مثل سوار تشق الجو بأطرافها. فتقدمنا فإذا هي أعمدة أسلاك البرق. ففحصنا الموقع بدقة خوفاً من كمين. وقد يمكن أن تنقذ علينا نيران البنادق فيتحول هذا السكون العميق إلى معركة. ثم ترجلنا وسرنا يميناً وشمالاً قدر مئتي متر فلم يكن حارس قط لهذا الخط. فأذنا بالعبور وأمرنا بالإسراع والانتظار لجهة الشرق في مكان أمين من الصحراء. وجلسنا تحت الأسلاك التلغرافية وهي تدندن بطنينها التاعم إلى أن مرَّ آخر جمل من الحامية وتبعناها في الصحراء وبعدنا عن الشبهات ورقدنا حتى الصّباح.

وفي اليوم الثاني التقينا «بعودة» معسكراً سراً حول الآبار لجهة الجنوب الشرقي. في سهل مطروق مخضّل الأديم وقد نبتت عليه الأشواك الجميلة. وكانت النساء والمضارب الكبيرة قد نُقلن خارج خط نار الطائرات التركية. وبعض من بني الطويحة وباقي الرجال لا يزالون يتخاصمون على أجورهم وحصص قبائلهم. فحزن الشيخ لهذه المصادفة وقد فاجأناهم يتنازعون على أمور تافهة.

فعملت كل مافي وسعي لأوفق بينهم وأعدهم بالمستقبل الطيب. ولحسن الحظ قد أصغوا إلى كلامي واقتنعوا. ودليلي على اقتناعهم ابتساماتهم التي هي علامة ربحي لنصف المعركة. ولم أر من الحكمة أن أمّنيهم بأكثر من ذلك. وذهبنا إلى محمّد الضّغلان وتغدينا على خوّانه. فاستقبلنا بلطف وبشاشة. وقد كان من الوجهة السياسية أذكى من عودة. إذ كان يعرف كيف يملك شعوره في داخله.

وكانت عادته في الأكل عادة أهل القرى فأكل كثيراً، وبعد الغداء تمشيّنا على تلك الأرض الرّملة تتخللها بطون واسعة كأن الماموث قد تملّمل عليها وترك وراءه هذه الحفر الواسعة. يتخللها بعض الطّمي من فيضانات سابقة. وقد أومأت إلى زعل من طرف خفي عن مشروع غزوتنا لجسور اليرموك. فاستقبل اقتراحي بقليل من الاهتمام وكان «زَعَل» أكتوبر غير «زَعَل» أغسطس الذي كان في الرّبيع الفائت يركب ليالي

وأياماً لا يعرف نَصَباً ولا يخشى خطراً إلا أن السَّلب الأخير أغناه لمدة سنين عن المجازفة. وعرف قيمة التَّعَمُّع بالحياة والتمسك بالوجود وفي الرَّبيع أيضاً كنت أقذفه إلى المهالك فيركض ولا يلوي على شيء باسمماً هازئاً من كل عقبة تعترضه. أما الآن فقد قال لي: «إن أسير معك على شرط أن أعرف واجبي وأعمل له فقط».

فسألته: من أي الرِّجال يمكنني أن أصوغ عصابتي، فدلني على ثلاثة شبان كانوا أماناً في الدَّوَّار وقال لي: يمكنك أن تعتمد عليهم في أي مجازفة كانت فلا يحجمون عنها. وكان قد تفرَّق باقي رجال القبيلة غير راضين، فرأيت أنه ليس من حسن السَّياسة أن آخذ ثلاثة أنفار من الطَّوايحه. يعتدُّون بأنفسهم أمام رفاقهم الذين يتقدون غيراً وحسداً. وأن عهدهم الضَّئيل لا يكفي للقيام بمشروعنا، وقرَّرت أن آخذ رجالاً من ناحية ثانية. فسُرَّ زعل في داخله لهذا التَّغيير وتعزَّى!

وكان على «لويد» أن يسافر لحضور مؤتمر فرسايل، وهو اتفاق سيئ لم يكن في محلِّه لأنَّه قد أطلع على موقفنا اطلاعاً دقيقاً وكان يمكنه أن يكون لنا عضداً قوياً نظراً لعطفه على قضيتنا. وفوق ذلك كان الرِّجل المثقف الوحيد في الصَّحراء. وكم كُنَّا نغوص في مواضيع لا شأن لها في الحرب. نتذاكر البيان والأدب. وكل موضوع يخطر على البال. وبعد أن سافر عادت الحرب والقبائل والجمال جُلَّ مواضيع أحاديثنا.

وقضينا أول الليل بالأشغال الشَّاقة كوضع حلٍّ لحادثة الحويطات وقد تجمعوا حول نار «عودة» وكان عليَّ أن أتغلغل في تلك العقول الحرونة وقد استعملت جميع الحيل التي علمتها التجارب، وأفرغت كل دهائي على هذا وذاك إلى أن لمحت في عيونهم بريق الرِّضى وأيقنت بأن سهمي قد أصاب الصَّميم. وفي بعض الأحيان كنت أضيِّع وقتاً ثميناً لمثل هذه الأغراض مع البدو ولم أكن أشعر بمثل ما شعرت هذه المرة من الارتياح لفوزي. وأن عقول بني «أبو تايه» كانت صلبة كأجسامهم. وللحقيقة كانت قد انطفأت من صدورهم كل حمية بعد الخدمة الإجبارية الطويلة الممدى في الأشهر السابقة. إلا أنَّي رويداً رويداً حصلت على ماكنت أطلب منهم. وكان قد انتصف الليل والمناقشات لا تزال حامية الوطيس، إلى أن رفع «عودة»

عصاه وطلب السكوت. فتوقفت أنفاسنا في صدورنا وأرهفنا مسامعنا لنسمع من أي جهة كان الخطرُ قادمًا علينا. ولم تمضِ دقيقة حتى سمعنا دمدمة صمّاء وارتجاجاً موقعاً تهتزُّ منه الأرض تحتنا. دون أن نعلم سببهُ، كأنه هدير عاصفةٍ هوجاء لم تصل إلينا. وأدار عودة إلى الغرب أنظاراً تائهة كأنظار الفهد الواجم وصرخ: «هذه مدافع الإنكليز». فقطع الشك باليقين، وانتهى الأمر بانتصاري دون مناقشة، لأنهم علموا بأنّ النبي قد بدأ الزحف إلى الأمام.

* * *

الفصل التاسع عشر

خدمات ومواعظ

وطلع التّهار على المعسكر والقلوب صافية فتقدم مني عودة الشّيخ الذي دلّنا عناده مرة أخرى وعانقني عناقاً حاراً داعياً لنا البركة من الله ورسوله.

وبينما كنت أهم بالركوب على ناقتي واضعاً يدي على عرفها أعاد الكرّة وعانقني وهمس في أذني «أن أحذر عبد القادر»! فشأكت لحيته الكثّة الخشنة صفحة وجهي، ولم يقل أكثر من هذا حذراً من المجتمعين حولنا.

وودعنا وسرنا حتى منتصف التّهار وتوقفنا للأكل والقيولة، وكان علينا أن نطعم الجنود ثلاث مرات في اليوم. ثم فوجئنا برجال راكبين جمالاً وخيلاً قادمين من الشّمال والغرب وهم يقومون بحركة التفاف سريعة حولنا، فأخذنا بنادقتنا. والهنود الذين تعودوا أن يقفوا موقف الدّفاع في أقل من نصف دقيقة كانوا قد ركزوا مدافع «لويس وفيكرز» وفي أقل من ثلاثين ثانية كنا على أهبة إطلاق النّار.

وكان لمجموعنا منظر من أغرب المناظر، فوقفت أنظر إليه بينما عليّ يأمر بأن لا يطلقوا قبل الثّبت من الحملة القادمة علينا. وتقدّم عوّاد يأمر بأن لا يطلقوا قبل الثّبت من الحملة القادمة علينا. وتقدّم عوّاد بابتهاج أمام الرّكب ودخل في الصّحراء ملوّحاً بكمه الطّويل فوق رأسه علامة الصّداقة. فرماه البدو فأخطأوه فانبطح على الأرض وردّ لهم الرّصاص فوق رأس أول فارس. فتحيروا من أمر هذا العيار النّاري المفرد وهذا السّكوت من ناحيتنا. وترددوا في الأمر إلى أن تجمعوا إلى بعضهم ثم رفعوا، ولو بالرّغم منهم. عباءاتهم في الهواء رداً على علامة السّلام.

وتقدم أحدهم راجلاً، وتقدم إليه عواد ممتي متر تحت حماية بنادقنا فعرفه وهو من بني صخر. ولما تعارفنا تظاهر بالدهشة. وقال: إن عصابتهم تقوم بغزوة ورجالها من زبن صخر يعسكرون أمام «باير».

فعجب عليّ لهذه الهجمة الخائنة وتوعدهم بالقصاص الشديد، فتحملوا التأييب بمظاهر الندم مدعين بأن من عادات بني صخر أن يطلقوا النار على الغرباء. فأقرّ على هذه العادة في الصحراء إلا أن التفافهم من ثلاث جهات إنما هو كمين مدبّر. فبنو صخر هم قبيلة خطيرة لأنهم لم يكونوا بدواً صرفاً كي يحفظوا شرف القوانين ويعملون بها في الصحراء، ومن جهة أخرى لم يكونوا حَضريين إلى حد أن يهجروا الغزو والنهب.

وسافرت العصابة إلى «باير» لتعلن وصولنا، وقدّر مفلح رئيس القبيلة أن من حسن السياسة وأصالة الرأي أن يعمل على نسيان هذا الحادث، فأقام لنا حفلة اجتمع فيها جميع الرجال والخيول يلعبون ألعاب الفروسية ويتقدمون إلينا وثباً وخيباً ويطلقون النار في الفضاء بين أصوات تصم الأذان. وكان الفرسان يدورون حولنا إلى ما لا حدّ له ويتلاحقون ويتلاحمون بجسارة غريبة ثم يتغلغلون بيننا دون أن يحفظوا حرمة مقامنا، ويطلقون بنادقهم بوقاحة تحت أنوف نياقنا، فارتفع الغبار الجيري الناعم وانعقد في الجو وجفّت له حلوقنا وعميت أبصارنا. وانتهت هذه الظاهرة بسلام. واقتنع عبد القادر بأن هؤلاء المجانين على حق في اعتقادهم وأنهم لا بأس بإخلاصهم واعتقد بأنه يظهر فروسيته أمامهم. وأخذ البدو ينادون «فلينصر الله رئيسنا الشريف علي بن الحسين» والذين من حولي القابضون على أعنة خيولهم ينادون «أهلاً ومرحباً بأورنس مدبّر الحملة». ونهض عبد القادر وتمايل على سرجه المراكشي العالي وتبعه خدمه المراكشيون وابتدأ يمرح ببلادة ويصرخ «هوب! هوب!» من حنجرة بخاء ويطلق مسدسه في الفضاء من غير ما حذق ولا لباقة.

فتملأ البدو من هذه الجولة المضحكة وتثاءب الرؤساء. وتقدم مفلح متملقاً وقال لي: «أرجو أيها السيد أن توقف خادمك هذا، لأنه لا يحسن الركوب ولا إطلاق النار. وأخشى - إذا أصاب أحداً - سوء المغبة».

ونزل الرّكب بجانب الخرائب وأمامه خيام بني صخر السّود كأنها قطع من الماعز المنتشر في الوادي. وتقدم الرّسول يدعونا إلى خيمة مفلح. وكان رجالي يتهايمسون ويوشوشون بأنهم رأوا الأغنام تذبج وراء الخيام فوق المدافن.

لقد كانت ولائم الحويطات تُسقى من فائض السّمن، إلا أن السّمن في بني صخر كان فيّاضاً فعلق رشاشها بشبابنا وسال فيضها من أفواهنا وأطراف أصابعنا وأصابتنا التخمّة والتقرز من أول وليمة. وخفتت صولتنا للأكل وثقلت يدنا على السّماط. وكنا في بدء الأكل وإذا بعبد القادر قد نهض من بيننا متذمراً وجلس بعيداً وحده على السّجادة يمسح يديه بمنديله، وكنا نتردد في الأمر وهل نقوم تاركين القوم وحدهم وسط المعمعة. إلّا أنّ عليّاً نظر إليه خلسة وسمعته يقول: «ياله من فلاح»، وتابنا الفتك بالطّعام بهمة ونشاط إلى أن انتهى الأكثر قناعة منا لينزع ما علق من الدّهن المتجمد على أصابعه المكتوية بحرارة الأكل الحار.

ونهض عليّ والجميع وأخذوا أمكتهم على السّجادة، ثم تقدم الفوج الثّاني ثم الثّالث يلتهمون ما زيد على السّماط. وتقدّم بين القوم ولدٌ بطين عمره ست سنوات، لا بساً ثوباً كدراً وأخذ يزدرد الطّعام بكلتا يديه وهو صامت ولما انتفخ بطنه وسال السّمن على وجهه تراجع دون أن ينبس بكلمة ضاماً على صدره بفوز عظيم قطعة من الضّلع كانت قد خفيت على الأكليين.

وكانت الكلاب على أبواب الخيام تقرض الغضارييف وتطحن العظام ومفلح يفلق الجمجمة ليصطلب المخ. وعبد القادر منزو وحده يسعل ويبصق ويسوك أسنانه بأظفره. ثم يطلب صيدليته النّاقلة ويأخذ من عقاقيره ما يهضم اللحم الخشن العسر الهضم متذمراً معتقداً بأن هذا التّوع من الحركات يحيطه بهالة من العظمة، ولعلها كذلك لدى رجاله المراكشين أما لدى «الزّبن» مجاوري الصّحراء فإنها لحماقة وكبرياء، وكان عبد القادر المسكين يدني نفسه بنفسه ويقيد ثمن المهانة على حسابه.

وخرج ولزنا أمكتنا على مدخل الخيمة ننظر عند هبوط الظّلام إلى النّيران العديدة المنتشرة ألوفاً في تلك الوادي. إلى أن خمدت حياءً من أضواء النّجوم الثّاقبة في القبة

الزّرقاء، وساد الصّحراء حَلَكٌ شديد، وسكوت لا يقطعه غير هريّر كلاب القبيلة آنّا بعد آن، ولما نامت الطّبيعة وهدأ الكون سمعنا ثانية هدير المدافع البريطانية الضّخمة. وأيقنا بأن هذا هو أول الهجوم على فلسطين.

فاخترنا هذه السّاحة لنعلن لـ «مُفلح» رغبتنا بغزوة قريبة على «درعا» وإنا نكون مسرورين إذا اشترك معنا وبضعة عشر من رجاله الهجّانة. وبعد صدمتنا عند الحويطات لم نعد نعيّن خطط سيرنا خوفاً من أن ينفثوا الفساد في أتباعنا. إلا أن مفلحاً رضي مسروراً ومن غير تردد بأن يكون معنا ووعد بأن يأخذ ابنه الوحيد «تركي» وخمسة عشر من رجاله الأقوياء راكبي النّياق.

وسار الرّكب تحت الحلك، تاركاً باير مزوداً بالماء. إلا أنا انتظرنا كثيراً أبناء زَبَن الذين زاروا قبر «أسد» جدّ القبيلة المزعوم. ذلك القبر المجاور لقبر عناد، والذي لا يزال مزداناً مجدّداً! واعتقد الشّيخ بأنه من المناسب أن يضيف ربقةً إلى الرّبقيّ المعلقة المهلهلة على حَجَر الشّاهد فوق قبر أسد. وطلب إلينا أن نقدّم هذا القُربان. فقدمتُ له قطعتين من الحرير الأحمر المُعلّم بالفضة من زينة لباس رأسي الثّمينة التي أرسلت إلي من مكة. وأفهمته بأن أجر التّقدمة والثّواب يعود إلى صاحبهما. فطلب مني مفلح الحريص أن أتقبل درهماً ثمن القطعتين كي يُرضي ضميره ويستحقّ الفخر بأنه اشتراهما بماله. ولما عدت بعد بضعة أسابيع رأيت أن القطعتين قد سُرقتا. فلم يتمالك مفلح من لعن بعض بني شرارة الذين لا دين لهم لانتهاك حرمة جدّته الأكبر! وكان «تركي» أكثر من أبيه لعناً وشتيمة ووعيداً.

وخرجنا من وادي باير بطريق قديم وعر، إلى أن بلغنا جبلاً التقينا في سفحه بباقي الحملة فنزلنا وقضينا الليل ولكن من غير مداولة ولا قهوة. وتضامّت أكواعنا إلى بعضها حول النّار وصمتت أفواهنا وأرهفت آذاننا لسماع هدير مدافع آلنبي. ولقد كانت تلك القطع النّارية تنطق بفصاحة والبروق الصّيفية التي تُقدّ السّحاب قدّاً من جهة الغرب تقوم مقام اللّهب المندلّع من فوهاتنا.

وفي اليوم الثّاني مررنا بشمال «الثلاث أخوات» التي كانت أعرافها البيض فوق

سفوحها شارات للمسافرين مسافة يوم كامل. وما وراء ذلك هبطنا منحدرًا خفيفًا
ثُرت عليه الحصى الملس.

وكان ذلك الصّباح النّاعم في نوفمبر يحمل إلينا ذكريات صيف إنكلترا العُذب.
لكنّه كان علينا أن نهرب من هذه السّعادة السّريعة الزّوال. وندفع نفوسنا عنها. فقصّرت
أويقات التوقف وألهبّت المسافات والمراحل في قبيلة بني صخر، وعودت أذني على
سماع لهجتهم ووعيتها كما وعيت خصائص كل قبيلة وكل أسرة وكل شخص.
واكتسبناها بمعاشرتي لمختلف النّاس. وانسدل ستر الليل فترجلنا وهبطنا مجرى وادي
«جشا» Jesha إلى جانب العليق الأخضر الرّمادي الذي حظي بعيون وأضراس إبلنا،
والذي أوقدنا من أغصانه ناراً فأدفأنا. وسمعنا في ذلك الليل أصوات مدافع ألّبي
تقصّف قصفاً وتتجاوب على تلك المرتفعات كصوت القدر، فتهامس العرب: «إنّ
الإنكليز يتقدمون... لقد دنوا.. ربنا يسلم من هذا المطر الحامي». ولقد أخذتهم الرّافة
اليوم، لأولئك الأتراك الضّعفاء جلاّديهم بالأمس. وآثروهم الآن على الأجنبي الذي
يحكم العدل الأعمى الذي لا مرد لقضائه ولا محاشاة.

وصحونا باكراً وحشنا مطايانا لنبلغ «عمّاري» البعيدة قبل غروب الشّمس وأبصرنا
عند الظّهيرة قطعاً من الجمال يجري سراعاً على رأس الجبل ويتقدم إلينا علانية.
فركض «تركي» الشّاب على ظهر ناقته العجز وغدّارته المحشوة مسندة على فخذه
ونقّذ لم يستطع نوايا هؤلاء المجهولين وصرّح مفلح وهم على بعد ميل منا: ها.. هذا
فهد على ظهر الشّقراء يسير في الطّليعة. وهؤلاء هم حلفاؤنا ولم يكذّبه حدّته، فقد كان
فهد وأذهب من رؤساء الحرب من بني «زبن» معسكرين غرب السّكة الحديد قرب
«زيزا» لمّا علما بوصولنا، فركبا وجدا السّير إلى أن بلغانا ونحن في منتصف المرحلة.
وعاتبني فهد بظرف ولباقة لدخولي منطقة نفوذهم عرضاً بينما أولاد أبيه ينعمون في
خيامهم.

كان فهد رجلاً صغيراً ذا سوداء وصوت ناعم. وكلام قليل ربما كان عمره ثلاثين
سنة. إلّا أنّ في وجهه الشّاحب وفوق لحيته السوداء المشدّبة عينيّن حزينتين مفجوعتين.

أما أخوه «أدهب» فكان أشد منه جسماً وإن يكن ذا قامة متوسطة. ومضطرباً نافرأً ذا أنف أفطس، أجرد العارضين، أخضر زيتوني العينين بحدقتين غريبتين ترقصان على كل شيء دون انقطاع، وشعر رأسه أشعث رقيق. وثوبه وسخ يدل على طبيعة أخلاقه. وكان هو وأخوه يركبان ناقتين كئيتي الصوف ريبتي دارهما لا تدلان على أن صاحبيهما من المشايخ المشهورين. وعلى كل حال كانه الإثنان بطلي حرب وطعان.

ولما وصلنا إلى «عمارة» طلعت علينا عاصفة ليل باردة أثارت غيوماً في الفضاء مربدة مألحة فوق الآبار، وكان شذر الملح يصير تحت أسناننا صريراً سيئاً. والماء يأسن في الأضحال أشبه شيء بمياه السرّحان. تعافى نفوسنا العطشى، إلا أن بين هذه الأضحال رقارق مشهورة بجودتها - نسيّاً بالطبع - في منخفض جيري محاط بالكثبان. وكان مالحاً جاسئاً له طعم التشادر يروي هضبات تلك الصخور التي يخرج من شقوقها. ولكي يرينا داود عمق هذا الضحل قذف فرّاجاً فيه وهو مرتدّ ثيابه، فاختمى فرّاج في هذا الماء الممتن ثم ظهر خجلاً وخرج وتوارى وراء نتوء الصخور التي تحيط بالمكان. فلم نتميّزه عند دغشة الليل وخاف صديقه داود عليه فشقق ومزّق عباءته ونزل وراءه للتفتيش عنه، ولما خرج من الماء رآه يهزأ منه في مخبأه. وتماسكا في تلايبب بعضهما البعض وكانت مصارعة طريفة حول الماء تحملاً فيها اللكمات القاسية بشجاعة. ولما انتهيا تقدّما من نارنا وهما يقطران ماءً وثيابهما ممزقة وجلداهما مخدشان يسيلان دماً وجسماهما ملوثان بالطين ممزقان من الشوك، حتى ليحسبهما المرء عفريتتين قد صارعا زوابع البحر أو عواصف الصحراء. مع ما يرى في جسميهما من التحول والهزال. وهما يدعيان بأن أقدامهما قد عثرت في الأشواك وإن كرمي المعتاد لا يلبث أن يأمر لهما بثياب جديدة، إلا أنني كذبت فألهما وأمرتهما بأن يذهبا ويرقعا ثيابهما بأيديهما.

وسكن الهواء عند الفجر فتقدمنا إلى «الأزرق» وهو في منتصف مرحلتنا وما كدنا نخرج من الزوبعة حتى توقفنا ثانية - وقد رأينا رجالاً يختبئون خلف العليق - لما نعلم بأن هذه المنطقة مشهورة بالعصابات التي دأبها السطو والسلب، وتجمعنا في المكان

الموافق للدِّفاع، ونزل الهنود على مرتفع بعد أن أناخوا الجمال في مكان لا يراهم فيه العدو وسلّطوا المدفعية واستعدوا لإطلاق النَّار. ونشر عليّ وعبد القادر علَمَيهما الأحمرين القُرْمَزيّين في مهب الصّبا ووقفَ عوّاد وأحمد عن يمين الرّجال وعن شمالهم وأمرّا بإطلاق النَّار. وكنا على مسافة بعيدة من العصابة. ثم توقف القتال فجأة ورأينا العصابة تلوّح بأردانها وعباءتها وتتقدم إلينا منشدة أناشيد الترحيب الحماسية. لقد كانوا محاربين من قبيلة السّرحان جاءوا إلينا ليقدموا عهد الوفاء لفیصل، فكفيناهم مؤونة السّفر الطّويل إليه، وللحقيقة لم يكن بنو السّرحان قوم بدو ولا رجال حرب. وأدخلونا إلى دوّارهم في «عين البيضاء» باحتفال عظيم. وهي على مسافة أميال قليلة من الأزرق. واجتمعت القبيلة كلها للقائنا فكانت هزة في المضارب ومناحة بين النّساء لما علمنَ برحيل أزواجهن معنا إلى الحرب.

وفرّقنا الرّؤساء على الخيام التي تطلب أن نضيفها. وكان نصيبنا - عليّ وعبد القادر ووُدّ وأنا. والشّیخ «مطیر» رئیس القبيلة وهو عجوز أثرم ظریف، له فك سفلى دائم الاهتزاز يسنده بكفه ليتمكن من الكلام. فرحّب بنا كثيراً بعبارات التّفخيم ودعانا إلى وليمة من الغنم المسلوقة وخبز المَلّة. فتردد عبد القادر «ووُدّ» أمام كومة اللحم الرّديئة. ويظهر أن بني السّرحان لا يزالون على الفطرة فيما يختص بتحضير السّماط. وكان القوم يتفلون ويصقون في قلب الخيمة فيتلوّث الطّعام مما لم يكن لائقاً بخيمة شيخ القبيلة. وبعد التردد الطّويل أرغمنا اللياقة أن ندعن لكرم الشّیخ مطیر ونأكل على خوانه وننام على سجّادته!

إلا أنّ اللیل كان شديداً علينا وقد استقبلتنا جميع الحشرات من قمل وبر اغيث... الخ. وهي منذ الأزل تأكل طعام السّرحان الجافي. فطربْتُ للقاء جلودنا النّاعمة وأمعنت في التزاحم والتّهش على هذا السّماط الشّهي! إلا أنّني لم أشأ أن أكون كريماً إلى حد أن أقدم دمي طعاماً لهذه الضّيوف الثّقيلة. وكان عليّ من رأيي فتمثل بي ونهض بحجة أن الأرق لا يدعه ينام وأيقظنا الشّیخ مطیر. وأرسلنا بطلب مفلح، وهو شاب نشط تعود أن ينظم خطط القتال في القبيلة. وأفهمناهم مشيئة فیصل، والطّرق المؤدية

إلى حرية العرب واستقلالهم. فأصغوا إلينا بكل اهتمام. ثم أجابونا وأكدوا لنا بأنه من المستحيل أن نفكر في اقتحام الجبهة الغربية لأن الأتراك قد ملأوا السهل والجبل بالجنود. فلا سبيل لأي عدد أن يتسلل إلى هذه المواقع المكشوفة، ثم أنهم كانوا يخشون المراكشين وعبد القادر نفسه فلا يسرون تحت قيادة هذا الغريب المشكوك في إخلاصه. أما جسر «تل شهاب» أقرب الجسور إلينا فقد ادعوا بأنهم لا يتمكنون من الدنو منه خوفاً من القرويين الصّاريين حوله وهم أعداؤهم الألداء فيقطعونهم في ظهورهم وقت العمل. وفوق ذلك إذا اتفق وسقط المطر لا تتمكن الجمال من العودة سراعاً في سهول «الرّمثا» الموحلة فتتقطع أوصال الحملة ويذبح الرّجال دون أن يتمكنوا من الدّفاع.

فوقعنا في حيرة لا مزيد عليهم. ولم يبق لنا وسيلة غير السّراحين، فإذا رفض هؤلاء السّير معنا خاب أملنا وأضعنا ثقة ألّنبى بنا. ودعا عليّ حول نارنا بعض الرّجال الممتازين في القبيلة وأرسل في طلب فهد ومفلح وأذهب لعل وجود هؤلاء الأقوياء يشدد عزيمة القوم. وأخذنا نخفف أمامهم بأقوال مناسبة من حذر لجال السّرحان المرذول. ذلك الخوف المخجل الذي دعاني للخروج بعد طول الإقامة المملة إلى محيط الصّحراء النّقي.

وتحوّلنا عن الطّريقة المجرّدة، وكلمناهم بشكل عملي يوافق حالتهم الاستثنائية وموقفهم الحاضر. قلنا لهم: يالها من حياة لا تهم إلا لإشباع حواسها وشهواتها. وكم هي ضئيلة وبخسة قيمتها إذ تستمر على هذا التّمط إلى الأحداق أقصى وتغنى خاملة. وإن الثّورة لا تعرف مكاناً للرّاحة، ولا زمناً للهناء، وقد كتب للعصيان في لوح المقدور روح التجول، والانتشار الدائم، وحتى أن يقاسى المرء العذاب إلى أقصى حدوده، وأن يعتبر كل نجاح بداية لطريق مشاق أخرى مبذورة حرماناً أشد، وعذاباً أحد.

والذي ينخرط في الصّحراء يحكم على نفسه - مختاراً - بالقتال المستمر الدائم ضد عدو ليس من هذا العالم، وليس هو الحياة. إنما هي قوى الأمل ذاته التي تسيطر علينا. وإنّ الله لا يعطي للمرء غير حرية واحدة، هي حرية السّقوط.

وأي شرف للمرء أن يركض وراء الفوز المضمون بينما يمكنه أن يستخرج حكمة بالغة من انخذه المؤكد! الجبروت والالانهاية هما ذانك العدوان اللذان كانا علينا أن نحاربهما، الجبروت والالانهاية أعني بهما تفوق سلاح العدو ومسافات الصّحراء، ثم كررت وقلت: إن مجد هذا العصيان لا يقوم إلا على مرارة العيش، وعذاب الجسد، والتضحية، والخذلان في الجهاد أمجد من الفوز، والأفضل أن نتحدى الجد العاثر باتخاذنا الطريق الذي يؤدي حتماً إلى الموت مبددين كل وسائل الحياة المادية حتى ليخجل القدر أمام انتصاره الضئيل. ورغماً من أننا نحارب الجبروت، فليس من الشّهامه أن نلقى سلاحنا الضئيل نحن البدو المساكين، ونتحداه بأيّد عاطلة من السلاح. فإننا قد صممنا على أن نكون مغلوبين لا بقوة الفن الحربي فحسب بل بالتفوق المادي للوسائل الحربية... فكان هذا الخطاب الذي أكثره غير مناسب للموقف والذي ارتجلته أعرج مهشماً، آخر سهم في كنانتنا، ومحاولة يأس لاحتياجنا إلى طرق تخيلات أولئك العرب الخشنة والمتجمعين على ضوء آخر بصيص حول نارنا الآخذة بالخمود. ولم أدرك معنى كلماته إلا بعد مرور شيء من الزمن ولم أحفظ شيئاً من تأثيراته. فخجل السّراحين واستصغروا نفوسهم شيئاً فشيئاً. وسكن الليل واضمحَل كل ما هو عملي وضعي في الصّحراء وهو من الطّبع البدوي. وحلت الأحلام اللذيذة والخيالات السّاحرة محل الحقائق، وتحمس القوم وقرّروا السّفر معنا إلى أية ناحية من نواحي الأرض.

ودعونا عبد القادر عند الفجر وأبعدناه وراء كُتبان الرّمال وصرخنا في أذنه الصّماء بأن السّراحين يسافرون معنا تحت رعايته إلى وادي خالد بعد شروق الشّمس. فأومأ بالاستحسان، إلا أننا قرّرنا فيما بيننا بصوت خافت، أنه إذا أحوجتنا الفرصة مرة أخرى وكنا أحياء، فلا نسلم قط قيادة مؤامرة إلى أذن صّماء.



From a drawing by Cosmo Clark

فصيل مدفعية ستوكس في العقبة
عن رسم بريشة كوزمو كلارك

الفصل العشرون

الاندفاع نحو الجسر

وأخذنا شيئاً من الراحة وكان التعب قد أنهكنا إلا أننا سنكون حالاً على أقدامنا نستعرض فرق السرحان (تلك القبيلة التي إذا أطلقتها إلى الأمام وسارت بسرعة يظهر لديك مشهد من مشاهد العالم الأولى). ومع ذلك قد حكمنا بأنهم من الطراز الوسط بين الفرسان، لأنهم قد أغرقوا بالألعاب والمباهاة لنتق بتفوقهم. إلا أنه على كل حال لم يكن لنا الخيار. بل يجب أن نستخدمهم كما هم. إذاً فلنسافر بعد الظهر إلى الأزرق. وركب عبد القادر وخدمه خيولهم ليدلوا على أننا اقتربنا من جبهة القتال! وساروا وراءنا..

وسار عليّ إلى الأزرق لأول مرة، وقد شعرنا نحن الإثنين بهزة طرب وتسايقنا لبلوغ قمة الجبل. ولما أخذنا نتسلق ذلك السفح الصخري مرت على السنتنا ذكريات الماضي الغارق في القدم. من حروب وأناشيد، وشهوات ملوك الرعاة الذين أحيوا هذه الأماكن. إن أسماءهم كانت مشجبة كنغمات الموسيقى. لقد مرت في الخيال ذكريات الجيوش الرومانية الذين رقدوا هنا في هذه المخافر من الصحراء. ثم ظهر أمامنا الحصن المرتفع فوق الصخور المشرف بأسواره الزرق القديمة الباهتة على خضرة التّخيل المترنح في نسيمات الصّبا. فتوقفنا قليلاً على الحشيش اليناع حيث يلعب بينه غدير ماء في مجاريه الضيقة.

وأرعى عليّ العنان لمطيته فأخذت سيرها المعتاد تخطو بحذر على الأعشاب الكثة التي تمتد إلى الينابيع وتنتهي إلى منحن ضخم من الحمم، وتفتحت أجفاننا

المجعدة على وهج الشمس وخفت آلام الأسفار وقطع المسافات الشاسعة في الصحراء العارية وصرخ عليّ: «حشيش!» وارتمى عن سرجه وأخذ يتململ على ذلك البساط الأخضر المحبوب في تلك البيداء الجافة. ولما عدنا إلى العمل الجدي لم يكن عبد القادر حاضراً. وعبثاً حاولنا التفتيش عنه في خرائب القصر وبين التّخيل، وأبعد من ذلك من وراء الينابيع، وأرسلنا خيالتنا للحاق به، فأحضرنا بين أيدينا رجالاً من العرب فأخبرونا بأنه من زمن يسير قد مرّ عبد القادر لجهة الشمال منخرطاً بين الكُثبان قاصداً جبل الدّروز. ولم يكن يعرف رجالنا شيئاً من خططنا إلا أنهم كانوا يكرهون عبد القادر ويتمنون ألا يعود أبداً. أما في نظرنا فقد كان انفلاته من أيدينا أمراً خطيراً. ومن مرّامينا الثلاثة كان جسر ألأم قيس وقد أخطأناه إذ لم يبق لنا رجاء في وادي خالد بعد انشقاق عبد القادر عنا. ولم يبق إلا أن نوحّد قواتنا وجهودنا على جسر شهاب. ولكن دون الوصول إليه سهل مكشوف بين «الرّمثا» و«درعا». ولقد بلغ عبد القادر العدوّ دون أقل شك وأبلغه حركاتنا وقواتنا وجميع خططنا. وليس على التّرك إلا أن يقوموا بمجهود ضئيل وحركة خفيفة حتى يباغتونا على الجسر. فعدّنا اجتماعاً وتداولنا مع فهد وقرّرنا أن نتغافل مرة أخرى قوة العدو ونتقدم، إلا أنّه لم يكن حلاً حكيماً، وبينما كنا نتناقش مرّت غيمة حجبت نور الشّمس وتشاء منا بكمدة الأزرق واربداه، وفي اليوم الثاني سرنا أميلاً على الأرض ثابتة مغطاة بالربيع الطّيب اليناع فنعمت بهائنا إلى أن بلغنا «أبو صوّانة» حيث هناك حوض طبيعي عرضه عشر أقدام وعمقه قدما يمتد إلى ميل ونصف طويلاً. وهو قلد شاسع بين الصّخور ذو ماء غزير عذب فرات أصفى من البلور. فتقرّر أن يكون «أبو صوّانة» موردنا الوحيد في غزوتنا للجسر، وصعدنا على صخرة لتتحقق من خلوّ البلاد من الأعداء، ومنذ خمس دقائق مرّت قبلنا مفرزة چركسية أرسلها التّرك لاستكشاف العدو حول حوض الماء فعادوا من حيث أتوا وجئنا إلى حيث كانوا ولم يكدر صفو الواحد الآخر! وعند الفجر تقدمنا بأمان إلى أن بلغنا مرتفعاً يعلو ثلاث أقدام فقط يحدّ سهلاً عارياً ممتدّاً إلى خط سكة الحديد، على بعد بضعة أميال، فانتظرنا العسّق بحذر لنعبر هذا الخط ونبتعد عنه ونحتمي في سفح الجبال تحت «درعا». فاغتنمنا فرصة التوقف وأخذنا شيئاً من الأكل

المغذى الخفيف لأننا في الأيام الأخيرة كنا نأكل بنهم ونفرط في مؤونتنا بشره كلما سنحت الفرصة. مما خفف أثقال جمالنا وألھانا عن التفكير. إلا أنه رغماً من ملذاتنا كانت الأيام علينا طويلة مملة... وغربت الشمس وارتعش السهل تحت أذيال الصبا. وانتشر الظلام الحالک المتکوم فوق الآكام وهبط رويداً رويداً وغمرها بظلاله الأثیة، فاعتلینا سرورجنا ومشینا مسافة ساعتین على أرض خصباء حتى بلغنا الخط الحديدي وجزنا أرضاً وعرة يشقها طريق لا یترو أثرأ لأخفاف إبلنا، وكان الحرس التركي ناعم البال غافلاً مما يدل على أن عبد القادر لم يبلغ العدو إلى الآن أخباراً مقلقة لراحته.

وحاذینا الخط من الجهة المقابلة مدة نصف ساعة كي نبلغ وهدة صخرية قليلة العمق مغطاة بالحشيش الرخص اللذیذ الطعم فكان هذا غدير «الأبيض» الذي أ فهمنا مفلح عنه أنه خير كمين. ووثقنا بكلامه إلا أننا لم نفهم كيف يمكننا أن نكون هنا في مأمن من كل مفاجأة. وتمددنا بين جمالنا البارة التي لا تزال حمولتها على ظهورها لتأخذ ساعة من راحة، لأن بزوغ الصباح سیرینا إلى أي حد نكون آمین في هذا المنخفض.

وأصعدني فهد عند طلوع النهار على مرتفع قريب يعلو خمس عشرة قدماً، يشرف على منحدر بسيط من الحقول، وأراني الخط الحديدي كأنه تحت أقدامنا. وهذا الذنؤ لم يكن موافقاً لخطتنا لكن الصحراوي لم يكن يعرف مكان الملجأ الأمين فأرغمنا على أن نقضي النهار في حذر شديد.

وكان رجالنا لكل إشارة، أو حكاية يتسلقون التلال فتظهر رؤوسهم كالأفاريز المتراصة. وكان علينا أن نقيم حراساً كثيرين على الجمال الرائعة في الربيع كي لا تبدد في الصحراء، أو ترى بنظارات الأعداء، وأن نعاملها بكل تودة كلما مرت بنا كشافه. فكل هدير كان يمكنه أن ينبه العدو. وكان الأمس شديداً طویل الأمد إلا أن هذا النهار كان عصيباً ضاقت فيه ساحة الأمل وفني الصبر. فلم نتمكن من الأكل توفيراً للماء خوفاً من ضياعه لرحلتنا في اليوم الثاني. وكل منا يزداد تلهفاً للماء.

وتكاتف مع علي لإقرار نظام سفرنا القريب، ولقد تسمّرنا في ذلك المكان إلى

غياب الشَّمس، وكان علينا بأن نسير ثمانين ميلاً في ثلاث عشرة ساعة تحت ستار الظّلام وأن نخزّب عملاً فنياً قوياً. والقيام بمثل هذا العمل يفوق مقدرة كثير من الهنود لأنهم لا يحسنون الرّكوب فأتعبوا مطاياهم وأنهكوها في سيرنا من العقبة بعكس العربي اللبق فإنه يحفظ ناقته بحالة جيدة رغماً من السّفر الطّويل. ومع ذلك كان الهنود يجتهدون قدر استطاعتهم. إلّا أنّ المسافة التي قطعوها وإن تكن مراحل هيّنة، فقد كانوا يحاولون تعلم الرّكوب على النّوق فتعبوا وأتعبوا مطاياهم.

ولذلك فقد انتقينا من بينهم ستة من أشدّ الفرسان، وستة من أشدّ الجمال، وقاد حسن صالح المفرزة الهندية، وهو شجاع مقدام فألقى كثيراً من أحمالهم وخفض من أسلحتهم، ولم يصحب معه غير مدفع «ووكر» واحد رغماً من أنه أضعف بهذا التخفيض وسائل دفاعنا. وبقدر تأملي كان استنتاجي بأن أعمالنا على اليرموك تتقدم من سيئ إلى أسوأ، فقد كان بنو صخر صالحين للقتال إلّا أننا لم نكن نثق ببني السّرحان، فقرّرت مع عليّ أن نؤلف فرقة هجوم من بني صخر تحت قيادة «فهد» وندع بعض السّراحين يحرسون الجمال والبعض الآخر ينقلون الدّيناميت، وآلات الانفجار.

وأخذ عليّ بن الحسين ستة من خدمنا، وتممنا فرقنا بعشرين رجلاً من بني صخر، وأربعين من بني السّرحان، وتركنا الحيوانات العرج العجاف في الأبيض بحراسة باقي الرّجال، وعليهم أن يسيروا عند الصّباح ليعودوا إلى «أبو صوّانة» ينتظرون أخبارنا هناك.

وافترقتا عند غروب الشَّمس، وصعدنا على تل يشرف على الوادي ولكن لم يكن لنا جلدٌ، على السّير، وكلنا نادمٌ أسف لهذه الرّحلة، وهبط الليل عند ولوجنا في أول جبل، ونحن متجهون نحو الغرب نأخذ طريق الحجاج القديم مسترشدين بآثار الدّواليب في ذلك الحلك. وهبطنا أول مصبّ ونحن نتعرّ إلى أن تقدم الرّجال الخبراء واندفعوا أمامنا فركضنا وراءهم حتى لحقنا بهم، وقد أحاطوا ببائع و امرأتين وحمارين محملين عنباً ودقيقاً ومقاطف ففرعوا لمفاجأتنا لهم، وقالوا إنّ وجهتهم «مفرقة» وهي آخر محطة من ورائنا فلم يكن موقفنا يحسد عليه، لكننا أمرناهم أن

يلزموا مكانهم تحت إمرة أحد رجالنا السّراحين، الذين حتمنا عليه ألا يطلق سراحهم إلا في الصّباح. ويهرب إلى «أبو صوّانة»، وتقدمنا والظّلام دامس إلى أن ابتدأت آثار الدّواليب تظهر لامعة على الطّريق. ذلك الذي قطعه العرب معي قرب «رايخ» أول ليلة نمتها في صحراء العرب ومنذ ذلك الوقت وفي مدة سنة كاملة قد حاربنا مرات عديدة في أماكن مختلفة من الألف والمئتي كيلو متر التي تمتد من المدينة إلى معان.

واتفق أن أحد الرّعاة أطلق بندقيته علينا بينما كنا سائرين في قلب الليل ساكنين حذرين فأفسد علينا خطتنا. فلم يُصب منا أحد إلا أنّه لشدة فزعه فرّ هارباً صائحاً، وهو يطلق النّار فوق رؤوسنا.

وكان «مفلح الجمعان» الذي يقود الحَمَلة قد أمال المِفْؤد ومال عن الطّريق الذي نسير عليه، وقادنا بسرعة جنونية على سفح الجبل كي نلج بأقرب ما يمكن من الوقت وراء حاجز ندفع به عدواناً، وتابعنا المرحلة دون أن نصطدم بشيء تُضيء طريقنا التّجوم الزّواهر، ثم صادفنا كلباً ملأ نباحه الوادي، وجمالاً هائجاً تائهاً فقد راكمه، إلا أنّ نظام سيرنا لم يختل.

ودعاني مفلح إليه باسم «العربي» كي لا يخونني إسمي المشهور في تلك الأصقاع ويتعرف عليه أحد ممن قد يكونون مستترين في الظّلام. وهبطنا إلى منحدر مظلم فاستروحنا رماداً، وإذا بامرأة تخرج من مخبأها بين الأشواك وتركض صائحة. ولا شكّ بأنها عَجْرِيّة (نوريّة) لأنّ الحادث مرّ دون أن يترك أثراً. ثم صعدنا جبلاً رأينا من فوقه على البعد قرية منوّرة، فمال مفلح إلى اليمين على أرض مفلوحة وتخطينا تلاًّ بهدوء وكانت سروجنا تتقطع من شدّة الإجهاد، توقفنا على عرف القمّة، وكانت أنوار تشعّ تحتنا لجهة الشّمال، فهذه هي محطة درعا التي يشتغلون فيها ليلاً لخدمة الجيش ذلك المستودع الوديع الهادئ المطمئن الذي يبدي علانية احتقار التّرك لمشروعاتنا والاستخفاف بمقدرتنا إلا أنّنا قد أخذنا بثأرنا. فلن ترى إذن «درعا» منذ الغد تلك الأنوار المتلاثلة في الظّلام، ومنذ الغد ستكون «درعا» في ظلام دامس سنة كاملة إلى أن يحل عليها القضاء المبرم وتسقط في أيدينا. وحاذينا عرف التلة متلاصقين، وبعد

أن تدرجنا على منحدر وإدِ بلغنا سهل «الرّمّثا» وكنا نرى أنواراً حُمْراً في القرية من وقت إلى آخر لجهة الشّمال الغربي، وانبسّطت الأرض المفلوحة تتخللها جحور الأرناب الكثيرة فتُهوي أخفاف الإبل فيها، ويخشى عليها من الكسر، ورغماً من ذلك كان يجب علينا أن نسرع الخطى لأننا لهونا في طريقنا، وقرّر مفلح أن يخبّ بهجينه الذي أضرب عن السّير.

وكان حظي حسناً إذ أركبوني ناقة اشتروها من بني أدهم، وهي شهباء طويلة منسرحة ميّادة ذات خطى شاسعة من بني أدهم، وهي شهباء طويلة منسرحة ميّادة ذات خطى شاسعة صبورة قوية على حمل الأثقال. تسرع في السّير على هدّى فتتقدم دائماً الحملة مجالدة إلى الحد الأقصى. ومتى عبرت رفيقاتها وتجاوزتها فترت غيرتها ووقفت مطامعها واقتنعت بالخطوة الطّيبة تفوق خطى رفيقاتها الاعتيادية ببضعة قراريط، وعلى كل حال يمكن لكل راكب في ركبنا أن يعتمد على ذخيرة عظيمة من القوة والنّشاط والاحتمال كامنّة في مطيته. وتراجعت إلى الوراء وحاذت الحملة مُححّاً الرّجال على الإسراع، وكان الهنود الحديثو العهد بركوب الجمال - وقد اعتادوا ركوب الخيل - متقلقلين تنقصهم المرونة، وزادت وعورة الطّريق في ارتباكهم ومجهودهم. وكلما طال عليهم السّير زاد تشتيتهم الواحد بعد الآخر على الطّريق فقرّرت إذن أن أمشي إلى الوراء مع عليّ بن الحسين الرّاكب ناقة للسّبق جميلة سنّها أربعة عشر حوالاً لم تخفف من سيرها في ذلك الليل المضني. بل كانت تتقدم ممدودة العنق، واسعة الخطى سريعة الجري لينة الثّفن هينة على الرّاكب عذبة لأحلامه وكانت حياة المتلكّئين وجمالهم وراءنا شاقّة شقية تحت سياتنا وصياحنا.

وخرجنا بعد السّعة التاسعة من الأرض المفلوحة واعتقدنا بأننا سنسير سيراً مريحاً، إلّا أنّ ضباباً كثيفاً غمّرنا ووحلت الأرض، فكنا نزلق بالإبل وسقط جمل من جمال السّرحان، إلّا أنّ صاحبه رفعه بسرعة وتقدم إلى الأمام خبياً، وسقط آخر من بني صخر ونهض ومشى كأن لم يكن شيء. ثم أبصرنا أحد خدم عليّ واقفاً أمام هجين خرد، إلّا أنّ عليّاً صفر له صفيراً غريباً كأنّه يأمره بالتقدّم وغمغم بعض أعذار عنه إلّا أنّ

صاحبه ضربه ضربة شديدة بهراوة على أم رأسه، فذعر الجمل وتقدم مسرعاً فنبعه العبد وتمكن من التعلق بسيور السرج والتسلق على كفله بينما كان عليّ يوسعه ضرباً بهراوته. وسقط مصطفى أحد رجالي القليلي الخبرة بالركوب مرتين، إلا أن عواداً رفيقه كان كل مرة يأخذ برسن المطية ويثبته على السرج قبل وصولنا إليه. ولما توقف المطر أسرعنا في النزول عن الجبل، وأخذ مفلح عصاه في الحال ورفعها فوق رأسه فسمعنا رنين النحاس يطن في آذاننا فكان دليلاً على أنه طني سلك التلغراف الممتد إلى مزيريب. وأطل علينا الأفق المربد بعيداً وخيل إلينا أننا نمتطي مناكب السحاب ونسير في ظلام يزداد حلكاً. وتهب علينا في هذا لحلك ريح ناعمة كريح الصبا لا عبت أغصان الشجر. إلا أن آذاننا أخذت تصغي إلى صوت غريب عذب حتى تبين لها أنه خرير الشلال تحت تل شهاب، فتابعنا تقدماً بثبات، ومرت بضع دقائق فأوقف مفلح ناقته وركب على صفحة عنقها وأناخها، وترجل عنها وتمثلنا به في سكون الليل من غير أن نبس بكلمة. وكان المعبر مغطى بالحشيش الأثيث، وإلى جانبنا خربة كأنها تربة، وأمامنا هدير الغدير المتدفق نسمعه من مدة. هذا هو حَرْف معبر «اليرموك» والجسر على اليمين من تحتنا. فساعدنا لهنود على النزول عن ظهر مطاياهم المحملة حتى لا نسمع صوتاً ولا تحدث حركة تصل إلى أسماع العدو المرهفة ثم تجمّعنا وتهامسنا على العشب اللزج ولم يكن قد أطل البدر من وراء الجبل حرمون إلا دهمة الليل سارعت بالانهزام أمام غرة الفجر وقد من الغيوم المرعدة تتزاحم في سماء ربداء. ففرّت المتفجرات إلى خمسة عشر حاملاً وسافرنا. وتوارى عنا بنو صخر تحت قيادة أذهب في المنحنى المظلم ليجلسوا لنا الطريق. وكان ارتكازنا الوحيد في مشينا هو أصابع أقدامنا الحافية التي نغرزها في الأرض الوحلة لنتمكن من اجتياز بطن الجبل الذي هطلت عليه أمطار غزيرة.

وبعد لأيّ ظهر تحت أقدامنا شيء أسود بل عارضة طويلة ممتدة في ظلمة المعبر وفي الجهة المقابلة يترجرج نور مصباح، فظهر أنه الجسر يرى أفقياً من أعلى إلى أسفل وخيمة الحارس منصوبة عند الدعامة تشرف عليها القرية القائمة على القمة.

وكان كل شيء ساكناً ما عدا الغدير، ولم يكن شيءٌ يتحرّك سوى لهب الفانوس أمام الخيمة.

وكان «وود» واقفاً لدى الهنود على أهبة الاستعداد يدعوهم لضرب النار وتمزيق الحراس عند المعمة وليس عليه أن يتقدم نحوي إلا إذا أصبحت جريحاً. أما عليّ وفهد ومفلح ونحن مع بني صخر ومع حاملي المقذوفات، فقد تسلّلنا في الطريق المؤدي إلى دعامه الجسر، وتقدمنا واحداً واحداً بخفة وحذر. وكانت معاطفنا السمر وثيابنا الوسخة تذوب لحسن الحظ وتمتزج بألوان الصّخور المكمدة وتخفي نزولنا إلى أن بلغنا الخطوط المعوّجة وهي تبتدئ بالدّخول على الجسر، فتوقف الرّجال هناك وزحفت أنا وفهد، إلى أن بلغنا واجهة الدّعامه الملساء، فتابعنا زحفنا في ظل الخطوط النّاتئة، وتمكنا من لمس هيكل الجسر المعدني وتبيّنا الحارس الوحيد المُسند على الدّعامه المقابلة على بعد ستين متراً منا، ولاحظناه يروح ويجيء حول النّار دون أن يخطو خطوة واحدة على الجسر المرتفع في الفضاء إلى علو شاهق فعدت إلى حاملي المتفجرات. لكنني لم أكّد أصل إليهم حتى سمعت دوي رصاصة على الصّخر وسقوط رجل. فاضطرب الديدبان ونظر في الفضاء فإذا به أمام رشاشات تتلألأ في ضوء القمر الصّاعد، الفاضح مشاهد الوادي العجيبة وتحرّك من أمكتها مع الظل الهارب. فصرخ بملء شذقيه ينادي رفاقه ويهدر كالبعير ويطلق الرّصاص.

وفي لحظة اختلط الحابل بالنّابل، وأخذ بنو صخر المترصدون فوق رؤوسنا على طول الطريق يرمون الرّصاص على غير هدئ. ونزل الحارس في الخنادق المحفورة خصيصاً وأخذوا يطلقون بنادقهم على لمع البروق المندفعة من المكامن المقابلة، وفوجئ الهنود وارتبكوا ولم يتمكنوا من تركيب مدافع «ووكر» وتمزيق الخيمة بالرّصاص قبل إخلائها. وكان إطلاق النّار عاماً، وصدى بنادق التّرك المتراصة لجهتنا يتردد في تلك الوديان الضّيقة ويمتزج مع قصف القنابل التي تصطدم وتسقط على الصّخور وراء جنودنا، وكان بنو السّرحان يعلمون مني بأن غراء الدّيناميت ينفجر لأقل صدمة، لكنهم ما كادوا يرون مطر الرّصاص يتساقط من حولهم حتى ألغوا أكياس

هذه المادة الهلامية على الأرض وولّوا الإِدبار. وكنت وفهد لا نزال متربصين تحت الدّعامّة يحجبنا الظّلام، وبقفزة واحدة لحق بنا عليّ لكن صَفَر اليدين لأن الدّيناميت كان يتدحرج إلى أسفل الوادي ومن العبث التّزول إلى هذا الجحيم الفائر والتفتيش على ضالّتنا، ولم يبق علينا إلّا أن ننسحب فنجحنا بتسلق الجبل من غير أن تمسنا نار العدو وبلغنا القمّة، وهناك التقينا بـ «وود» Wood يفيض غضباً بين جنوده الهنود، فأبلغناه انتهاء كل شيء وعاد باقي العصاة مسرعين إلى التربة حيث كان بنو السّرحان يهَمّون بالركوب وجَدَدْنَا السّير بأسرع ما يمكن وتقدّم العدو إلى المعبر واحتلّه، واستيقظت «طُرة» القرية القريبة واشتركت بالصياح وتمثلت بها القرى المجاورة وأضيء السّهل من جميع النّواحي.

للذّلة والانخزال وللذّور المخزي الذي مثّلوه وقت المعمة. ولما هزئت بهم أرادوا أن يهدّثوا ثورة غضبهم بالسّطو على أولئك النّاس. فسلبوهم كل متاعهم. فهرب الرّجال ونسأوهم على ضوء القمر يولولون ويصيحون صيحات المَدَد فسمع أهل «الرّمثا» أصوات الاستغاثة فهدّروا وزمجروا وتعالّت رعودهم حتى أيقظت جميع السّكان المجاورين، وركبوا الهُجْن، وأعملوا فيها السّياط يريدون الانقضاض على جناحنا. وكانت السّطوح على طول أميال مملوءة بالرّمال وهم يحاولون اقتناصنا. فتركنا السّراحين الجناة المغتصبين وشأنهم مع غنائمهم المعيقة، وتابعنا السّير في سكوت موحش نضم صفوفنا يعاوننا هجاننا الأشداء الذين أظهروا جلدًا عظيمًا، ويلتقطون الرّجال الذين عجزت نوقهم المكلومة عن حملهم بأثقالهم والإسراع بهم، ويردفونهم وراءهم، وكانت الأرض المفلوحة لا تزال موحلة صعب فيها السّير الشّريع، ومن ورائنا سكان البلاد المجاورة يصخبون ويصيحون كأنهم يستحثّوننا على الهرب رجالاً وجمالاً كلاب صيد يتعقبون الطّريدة ويلحقونها حتى وكرهاً في الجبل.

إلى أن دخلنا الوادي وأخذنا طريقاً حسناً وانفصلنا عن الأماكن الصّياحة دون أن نخفف سير إبلنا المنهوك لأن الصّبح قد تلاّأت أضواؤه على المرتفعات إلى أن خفّت الأصوات من ورائنا وخفّت نهائياً وراء المتلكئين تعمل في أعجازهم هراوة علي بن

الحسين كما كانت تعمل فيها عند قدومنا. وشاركتها هراوتي في هذه المهمة حتى تمكننا من ضمهم إلى الحملة. ولما دنونا من الخط الحديدي كان الصّباح قد انفلق. وسار الآن، «وود» وعليّ على رأس الحملة وأخذنا يقطعان الوقت بتقطيع الأسلاك التلغرافية في أماكن مختلفة.

لقد كنا نمرّ في الليل الدّابر على هذا الخط ووجهتنا جسر «تل شهاب» لننصفه ونعزل فلسطين عن دمشق، والآن وقد ضاعت ثمار جهودنا وفاتتنا غايات مجازفتنا نكتدّي إلى حد أننا نقطع بعض خيوط البرق الموصلة إلى المدينة، وكانت لا تزال مدافع الكُني تدمدم عن يميننا وصادها يدق في قلوبنا دقة الحزن على ميّت الآمال.

وطلع النهار ناعماً رمادياً لكنه ينذر بيوم محزن مظلم ممطر، وكان هذا المطر رذاذاً يبسم عن سخرية القدر، ويهزأ وراء متاعبنا وشقائنا إلى أن وصلنا إلى «أبو صوّانة» وغابت الشّمس عند بلوغنا قلعة الماء المستطيلة وتجمّع ما بقي من رجالنا جشعين لمعرفة تفاصيل مأساتنا، لقد كنا كلنا بلهّاء وكان لا يحتدم غضبنا على أمر معين.

وتشاجر أحمد وعودا ثانية وأخذنا بتلايبب بعضهما البعض، وامتنع الشاب مصطفى عن طبخ الأرز، فضربه فزّاج وداود حتى أبكياه، وأمر عليّ بضرب اثنين من خدمه، فلم يبال أحد منا ولا من المضروبين بهذه الإهانة، وقد تجلّى لنا هول التّكبة وأنهلك التّصّب أجسامنا بعد اجتياز مئة ميل في منطقة شاقة وظروف رديئة من غروب الشّمس إلى شروقها من غير زاد ولا توقف.



الفصل الحادي والعشرون

اللاحق بقطار

وكانت مسألة تمويلنا تتقدم على كل اعتبار آخر، فعقدنا اجتماعاً للمداولة ولما يمكننا عمله تحت رذاذٍ من المطر وفي أرض مجلودة من شدة البرد، وكنا كي لا نثقل على مطايانا لم نحمل من الأرز سوى زاد ثلاثة أيام نرى بأعيننا نفاذه الآن، فكيف نعيد الكرة ونقوم بالعمل ووافضنا أفرغ من فؤاد أم موسى. وكان بنو صخر يطلبون الشهرة وبرد الشرف، وبنو السرحان يريدون أن يرفعوا عنهم الدُّلُّ فنادوا إلى العمل وطالبوا بغزوة جديدة! وكان لدينا ثلاثون ليبرة من الديناميت، وصرخ عليّ بن الحسين الذي سمع بغزوتنا تحت معان والذي هو على كل حال عربي صميم كباقي إخوانه وقال: «فلننسف قطاراً» فقبل الناس جميعاً هذا الطلب بتهليل، وأحدثت بي العيون، وكان من المستحيل أن أجيبهم بالإيجاب فوراً، لأنَّ نسف قطار عمل فني يجب درسه بهدوء وأناة من جميع نواحيه ودقائقه، وتحت رحمة عدد كاف من رشاشاتنا، لأنَّ التَّجَاح متوقف على الفن والدَّقة فإذا فاتنا دخلنا في مأزق حرج، ووقفنا موقف الخطر، والصَّعوبة في الأمر هو أن رجال مدفعيتنا الهنود رغماً من شجاعتهم فإنهم يجبنون أمام البرد والجوع، فإذا كنت لا أحصل على زاد وافر لا أتمكن من جرهم ورائي أو دفعهم أمامي إلى غزوة تستغرق أسبوعاً كاملاً على أقل تقدير. أما تجاه العرب فلا قسوة قط إذا جوَّعناهم بضعة أيام لأنهم لا يموتون جوعاً ويحاربون بشجاعة فائقة ومِعَدَّهم خاوية، وبطونهم طاوية. وعند الاقتضاء يمكنهم أن يذبحوا جملاً ويأكلوه، أما الهنود وإن كانوا مسلمين فمن مبادئهم ألا يمسوا الجمال بأيديهم.

وشرحت هذه النظرية أمام عليّ فأجابني بأنهم لا يطلبون مني غير نسق قطار! وأنه هو نفسه مع العرب يتولون هذه المهمة بدون مساعدة الرّشاشات، وبما أن التّرك لا يعتقدون بأننا باقون في هذه المنطقة فمن المحتمل أن قع على قطار مؤن وذخائر يقوده رجال غير عسكريين أو حرس ضئيل من الرّديف، وقبلت المجازفة بهذه الضّربة، وصفّق الرّجال طويلاً لهذا القرار ثم تحلّقنا حول ما بقي لدينا من الرّاد للعشاء المتأخر البارد، وكان الحطّب مبلاً فلم نوقد ناراً إلّا أنّ الحرارة دبّت في مفاصلنا شيئاً فشيئاً لتمشي الأمل بمجهود جديد يمكننا أن نجني ثماره.

وعاد رجالنا من جهة الخط الحديدي وعددهم ستون عند طلوع النهار فقدّتهم إلى منفطير حيث قمّة الجبل كأنها متن سرج تصلح لأن تكون مرقباً بديعاً ومناخاً طيباً تحيط به المراعي وطريقاً حسناً للتراجع. فمكثنا إلى غروب الشّمس جالسين نرتجف من شدة البرد وعيوننا شاخصة إلى السّهل الشّاسع الممتدّ حتى جبل الدّروز المغطى بالثلوج، وكانت «أم الجمال» والقرى المجاورة تظهر أمامنا كأنها لطخ مداد على خريطة، وترجلنا وسرنا إلى الأمام عند اللّغم، وقرّرنا أن ندفنه في مجرى ماء تحت الخط في الكيلومتر 172. وبينما نحن في عملنا سمعنا جلجلة صمّاء ثم طلع علينا بين الظّلام والضّباب المحيّق بنا قطار قادم من الجهة الشّمالية على بعد متّي متر فقط، فانبطحنا في ذلك الثّقب إلى أن مر من فوقنا والحزن يشملنا لفوات الفرصة، ودفنا اللغم في المكان المناسب، وامتازت تلك الليلة الباردة بالضباب الكثيف والشتاء الجارف، وكانت القنطرة مبنية بناء متيناً لها فتحة اتساعها أربعة أمتار تفترشها أرض حصباء فتمرّ عليها ساقية نابعة من ظهر الجبل. وقد قرّضت الأمطار طرّفي الوادي فحفرت قناة مستقيمة في عمق أربعة أمتار كأنها خنادق أمامية تمتد ثلاثمئة متر من الخط وأخفينا عدة الانفجار في سقف العقد أبعد من المعتاد. وأسندنا هذه المادة الرّجراجة بجسم صلب حتى لا تتساقط الرّمال المغطاة به عند مرور كشافة فوقها. ومددنا الأسلاك في الوادي ودفناها بالحصى. ولم نلاق أقل صعوبة في مدّها إلى النهاية ولكن للأسف لم تمتد أكثر من ستين متراً إلّا أنّه لحسن الحظ كان قد بلغ

طَرَفَه باقة من الشوك تعلو قدماً عن الأرض في حَرْف الوادي صَلَحَتْ دليلاً كافياً، ولم يكن في الإمكان ترك الأسلاك متصلة بالآلة المتفجرة لأن المكان كان مكشوفاً للجنود الأتراك عند مرورهم.

فاشتغلنا في الوحل وقتاً أكثر من المعتاد إلا أننا انتهينا من عملنا والتَّهَار يطلع علينا. فانتظرت نور التَّهَار مبللاً تَعِباً حاد المزاج في تيار الهواء تحت القنطرة وطففت المكان الذي دفنا فيه الأسلاك وقضيت نصف ساعة أخرى أمحو كل أثر رامياً الأوراق والأعشاب اليابسة فوق الأرض المقلوبة مالتاً التُّقَر التي أحدثتها أقدامنا بالماء الذي كنت أنقله من البرك القريبة التي ملأها مطر المساء. عندئذٍ أومأوا إليَّ بأن كشافة قادمة على الخط فأسرعت إلى رجالي واختبأت في مكان مستور، وما كدت أصل إليهم حتى تأهبوا للمعركة وراء جرف السَّاقية في منحدرات مجراه. وكان قطار قادماً من الشَّمال. وَحَمْدُ وِعْدُ فيصل يحمل عدَّة الانفجار إلا أنَّه لم يصل إليَّ إلا بعد مرور القطار القصير السَّريع المقفولة شواحنه والممتلئة خيلاً. وقد أخفته الزُّوبعة وهطلت الأمطار فزادت هذه الخيبة من حزنا وأخذ عليّ يتذمر ويقول: إننا لا ننجح مرة قط في هذه الحملة. وفي مثل هذا التشاؤم كان يخشى من عيون شريرة بيننا. ولكي ألهمهم عن هذه الصَّدَومات المتتالية أرسلت رجلاً يترصدون في أماكن مختلفة لجهة الخرائب من الشَّمال ولجهة التربة العالية على العرف الجنوبي. وكان على باقي الرِّجال المحرومين من الفطور أن يعتقدوا بأنهم غير جائعين! فأعجب هذا العمل رجالي. وجلسنا قليلاً تحت المِزنة متجمعين على بعضنا لنستدفي محتمين قدر الإمكان بمطايانا التي تقطر ماء. وكانت الرِّطوبة تقلص صوفها وتعقصها كجدائل الحرير، وحلَّ الهواء البارد محل المطر ونفذ إلى أجسام أولئك القوم الرِّديئي الدَّثار وتبلَّت قمصاننا ولصقت بجلودنا فكانت واقياً وهمياً للبرد القارص. ولم يكن عندنا ما نأكله ولا شيء نعمله. ولا مكان نأوي إليه سوى الصَّخور المبلَّلة والحشيش المنقوع الموحل، ثم إن استمرار رداءة الجو كان يؤخر من تقدم آلِنبي في فلسطين ويفقد كثيراً من حسن حظه العاجل. وإن سوء البخت الذي أَلَمَّ بأسدنا سيُشجع بدون شك أولئك الفئران الخاملين، إلا أننا سنتضامن على العمل في العام المقبل.

إن الانتظار للقيام بالعمل في الظروف الموفقة لا يطاق! أما ذلك اليوم فقد كان قاتلاً مهلكاً، والكشافات التُّركية تمر على الخط بتهاون، لا همَّ لها غير اجتناب المطر. واقتربت ساعة الظَّهيرة وانقشعت الغيوم قليلاً عن قرص الشَّمس، وإذا بالمتربّصين الرّاصدين في مخابئهم يُلوحون بعباءاتهم تلويحاً جنونياً علامة قدوم قطار. وما هي إلا لحظة حتى شغل كل مكانه المعدّ له من قبل لأننا مكثنا ساعات مقرّفين إلى جانب الخط في منحن غارق في الماء والطّين كيلا يفوتنا الصّيد هذه المرة. واحتّمى العرب في مكائهم لضرب النّار ولم أكن أرى وأنا في مخبأي رأساً واحداً ورائي على منحدر التل الرّمادي، ولم أكن أتمكن من سماع ددمة القطار ولكنني كنت شاعراً بدنوّه. فركعت نصف ساعة في الطّين حتى ضاق صدري فأومأت إلى رجالي لأعلم منهم ماذا حدث، فأجابوني بأن القطار طويل جداً وهو يتقدم ببطء، فزادت شهوتنا لدنوّه لأن الغيمة تكون على قدر عدد الشّاحنات. ثم أعلموني بأنه قد توقف. ثم عاد إلى السّير.

ومضت ساعة وهو يلهث، كأن القاطرة كانت معطلة، والحقيقة هي أن الوقود بالخطب كان سيئاً لا يعطي ناراً كافية لجُرّ مثل هذا القطار الذي يحاول الانعطاف والولوج في معبر قبل وصوله إلى القنطرة المملوغة وكانت الثماني شاحنات الأولى مسطّحة مكشوفة مملوءة جنوداً. إلّا أنّه لم يكن لي متسع من الوقت للخيار. وماكادت القاطرة تنتصف القنطرة. حتى أنزلت قبضتي على عدة الانفجار، ولكن لم يحدث شيء ثم جرّبت مرة ثانية وثالثة ورابعة... ومع ذلك لم تنفجر.

فيالها من خيبة! خيبة في كل مكان، إذن لا بدّ أن تكون الآلة معطلة، وقد علمت بأني راكع على حافة الوادي أرى القطار المملوء بالجنود الأتراك ينساب ببطء كالأفعى على بعد خمسين متراً مني، وتضاءلت العليقة التي كانت ترتفع بضغّ إنشآت ورقّت حتى أصبحت كورقة التين، وشعرتُ بأني هدف لهذه المنطقة من السّهل، فمن ورائي وادٍ مكشوف يبعد مثني متر عن مكان رجالنا القلقين الذين يستغربون هذه الخيبة، وكان من المستحيل أن أصل إليهم بقفزة لأن التُّرك يشعرون بي فينزلون من القطار ويهبطون علينا ويذبحوننا جميعاً فكمت حيث أنا مشغلاً بخلاص نفسي أمام ثماني

عشرة شاحنة مكشوفة مسطحة وثلاث شاحنات للخليل وثلاث مركبات للضباط تسير على خطوطها والقاطرة تلتكأ وتلهث؛ وكنت أخشى في كل لحظة أن تتوقف. إلى أن انسأب القطار ووَضعت آخر شاحنة تتلقلق عَجَلَاتُهَا وَتَصْرُفُ أَلْجَمُتُهَا، وغابت في معبر الشّمال فانتصبت عندئذٍ ودفنت أسلاكي وأخذت الآلة الملعونة وركضت كالأرنب إلى رأس الجبل لأتقي شراً يفاجنني. والتبس عليّ «مفلح» ومسكته غصة فلم يتمكن من البكاء، وقد اعتقد بأنّي تركت القطار يمرُّ عمداً، ولما علم السّراحين بسبب هذه الخيبة صرّخوا جميعاً «سوء الطّالع يرافقنا» وكان لهم الحق في ذلك إلا أنّهم كانوا يعتبرونها نبوءة من نبوءاتهم. ولقد ذكرتهم بمرارة واستهزاء بشجاعتهم منذ أسبوع على جسر «تل شهاب» وكان الأحرى بالقبيلة أن تدعهم يحرسون الجمال لا أن يقدموا على أعمال كبيرة كهذه، فانتفضوا لهذا الهجوم اللاذع وتصدى لي السّراحين إلا أنّ بني صخر قد عضدوني. وأسرع عليّ عند سماعه هذه الغوغاء، ثم تصالحنا وخفّت وطأة اليأس. وقد دافع عليّ عني بشهامة وإباء رغماً من أن ذلك المسكين كان يرتعد، وقد أزرقت أطرافه وانكمش جلده من شدة البرد. ورغماً من انحباس نفسه أراد أن يذكّر السّامعين بأنّ النّبي جدّهم الأوّل قد منّح الأشراف هبة خاصة، وهي أن يروا الأشياء وأضدادها وأنه هو قد رأى الآن سوء حظنا سينقلب حظاً حسناً فتقوى العرّب لهذا التأكيد وقد استحقّ أول قسط من أقساط الحظ الحسن عندما توفقت إلى فتح آلة الانفجار بحد خنجري - ولم يكن عندي عدة سواها - وعندما تمكنت من إصلاح الخلّ الذي أصابها أصبحت صالحة للعمل.

وعدنا إلى مواقفنا في طرف الخط وانتظرنا فلم يقدم علينا قطار وجاء الليل بسمومه وهي تزداد هبوباً ساعة بعد ساعة وتزيد في شجوننا وآلامنا ولم تسمح لنا الرّطوبة أن نوقد ناراً ونطبخ طعاماً سائغاً، ولم يكن لدينا غذاء غير لحم جمل نيء، فلم يقبل عليه أحد. وتحملت مطايانا المسكينة شر تلك الليلة إلى الصّباح. أما علي فقد انتهى به الأمر إلى الانبطاح على بطنه ليخفف من قارصة الجوع واعتقد بأنّ التّوم يخفف عنه الحمى، ودثره خادمه «خازن» بعباءته.

وهبطت الجبل لأركب العدة على السلك وقضيت الليل إلى جانبها وحدي تحت الأسلاك التلغرافية التي كانت تدعوني إلى النوم بدندنتها العذبة، وكنت أخشى النوم لشدة البرد، وأرقب الأفق فلم يقبل علينا شيء.. إلى أن بزغ الصّباح ماطراً باهظاً عن ذي قبل فنهكنا التعب والجوع والتّسهر إلى حد الموت. فتسلقت حتى بلغت رجالنا، بينما عسس الصّباح يترقب قدوم قطار. وانقشع الضّباب وانكشف السّهل واستيقظ عليّ نشاطاً مرحاً فأدخل السّرور على نفوسنا، وأخرج حمد من تحت ثيابه المبلّلة قشاً كان قد أدخله يابساً ليقيه شيئاً من البرد فكان لا يزال جافاً. ثم قطعنا بعض نساير الغراء لنساعد على إضرام النّار في الحطب المبلّل، بينما كان بنو صخر يسلخون جملاً أجرب يمكننا أن نستغني عنه من غير ضرر على الحملّة، وقطعوه بسرعة حتى أصبح قابلاً للحمل على ظهور الجمال. وفي تلك اللحظة أشار العسس إلينا بقدوم قطار، فتركنا النّار مسرعين وركضنا ركضاً جنوبياً مسافة ستمئة متر إلى أن بلغنا مواقع المعركة. وتقدم القطار وهو يصفر عند المنحنيات: قطار بديع ذو قاطرتين واثنتي عشرة شاحنة ركاب فنزل المنحدر بسرعة، وضغطت على العدة عندما بلغت دواليب أول قاطرة القنطرة المُلغمة. فكان الانفجار مخيفاً مربعاً. فغمرني التراب والحصى ودرت على نفسي مرات عديدة إلى أن استعدت موازنتي شيئاً فشيئاً، وأسرعت متمائلاً إلى جرف الوادي. حتى بلغت العرب الذين أمطروا الشّاحنات المملوءة رجالاً ناراً حامية. ولم يلبث العدو أن قابلنا بالمثل. وأصبحت بين نارين، فرآني عليّ قد سقطت فاعتقد بأنّي قد جرحت جرحاً مميتاً، وركض يتبعه «تركي» وعشرون رجلاً من رجاله وخدمه وبعض بني صخر.

وقد تدهور القطار كله عن الخط. وتداخلت العربات بعضها في بعض، وتشتّت كالثّعبان بجانب القضبان الحديدية. وكان محمّد جمال باشا (جمال باشا الصّغير) قائد الفيلق الثامن يركب شاحنة جميلة مزينة بالأعلام قاصداً فلسطين ليدافع عن القدس ويدفع عنها هجوم آلنبي، وأفقنا حالاً بأننا لن نحصل على غنائم تذكر لأن القطار كان يحمل أربعمئة رجل، وبعد أن عاد الأحياء إلى رشد هم اعتصموا في مكانهم، ورمونا

برصاص بنادقهم، وتبعنا «مفلح وأدهب» على الجبل يفتشون عن فهد في كل مكان فقال أحد السراحين: إن فهداً تقدم إلى الأمام بينما كنت أدور على نفسي مغموراً بالتراب والحصى، وقتل قريباً من هناك. وقد أرونا حزامه وبندقيته شهوداً على موته. وقد حاولوا أن يخلصوه فلم يتمكنوا، فلم ينطق «أدهب» ببنت شفة واندفع خارج الوادي ونزل عن الجبل ركضاً. وقد تملكنا الدهشة وانحبست أنفاسنا لهذه المجازفة المميتة، إلا أنه كان يظهر بأن التُّرك لم يروه. إذ رأيناه بعد هنيهة عائداً يجرُّ جسماً وراء العُرف من جهة الشَّمال.

وعاد مفلح إلى فرسه وقادها وراء حاجز واق، وساعد «أدهب» على حمل هذا الجسم الهامد ورفعاه على السرج وعادا إلينا، وكانت رصاصته قد اخترقت وجه فهد وكسرت أربع أسنان وقطعت لسانه فغاب عن رشده وكان قد أفاق بل وصول «أدهب» وجاهد وهو ملطخ بدمائه زاحفاً على يديه ورجليه ليتعد عن العدو. وعندئذ تمكن من إعادة توازنه والثبات على السرج. فحملوه على أول جمل وجدوه في طريقهم وأعادوه حالاً.

ولما ترك التُّرك منا الهدوء والاستكانة قرروا أن يتقدموا إلينا، فتركناهم يدنون منا وأمطرناهم وابلاً من الرصاص أُردي منهم عشرين رجلاً وتراجع الباقون مدافعين بنظام وفرشت جوانب القطار بجثث القتلى وقتل كثير داخل الشاحنات المحطّمة، إلا أنّ الجنود التُّرك كانوا يحاربون تحت أنظار قائدهم، فأعادوا إليهم ثباتهم وشجاعتهم وداروا دورة حول مكائهم ليطغوا علينا، ولم نكن غير أربعين رجلاً، وكان من العبث أن نقاومهم فتراكضنا عصابات وصعدنا من الوادي إلى قمة الجبل وقد امتطى كل منا جملاً وأسرعنا ووجهتنا الشرق إلى الصحراء، وبعد مضي ساعة أصبحنا في مأمن من العدو وتعرف كل منا إلى مطيته.

ورغمًا من الثوران والخلاط الذي حدث بعد الانفجار ورغمًا من الانهماك بالارتداد لم ينس الهمام «رحيل» أن يأخذ فخذاً كبيراً من لحم الجمل الذي ذبحناه قبل المعركة ويردّفه على ناقته، فكان لنا حجة للتوقف على بعد خمسة أميال في وادي

صُلَيْلٌ قَرَبَ تِينَةً عَقِيمَةً لَا تُثْمَرُ، وَاشْتَرَيْتُ جَمَلًا أَجْرَبَ لِيَكُونَ كَافِيًا لِمُؤُونَتِنَا وَوَزَعْتُ مَكَافَاتٍ مِنْ نَوْعِ السَّلْبِ وَتَعْوِضًا لِلنِّسَاءِ اللَّوَاتِي فَقَدَتْ رِجَالَهُمْ ثُمَّ تَمَكَّنْتُ مِنْ إِهْدَاءِ بَعْضِ الْبَنَادِقِ مِنَ السِّتِينَ أَوْ السَّبْعِينَ بِنَدَقِيَةِ الَّتِي اسْتَوْلَيْنَا عَلَيْهَا، إِنَّهَا وَالْحَقُّ يُقَالُ غَنِيمَةٌ ضَعِيفَةٌ وَلَكِنْ لَا يَسْتَهَانُ بِهَا، وَقَدْ وَجَدَ بَعْضُ السَّرَاحِينِ أَنْفُسَهُمْ مُسْلَحِينَ بِبَنَادِقٍ بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي حَادِثَةِ الْجَسْرِ عِزْلًا يَرْمُونَ الْعَدُوَّ بِالْحِجَارَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ عَدِيمَةً الضَّرَرِ بِالْعَدُوِّ.

وَعَدْنَا عِنْدَ الصَّبَاحِ إِلَى الْأَزْرَقِ حَيْثُ اسْتَقْبَلُونَا اسْتِقْبَالِ الطَّافِرِينَ، وَكُنَّا - أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ - نَفْخَرُ بَانْتِصَارِنَا.

وَوَصَلَ الدَّرْزِيُّ أَمِيرَ صَلْخَدٍ إِلَى الْقَصْرِ الْقَدِيمِ قَبْلَنَا بِزَمْنٍ قَلِيلٍ وَأَخْبَرَنَا عَنْ نَهَائَةِ رَحْلَةِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْمَرَكَشِيِّ، قَالَ: إِنَّهُ بَعْدَ أَنْ تَرَكْنَا خِلْسَةً تَوَجَّهَ رَأْسًا إِلَى قَرَاهِمٍ نَاشِرًا الْعِلْمَ الْعَرَبِيَّ مَتَهَلِّلًا مُحَاطًا بِفِرْسَانِهِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يَطْلُقُونَ بِنَادِقَهُمْ فِي الْفَضَاءِ، فَفُوجِئَ السَّكَّانُ بِهَذِهِ الْمَظَاهِرَةِ وَاعْتَرَضَتْ الْحُكُومَةُ التُّرْكِيَّةُ عَلَى هَذِهِ الْوَقَاحَةِ وَعَدَّتْهَا تَحْدِيًا لِسُلْطَتِهَا وَتَقَدَّمَ الْأَمِيرُ الدَّرْزِيُّ مِنْ عَبْدِ الْقَادِرِ، فَخَاطَبَهُ هَذَا بِعِظْمَةٍ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ وَقَالَ: إِنَّهُ إِذَا كَانَ الشَّرِيفُ فَيَصِلُ قَدْ احْتَلَّ هَضْبَاتِ جَبَلِ الدَّرُوزِ فَالْفُضْلُ فِي ذَلِكَ عَائِدٌ إِلَيْهِ، وَثَبَتَ جَمِيعُ الْمُوظَّفِينَ فِي وَظَائِفِهِمْ!! وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي تَوَغَّلَ فِي الْبِلَادِ فَأَثَارَ غَيْرَةِ الْحَاكِمِ الَّذِي اسْتَقْبَلَ ظِلَّهُ فِي الْقَضَا إِلَّا أَنَّ عَبْدِ الْقَادِرِ قَدْ اسْتَلَّ سَيْفَ مَكَّةَ ذَا الْقَبْضَةِ الذَّهَبِيَّةِ وَأَقْسَمَ لَا يَحُورُ حَتَّى يَفْرِيَ بِحَدِّهِ هَامَةً جَمَالَ بَاشَا. فَأَنْذَرَهُ الدَّرُوزُ لِهَذِهِ الْمَجَازِفَةِ وَأَفْهَمُوهُ بِأَنَّهُمْ لَا يَرْضَوْنَ عَنْ هَذَا التَّحْدِيِّ لِسَعَادَةِ الْحَاكِمِ عَلَى مَسَامِعِهِمْ وَفِي بَيُوتِهِمْ. فَعَدَّهُمُ الْأَمِيرُ لُطَاءَ أَوْلَادِ زَنَا وَأَوْلَادِ كِلَابِ قَوَادِينِ وَسِمَاسِرَةِ سُوءِ طَمَعٍ فِي الرِّيحِ. وَكَانَتْ صِيحَاتُهُ بِهَذِهِ الشَّتَائِمِ فِي قَاعَةِ غَاصَّةٍ بِأَهْلِ الْبِلَادِ، فَغَضِبَ الدَّرُوزُ مِنْ هَذِهِ الْوَقَاحَةِ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ اسْتَوَى عَلَى سَرَجِهِ وَقَالَ: إِنَّ الْيَوْمَ الَّذِي أَرَفَضَ فِيهِ جَبَلَ الدَّرُوزِ بِقَدَمَيَّ سَيَبْتَغِي النَّاسَ مِنْ أَقْصَى الْبِلَادِ إِلَى أَقْصَاهَا.

وَرَكِبَ جَوَادَهُ وَأَعْمَلَ الْمَهْمَازَ فِي شَاكِلَتِهِ وَتَبِعَهُ خِدْمَةُ السَّبْعَةِ إِلَى أَنْ بَلَغَ «دَرْعَا» وَدَخَلَهَا كَمَا دَخَلَ صَلْخَدَ دُخُولَ الْفَاتِحِ. وَكَانَ التُّرْكُ يَعْرِفُونَ جَنُونَهُ مِنْ زَمَنِ بَعِيدٍ

فتركوه وشأنه يفضح نفسه بسخافاته، ولم يصدقوه لما أخبرهم بأنني وعليّ نحاول هذه الليلة نفسها القيام بهجوم على جسر اليرموك، إلّا أنّه بعد وقوع الحادث تنبهوا إلى التّاحية الجديدة من الخبر وأرسلوا عبد القادر إلى دمشق مخفّوراً بحرس قوي، فجذل جمال باشا وتلاهى بهذه الأحدثّة الخيالية وأطلق سراح البهلوان الأبله.



اللورد لويد

المندوب السامي البريطاني في مصر

الفصل الثاني والعشرون

العودة إلى العالم

وأصبح الجو مخيفاً لزوابع الثلج ولوافح الجليد المتواصلة، ومن الواضح أنه لم يجر شيء ما في الأزرق سوى المداولات والإرشادات المألوفة، إلا أن هذا لم يجر شيء ما في الأزرق سوى المداولات والإرشادات المألوفة، إلا أن هذه الأمور لم تكن تشغلني ولم أكن أحجم أمام آلام جديدة ومتاعب محتمة للدعاية. وكنت كثيراً ما أنقلب إلى رجل مهتد حديثاً دخیل في مذهبهم، وأهتدي قدر استطاعتي رغماً عن شعوري بموقفي الذي هو موقف الأجنبي، شاعراً بما يصح أن يكون معيلاً وغير لائق تدخل رجل كافر في الدفاع عن حرية القومية العربية. وكان عندي أن هذه الحرب تستنفد قوى الفكر فأحاول أن ألبس لباسهم وأدعوهم إلى قبول العصيان كأمر طبيعي شرعي لا بد منه، والثبات فيه إلى النهاية، وعليّ أيضاً أن أقنعهم وأثبتهم في اقتناعهم بأن الحكومة البريطانية لا تخلف بوعودها ولا تنكث عهودها. وكانت هذه الجهود تنهك قواي خصوصاً وقد مرضت في تلك الساعات الدقيقة الحرجة وهذا هذيان دماغي المجهّد كل ما بقي لي من الصبر والجَلَد.

وكنت لا أكاد أنتهي من مقابلة البدوي الخشن الذي يدخل عليّ فجأة من غير استئذان ويقول لي مسلماً «يا أورنس» ويطلب طلبه بجفاء. وبدون أقل مجاملة، حتى يدخل عليّ القروي المتملّق ويطلب أن يُلقني عليّ خطاباً ويذر الألقاب ويلقّبني أحياناً بالأمير وتارة بالبك، وأخرى بالسيد والمخلص، فينتهي بي الأمر إلى نوبة غضب، فهجرت الناس جميعاً وقررت السفر إلى الجنوب لعلّي أقوم ببعض محاولات على البحر الأ؛مر حيث لا تزال جبهات للعدو تفصل عنا فلسطين.

فسلّمت ما بقي لديّ من التّقود إلى الشّريف عليّ وأوصيته خيراً بالهنود، وانفصلنا على أتمّ ولاء؛ بعد أن قاسمني ثيابه من قمصان وعمائم وأحزمة، ودزّاعات، وهكذا قد ألبسني ثيابه وألبسته ثيابي، ثم تعانقنا معانقة داود ليوناتان، وركبتُ مع رُحيل على ناقتين من أجود نياقنا واتجهت إلى الجنوبز

وتركنا الأزرق عند الغسق، وسرنا رأساً إلى الغرب نحو سماء ملتبهة تطير فوق رؤوسنا أسراب من الكراكي كأنها نصال السّهام، وقد دبّ التعب فينا منذ أن ابتدأنا برحلتنا إذ حلك الليل وتعسر السّير في «بُطم» وكانت الأرض رطبة تنزلق عليها أخفاف الإبل المسكينة وتسقط فنسقط معها. إلّا أنّ حظنا كان أحسن من حظها لأننا ثابتون على متونها آمنون وهي تهوي إلى الحضيض، وترغم على التّهوض في أرض رديئة وهي مثقلة بالأحمال. ولَمّا انتصف الليل كنا قد قطعنا «الغدّف» ولم يكن في الإمكان التّقدم أكثر من ذلك في ليل دامس، وعلى أرض مملوءة بركاً وأوحالاً، فمنا حيثما نحن في الوحل. ولما نهضنا عند الصّباح وثيابنا ملطخة مبلّلة نظر بعضنا إلى بعض ببلاهة وضحكنا ومشينا، وهبّت ريح على وجه الأرض فجففتها شيئاً فشيئاً إلى أن توسطت الشّمس كبد السّماء، فتوقفت ناقتانا، وامتنعنا عن التّقدم. لأنهما دخلتا في أرض لون حجارتها أحمر وهي مفتّنة تدمي أخفافها. إلى أن أذعننا وتقدّمتا ببطء فصعدنا بسرعة على تلال مرتفعة إلى السّماء على شكل خيام هرمية وإذا هي «الثلاث أخوات».

وسرنا الطّرف نحو الشّمال من فوق تلك الجبال عند غروب الشّمس على السّهل الذي انتهينا من اجتيازه. فإذا به يتباعد عنا في لونه الرّمادي بمنحدر خفيف تتخلله نقط وبقع نارية قرمزية وهي آخر أشعة ترسلها الشّمس قبل وداعها على أضحال مياه الأمطار المتلاّثة في الفضاء الشّاسع فأثرت في نفوسنا هذه الرّؤى الحمر كالعندم أكثر من أيّ رؤيا أخرى في هذا السّهل. ودعنا إلى مشاهدة أميال من المناظر البهيّجة العديمة النّظير. تخالها منقّدة من السّماء ومعلقة في الفضاء ترقص على السّراب البعيد. ولم نمرّ «بباير» إلّا بعد اشتداد الظّلام وتضاؤل نار الخيام وتلاّلت النّجوم

الزّواهر، وانعكست أضواؤها على أضحال المطر الفائت تعبٌ فيه ناقتانا عباً لاهثة من شدة التعب. وسرحناها ترعى نصف ساعة، وإن سفر الليل لشاق علينا كما على الحيوانات. لأنّ الجمال تميز المنحدرات والحجارة والنّقر في النهار وتجنبها. والركاب يشبه تشي المطية ويتلوى مع الخطوات الواسعة والضيقة فيتقي الاهتزاز والعنف. على عكس الليل الذي تتساوى فيه الأرض سهلاً وحزناً وتتقدّم المطايا بتردد فتصطدم فتصل الصدمة القوية إلى الركاب المعذب وقد أخذتني نوبة حتى أثارَت هياجي فلم أشأ أن أسمع لتوسلات رحيل فأتوقف.

لقد أغضبنا هذا الولد الغرّ التّزق شهوراً باستعراضه قوة شبابه أمامنا وبتهكمه على ضعفنا، لذلك قد صممت على أن أنتظر منه طلب العفو فلا أمنحه إياه، إلى أن رأيته عند الفجر يدمع على سوء حاله صامتاً كي لا أرى، ولا أسمع.

وذو قرن الشّمس بين الضباب شبحاً من نور يتسلل فوق البسيطة ولا يتمكن من البلوغ إليها، ويكاد يعلو فوق أبصارنا، وانحلت ظلالنا في الغمام الكثيف العالق بالأرض، وكنا نتساءل إذا كانت تلك الأشكال المضطربة تحت أقدامنا على الثرى هي هي أظلالنا الحقيقية. وتصبحنا بمضارب «عودة» فتوقنا قليلاً للسلام عليه ولتحية تَمُر الجوف اللذيذ. لكن الرئيس الشّيخ لم يكن بمقدوره أن يبدل بناقتين مرتاحتين، فسافرنا حالاً كي نتمكن عند المساء من اجتياز الخط الحديدي، فلم يقو رُحيل حتى على المعارضة وهو راكب إلى جانبي صامتاً واجماً شاحب اللون غارقاً في همّه يحاول أن يُظهر جلدأ أكثر مني، وقد ابتدأت أتبين عليه الأنفة والاستخفاف بالآلام. وتابعنا السّير معاً حذوك النعل بالتعل! لكنه كان يفضلني بشيء واحد وهو القوة، وقد شعرت الآن بأنني بلغت الحد الأقصى وخارت قواي، فأصبحت كل خطوة عندي ألماً مبهماً وكانت قد هبطت الحمى واستحكم الملل والسّأم من نفسي، فاتحدت هذه العوامل على قتل شعوري. غير أنني حسبّني مركباً من عناصر مختلفة. واحدٌ يداوم الرّكوب بحكمة وتعقل ويرقب الأرض تحت أخفاف المطية ويجذب المقود كي يقيها من خطوة عاثرة، وآخر يحوم في الجو ثم ينعطف إلى اليمين ويسائل الكائن الجسماني

عما يفعله فلا يجيبه لأنه للحقيقة لا يفقه إلا لأمر واحد، وهو الدافع الذي يدفعه إلى الأمام دائماً أبداً. غير أن عنصراً ثالثاً ثاراً يتكلم وينتقد ويعجب من المشاق الحسية التي يفرضها الجسم لنفسه، ويحتقر كل سبب يدعو إلى هذا الجهاد.

ونقضى الليل وأنا أخطب عناصر نفسي عنصراً عنصراً. إلى أن أبصرت عيناى المغمورتان بالظلام شفق الصّباح المقبل، ونهاية مرحلتنا، أعني «رأس المعبر» الذي تنتشر عليه دنيا غير دنيانا منورة وضاءة، أعجوبة الزّمان! «وادي رم»! وكانت لا تزال عناصر شخصي الثلاثة تتنافس في أمر العراك. إذا كان يستحق الاهتمام أو أن نهايته حمق وبداية لآلام جديدة، إلا أن هذا الجسم المنهوك لا يزال يسعى للقيام بواجبه غير مكترث لهذا الجدل. وهذا حق لأن عناصرى المتناقضة لا تقول شيئاً لا يمكن أن أفكر فيه بثبات ورباطة جأش، أو لم تكن كلها فلذة من ذاتي؟ كان الفيلسوف الإيطالي «تليزيو» Telesio يعتقد بعد اختبارات أجراها من هذا النوع بأنه يتمكن من حل الرّوح عن الجسد الإنساني، فلو أنه تابع اختباره إلى آخر حد من التجزئة لكان رأى مجموع الأفكار والأفعال والعواطف التي استوعبها تصطف حوله كجواهر منوعة متربصة كالعقبان في محابثها لمجيء هذا الشيء السري الغريب ليعيد إليها الحياة.

وجذب رُحَيْلَ رَسَنَ ناقتي فأخرجني من هَدياني وجولاني فيما وراء الطبيعة ثم ربت على كتفي وأفهمني بأننا أضعنا خط السّير ونكاد نقع على خطوط التّرك في «أبا اللّسن» ولم يكن واهماً فوجب علينا أن نرتد وندور دورة بعيدة كي نصل إلى «البطرة» سالمين. وفصم هذا الحادث عروة العناد بيني وبينه، وأخذنا في الحديث إلى أن بلغنا «القاع» فاستسلمنا لنوم في رابعة الثّهار تحت أشجار حمر السّهل لأن سيرنا لبطيء إلى «البطرة» أضاع علينا أمل قطع المسافة في ثلاثة أيام من الأزرق إلى العَقَبَة. وسافرنا بعد القيلولة، وقد هدأت أعصابنا وطابت نفوسنا، وتمازحنا كثيراً.

وكان ليل شتاء طويل ينتظرنا، وشاهدنا دنوّ الشّمس من المغيب بعد أن جزنا سفوح «حُزَيْل» وقد مالت إلى الغروب وراء عصائب من الغيوم البيض الواطئة، وأرتنا هذه النّاحية غروباً جميلاً من النوع الإنكليزي!.. إذ كان الضّباب في «إِضم» يرتفع شيئاً

فشيئاً ويتجمع فوق المنخفضات كالقطن المندوف، وتابعنا سيرنا إلى أن بلغنا «العقبة» عند نصف الليل، فمنا إلى الصّباح خارج المضارب، ثم ذهبت توالّ زيارة «جويس».

ولم يمض وقت طويل حتى دعوني للسّفر إلى فلسطين بطريق الجو فحملني «كرويل» على متن طائرته وألقاني في السّويس فذهبتُ توالّ إلى مركز القيادة عند آلنبي ما وراء غزّة. وكان القائد الأكبر مغموراً ببشائر الفوز فاكتفى بتقرير قصير عن فشلنا في «اليرموك» وتمكنت من أن أستر التفاصيل المؤلمة لهذا الفشل.

وكنت لا أزال بجانب آلنبي لما جاءه رسول من «چيتوود» Chetwode يبشّره بسقوط القدس... فاستعد آلنبي لدخول هذه المدينة المقدسة بموكب رسمي عظيم نظّمته بدائع «مارك سايكس» الكاثوليكية، وتكرم القائد وأوعز إلى «كلايتون» بأن يحتفظ بي في ذلك اليوم مع أركان حربه. رغماً من أنني لم أكن قد قمت بأمر نافع لفوزه الأخير، فزّينني زملائي الجدد ببيّزة رسمية برتبة ميجور في الجيش البريطاني، وأعارني «دالمني» Dalmeny رمانتين حمراوين لكتفي. وألقى «إيفانز» Evans على رأسي خوذة نحاسية. وهكذا حصلت على كل أدوات الوظيفة المبهرجة للاحتفال العظيم بدخول البريطانيين إلى القدس من باب يافا. وكانت هذه السّاعة لديّ أسعد ساعات الحرب. وقد أقيمَ هذا الاحتفال تكريماً أكثر منه تهليلاً قدّمه آلنبي لقداسة المدينة الخالدة، وعدنا إلى القيادة العامّة في (1) Shea بالعربة متعبين من حفلة الانتصار، وكانت ساعة موأية لسؤال القائد العام عما يفعل بعد ذلك، فكان يفكر بالركود التام إلى منتصف فبراير وعندئذ يحتل «أريحا». وكان الثّرك قد جمعوا مؤناً عظيمة وكدّسوها في أعالي البحر الميت فطلب مني أن أدوّن ذلك في مفكرتي كهَدَف ثان إذا نجحنا في «الطّفيلة».

وطلب الزّيادة وقدّرت بأنه لو تابع الثّرك اندحارهم ألا يمكننا أن نلتقي بالّنبي في

(1) يستخدم المؤلّف هذه التسمية لمقرّ القيادة البريطانية، علماً أنّ هذا المقر فلسطين كان في قرية بئر سالم على بعد 40 كم عن القدس و16 كم عن يافا، وقد أسّسه الفيلد مارشال إدموند آلنبي. وقد ورد الاسم مترجماً في كتاب «أعمدة الحكمة السبعة»: شيحا.

الطرف الشمالي من البحر الميت. ولو أن وسائله سمحت بتخصيص خمسين طناً يومياً من الذخائر من جميع الأصناف في «أريحا» لجيش فيصل ألا يمكننا أن نقل القيادة العامة من «العقبة» إلى «وادي الأردن».

وكانت هذه الآراء تعرض نفسها بنفسها «لألنبي» و«داوني» وأجمعنا على هذا المبدأ. إذن يجب على العرب أن يبلغوا البحر الميت بأقصى سرعة ممكنة وأن يدمروا وسائل نقل الأعداء من الشمال، ويصلوا إلى الأردن قبل شهر مارس.

ولما وصلت إلى «العقبة» قضيت الأيام القليلة الباقية في تدبير شؤون داخلية، وأخذت في تنظيم حربي الخاص، لأنَّ أهميتي أخذت تنتشر يوماً فيوماً. وبعد أن كان التُّرك يشعرون بالرغبة في معرفة محل وجودي لما تصعدنا في البلاد من رابغ إلى ينبع قد أصبحوا يشعرون بالمضايقة والقلق إلى حد أنهم نسبوا تدبير عصيان العرب إلى الإنكليز وأنهم هم المحركون والمنظمون لهذه الثورة كما كان شائعاً عندنا بأن قوة الجيش التركي مستمدة من الروح الألمانية.

وما برح التُّرك ينادون بأعلى صوتهم مؤكدين وجودي عند العرب وابتدأوا بتعيين جوائز قدرها مئة جنيه لكل من يستولي على ضابط إنكليزي حياً كان أم ميتاً، ولم تكن تضاعف قيمة هذه الجوائز مع الوقت فحسب، بل رفعوا ثمن رأسي إلى الحد الأقصى، وأسبغوا عليَّ ثوب هذا الشرف الخاص. فقد كانت قيمتي كبيرة بعد استيلائنا على العقبة. أما بعد نسف قطار جمال باشا فقد احتلَّ اسمي واسم عليَّ رأس القائمة وبلغنا رقم العشرين ألفاً من الجنيهات في حالة الحياة، وعشرة آلاف إذا جيء بنا ميتين! ومن العلوم بأنَّ هذا العرض التركي لم يكن إلا نفاضة دنيئة، ولم يذكروا قط إذا كان هذا المبلغ يدفع ذهباً أم ورقاً، وعلى كل حال لم يمنع ذلك من أن آخذ بعض الحذر، فضاعفت عدد رجالي حتى بلغوا مفرزة منظمة وضممت إليها دون تردد الأشقياء الفجرة، والشبان الأشداء الجسورين الطامحين إلى المجازفة. وكنت أرغب في فرسان لا يكلون ورجال لا يحجمون فيهم أنفة وكبرياء، لا عائلات لهم ولا أولاد. وقد قادني الحظ إلى أربعة من هذا الطراز يمكنهم أن يضرمو نار الحماسة والشجاعة

في قلوب رفاقهم الجدد ويقدرُوا قيمة حراستي الخاصة ومنزلتهم عندي.

وكنت بعد ظهر أحد الأيام أقرأ هادئاً في خيمة «مارشال» طيبينا الاسكتلندي حسب عاداتي في معسكرنا بالعقبة، وإذا بأحد العقيلين يتسلل على الرمل الناعم، وهو شاب أسمر نحيل قصير فخم الثياب على كتفه أجمل خُرج رآته عيني وأجمل ما صنعت «الحَسَا» مطرّز على الجلد بصوف مختلف الألوان. من أبيض وأخضر وبرتقالي وأحمر قان ومزيج من ناحيتيه بصف من الشراشر المتشابكة وبخمسَة سيور مشغولة بالخطوط الهندسية تتدلى خمس أقدام ما عدا شراشرها وأهدابها.

وبعد أن ألقى الشّباب السّلام عليّ باحترام ألقى ذلك الخرج على الأرض أمامي وقال لي: «هذا لك» وانسل سراً كما جاء، وفي اليوم الثاني جاء ومعه رحالة متقنة التطريز ملبسة بصفائح نحاسية مزوقة بأجمل الزّخارف اليمانية القديمة، وفي اليوم الثالث جاء صفر اليدين لابساً شبارق من القطن وتمرّغ على الأرض أمامي طالباً الخدمة عندي، ولقد كان منظره غريباً بعد أن نزع ثياب التّشريفات!.. ولم يكن بالإمكان معرفة عمره لأنه كان مغضن الوجه مجدوراً. لا أثر للشعر في وجهه إلا لين الشّباب يثني قوامه وعليه شارات الصّبا وعدم الاهتمام، وكانت ذوائبه الثّلاث السّود المجدولة اللّماء تتهدل من صدغيه على عارضيه وكتفيه، ولم تكن عيناه براقّتين بل كانتا مطبقتي الأجنان غير ثلم بينها يكاد يظهر كخط القلم، وكان فمه الشّهواني ذو الشّفتين النّاعمتين ينمّ عن مزاج طيب مع طرف من السّفه.

فسألته عن اسمه فقال عبد الله الملقب بالنّهابي (أي اللّص). إلّا أنّ هذه الكنية على اعتقاده قد ورثها عن أبيه المحترم. أما رحلاته الخاصة فلم يستفد منها شيئاً، فقد ولد في «بُريده» ومنذ حدّاته كانت تكدر عليه السّلطة المدنيّة لكفره وجحوده. ومنذ كان شاباً تعرّض لامرأة متزوجة في بيتها فهرب بسرعة من مسقط رأسه وخدم عند ابن السّعود أمير نجد.

إلّا أنّ ميله الذي لا يقاوم لسبّ الدّين دون انقطاع عرّضه للحدّ والحبس، فهجر نجداً واحتمى بالكويت، وهناك أيضاً وقع في شرك الحب، لكنه تخلص منه بعد

الجهد الجهد، وسافر إلى «حائل» وانضمّ إلى رجال الأمير ابن رشيد. إلّا أن طالعه كان يلزمه ويتضافر ضده. وغضب عليه ضابطه فضربه بهراوة علانية فطال سقمه، وبُعد شقاؤه في السجن منبوذاً طريداً لا صديق له في هذا العالم.

وكانوا في ذلك العهد يمدون السكة الحديد الحجازية فأسرع عبد الله إلى العمل والكسب في هذا السبيل، غير أن المقاول فاجأه نائماً عند الظهر وفي وقت العمل فقطع عنه أجره. فلم ترق بعينه هذه المعاملة فقطع رأس المقاول. وفي هذه المرة تدخلت الحكومة التركية، وأزّج عليه باب سجن المدينة. فصعب عليه الأمر وتكد عيشه ثم توفّق إلى الهرب من نافذة، واحتّمى في مكة وأظهر أدباً، وفي الوقت نفسه تفوقاً في ركوب النّوق فسلموه أمر توزيع البريد بين مكة وجدة، فارتاح إلى هذه الخدمة ونبذ كل عاداته السيئة، وفقد نزق الشّباب، وأرسل في طلب والديه إلى مكة، وفتح لهما حانوتاً يستغلانه لحسابه برأس مال قدمه له بعض التجار... واللصوص.

ووقع عبد الله في كمين بعد هناء وبحبوحه مدة سنة كاملة، ونهب اللصوص النّفود التي كان ينقلها واستولوا على ناقته. فقوّمت الحكومة حانوته تعويضاً عما أضاع من النّفود. إلّا أنّ شيئاً يسيراً خلص له من هذه التّكبة تمكّن به إصلاح حاله وشراء مطية والدّخول في حرس الشّريف الهجّانة. ولم يلبث أن رقيّ إلى رتبة ملازم لكفّاته لكنه لم يتمكّن من كتم ميوله المتطرفة إلى اللعب بالخنجر والإفراط في الاستهتار وملازمة بيوت البغاء في جميع عواصم البلاد العربية، وفي ثلم عرض رفاقه والتعرّض لأحوالهم الدّاخلية والاستهزاء بهم. واختلاق الأرجيف والأخبار الكاذبة عنهم ولما فصل من وظيفته اتهم أحد العتيبة الحسودين بالوشاية عليه وطعنه بخنجره داخل المحكمة وتحت أنظار الشّريف شرف الداهلة. فعاقبه شرف حتى التلّف لأن هذا الشّريف كان عادلاً إلى حد القسوة، وبالأخص فيما يتعلق بالآداب العامة. إلّا أنّه أدخله في خدمته بعد أن شفي من آلامه وكان في بداية الحرب من حراس دُخيل الضّابط العقيلي لدى فيصل وعظم شأنه بعد وصيته. إلّا أن المقاومة التي حدثت في الوجه صيرت «دُخيل» سفيراً؛ فأسف عبد الله لتركه الصّفوف، واستعطف سيده واستكتبه كتاب توصية ليخدم تحت إمّرتي، وهذا نص الكتاب:

«منذ ستين وعبد الله يخدم بأمانة، إلا أنه لم يكن محترماً وهي خصلة في الأولاد المتهتكين فهو أحد رجال قبيلة عُجَيْلَانَ المَجْرَبِينَ لأنه خدم أكثر أمراء العرب وكان يُطرد في كل مرة من عمله بعد حُدِّه وحبسه لانتقامه ممن يهينون شخصيته العظيمة!». وأكد ابن دخیل بأنه مامن أحد قط يفوق هذا النَّهَابِي بالفروسية، وإن عبد الله قد مارس فن انتقاد جِيَادِ النَّوْقِ ومعرفة صفاتها. ولا يفوق رجولته أحدٌ من بني آدم. فضلاً عن أن الحسر يخفي عنه نواحي كثيرة من الأخطار. وبالاختصار كان عبد الله مثال الرِّفِيقِ الشَّدِيدِ في مثل هذه الحرب، فأدخلته في خدمتي فوراً... ولم يذق مرارة الحبس عندي غير مرة واحدة. وذلك لوقوع حادث في معسكر النَّبِيِّ العام يوم أن أبلغني حاكم كبير - ولم يكن لديه وسيلة غير ذلك - بأن رجلاً وحشياً وجد جالساً على درجات باب منزل القائد العام مدعياً بأنه ابني! وأنه من شجعان فيصل واقتيد بدون مقاومة إلى مكان الحرس. وكان يأكل البرتقال بنَهْمِ المُرَاهِن. وكان البرتقال قليلاً في ذلك الوقت.

وفي هذه الفرصة جرب عبد الله لأول مرة التكلم بالتليفون، وقال للحاكم بأن تعميم هذه الآلة في جميع السَّجُونِ يمهد طُرُقَ الإسعاف والمدد تمهيداً محسوساً، ثم خرج بعد ذلك بحفاوة ولم يكن يشاء أن يعتقد بأن أحداً يمكنه أن يرغمه على التجوال في «الرَّملة» منزوع السلاح. وعليه فقط حصل على إذن خاص بأن يمشي متقلداً سيفه وخنجره ومسدسه، وظهر لأول مرة بفضل هذا الإنعام شاكي السلاح في ردهة الموقع حاملاً سجائر وقدم منها للحرس العسكري، وهو الذي كان يمتحن المتقدمين للخدمة في حرسِي الخاص وبفضل لباقة ولباقة «زعافي» الرَّئِيسِ الآخر في الحرس والذي كانت له صلابة الضَّابِط. بفضل هذين الشَّخصين كنت محاطاً بخيرة الرِّجَالِ الذين يندفعون إلى الموت لأجلي. وكان البريطانيون في العَقْبَةِ يسمونهم (قاطعي الطُّرُق) إلا أنَّهما لم يقطعاها قط إلا بأمرِي. وربما كان بعض الشَّخصيات المريبة الحسودة تعتقد بأنه ليس من أصالة الرَّأْيِ أن لا يعترف أولئك الدُّوِّيَّانِ بسلطة غير سلطتي. إلا أنَّهم كانوا يعرفون كيف يكسبون عطف الميجور «مارشال» رغماً من أنهم كانوا يرهقونه من الصُّبْحِ إلى المساء بأحاديث لا يفهمها، خاصة عن صفات النَّوْقِ

وطرق تربيتها وأمراضها ومعالجتها، وكان مارشال طيب القلب صبوراً، فلا يكاد يبرغ نور الصّباح حتى يرى اثنين أو ثلاثة جالسين قرب سريره ينتظرونه إلى أن يستيقظ من نومه ليتابعوا إعطاء دروسهم النظرية في الفارس الكامل الصّفات، وكان نصف رجالي تقريباً من أبناء عُقيل قروتي نَجْد الأشداء البارزين في جيش فيصل، وكانوا يمتازون عن سواهم باعتنائهم البالغ بنوقهم، وكان لكل حيوان اسمه يسمعه على بعد مئة متر، وإذا ترجل عنه فارسه يقف أمام الحِمْل الملقى إلى جانبه. وبنو عقيل قوم من المرتزقة لا يحسنون الخدمة إلا بالأمر الطّيب، وبما أنهم لم يُكافأوا مكافأة حسنة فقدت الثقة بهم وباؤوا بالخذلان، ومع أن العقيليين قد قاموا في مدة الحرب بعمل بارز إذ اجتازوا أقيية الماء تحت الأرض في المدينة مرتين متواليتين وقدموا تقريراً عن حالة الموقع المحصور.

وكنت أدفع لرجالي ستة جنيهاً عن كل شهر، وهو أجر الخيَال في الجيش ونفقات ناقته على حسابه إلا أنني كنت أركبهم نوقي حتى ليقصد الرّجل منهم أجره كاملاً، وكنت بهذه المعاملة أسيل لعاب الشّجعان الذين يتوافدون من نوحى الجيش طالبين الخدمة تحت إمرتي، رغباً من أنهم يعلمون كثرة تنقلي وأسفاري الطويلة الفجائية الشّاقة، والعربي العادي لا يطيب له السّفر على ظهر ناقته التي هي نصف ثروته ويسرع بها وينهك قوها. ولم يكن بإمكانه أن يتحمّل مشاق أسفار طويلة متعبة، إذن، كان عليّ أن أنتقي فرساناً أشداء يركبون على نوقي الخاصة، فقد اشترينا أشد الجمال وأسرعها بأثمان مرتفعة جداً، ولو أنها شديدة قوية الشّكيمة على فارسها، وقد تُفَضِّل المطايا الشّديدة الأخفاف الجافة الأرساغ، لتحملها طول الأسفار وشدائدها. ولا تكاد تهزل حتى ترسل إلى مستشفانا الخاص، بحيث أن كل حيوان متعب يفصل عن رفاقه مؤقتاً، وتجري هذه المعاملة نفسها على الفرسان، وكان الرّعاقيّون يعتبرون كل رجل مسؤولاً عن مطيته وعن حالة سرجها.

وما كان أشد افتخار أولئك الفرسان لانتمائهم إلى حرسى! ولشدة اعتنائهم بأجسامهم كنت تحسبهم حقلاً من السّوسن، أو قوس قزح في أثوابهم الزّاهية

بجميع الألوان ما عدا الأبيض الذي كان لون ثوبي دائماً، وإذا لبس أحدهم هذا اللون فيكون قد أفرط بطيب سريري . . . وكنت بمدة نصف ساعة فقط أراهم مستعدين تمام الاستعداد لرحلة ستة أسابيع، الحد الأقصى للزاد الذي يمكنهم أن يضعوه على سروج مطاياهم. أما ركوبهم الجمال المحمولة أو سوقها أمامهم إنما كان إفراط في امتهانهم، ولإشارة مني يسافرون ليلاً نهاراً ولا يشكون مللاً أو تعباً. وإذا اتفق أن أحد الرجال الحديثي الخدمة يُبدي شكوى أو تدمراً ينتهره رفاقه، وإذا لم يَرعَوْ يقدمون له أسباباً أخرى للشكوى! وكانوا يحاربون كالجبن لأقل إشارة مني، وعلى الرغم مني ويضربون الأتراك غير المحاربين. وإنها لأكبر إهانة إذا ضرب أحدهم الآخر، وينتظرون العقوبة القصوى كالمكافأة القصوى، سواء بسواء، ويفخرون على الجيش بأجمعه بأعمالهم وغنائمهم.

وكان العرب في ذلك الحين كأنهم ممسوسون وكان علينا أن نظهر أمامهم بمظهر القسوة لكي نتمكن من قيادهم، وكان رجالي فوق ذلك أعداء الدّم لثلاثين قبيلة، فلو لم أكن حازماً شديداً الوطأة عليهم لوقعت كل يوم مذابح في الجيش، ولولا انقسامهم على بعضهم البعض لاتحدوا ضدي وتآمروا عليّ، إلا أن عدم اتفاقهم خلق لي جواسيس من بينهم يؤمنون في أسفاري الطويلة بين العقبة ودمشق وبين بئر سبع وبغداد، وقد مات في خدمتي أكثر من ستين رجلاً.



الفصل الثالث والعشرون

الصّراع على الطّفيلة

وكنّا في «قويرة» ننتظر الأخبار عن ابتداء حركاتنا ضد الطّفيلة تلك الكوم من القرويين المتحكمين بطرف البحر الميت الجنوبي، وقد أشرنا بأن نزحف عليها من ثلاث جهات دفعة واحدة من الغرب، والجنوب، والشرق، وفي هذه النّاحية الأخيرة سيرفع السّتار عن مسرحنا الحربي فنأخذ «الجرف» أولاً وهي أقرب محطة لنا على الخط الحجازي، وكان على الشّريف ناصر - السّعيد - أن يتابع الهجوم بصحبة نوري السّعيد رئيس أركان حرب جعفر على رأس بعض الجنود النظاميين ومعهم مدفع وبعض رشاشات فقاموا من «جفر» التي هي قاعدة حركاتهم، وأنهوا مهمتهم في اليوم الثالث، وقد قاد ناصر غزوته بلباقة ونجاح وهو على أتم استعداد لها حسب عادته. وكان غرضه الأقصى «الجرف» وهي محطة قوية لها ثلاث بنايات بالحجر الدّبش غير المنحوت تحميها مواقع خارجية، وبعض خنادق وكان وراءها تل مرتفع محكم التحصين يصلح للدّفاع تتخلله بعض بنايات متينة وجدران مبنية بالحجر اليبس. وقد جهّزه التّرك بمدفع جبلي ورشاشين. ووراء كل ذلك مرتفع أهم وأمنع ذو سفح وعر، وهو آخر وصلة من السّلسلة التي تفصل «جفر» عن «باير».

وكانت هناك نقطة الضّعف عند الأتراك لأنهم لم يدعموا هذين المرتفعين بالجنود الكافية، وكانت قمّة الجبل تشرف على الخط الحديدي فاحتلّ ناصر في إحدى الليالي جميع هذه القمم، ولم يمهل العدو كي يطلب المدد وقطع الخط من جهتي المحطة فأصبحت منعزلة تمام العزلة. وماكاد يبرغ أول ضوء من أضواء الصّباح حتى كان

مدفع نوري السعيد مصوباً عليها من فوق القمّة وبثلاث طلقات فقط أسكت المدفع التُّركي المصوب على القمّة السفلى فاعترت نوري حماسة شديدة، وركب بنو صخر على جمالهم واستعدوا للإندفاع إلى الإمام. أما نوري فقد وجد أنها محاولة خطيرة ما دامت رشاشات العدو تمطر رصاصاً إلا أنّ كلامه لم يؤثر في عقلية البدو. عندئذٍ لم يَرِ بدءاً من مساعدتهم، فأصلى العدو ناراً حامية من مدفعه بينما بنو صخر يلتفون حول الجبل الكبير وينسلون كالسراويل على رأس الأكمة فارتد التُّرك لهذا الهجوم الجنوني. وقد دنا منهم العرب على ظهور نياقهم كالجنّ الصّاخب، واحتموا ببنائات المحطة، وجرح اثنان من المهاجمين جروحاً خطيرة. فانقض نوري على الموقع الخالي، ولم يتأثر مدفعه كثيراً، وصوّبه على المحطة بأسرع ما يمكنه فتهلل بنو صخر لما رأوا أن البناية تنداعى حجراً حجراً، واعتلوا أسروجهم ثانية، وهم يهدرون كالبُعر، وانقضوا على المحطة في الساعة التي كان يسلم فيها العدو سلاحه. وأسر من بقي حياً وعددهم مئتان منهم سبعة ضباط، وبعد أن انتهوا من النهب. نسف الإختصاصيون قاطرتين وحوض الماء المنسوب والمضخة الدافعة ومفاتيح وإبراً كثيرة على خطوط العمل، وحرقوا بعض شاحنات وألقوا بعض متفجرات تحت الجسر، ولكن سراعاً وبدون اعتناء. وكان لا بدّ بعد الانتصار والسلب أن تنقل الغنائم على أكتاف البدو فيهملون كل عمل لا يعينهم مباشرة.

وعاد الجو يعكر علينا صفونا في الأيام التالية فسقط الثلج مدة ثلاثة أيام متوالية، إلا أنّ ناصراً عاد إلى معسكر «جفر» دون أقل صعوبة.

وكانت هذه الهضاب حول معان ترتفع من ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر، ولذلك كانت عرضة للسموم الشماليّة والشرقية. ولقد كان يهبُ الشَّمَال من آسيا الوسطى ومن القوقاز فيكتسح الصّحراء الكبرى حتى قمم «أدوم» حيث تتكسر عليها أول عصفه من عصفاته، ثم يتابع هبوبه فوق المرتفعات ويتغلغل في اليهودية حتى جبل الكرمل، ويلقى وراءه صقيعاً مهلكاً، وشتاءً قاسياً مميتاً.

وإذا استثنينا بئر سبع والقدس، فقد كان البريطانيون يقاسون مضرّ البَرْد، وكان

العرب يحتمون في هذين الموقعين ليتقوا أهواله، وقد فهم أركان حرب الجيش البريطاني للأسف بعد فوات الوقت أننا نحارب في جبال من جبال الألب المصغرة، ولم تكن الخيام التي منحونا إياها لتأوي ربع رجالنا ولم يكن لدينا ملابس صوف ولا جراميق ولا أغطية كافية نفرّقها غطاءً لكل اثنين من رجالنا المعسكرين على صياصي الجبال، وكان جنودنا إذا لم يهربوا أو يموتوا في أماكنهم يحتم عليهم أن يُقاسوا أهوال البرد الأبديّة.

وكان على عرب «البتراء» وقد بلغتهم أخبار «الجرف» الطيّبة أن يحتلّوا حسب خططنا الأولية تحت قيادة الشّريف عبد المعين مرتفعات جبالهم في الغابات القريبة من «الشّوبك» ولقد كانت رحلة خيالية حقاً إذ انخرط أولئك القرويون الحفاة في غمرات الضّباب الكثيف. وعلى جلودهم جلود الغنم يصعدون ويصوبون في وديان بعيدة الغور، ويتوقّلون المنحدرات الوعرة الخطرة من تلّول الثّلوج يتخلّلها هنا وهناك شجر (الرّغر) التادر الورق. وقد هلكت حيوانات كثيرة ورجال كثيرون أيضاً. إلّا أن أولئك الجبلين الأشداء المتعوّدين على تحمّل البرد الشّديد مدة الشّتاء قد ثبتوا في التّقدم إلى النّهاية.

وقد سمع التّرك بهذه الرّحلة البطيئة المستمرة فهجروا ملاجئهم المصفحة بالثّلوج عند الغابة ونشروا في طريقهم السّلاح والمؤن وهبطوا مذعورين يفتشون عن ملجأ أمين بجوار الخط الحديدي.

وكانت أولويّة العمل دائماً لناصر فانقضّ على شمال جفر في ليلة عاصفة وزوبعة كاسحة حتى إذا بزغ الفجر ظهر على ضفّة الغدير الصّخرية حيث كانت الطّفيلة لاجئة راقدة على فراش نومها، وأمرها بالتسليم تحت طائلة ضربها وتخريبها بالمدافع فذهبت تهديداته مع أذيال الرّيح لأنّ نوري السعيد كان قد سحّب مدافعه إلى قويرة. ولم يكن في الموقع أكثر من مئة وثمانين تركياً إلّا أنّه كان لهم أتباع من بني مُحيسن. وقرّر القتال جمع من القرويين تحت لوائهم لا حباً في الأتراك وميلاً إلى حكمهم بل لأنّ «دياب» رئيس إحدى العصابات قد انضم إلى فيصل، وأمطروا رجال ناصر وابلاً من الرّصاص ولحسن الحظ قد أخطأوا الهدف.

وانتشر الحويطيون على طول الصّخور المرتفعة ليقاوموا العدو بالرّصاص، إلّا أنّ هذه الخطة لم ترق لعين «عودة» الأسد الشّيخ ولم يكن بإمكانه أن يتحمّل رؤية قرويين بؤساء صعاليك يجروّون على الوقوف أمام بني أبي تايه أسيادهم منذ الأزل وجهاً لوجه كالتدلّ للندّ واندفع على ظهر فرسه خبيّاً إلى أن بلغ أسفل بيوت الطّفيلة من جهة الشّرق، ثمّ توقف وتهدّدهم مشيراً بقبضة يده وصعق فيهم صعقة وقال: «أيها الكلاب، ألا تعرفون عودة»، فخارت قوى أولئك الفلاحين وفقدوا الجلّد ولم تمضّ نصف ساعة حتّى كان الشّريف ناصر يشرب الشّاي في أحد البيوت الكبيرة مع ضيفه! الحاكم التّركي محاولاً تخفيف صدمة القدر عليه.

ووصل «مستور» عند هبوط الليل. ونظر المطالقة إلى الحويطين نظرة انتقام لأنهم أعداء الدّم، ونظرة حسد وغيره لأن بني تايه كانوا ينزلون في أجمل منازل البلدة، إلّا أن الشّريفين قد قسما البلد إلى موقعين منفصلين كي يتقي شر اصطدام الفريقين المتنافرين الشّرسين.

وانتدب فيصل أخاه من أمه زيدا الشّاب ليقود حملة الهجوم على البحر الميت، وكانت هي المرة الأولى التي قاد فيها زيد رجالاً في الشّمال، فسافر مملوءاً حماساً وإخلاصاً، وكان من الموافق أن يكون قائدنا جعفر باشا مستشاراً له، وتوقفت فرق المشاة والمدفعيون ومطلقو الرّشاشات في البراء لنقص المؤن، وتابع زيد وجعفر سفرهما حتّى الطّفيلة.

إلّا أنّ الأمور جرت على غير ما نرغب، فقد أظهر عودة أنفه وعظمة تجاه شبّان المطالقة ومتعب وعناد بن عبطان هذا الذي قتل ابن عودة أباه من مدة طويلة، وتلفّظ أولئك الشّبّان المفتونون بأحاديث الانتقام...

ياله من بُغاثٍ يطاول نسرأ! وجاهر عودة بأنّه يؤدّبهم تأديباً على مرأى من النّاس إذا أظهرُوا ازدراءً تجاهه. ولكان هذا هيئاً لو لم تلعب بالفريقين شهوات الحساد والنّمامين، وسنرى البلدة في اللهب، وتظاهر شباب المطالقة في الشّوارع يقودهم صاحبي «رُخَيْل» النّفّاج.

وشكر زيد عودة ودفع له مبلغاً من التّقود المستحقة وأعادته إلى صحرائه ورأى رؤساء مُحيسن نفوسهم مرغمين على الاستقرار الجبري إلى جانب فيصل، وكنا على وفاق تام مع دياب عدوهم، ونعود بالذكرى المؤلمة إلى المثل القديم بأن أجود المتحالفين هم خصوم كل نظام جديد لا يؤيدون له وتحسنت حالنا الاقتصادية بفضل ذَهَبَ زيد وعيّننا ضابطاً ليقوم مقام الحاكم ونظمنا القرى الخمس حسب موافقة حركاتنا الحربية.

إلا أن هذه الخطط الجميلة كانت ثقباً في الماء، وما كدنا نستعد ونتفق ما بيننا للقيام بعمل آخر قريب حتى فاجأنا التُّرك بمحاولة غير منتظرة ليخرجوننا من أماكننا، ولم تكن تخطر ببالنا قط مثل هذه الاحتمالات والمحاولات. لأن رغبتهم في استعادة الطّفيلة أو إمكانهم الاحتفاظ بها كانت أموراً خارجة عن دائرة تفكيرنا. وكان ألّبي قد بلغ القدس والتُّرك يرقبون مخرجاً من هذه الحرب وربما يكون هذا المخرج في دفاعهم الحسن عن الأردن ضد البريطانيين، وإذا تمكنوا من البقاء في أريحا مالكين زمامها فما الطّفيلة في عيونهم سوى قرية حقيرة لا أهمية لها البتة من الوجهة الحربية، ومع ذلك لم نكن لنهتم بالاحتفاظ بها وما كانت لدينا إلا وِصلة عارضة للتقدم منها إلى السّمال نحو العدو، وإنه لمن الجنون المطبق أن يضحي جيش كجيش التُّرك جندياً واحداً وهو في موقفه الحرج ليستعيد قرية الطّفيلة.

أما حامد فخري باشا قائد الفرقة 48 وقائد مواقع عمان فلم يكن حكمه كحكمنا أو ربما قد بلغته أوامر، ولذلك قد جمع هذا القائد قدر تسعمئة رجل من المشاة استخلصهم من ثلاثة طوابير (وقد تدنّى عدد الطّابور التُّركي في يناير سنة 1918 إلى حدٍّ يرثي له) ومئة خيال ومدفعين هاويتزر جبليين وسبعة وعشرين رشاشاً وشحنهم جميعاً بالسّكة الحديد إلى «الكرك» حيث أعاد تنظيم المواصلات في تلك التّواحي، وجر وراءه جيشاً من الموظفين ليشكل الإدارة المدنية في الطّفيلة ثم سار نحو الجنوب على أمل مباغتتنا.

والحق يقال إنها كانت لنا مفاجأة، ولم نسمع قط باسم فخري إلا عند ما هبطت

كشافة الخيالة التُّركية على مخافنا الأمامية في وادي «حَسَا» الواقعة في تلك المعابر الغائرة الصَّعبة المسالك الفاصلة الكرك عن الطَّفيلة ومؤاب عن أدوم، وعند هبوط الليل كان رجالنا مشَّتَيْن والعدو ينزل علينا.

وكان جعفر قد ابتكر طريقة للدِّفاع السَّريع على ضفة غدير الطَّفيلة الكبير، واقترح إخلاء القرية - إذا وقع الهجوم - والدِّفاع عن المرتفعات التي تتحكم من وراء بهذه الكُومة من البيوت إلا أنني حكمت بأن هذا التدبير كان خطأ، نعم كانت السَّفوح وعرة ظالمة. وكان الدِّفاع فيها أصعب من الهجوم، إلا أنَّه كان في الإمكان الدَّوران حولها من جهة الشَّرق وإذا أفلتت البلدة من قبضتنا لا يلبث سكانها أن يرموا في أحضان المحتلين. فقد ر هذا الاستنتاج في كل مكان تقديراً حسنً. ولم يكن أمام زيد حل آخر فأمر عند منتصف الليل خدمه وأتباعه بأن يخلوا أماكنهم واندفع الجنود إلى القمَّة الجنوبية، وأرسلت الأمتعة في الطَّريق السَّفلي إلى وراء في مكان أمين فذعر السَّكان لهذه الحركات واعتقد الفلاحون بأننا ننجو بأنفسنا - وللحقيقة كان الأمر كما توهموا - وتحفزوا للهرب ليصونوا حياتهم ومتاعهم. وكان الجليد قاسياً يتكسر تحت الأقدام، وخلط غريب في ذلك الليل المدلهم البارد، وفي شوارع ضيقة أحدث ذعراً لا يوصف، وقد رسم لنا دياب صورة مضطربة لحالة الأتباع التَّفسية، وعدم رضائهم بهذه الحالة، وأعتقد بأنه كان يظهر إخلاصه البديع لقضيتنا أما أنا فكنت أميناً من أمانة أولئك الخضرين الشَّجعان الذين يمكننا أن نحتاج إليهم. ولكي أقيم البرهان على استنتاجي جلست على سطح بيتي أولاً ثم هبطت إلى الشَّوارع والأزقة أطوفها. وأنا متزمل بعباءتي لا يعرفني فيها أحد يتبعني عن كثب بعض من حرسى الخاص.

فلم يفتنا شيء إلا أنني لم ألحظ على أحد منهم عطفاً نحو الأتراك. بل كانوا يرتعدون خوفاً من عودة العدو إليهم. وكانوا مستعدين لأن يعضدوا أي قائد يدفع عنهم غائلة عودة التُّرك إلى الطَّفيلة، فافتنعت لهذه العواطف التي كانت توافق مبدأى بوجوب الدِّفاع عن القرية دفاع الحرِّ العنيد.

والتقيت أخيراً بمشايع جازي وبمتعب وعناد الشَّبان الأشداء الجميلي المنظر

بشبابهم الحريية، وأسلحتهم المفَضَّة فأرسلتهم في طلب عمهم «حَمْدُ العرار» ورجوت هذا الأخير بأن يجتمع إلى القرويين الذين - بدليل صدى إطلاق النار الذي يصل إلينا - كانوا لا يزالون يناشدون الأتراك ويفهمهم بأننا نجد إلى إنقاذهم وكان حمد فارساً مغواراً إلا أن في خُلُقِه سوداء. فركض حَبِياً مع عشرين من أقاربه. وهو كل ما أمكنه جمعه في هذا الذعر العام الشامل. فبلغ الرعب أقصاه لهذا الخب السريع في السَّوارع. فكان النساء يشددن حزم المتاع ويقذفنها من النوافذ، وإن يكن لا يوجد رجل إلى أسفل يتلقف هذه الحزم، والأطفال يصرخون والأمهات يولولن. وكان المطالقة لا يزالون يطلقون النار في الفضاء تشجيعاً لنفوسهم أو كأنهم يردّون نار الأتراك بالنار، وقد ابتدأت تلمع في الفضاء على الليل الهارب، وترسم خطأ نارياً حول جلاميد الشمال. فصعدت مواجهة على المرتفعات كي أتشاور مع زيد.

وكان الشريف الشاب جالساً على صخر واجماً يقلب البلاد بنظراتيه البعيدتي المدى، كي يراقب حركات العدو. وكلما تحرّج الموقف تكاسل واستسلم للخمول والانفصال عن الكون. أما أنا فقد أخذتني ثورة غضب إذ كنت أقول في نفسي: إن الأتراك لو راعوا الخطط الحربية الحقّة لما كان لهم أن يعودوا إلى الطّفيلة، غير أنّها كانت شهوة دنيئة وحسداً حقيراً وإنها لسجايًا غير جديرة بعدوّ رزين، فكيف يمكن إذن أن يطلبوا منا احتراماً لهم في حرب نظامية كهذه، وقد أثّرت بداهتمم البلهاء هذه في نفوس جنودنا فلم يقرّوا لهم بالشجاعة، ولا ينحني ضباطنا احتراماً أمام ذكاء ضباطهم. وكان الصّباح قارصاً مجلوداً. وكانت نفسي نفس توتوني جرمانني تدفعني إلى أن أكلفهم دفع ثمن تغيير خططي غالباً.

فاقترحت أولاً أن يتقدم عبد الله بمدفعين ليجسّ قوة العدو ويقدر استعدادهم، وتشاورنا في ما سوف نقوم به، ولم نكن في مداولتنا عبثاً لأن زيداً كان شاباً ومحارباً شجاعاً جدّاً ذارباطة جأش، ورزانة ضابط نظامي ورأينا عبد الله يتسلق الصّفة الأخرى، وانقطع إطلاق الرّصاص بعد أن كان متواصلاً، وشدّد وصول مدفعيتي فرسان المطالقة والفلاحين، فاندفعوا إلى الأمام وانقضوا على فرسان التُّرك ودفعوهم

إلى المرتفعات وراء سهل عرضه ميلان، ثم إلى مرتفعات أخرى أبعد منها على طول رُفارف منحدر «الحَسَا» الكبير.

وكان وراء كل ذلك يعسكر الجيش التركي الذي لا يزال جامداً في مكانه لشدة البرد! ثم تبَّه وتقدم ببطء بعد قضاء ليل شديد قاس، إلا أن الجنود لم يلبثوا أن أظهرُوا نشاطاً وصدُّوا عبد الله عنهم وأخذنا نسمع إطلاق نار الرشاشات والمدافع المتواصل، فكأننا نرى بالعين المجردة سير الموقعة، وكانت الأخبار طيبة، وكنت أتمنى لو تقدم زيد إلى الأمام بسرعة، غير أنني كنت أحترم آراءه فدعاني ذلك إلى التريث وانتظار أخبار دقيقة عن عبد الله الكامن في الطليعة.

وكان هذا الحذر غير ضروري، إلا أنهم كانوا يعرفون بأني لم أكن جندياً نظامياً فيسمحوا لنفوسهم حرية التردّد في الموافقة على مشوراتي، إلا إذا أفحمتهم بالحجة القاطعة، ولحسن الحظ كانت لديّ خرائط تسعفني فتقدمت إلى الجبهة كي أحكم بنفسي في أمر قرارهم، فالتقيت ببعض حرسى الخاص يقبّلون في كُوم من المتاع ألقتها النسوة في الشارع، وقبل أن يُسرعنَ إلى التقاطها كان حرسى ينزعون منها أشياء كثيرة مفيدة، فأمرتهم بأن يعودوا إلى جمالنا ويأتوا بمدافع «هوتشكيس» الآلي على ضفّة المعبر الشماليّة.

وكان الطريق يمرّ تحت كرمة من التين القاحل، ذي الأوراق الصفراء والغصون العُوج المثنيّة والتي ستصبر زمناً طويلاً على عُزّيها إلى أن يأتي الربيع بالحياة والخضرة، ودار الطريق من هناك لجهة الشرق متّنياً إلى مسافة طويلة على السّفوح إلى أن بلغتُ القمّة، فتركتهَا وتنحيت كي أتسلق الجلاميد وأبلغ المرتفع، وكان الإنسان إذا مشى عاري القدمين اتّقى السقوط على الصّخور الملس، وخصوصاً وأن الأقدام التي تصلّبت لطول الأسفار وشقائها، والتي جلدت من شدة البرد لم تعد تشعر بخشونة الأرض وحدّ الحصى الحسّكة، وقد قصر الطريق الذي سلكتُهُ ودفّنت الأرض فوصلت بسرعة إلى آخر قمة حيث أشرفت على مناظر الهضبة الجميلة، بعد أن قطعت سهلاً منبسّطاً.

وكانت هذه القمة المنتصبة لا تزال تحرص على بعض أسس جدران بيزنطية طال عليها الأمد وانطوت حولها الأجيال، اتفاق عجيب يمكننا معه صون جنودنا الاحتياطية في ذلك الملجأ الرفيع، أو إقامة المعادل العليا للدفاع عن الطفيلة.

وللحقيقة لم يكن لدينا احتياطي في ذلك الوقت، ولم يكن أحد منا يشك في معرفة مكان جنودنا العاملة في تلك اللحظة وفي كيفية توزيع قواتنا إلا أننا إذا تمكنا من الحصول على بعض رجالنا فيكون هنا، نعم هنا مكانهم الأفضل، ولقد رأيت أمامي العقيليين الملتحقين بزيد يتحفزون خجلين للإلتجاء في منخفض من الأرض، ولم يكن من السهل إخراجهم منه، فالتجأت إلى الكلام الشديد القاسي فوصلت في النهاية إلى إقناعهم، ودعوتهم إلى أن يتقدموا ويجلسوا على طول حرف القمة ذات الصخور المرمرية، ولقد ظهرت سُدُوفهم تترأى في السحاب، وكانوا قدر عشرين رجلاً، ونظراً لبعدهم عن العدو كانوا يظهرون كأنهم مفرزة من الجيش كثيرة العدد، وأعطيتهم خاتمي علامة موافقتي على تجمعهم فيمكنهم بوساطة هذا الشعار حَجز كل رجل يصل إليهم وخاصة رجالي ومدافعهم.

ثم تقدمت إلى الشمال في وجهة المعركة واجتمعت بعبد الله وهو ذاهب إلى زيد ليطلع منه على الأخبار والحوادث، وقد نفدت ذخيرته وقتل خمسة من رجاله بشظايا القنابل وتعطل مدفع من مدفعه الأتوماتيك وكان يعتقد بأن التُّرك قد انقسموا إلى قسمين، وكان يريد أن يقنع زيداً بوجوب الصُّعود إلى الهضبة مع جميع رجاله ويشارك في المعركة، فلم يكن عندي ما أضيفه إلى تقريره، ولم ألجأ إلى الحيلة وتركت لأستاذي السَّعِيدِينَ العناية والارتياح إلى تغيير المواقف المواقف التي يرونها مهددة والتوقيع على تقاريرهم التي كانت على كل حال موافقة للحالة الرَّاهنة.

وعندئذٍ سنحت لي الفرصة لدرس الموقعة المقبلة، وكان السَّهل الصَّغير البالغ عرضه ميلين ذا زاوية ومحدوداً من ناحية بالأشجار المخضوضلة قليلة البروز ومن ناحية أخرى بأسناد الجبل الذي أقفر من حاميئنا، وفي هذا السَّهل يمرّ طريق الكرك إلى أن ينحدر في «الحَسَا».

وجاهد الأتراك جهاد المستميت ليشقوا لهم طريقاً على هذا السهل، إلا أننا بفضل هجوم عبد الله كنا مالكين من الميسرة جميع التلال الغربية التي تمر عليها خطوط نارنا، وبينما كنت أعبر الفضاء المكشوف تساقطت حولي بعض القنابل ودخلت في قدمي الدّاميتين عيدان الحُمَر، وكانت نيران التُّرك مصوبة إلى أبعد مدى، فبعد أن تحلّق القنابل فوق جبالنا كانت تنفجر وراءنا إلا أن قبلة انفجرت بالقرب مني فتمكنت من معرفة عيارها! وكنت لا أزال أتقدم فأخذ الأتراك يقصرون مدى الرّماية إلى أن بلغت الجبل ويمطرون سفوحه بقذائف المنثار «شراپنل» بسخاء وكان لهم من غير شك مكان مكان مستور للاستكشاف والمراقبة. فرقت الأفق يامعان فإذا بجنود يتسلّقون من جهة الشّرق ما وراء المعبر الذي يمرّ فيه طريق الكرك وسينقضّون علينا حالاً من طرف الجبل لجهة الغرب.

وكنا نبلغ السّتين عدداً ومقسمين إلى قسمين وراء الجبل. قسم في أسفله وقسم على قنّته، أما القسم السفلي فكان مؤلفاً من قرويين عُراة حُفاة تكتسحهم نيران العدو. وكان موقفهم رديئاً إلا أنهم هم وحدهم الذين شاهدتهم في ذلك اليوم لا يرتعدون من شدة البرد! وقالوا لي لقد نفذت منا الدّخيرة وانتهى الأمر، فأجبتهم بأن ما يعتقدونه هو خلاف الواقع إنما هي البداية لا النهاية وأشرت بسبّابتي إلى الجبل، وقلت لهم بجرأة: هناك الدّخائر المقدّسة تنتظركم فشمّروا وأسرعوا واملأوا أحزمتكم ذخائر وتشدّدوا، وبهذه الفرصة كنا قد سترنا انسحابهم ومكثنا مكانهم إلى أقصى حد مكثنا منه الطّروف.

فأسرعوا وقد شدّد عزيمتهم خطابي الموجز وركضت إلى القمّة وأفهمتهم بأن لا ينقطعوا عن إطلاق النّار في نقطة معينة حتى يكونوا على أتم استعداد لإطلاق نار أخرى على نقطة ثانية، وكان «متعب» يقود هذه الفرقة الضّئيلة وهو بلباس الرّكوب كأنه نصف عار ليتمكن من القيام بهذا العمل القاسي، وكانت عقارب صدغيه الجميلة تتدلى على وجهه سُعثاً ملوثة. وبدأ زائغاً وحشيّ المنظر إذ تقلصت يداه وهذّر صوته وفاض غضبه لخيبته وانفلات الفرصة التي كان يرجو منها أن يكسب أول معركة خاض غمارها لقضيتنا.

وكان لوصولي إليه في هذه الساعة الحرجة والأثرak يتقدمون مرارة تفتطرت لها كبده، ولما قلت له إني قادم إلى هذا المكان لأدرس مناظر الطبيعة البهيجة اشتد غضبه وظن أنني أهزأ به، وغمغم ببعض كلمات ضد المسيحي الذي يذهب أعزل إلى الحرب، فأجبت به بأن «كلاوزيقتس» Clausewitz يؤكد في «كتابه عن الحروب» بأن مؤخرة الجيش تقوم بعملها أحسن قيام بوجودها في مكانها لا باشتراكها الفعلي في المعركة، إلا أنه لم يكن مستعداً للضحك حتى ولا للإبتسام. وكان محقاً لأن الوادي الصّوّاني الذي كنا نحتمي وراءه كان يدوي دويّاً، ولأن العدو قد اكتشف مخبأنا فصوب عشرين رشاشاً تقصف مقذوفاتها وتنفجر على مناكب ذلك المخبأ. ولم يبقَ لدينا ما نحتمي به من الأرض سوى ارتفاع أربع أقدام، وعرض خمس ينقها الرصاص نقباً ويقلبها قلباً ويمرّ طائشٌ منه فوق رؤوسنا يصفر صفيراً يصم الأذان كأن جنود الموت تزحف علينا، ويد القضاء تقبض على أعناقنا، إذن كان علينا أن نرتد عن هذه القترّة الرديئة، لم يكن لديّ فرس. فوعدني «متعب» بأنه يتشجع ويثبت عشر دقائق ثم يتبعني.

أدفاني الرّكض، وعددت خطواتي لا تثبت من طول مسافة الموقع ومن عدد المهاجمين إذا تمكنوا من الانقضاض علينا وإخراجنا من معاقلنا. ولم يكن بإمكانهم الإلتجاء إلى مكان آخر وكان هذا المكان مكشوفاً لا ملجأ فيه من جهة الجنوب. فإذا فقدوا جبل المطالقة هذا ربحنا المعركة دون أقل شك. فصمد الخيالة مدة العشر دقائق المضروبة، ثم أطلقوا العنان لخيولهم، وقد بلغني «متعب» فأفسح ركابه لرجلي وأردفني على فرسه وإذا بنا بين العقيلين سالمين جميعاً. وكانت ساعة الظهيرة تماماً. إذن لدينا متسع للتفكير والراحة، وكان عرض موقفنا في الجبل يبلغ الأربعين قدماً. وله شكل حسن للدفاع، وقد احتلّ القمة ثمانون من رجالنا ولا يزال الشّجعان يتوافدون، وتقدم المدفعيون ببطارياتهم ومدفعهم. وجرّ لطفني -المخرّب المشهور- مدفعه بسرعة يتبعه مئة عقيلي. وكان اجتماعنا كأننا في وليمة وكلمتنا دائماً «حسن» كانت تخفي عن الرّجال أموراً غامضة ومواقف حرجة وتنشط الوهن وتحيي أمل اليائس الرّعديد، وثبتنا المدافع الآليّة وراءنا على طول عرف الجبل الذي يخفيها عن نظارات العدو

بنظام يسمح بضرب العدو في أماكن مختلفة كي نضايقهم في انتشارهم لا أن نمنعهم منه. وتلك حيلة كان يلجأ إليها «ماسينا» Massena. وهدأت الحال وسكن المكان فرقدت في مخبأ تدفئه حرارة الشمس. و يقيني الرّيح ورصاص العدو. وغفوت ساعة كالرّجل السّعيد بينما العدو يحتل الجبل الذي أخليناه ويتشتر مثل قطيع من الأوزّ وله ذكاء هذه الطّيور الدّواجن فتركهم رجالنا وشأنهم واكتفوا باستعراض أنفسهم.

ووصل زيد وستور عند الأصيل وكذلك راسم وعبد الله. وقادوا معظم قوتنا المؤلفة من عشرين نفراً من الپياده على ظهور بغالهم، ومن ثلاثين فارساً من المطالقة ومئتي قروي وخمس بنادق آليّة وأربعة رشاشات ومدفع الجبال المصري الذي شهد مواقع المدينة، والبتراء والجرف، فصحوت لأستقبل جيشنا فكان مثل هذا التجمع بديعاً حقاً.

فأمطرنا العدو ناراً حامية من مدافعه ورشاشاته عند رؤيته تدفق الرّجال حولنا، إلّا أنّ رجاله كانوا يخطئون المرمى، وقد تذكرنا بأن الحركة هي دستور الفن الحربي وأخذنا في التقدم. وكان راسم قد تحول إلى ضابط فرسان فسار في الطليعة ووراءه ثمانون فارساً لينفوا حول الجبل من الشّرق ويحدقوا بالجنّاح الأيسر، لأن الكتب تعلمنا بأن لا نهجم على الجبهة بل على نقطة من الجناح بعيدة كثيراً عن القلب. وربما كان طرف جناح العدو هنا قد تضاءل إلى الحد الأدنى - إلى رجل واحد - فراق تقديري بعين راسم وابتسم لفهمه هذه القضية، ووعدنا مازحاً بأنه سيقود إلينا الرّجل الأخير الوحيد. أمّا «حمّد العرار» فقد نظر إلى الأمر بعين الجد، وقبل أن يمتطي جواده إلى المعركة نذر حياته للموت حباً بالقضية العربية، وامتشق حسامه باحتفاء واحترام، وأقسم على هذا السّلاح، وخطب به خطاباً حماسياً، وجرّ راسم ووراءه خمسة مدافع آليّة فكان عمله حسناً.

أما نحن - وقد كنا في القلب - فقد تظاهرنّا بروحة وجيئة من كل ناحية كي نخفي سفر حملتنا الصّغيرة عن العدو الذي كان يجول في الجبهة ويطوف تطوافاً لا نهاية له مستعرضاً رشاشاته المصفوفة صفّاً بديعاً على عرف الجبل كأنها على رف من رفوف

المتاحف، لقد كان فناً من فنون المجانين - وكان الجبل جلموداً حقيقياً من الصَّوَّان لا يقدم ملجأ لضب. وكنا نعلم بالاختبار ما لوقع القذائف على مثل هذه الصَّخور من التأثير، فإنها تحطمها فتتناثر الشَّظايا وتقتل كل إنسان تقع عليه. وكنا نعلم أيضاً مدى مدافعنا «فيكرز» ونقدّر عدّة تصويبها الطَّويل غير المألوف حق قدرها. فبِتَّنا مدفعنا هذا وصوَّبناه، وتأهبنا لقذف الشَّراپنل على العدو حالما يبدأ راسم بالهجوم.

وبينما نحن في انتظار هذه الفرصة الدَّقيقة وإذا بنجدة مؤلفة من مئة رجل قادم إلينا من «عائمة» وكان هؤلاء الرِّجال قد أضربوا عن القتال لخلاف قام بينهم وبين زيد على قيمة الأجر الذي يتقاضونه منه، إلّا أنهم هبوا لنجدتنا بشمَم تاركين ساعة الحساب لما بعد المعركة، واقتنعنا عند وصولهم باستصواب نبذ طرق «المارشال فوش». والهجوم إذ لا بدّ منه ولا سبيل لنا سواه، من ثلاث جهات دفعة واحدة، فأرسلنا رجال «عائمة» مع ثلاثة مدافع آليّة ليطلقوا على يمين العدو - جناحه الغربي - وأضرنا التُّرك شواظاً من مدافعنا أقلقتهم وهم على ذلك الجبل الصَّوَّاني ولم نخطف المرمى، فشعروا عندئذٍ بأن سعود اليوم قد انقلبت عليهم نحوساً، وأن الشَّمس قد مالت إلى الأفق، ونحن نعلم جيداً بأن آخر النهار يكون فوزاً في جانب المدافعين الذين يشتبون في مواقفهم.

فجمع حامد فخري الشَّيخ أركان حربه وضباطه وجنوده وأمرهم بأن يتقلد كل منهم بندقيته، وقال: لقد «مرّت عليّ أربعون سنة في الجندية، لم أر فيها قطّ عُصاة يقاتلون بمثل هذه الشَّجاعة الغريبة، ضُمتوا صفوفكم». إلّا أنه قد حال الجريض دون القريض لأن راسماً كان قد اندفع إلى الأمام مع خمسة مدافع آليّة لكل مدفع رجلان يتناوبان إطلاق النَّار. وابتدأ بالهجوم، وكان رجاله المحجوبون عن الأنظار يسحقون جناح التُّرك الأيسر سحقاً.

وكان رجال «عائمة» يعرفون مخارم تلك الفجاج حتى نوع أشجارها ونباتها وسهولها ونجودها لأنها مراعي مواشيهم، فانسَلُّوا سالمين إلى بعد ثلاثمئة متر من رشاشات العدو وهو لاهٍ عنهم بإنذارنا وتهديدنا للقلب حتى فوجئ بوابل من بنادقهم وفتكوا به فتكاً ذريعاً وشتتوا ميمته كل مشتت. ورأينا هذا التوفيق بالعين المجرّدة،

فصرخنا بالهَجَّانة والجنود المحيطين بنا ودعوناهم إلى الإندفاع بأقصى سرعة إلى الأمام.

وركب محمّد الغاصب وكيل بيت زيد على ناقّة وقادهم وراءه، وهو بثوبه الفضفاض الزّاهي بألوانه المنفوخ بأفواه الرّيح يخفق علم بني عُقيل فوق رأسه عالياً، واندفع وراءه كل من كان حولنا من رجال المدفعية، والخدم ومطلقِي الرّشاشات في صف عريض بديع، ولقد كان النّهار أطول من أن تحمله قواي، ولم أكن أتمنى سوى أمر واحد هو معرفة النّتيجة. أما زيد فكان يصفّق وهو إلى جانبي وقد أخذته نشوة النّصر عندما تحقّق من نجاح خططنا واتساقها إلى النّهاية.

وكان فرسان راسم من جهة تحصد الجناح الأيسر. ويصرع رجال «عائمة» المنهزمين من جهة أخرى بلا شفقة وبجند لونهم كجذوع الأشجار في هبوب العاصفة. وتزاحم قلب العدو في شَرْم الجَبَل. وتشتتوا من كل صوب يعمل في أفقيتهم رجالنا المشاة والهَجَّانة والفرسان. وكان الأرمن يتربصون طوال النّهار وراءنا ينتظرون إشارتنا، وقد نفذ منهم الصّبر فاندفعوا وراء العدو يصخبون ويصيحون بالترّكية شاهرين خناجرهم الطّويلة. وجالت في خاطري المضايق الفاغرة بين هنا والكرّك. وتراءى لمخيلتي غدير «حَسَا» ذو المعابر والمسالك الوعرة المنحدرة عامودياً، والأشواك التي تزحمها والمخارم التي تزحمها فقلت في نفسي، إن انهزام التّرك سيتحول إلى مذبحه هائلة فعليّ أن أناشد الرّحمة وأنشدها عند رجالي شفقة على المغلوبين، إلا أني - بعد جهودي وعذابي في تلك المعركة - كنت منحط القوى قليل الصّبر لا أملك من شعوري وقواي ما يحملني على العودة إلى تلك الأماكن المخيفة وأهلك لأجل خلاص عدو.

لقد قتل من رجالنا عشرون أو ثلاثون لمجرد عزمي على القتال، وسنلاقي عدداً مضاعفاً من الجرحى. وهكذا قد فقدنا ستة أجزاء من قوتنا لأجل انتصار وهمي. لأنّ الألف جندي تُركي لا تؤثر على نتيجة الحرب.

وكانت أسلاب الموقعة مدفعين «هاويتزر» للجبال ومدفعين «سكودا» Skoda بحالة حسنة وسبعة وعشرين رشاشاً ومئتي حصان وبغل ومئتين وخمسين أسيراً،

وتأكدت بأنه لم ينج من العدو غير خمسين جندياً وصلوا إلى الخط الحديدي منهوكي القوى، لأنَّ العرب الهائجين قد لحقوا بهم وذبحوهم من غير رحمة، أما رجالنا فقد امتنعوا عن اللحاق بما بقي من الأحياء لأنهم هم أيضاً قد فقدوا قواهم، وتولاهم التعب الشديد والآلام المبرحة والجوع اللاذع.

وتساقط الثلج عند رجوعنا من الموقعة وتضاعفت مشاقنا عند لَمَّ جرحانا. أما جرحي التُّرك فقد لزموا الحضيض ينتظرون القدر المحتوم، ولَمَّا طلع الصُّباح لم يبق منهم حيٌّ وكفَّ عنهم الثلج بثوبه ناصع البياض.



عبد الله الرَّعَاقِي
نقيب حرس لورَنس

الفصل الرابع والعشرون

الشتاء يكبّل حركتنا

وتساقط الثلج يومين متواصلين، واشتدّ الجليد والبرد، وتمرّ الأيام والساعات ممّلة طويلة وتأخذ معها كل أمل بالتحرك والقيام بأي عمل، وكان علينا أن نتابع سيرنا ونلاحق نصرنا ونتعقب عدونا ونقذفه إلى ما وراء الكرك ونجني ثمار النصر شهياً. إلّا أنّ ركودنا أضاع علينا الفرص الثمينة وضاعت به جهودنا وخسائرنّا.

وقذف الشتاء القاسي بالضباط والجنود والرؤساء إلى القرية فزحموا أنفسهم وبدوا خليطاً عاطلاً كالحا منقبضاً لا سبيل للحماسة إلى قلوبهم. ولا للإقناع في عقولهم... إلّا أن الجليد - والحق يقال - كان يدعونا إلى البقاء في ملاجئنا وحول مواقدنا. ولقد حاولت مرتين أن أجس تلك الهضاب ناصعة البياض المكفنة بالثلوج إلا ما يتخلّلها من أجسام سُمر حقيرة هي أشلاء أولئك الثرك المساكين وقد جلدت ثيابهم، لكن البرد خارج أوكارنا فقد كان لا يطاق، بل الحياة غير ممكنة. إذ يذوب الثلج في النهار ويتحول ذوبانه في الليل إلى جليد يغطي وجه الأرض وتهب سموم تقطع الجلود وتحبس الأنفاس وتقلص القدمين واليدين فتخدر وتضطرب لها الخدود فتصفّر كأوراق الخريف، وتقلص بدورها وتجمد العضلات لِهول الآلام ويخبل العقل ويعتريه ذهول غريب.

وإذا جاذفنا على ظهور جمالنا البائسة التي لم تتعود أخفافها قط على الزلّ في أرض وحلة مجلودة فإننا ربما نكون قد أسلمنا إلى بعض الفرسان الثرك المهوسين - ولو إلى عدد قليل منهم - الذين يحاولون الانقضاض علينا... وطال علينا المقام

المضطرب في الطفيلة، وما علينا إلا أن نخرج من جحورنا. لقد نفذ الشَّعير من معالف جمالنا وهي محرومة من العشب الثَّابت تحت صفائح الجليد، وهزلت هزلاً بَيَّناً وخشنا أن تنفق جوعاً، إذن علينا أن نقودها إلى الغور في أرض أقل قحطاً وحرماناً مسافة يوم كامل من مَجْمَعَتنا.

وكن حرسى الخاص مميزاً عن سواه، لأنَّ الزَّعاقين قد أوجدوا لي بناية وإن تكن غير متممة البنيان، إلا أنه كان فيها غرفتان واسعتان تسكنان. وردهة. وكان لدي مال لشراء الوقود لنا والعلف لجمالنا التي آويناها في زاوية من زوايا الرِّدْهة، وكان عبد الله يحب الحيوانات ويعتني بمعالجتها وتقويمها. ويدعو كل ناقة بإسمها فتسرع إليه محمحة، وتقطف بمشافرها اللينة من فم صاحبها قطع الخبز أو بعض الحلوى، وقصارى القول كان وقوفنا في تلك الدِّيار، وفي هذه الدَّار خطراً على أرواحنا. إذا أوقدنا الحطب امتلأت الغرفتان دخاناً يكاد يخنقنا. وفوق ذلك كانت التَّوافذ غير محكمة القفل فتسمح للسموم القاتلة أن تدخل علينا وتقض مضاجعنا وتجلد أجسامنا وثيابنا. والوكف المتواصل يتساقط من السَّقْف عن السَّطح الملبَّد بالتراب ويبلل ثيابنا ويزيد في آلامنا، والبراغيث على عروشها فوق المصطبة الحجرية تتجمع جوقة بديعة لترتل أناشيد الفرح تمجيداً للجلود الجديدة التي تتقدم صاغرة، وتزكي فيها الشَّهوة إلى الطَّعام، وكنا ثمانية وعشرين نفراً متكوّمين في تينك الحجرتين.

دولا أذكر بإسهاب خم العرق المنتشر من تلك الأجسام المحصورة في مكان مقفول.

وكان في خرجي كتاب «موت آرثر» *Le Morte d'Arthure* فخفف شيئاً من مللي. أما الآخرون فكان لهُوهم بالأشياء المادية، وقد تصلبت طباعهم وغلظت أخلاقهم في هذا السَّجن المضني والبؤس المفرط. وكنت في مكان آخر أرى غرائب الرِّجال في الصَّحراء، أما هنا فكنت أصطدم بهم وأغضب وأتقزز. فضلاً عن ألم جرح مجلود في فخذي يبرِّح بي ويضاعف شقائي. وأخذ الاتصال ببعضنا يشتدُّ يوماً فيوماً وتزداد حالنا قذارة وتقدم شيئاً فشيئاً إلى البهيمية.

وأناخ شهر يناير القاسي بكلّكله على شقائنا، ثم انقضى وخلف وراءه شهر فبراير المرعب المخيف فلم يبقَ للصبر منزع فصممت على قطع العروة وفرط تلك الحفنة من الرجال فتنتثر كيفما يشاء لها القدر وأسافر أنا من جهتي للتفتيش على قيمة إضافية من الذهب سنحتاج عما قليل إليها. وقد أنفق زيد الذهب المخصص للطفيلة والبحر الميت، للأجور والذخيرة والمكافآت للظافرين في «سبيل الحسا» ومهما يكن من أمر خط جبهتنا القادم فلا بدّ من أن نحتاج إلى رجال جدد نضمهم إلينا وندفع لهم أجوراً، لأنّ رجال البلاد هم وحدهم الذين يعرفون مخارم الأرض ومعابرها، وهم الذين يحسنون أكثر من غيرهم الدّفاع عن أكوأخهم وحصادهم ضد العدو.

وكان من الممكن أن يرسل إلينا «جويس» نقوداً وإن يكن الأمر صعباً في مثل هذا الفصل القاسي، إلّا أنني رأيت أن أذهب بنفسني لقضاء هذه المهمّة، كي أخلص من خلاط طفيلة الدائم وأفش عن قيمتي الأدبية المفقودة، وخرجت إلى الفضاء النّاصع مع خمسة من رجالي، وكان الصّباح يعدنا بتحسّن حالة جوه فتقدمنا إلى «رشيديّة» دون عائق ما، وصعدنا الجبل الذي وراءها فإذا بنا فوق التلّوج. واستقبلنا شعاع ضئيل من أشعة الشّمس وأطبقت السّماء بعد الظّهر، وهبّت ريح شمّال هوجاء نحو الشّرق كادت تصرعنا. وندمنا على تقدّمنا إلى قلب هذا السّهل العاري. وبعد أن خضنا غدِير الشّوَبَك على أقدامنا انصبّ المطر انصباباً ثم استمر هطله رذاذاً يروي أكتافنا اليسرى كأنه يحجز عنا ريح الشّمال وبرده. فَجَرَت الطّرقُ سواقي مزبدة لكنها لم تمنعنا من التّقدم دائماً والسّير إلى الأمام إلى أن هبط الليل وحلكت الأرض وتباطأت خُطى جماننا، تنزلق وتسقط فنرفعها ونزجّيها ونكلفها جهوداً أخرى في هذه الأودية الموحلة المخيفة، وكنا نسير ميلين في السّاعة رغماً من جميع الصّعوبات ونحسب أنفسنا سعداء لهذا التّقدم المحسوس الذي أنسانا البرد الشّديد.

وكنت أود متابعة السّير إلى الصّباح إلّا أن ضباباً كثيفاً عند «إزرع» أخذ علينا الطّريق وصدعنا الأمل وانقذت الغيوم عصاب وتصدّعت لوالب عريضة عالية في السّماء السّاجية، وتبدّلت المرائي أمامنا، فكنا نرى الجبال العظيمة البعيدة تتضاءل،

والتلال الحقيرة أماناً شامخة ترتفع وتجري مع السحاب، وكنا قد انحرفنا كثيراً إلى يميننا، واعتقدنا بأن أرض هذه الناحية صلبة إلا أنها للأسف كانت كالثمرة العفنة تغوص أخفاف الإبل فيها إلى أرساغها، فتجمدت مفاصل تلك الحيوانات البائسة لكثرة سقوطها على تلك الأرض المجلودة وتحملت ما لا يتحمّله حيوان آخر، إلى أن حُرنت وأرادت أن تضرب عن السير، ثم أسرعنا ثم توقفت ثم مالت إلى ناحية الطريق تحاول الهرب من مصاعب أخرى في انتظارها.

وقد فطنا لحيلتها فقفناها عُمي لا نرى أماناً شيئاً إلا أن بلغنا ودياناً صخرية متساوية الحلك يميناً وشمالاً، وانتصب أماناً كشبه جبل لا محلّ له في خارطة الكون، وجلدت الأرض والصخور واستحال علينا التقدم في مثل هذا الليل ومثل وعورة هذا الطريق، فهدأ جنونا - وترجلنا تحت أقدام صخر عظيم رجونا أن يكون لنا بجانبه ملجأ، وأنخنا الجمال متلاصقة وأذناها تقابل الهواء - لأنّ مواجهة الإبل للريح الصّرصر تميّتها، وتجمعنا مستندين على بطونها لنكسب شيئاً من حرارتها ونغفو.

فلم أدفأ، وغفوت لمأماً، وصحوت مرتعداً وكأنّ أصابع يد تلطم خديّ ففتحت جفنيّ الباهظين فإذا ببرّد كبير يتساقط علينا في ذلك الليل الأكدّر الأربد، ثم عقبه شتاءٌ غزير ثم جليد لم يبق له مثيل، فتكوّمتُ على ذاتي كالكرة مقاوماً أشدّ الآلام، وويلنا إذا تحرّكنا قبل الصّباح، وكفى بي همّاً أن أرى تلكو هذا الصّبح البعيد، فنهضتُ وطفئتُ على رفاقي فإذا بهم ملتفون بعباءاتهم وبالسّجاد ومستندون على خواصر الإبل، فقرأتُ على صفحات وجوههم الشّاحبة أقسى ملامح اليأس والاستسلام للقدر المحتوم.

وانطبق الأفق بل الشّفق، إلّا أننا قدرنا بأن الطريق يبعد قدر ربع ميل عن شمالنا. ولما بلغنا مشينا على أقدامنا لنذل من صعوبة السير ونريح جمالنا المائة. وقد نفقت كلها بعد ذلك من هول تلك الرّحلة - ما عدا ناقتي - وتابعا السير ننزل في كل لحظة على الوحل اللزج ونسقط على الأرض.

وجلد كل شيء في الكون وقد هبّت في الليل ريح شمالية، وأثلجتنا السّماء فضاعفت متاعبنا، وانتفخت عباءتنا لهبوب عاصفة جديدة وهي تلطم أجسامنا

كالشراع المنشور على دَقْل السَّفينة فخلعناها فسهلت علينا الحركة وحزنا قمصاننا على أوساطنا لنمنعها من التصفيق. وخدرت أيادينا ففقدت كل شعور حتى إننا لم نكن نشعر بالفُلُوع في أيادينا لولا الدَّم المتجمد الممزوج بالتراب فوق هذه الفلُوع إلا أن أجسامنا كانت لا تزال تشعر بشيء من قوة هذا الجو وقد أخذتها القشعريرة ساعات طويلة. والبرد يتساقط عليها والعواصف تلعب بها وقد عَزَّ الملجأ في ذلك القفر الموحش. وكنا نحني ظهورنا لنواجه الشَّمال بالنّاحية الأقلّ ألماً ونبعد قمصاننا المبلّلة عن جلودنا لدخل طبقة هوائية بينما تقينا شيئاً من قوارص القرّ. وكنا قد قطعنا العشرة أميال التي تفصلنا عن «أبا اللّسن» وقد قارب النهار الزّوال، ولاقتنا الأرض الدّافئة ملاقة الحبيب للحبيب. وإلا أن رجال مولود لم يحيونا. فحسنأ ما فعلوا! لأننا كنا قذرين بؤساء شعثاً كالهرة ازبأز وبرّها! وسهل علينا السّير بعد ذلك رغماً من أن الأرض كانت لا تزال وحلة حتى دخولنا «شتار». ثم جلدت الأرض على بعد ميلين، وكانت صلبة كالفلولاذ، ثم ركبنا مطايانا وهي تلهث وتخرج من مناخرها هباء كالضّباب الأشهب، وتحرد وتحاول أن تتوقف عن السّير، فأزجيناها وسرنا خيباً وحشناها على سهول «قُويرة» وقد انقذت الغيوم عن أشعة شمس دافئة حمراء فكانت حفاوتها بنا حفاوة الأمّ بالإبنة الزّائرة! وكان ذلك السّحاب الشّفّ كأنه سراق مرفوع على الأودية والجلاميد الشّاهقة دائم التحول إلى أشكال فريدة التّظير تنفّذ عنه كَبَابٌ بيض كزبد الأمواج وكأنها تصفع خدودنا وتحاول أن تصدنا عن السّير. ثم يردّها عنا الشّمال فترتد وتتجمع بعيدة عنا أثيثة، ثم تنقصد على أطراف الصّخور المسنّنة وتضمحل مرقشة الصّخور بتنفّها البيض أو تتساقط نقطاً نقطاً وتضيع في الأرض التّربة.

وبعد أن نعمنا طويلاً بمشاهدة ألعاب ذلك الجو الغريبة صوّبنا على منحدرات المعبر جذلين وسرنا في عقيق مفروش بالرّممل التّاعم ساكن ساج عذب، إلا أن السّرور كان أبعد من أن يخفف من آلامنا لأنّ الدّم قد شرع يجري في عروقنا ثانية، وهي لا تزال مجلودة فبرحت بنا آلام أشد من آلام البرد والجليد. ودب الشّعور في أقدامنا المفلّعة وكنا قد فقدنا عندما كنا نتخبط في الأوحال الباردة وتمشت الأوجاع من جراء

ذلك الرَّمْل الحار المالح كأنَّ الشَّبَّ قد مر على جروحنا.

وكان لا بدَّ من أن نفاجئ تلك البهائم المنحوسة المتعوسة ونمتطيها حتى نبلغ «قويرة» إلا أن الأمل قد دبَّ عليها فسارت مطواعة إلى أن بلغنا آخر المرحلة.

وكانوا قد أرسلوا إليَّ من «العَقَبَة» ثلاثين ألف جنيه ذهباً وناقتي الشَّرقاء «وديعة» أجمل حيوان في مرابطي، تلك القلوص ريبة العتيبة التي ربحت أشواطاً عديدة عند أصحابها السابقين. وكانت لاتزال قوية عَظْلَة. صلبة الأخفاف لسيورها مدة طويلة على أرض الشَّمال الصَّوانية وقد نبت وبرها أجعد أثناً. ويحسبها النَّاظِر إلى قصرها القليل بليدة ثقيلة الخطأ. أما طباعها فكانت طيبة سلسلة القياد. لا داع للربت على صفحة عنقها. بل يكفيك أن تهز الرِّكاب بهوادة حتى تميلها إلى الجهة المنشودة. فكنت أركبها لا أحمل شيئاً بيدي وأتمكن من القراءة وهي سائرة.

وقد تفرق رجالي في «الطَّفيلة والأزرق» لبعض مهام فطلبت من فيصل أن يمنحني حرساً مؤقتاً فأعارني فارسيه العتيبيين و«سرج» و«رميض» وأنبعهم بالشيخ «متلج» كي يساعدهم على نقل الذهب. ذلك الشيخ الذي بَلَّوْنَا شجاعته لَمَّا كانت سيارتنا المصفحة تختبر السهول تحت «المدورة» قبل اندفاعنا إلى تبوك. وكانت متلج يسافر معنا بصفته حارساً ويدلنا على الطَّريق وهو متربع فوق الأمتعة المكدسة على ظهر سيارة فورد.

واندفعت المركبات اندفاعاً جنوبياً تنتوح بين الكثبان كالزَّوارق المضطربة على ثبج الأمواج إلى أن دارت دورة خطيرة فارتفعت في الفضاء وخطت نصف دائرة وكادت تنقلب وتثر ما عليها. وقذف «متلج» إلى الأرض على رأسه وأوقف «مارشال» مركبته وتراجع إلى الوراء خجلاً من طيشه في قيادة القافلة معتذراً متعثراً. وفَرَكَ الشَّيخ رأسه مبتسماً وقال: «عذراً فإني لم أعود ركوب مثل هذه المطايا!» وكان الذهب مقسماً ألفاً ألفاً في أكياس فسلمتها ثناءً إلى أربعة عشر رجلاً من رجال متلج العشرين. وكانت الأربعة والأربعون ليبرا في خُرْجِي كل ناقة من نوقنا - فوق ما تحمل من الزَّاد والعتاد - كافية لتنقل على تلك المطايا في بعض الأماكن الوعرة من الطَّريق.

وكنّا قد بدأنا المسير عند الظّهيرة نعلّل النفس بقطع قسم كبير من المرحلة قبل التوغّل في الجبال. إلّا أنّه للأسف قد سقط المطر رذاذاً بعد سفرنا بنصف ساعة وخرق الماء عظامنا، وانتفش وبرّ إبلنا كصوف الكلب أصابه البلل، وقد أصبح متلج عندما بلغنا أقدام السّفوح أمام خيمة الشّريف فهد، الذي كان واقفاً محتمياً تحت رفوف وعر، فأصر متلج على التّزول والمبيت رغماً من إصراري على متابعة السّير وقال: إنّنا في الصّباح نندبر أمر صعود الجبل. وأيقنت بأننا سنجتاز أرضاً وعرة ونضيع أياماً طويلة في التردد فاعتذرت إليه وسرت مع رَجُلَيّ وستة من الحويطات قد انضموا إلينا وكانوا عائدين إلى الشّوبك.

وقد أخرتني محاولة متلج فلم نصل إلى المعبر قبل هبوط الليل. وسقط المطر مدراراً بعد ركوبنا، فندمنا على إغراقنا بالتعفف وحسدنا الرّفاق الذين تخلفوا عنا في ضيافة فهد. إلى أن لفت أنظارنا توماض أحمر لاح عن شمالنا في معسكر صالح بن شفيع. صالح واعتقاله المئة المحاربين القدماء في يثبّع، ورغماً من بلل ثيابي قد أجلسني على سجادته وأحضر لي ثياباً خاطته له أمها فبدلتها وانتظرنا نضج الخروف والأرز وتمددنا بعد الطّعام واسترحنا. ثم نمنا ليلاً كاملاً تهزنا أنغام المطر المتساقط على قماش الخيمة المزدوج صنع مكة. وطلع النّهار علينا ونحن على متن مطايانا لا نزال نقرض الملى التي زودنا بها صالح، وبينما كنا ننحدر على أول منحرف رفع «سرج» عينيه وقال هذا جبل معمم، وكان لكل جبل قمّة بيضاء تراكمت عليها الثّلوج فتزاحم العتايبة على هذه العجبية وجدّوا في السّير لكي يبلغوها ويمسوها بأيديهم، كذلك الجمال لم تكن قد رأت الثّلج قط فأخذت تمد أعناقها وتنخر على هذا البياض المجهول. ثم ترفع رؤوسها وتنظر إلى الفضاء نظرات طائشة.

لم تطل راحتنا حتى هبّت علينا ريح عاتية، بعد أن انحدرنا عن القمم قطعت أنفاسنا وكادت تجلد أعضائنا فأمعنا في السّير كي نلاقي ملجأ في الوادي. وكنا كمن يريد أن يحارب القدر ويقاوم القضاء باقتحامنا هذه الرّيح. إلّا أنّنا خجلنا أمام هذا الجبن. فعدنا إلى التّقدم وأسرعنا برباطة جأش حتى بلغنا القاع واحتمينا بشبه ملجأ. وارتعد

«سرج» و«رميض» لهذا الشعور القاسي الذي لم يألفاه، وقد تملك رثيتهما ألم مبرح غريب. وخشيت أن يتوقفا عند معسكر أحد أصحابهما فملت إلى طريق آخر وراء الأكمة التي يربط فيها مولود فلم نلق أحداً من تلك العصاة الحرية.

وكان رجال مولود متربصين منذ شهرين في هذا المكان على علو أربعة آلاف قدم عن سطح البحر يسكنون ملاجئ رديئة، خنادق ليست عميقة حفرت على السفوح، ولم يكن لديهم وقود سوى أغصان الحمر الضئيلة الرطبة التي كانوا يحاولون أن يخبزوا الملة على نارها مرة كل ثمان وأربعين ساعة، ولا ثياب عليهم سوى الكاكي - ملابس التمرين الصيفي للجنود البريطانيين! - ينامون في جحورهم المملوءة ماء السارحة بحشرات ودودها على أكياس الطحين الفارغة الممزقة. متلاصقين ستة ستة، أو ثمانية ثمانية بعضهم إلى بعض ليتدثروا مجتمعين بأغطية قديمة مهلهلة.

فمرض نصفهم أو هراهم البرد والرطوبة فماتوا. وما بقي منهم صمد للشدائد وكانوا يطلقون الأعيرة النارية بين الآونة والأخرى على مواقع الترك الأمامية، محتمين بقسوة الطقس ضد قوات العدو المتفرقة. فواجبنا نحوهم عظيم، ولهم علينا دين وافر. وإن مولوداً لحقيق بكل مكافأة لأن شجاعته قد شددت عزائم أولئك الأقوام وثبتت أقدامهم أمام واجبهم القاسي.

وكان يومنا هذا خصباً بذكريات المصائب المختلفة. وكان الجبل قرب «أبا اللسن» مدثراً بملاءة من الجليد. إلا أن الذي كان يصفعنا ويصدنا عن التقدم هي الريح الصرصر، ولم تطل شكوانا حتى أتبعنا القدر بنكبات أخرى، لقد توقفت إبلنا في الوادي بين الوحول المتراكمة، وهي تخور وتدور كأنها تنذرنا بعدم حملنا إلى القمة. فترجلنا لكي نساعدنا على التقدم مع أننا كنا ننزلق وراءها، وأرغما على نزع جراميقنا العزيزة لدينا الواقية أقدامنا شربرد الشتاء القارص فتمكنا حفاة أن نشل هذه الحيوانات من ورطتها وجرها إلى ما فوق المنحدر، وكانت نهاية راحتنا الضئيلة فقد كان علينا أن نترجل أيضاً أكثر من عشرين مرة قبل غروب الشمس فوق ما كنا نتدحرج في تلك السفوح عند سقوط بعض الجمال.

وكان رنين الذّهب يطغى على الأصوات الأخرى ويخفي الزّمجرة الصّماء لتلك البطون المتنفخة مثل البراميل. وكانت نوقنا قبل أن تتعب ويتملكها الملل تحرد لهذا السّقوط، وتظهر لنا قدر ما يستطيع الحيوان إظهاره من الغضب. إلّا أنّها الآن قد بدلت الحرد بالأنين والاضطراب ونحن أيضاً قد فقدنا العطف بعضنا على البعض لأن هذه السّموم لم تترك لنا مهلة للتّؤدة والتفكير، وأنها لسيّاط لا أقسى منها في جزيرة العرب تلك الرّيح النّكباء الشّمال التي تهب من نواحي معان. وكان ذلك اليوم معدوداً من أروع الأيام وأقساها. لقد كانت تتسلل ثيابنا وتمرح على جلودنا فنحسب أننا عراة وتجلد أصابعنا فلم نعد نقوى على ربط حبل أو القبض على سوط وفقدت أفخاذنا شعورها كأنها مشلولة فلا نقوى على الضّغط على بطون المطايا فنسقط عند انزلاقها وتندرج أمامها ونسحق على الأرض دون حراك، متربعين كأننا لا نزال مستوين على ظهور الإبل.

ولم تمطر، بل كان الهواء يجفف ثيابنا، فتجلدنا وتابعنا السّير بشجاعة ورباطة جأش نحو الشّمال حتى قاربنا غدير «بسطة» عند المساء - أي أننا كنا نسير أكثر من ميل في السّاعة. وخفت أن نصبح في اليوم المقبل نحن وجمالنا منهوكين لا نقوى على السّير بمثل هذه السّرعة. فأمرت بالتّقدم في الظّلام إلى أن نعبّر الغدير، وكان قد فاض فتوقفت الإبل مضربة عن السّير، فنزلنا في الماء المثلج على عمق متر لنذلها على الطّريق، ولما بلغنا الهضبة العالية صفعتنا السّموم صفع الخصم العنيد، وعند السّاعة التاسعة سقط رفاقي على الأرض، وهم يبكون وامتنعوا عن التّقدم وكنت أنا كذلك أحبس الدّموع الجائلة بين أجفاني، ولم يوقفها غير غضبي عند هذه الشّكوى الصّارخة. فترددت في الأمر - لكنني سررت في داخلي لإجابة طلبهم. وأنخنا جمالنا حلقة واسترحنا في وسط هذه الحلقة تُسامرنا الأغصان المتلاطمة كأنها أمواج البحر تتقاذف في الليل وتتزاحم، ثم تتكسر على جوانب السّفينة. وكانت النّجوم في السّماء الصّافية تبدو وتختفي، وكل من رجالي مدثر بغطاءين من أغطية الجيش. ومزود بمُلَى طيبة وبأبسطة تهیی الرّقاد على الماء والوحل من غير ما ضرر، وقمنا في الصّباح

مستريحين إلى حالتنا وقد جددنا شيئاً من نشاطنا وخفت وطأة البرد، وقد طبع على الجبال البعيدة المغطاة بشجر الدفلى طابع الكدرة والإربداد، وعليها مساحب ومهاوٍ من الحجارة الكلسية صاحبته منذ الأزل، والذي كان يعوق سيرنا هو الوحل المتراكم في المنخفضات والسيول المناسبة من كل ناحية لذوبان الثلج. ومالبشنا حتى نَدَفَ السحاب علينا بالزُضاب كالنديف ملاً الجو والبسيطة، وبلغنا خرائب إزرع الموحشة بعد الظهر، فكان كأنه الغسق والهواء يهب هبوباً متقطعاً، والغيوم تغمرنا من ناحية وتتحول إلى ضباب يسد علينا الطريق والأنفاس.

وملثُ إلى اليمين متجنباً البدو الضاربين بين إزرع والشوبك إلا أن بني الحويطات قادونا إلى مضاربهم رأساً، وقد مشينا ستة أميال في سبع ساعات فغضب رجالنا، وانحطت قوى الغُيبسين وفقدوا كل همة فاعترضوا بصوت صارخ على هذه الرحلة القاتلة وجأهروا بالعداء، وأكدوا بأنه ما من قوة تحت السماء يمكنها أن تسلخهم عن القبيلة، وتابعنا سيرنا مرتعدين من شدة البرد.

وأما أنا فقد كنت مسروراً راضياً وليس لديّ وقت أضيعه في استقبال البدو، واحتياج زيد إلى المال كان أكبر حجة لأختبر مقاومتي الشتاء الأدومي. وقد أصبحت الشوبك منا على بعد عشرة أميال ولدينا خمس ساعات من النهار، ويمكنني أن أسافر وحدي، ولا أخشى أمراً لأنه ما من بدوي ولا تركي يجسر على الخروج من خيمته بل التقلقل من تحت عباءته في مثل هذا الجو القاتل، لقد كان لي القضاء بأسره، ولا ينازعني منازع، فأخذت أكياس الذهب الأربعة من سرج ورميضم وأرسلتهما إلى الوادي شاتماً، واتهمتهما بالجبن وهم براءٌ منه فأخذ رُميضم يبكي ويشهق. أما سرج فلشدة غيظه كان يوقع أنينه إيقاعاً على خطوات مطيته، لقد كانت نوبة غضب حقاً ساعة أن صرفتهما وسافرت وحدي إلى الشمال.

وكانت مطيتي كلّ اعتمادٍ لأنها كانت أشد المطايا وأحكمها، فصحبني نشيطة مسرعة رغماً من حملها أربعة آلاف من الذهب أضفتها على حملها وأنا مستو على منها وكنت في المنحدرات والسفوح أمشي إلى جانبها نزلق معاً ونستوي معاً كالأدوار

المضحكة في الرواية، وتوقَّف نزول الثلج عند المساء، وبلغت غدير الشَّوْبَك حيث تمكنت من رؤية الطريق وهي تمتد رداءً على الجبل. فحاولت أن أختصر الطريق فخاننتني قشرة الجليد على الأرض، وتكسرت لأول خطوة خطوتها وطحنتني في الوحل، وهشمت قدميَّ بشظاياها الحادة كشفرات السكاكين ووحلتُ وغصتُ إلى الأعماق في مستنقع كان يمكنه أن يتلغني لو تقدمتُ ولكن مُتُّ موتاً في تلك الليلة. فامتنعت «وديعة» الحكيمة عن السير ورائي في هذا الطين الخادع ووقفتُ كأنها واجمة من تخبطي في تلك الوحول مترددة حائرة. إلَّا أنَّني رجوتها كي تدنو قليلاً فانقادت إليَّ خطوة فتمسكت برسغها فجفلت فجذبتني إلى الأرض الثابتة وهكذا نجوت من قبضة ذلك الملزم الذي كان يضغط عليَّ بناييه. وحاذينا الوادي متلمسين الطريق إلى أن عبرناه سالمين، وجلست قليلاً إلى الماء أنزع ما علق على ثوبي من الوحول.

وركبت ناقتي مرتعداً من شدة البرد وتسلقنا المرتفعات ثم نزلنا إلى أسفل على دعامة السور الذي لا يزال قائماً من بقايا قصر «مونريال» القديم فخماً رائعاً تحت السماء الحالكة. وقد جلدت الأرض تماماً وتكوم الثلج كوماً كوماً بعلو قدم تقريباً في كل منعطف من منعطفات الطريق المتصاعد إلى قمة الجبل. وكان الجليد يتكسر تحت قدميَّ العاريتين ويُصعد صوتاً مشؤوماً كلما دنونا من الباب حيث شئت أن أركب ناقتي أمامه وألجه وأفاجئ القوم بوصولي غير المنتظر، إلَّا أن «وديعة» جفلت لصوت أقدامها المبهمة في ذلك المكان الموحش وارتدت إلى ناحية الطريق فتعلقت بعنقها واتقيت الاصطدام على حجارة الرّواق.

وكنت أعلم بأن الشريف عبد المعين لا يزال موجوداً في الشَّوْبَك فتشجعت واندفعت صامتاً في الرّقاق على ضوء النجوم المنعكس على بلور الجليد العالق بالجدران وتحت ظلال رفارف السطوح المغطاة بالثلوج، وكانت «وديعة» تتردد وتعثر، إلَّا أنني لم أكن أخشى السقوط على تلك الرّفارف الثلجية وقد بلغت آخر المرحلة، فحييت الليل الجميل بصوت عالٍ ففاجأني صوت أجش من إحدى المرامي الخربة المحشوة بالأكياس واعترض على هذا الدّخول المفاجئ، وقال: الله! فسألت

عن عبد المعين فأجابني: «في بيت الحاكم» وكان هذا البيت في طرف سور القصر القديم.

فبلغت نهاية السور وناديت ثانية ففتح الباب الواسع فانبعث منه نور يكتنفه ضباب من الدخان. وبين هذا الضوء الأدكن المنتشر حتى إلى خارج الباب تتحرك أشباح مربدة وتفتش عن الطارق المجهول، فسلمت عليهم بلطف ودعوت كل شخص باسمه وقلت لهم إنني آت لأكل خروفاً عند سيدهم، فتراكض إليّ العبيد مظهرين تعجبهم من هبوطي عليهم وأخذوا «وديعة» وقادوها إلى الإسطبل حيث ينامون وتقدم أحدهم أمامي بمشعل وقادني في دهليز خرب تصب ميازيب السطح عليه إلى أن بلغنا حجرة صغيرة، وكان عبد المعين ممدداً على سجاده ناظراً إلى الأرض محاولاً مقاومة ضيق النفس في هذا الجو الدخن، وكانت ركبتي تصطكان فسقطت إلى جانبه وتمددت مثله حتى أنزل من مستوى الدخان الخانق المتصاعد من موقد صغير من الحديد تركبت عليه نسائر الحطب، وقد وضع هذا الموقد في فتحة مرمى من مرامي ذلك السور الخارجي الضخم كي يزيد الهواء إضرار النار ويسحب الدخان خارج الحجرة.

وأغارني عبد المعين بعض الثياب الثوب فلبستها ونشرت ثيابي كي تجففها النار وزادت النار ضراماً وارتفع الدخان هارباً وخفّ التهاب الجفون والحلق، والشريف يصفق بيديه مستعجلاً الأكل وهو يصب «الفوزان» الساخن الحريّف (وهو الشاي في اصطلاح بني الحارث إكراماً لاسم ابن عمه الشريف حاكم البلدة) فشربنا منه مراراً إلى أن جاءوا لنا بالخروف المسلوق العائم في السمن المزيّن بالزبيب، وبعد أن حمّد «المعين» هذه الجفنة وشكر قال لي: إن رجاله المثنين كانوا سيموتون غداً جوعاً أو سيصبحون لصوصاً. لأننا لم نعد نملك نقوداً ولا زاداً وقد حوَصر الرّسل القادمون من قبل فيصل بالثلج على الطريق، فصقّت بدوري وطلبت خُرَجِيّ ونقدته خمسمئة ذهباً على الحساب! إلى أن يصل المدد، فكان ثمن الوليمة ملوكياً دفعته برضى وسرور. فخرج معي الشريف بظرف ولطف وضحك من شذوذي وركوبي وحدي في قلب الشتاء حاملاً هذه الوزنة الذهبية. فأجبتة: «إنّ شأن زيد كشأنك، فهو محروم

من المال»، وحكيت له قصّة سَرَج ورُميَض وأنهما تخلّفا في مضرب من المضارب، فاتّقدت عينا مضيّفي من شدة الغيظ ومثّل بيده كأنه يسيط أحداً، إلّا أنني كي أخفف هذه الرّلة عن رفيقيّ قلت له إن البرد لا يؤثر فيّ كثيراً مثل هؤلاء المساكين لأنّ جو إنكلترا فارص ثلجي مدار السّنة تقريباً.

فقال عبد المعين: «ربنا يحفظنا»، ثم اعتذر لعدم تمكنه من ملازمتي لأنه قد تزوج حديثاً من امرأة من الشّوبك. فالتحفت غطائي ونمت دافئاً. وكانت البراغيث كثيرة نهمة إلّا أنّ العُري - وهي الطّريقة الفعالة عند العرب للتخص من الحشرات - قد خفّفت شيئاً من هذه البليّة. ولم تمنعني الرّضوض والجروح من النّوم وقد غلبها التعب فعَلَبَنِي النَّعَاس.

واستيقظت عند الصّباح شاعراً بصداً شديداً إلّا أنني كنت مصمّماً على السّير فتبعني رجلان. وكانوا في الشّوبك قد أكدوا لي بأنّه ليس من المستطاع الوصول في ذلك اليوم إلى الطّفيلة. ولم أكن أعتقد بأن هذه المرحلة ستكون أشد وأدهى من سابقاتها، وسافرنا منحدرين بوجَل سفوح المعبر الهاوية. وكانت لا تزال في السّهل بقايا الطّريق الرّوماني الغابر، ولا تزال تحده هنا وهناك صوئ مؤلّفة ولا تزال محفورة عليها أسماء الأباطرة العظام. وهناك قد انسلّ رفيقاي الزّريّان وعادا إلى القصر الرّابض على الجبل. فتابعت السّير وحدي أركب وأترجل لأخفف عن ودبعة كما فعلت أمس، وكانت الأرض لزجة إلّا على ما بقي من البلاط الخالد فكنت أثبت قدمي إثر أقدام روما الإمبراطورية التي كانت في الزّمان الغابر تحكم البلاد والشّعوب الصّحراوية حكماً عملياً مخالفاً كل المخالفة للحكم التّركي. وكان يمكنني أن أقطع هذه الطّريق القديمة، إلّا أنّ هبوط الأرض مدة الأربعة عشر جيلاً بسبب تغيير الأحوال الجوية وتفاعل العوامل الطّبيعية الدّائم قد خرب أسس هذا الطّريق فكان عليّ أن أخوض هذه البرك. ودهمني المطر فبللني. ثم انقشعت الغيوم فجلّدت الأرض وأخذتني رعدة تحت دروعي البيض الحريرية كأنني أمير في رواية أو قرص عرس مثلي!...

وقطعت السّهل في ثلاث ساعات - فكان سيراً حسناً - إلّا أنني لم أنته من المتاعب.

وقد صدق أهل الشَّوْبَك إذ أُنذروني بأن الثَّلُوج تسد المعابر وتغطي الطُّرق المعوَّجة المثنية بين الجدران والحفر والجلاميد. وقد فُتيت قوتي، ولم أتمكن من عبور أول عطفة إلا بشق النَّفس، ومَلَّتْ ودِعة التَّخِيط على غير طائل والغوص بساقيها المجرودين في هذا الثَّلج الهش وفقدت نشاطها، ورغماً من ذلك قد تمكنت من الصَّعود إلى القمَّة لكنها عثرت وسقطنا جميعاً في وادٍ من علو ثماني عشرة قدماً على كومة من الثَّلج ارتفاعها متر. ونهضت بعد سقوطها حَرْدَةً مرتعدة متشكية تُشْكِي كُمَيْت عُمر بن أبي ربيعة وقد جَهَدَه!..

وإذا توقفت جمل في مثل هذه الحالة فإنه يفضل أن ينتظر الموت برباطة جأش أياماً على أن ينتقل. وخشيت أن تكون ناقتي قد بلغت الحد الأقصى من الجهد. فحاولت عبثاً أن أقودها، فركبتها فبركت على الثَّلج فقفزت ورفعتها وتساءلت إذا كانت الكومة التي وقعت عليها كثيفة وشققت لها بيدي ورجلي طريقاً طوله ثماني عشرة قدماً وعرضه قدم واحدة، وكان الثَّلج متجمداً لم أتمكن من شقه؛ إلا بتكسيه تحت قدمي فتشقق جلدي وسال دمي فترقش المكان ببلورات صغيرة وردية كَلِّباب البطيخ الأصفر الباهت.

وانتهيت من شق الطُّريق وعدت إلى ودِعة وقد نفذ صبرها فامتطيتها فسارت سيراً حثيثاً، وقفزت قفزة بديعة تخطت بها كومة الثَّلج، وأخذنا الطُّريق القويم، وكان عليّ أن أغرق بالحرص والتيقظ فأسير إلى الأمام وأجس الأرض بعصاً وأشق معابر أخرى فقضيت ثلاث ساعات إلى أن بلغت قمَّة الجبل. وكانت الجهة الغربية مكشوفة للرياح فأذابت عنها الثَّلوج فتركنا الطُّريق القويم نتخطى القمم بمشاق قاسية ونتجاوز مخاطر لا عَدَّ لها وأبصرنا في الوديان كرقعة الشَّطرنج بيوت قرية «ضانا ووادي عربة» وقد أَدْفَأَتْهَا الشَّمْس واخضوضر نبتها وعلى الضَّفتين ألوفاً من الأقدام إلى الغور.

ولما لم تبق فائدة من التوغل في المرتفعات ابتدأت بالهبوط متخطياً كل عقبة أمامي. فحرنت «ودِعة» مرة أخرى وتوقفت عن السَّير، فوجمت من هذا الحرد لأننا في جبل قفر مفصولاً عن كل ما يربطنا بالكون وأيقنت بأنه إذا هبط علينا الليل هلك

«وديعة» لا محالة. وهي من أعرق التّوق. ولم أكن آمن أن ألقى ستة آلاف ذهباً إنكليزياً على حافة الطّريق وأقول للعابرين لا تمسوها بأيديكم، ولم يكن الطّريق مأموراً إلى هذا الحد في جزيرة العرب لأترك أكياس الذهب المملوءة على حافته مختومة بخاتمي فقط. فقدت مطيتي مئة متر إلى الوراء وقفزت على متنها وحملت عليها حملة صادقة. فأذعنت وقفزت فوق الأكمة الغربية التي تشرف على الرّشيدية، قرية السنوسي.

وكنت الشّمس قد ذوّبت ثلوج هذه المنحدرات فلم يبق سوى قشرة خفيفة تستر أرضاً وحلة فاجتازتها «وديعة» بسرعة وتشابكت قوائمها جرياً خبياً وتصوّبت مئة قدم وأنا على سرجه. وربما تكون قد جرحت من جراء الحصى تحت رقارق الثلج لأنها كانت تهدر وتصلك.

ثم أسرع إسرائع الرّئبال إلى الأمام قدر عشرة أميال في السّاعة على الطّريق الموحد المؤدي إلى رشيدية. تعثر وتسقط وتقوم وتركض وترّجني رجاً كأنها تتوعدني بالسّقوط والعطب والهلاك فتمسكت بحنو السّرج يائساً، إلى أن بلغت رجال زيد الذين منعهم الشّتاء القارص عن متابعة سيرهم إلى فيصل فتراكضوا جماعات جماعات عند سماعهم خبب «وديعة» الجنوني وتبعوني وهم يصيحون صيحات الفرح، ودخلنا القرية دخول الظّافرين، وسألت عن الأخبار، فإذا كل شيء على ما نروم، فلم أترجل وتابعت السّير لأقطع الثمانية الأميال فأبلغ الطّفيلة... فبلغتها وسلمت زيدا بريده ودنانيري. وذهبتُ جذلاً طروباً إلى ركن أتمدّد فيه، مستعداً للتجلد أمام هجوم البراغيث ليلة جديدة بأكملها.



الفصل الخامس والعشرون

حصار معان

وكانت رداءة الجو لا تزال تحصر زيدا، فأغضبني هذا الرّكود إلّا أنني في الوقت عينه دعيت فجأة إلى فلسطين، لأمثل أمام آلنبي، لأنّ وزارة الحربية كانت تعتمد كثيراً على حميته كي تستعيز عن البطالة والأحوال السيئة في شمال فرنسا، فعليه إذن أن يستولي على دمشق، وإذا أمكن أن يحتلّ «حلب»، وذلك بأقصى سرعة، أعني يجب إخراج تركية من ميدان القتال وتنفيذ مثل هذه الخطة لا يخلو من صعوبات، لأنّ جناح البريطانيين الأيمن (وهو لجهة الشرق) يجب أن يكون في مأمن من جهة الأردن، وقد دعاني آلنبي لئرى معاً إذا كان العرب يدفعون عنه القلق من هذه النّاحية، فأجبت أن علينا أن ننظر في خطة الأردن تحت زاوية البريطانيين فلم ينكر عليّ الجنرال هذا التّظر، وسألني إذا كنا لا نزال مستعدين لتنفيذها، فأجبت بنعم بعد أن تُحل بعض مسائل هامة لا تزال معلقة.

وأهم هذه المسائل معان. فمن الواجب أن نحتلّ هذا الموقع قبل أن نقوم بأي هجوم، فيرى العرب عندئذ بأنهم طلقون سريعو الحركة إذا أسعفوا بوسائل النّقل فيتقدّمون بضعة أميال من معان ويهددوننا ويقطعون خطوط السّكة الحديد، فترغم الحامية التّركية عندئذ على الخروج إذ ترى نفسها مفصولة من كل جهة عن الجيش وتجاوز مع القدر بمعركة تعتقد بأنها يمكنها من شق طريق نحو الشمال، فيفتك العرب بسهولة في السّهول المكشوفة بأعدائهم التّرك. فنحتاج إذن لهذا العمل إلى سبعمئة جمل حمول وبعض مدافع ورشاشات إضافية، ويجب علينا أن نتأكد من أننا لا نخشى هجوماً على جناحنا من جهة عمان ونحن نحاصر معان.

وعلى مثل هذه القواعد كنا ندرس خطة حركاتنا، فأمر آلنبي بإرسال وحدتي فرقة الجمال المحمولة المصرية إلى العقبة تحت قيادة ضباط إنكليز، وقد برهنت هذه الفرقة عن نتائجها الحسنة في مواقع بير سبع، فسررنا لهذه الهدية الثمينة لأنه يمكننا بتحسين وسائل النقل، أن نحتفظ بالأربعة آلاف نظامي على بعد ثمانين ميلاً إلى الأمام من قاعدتنا. وقد وعدنا آلنبي بمدافع ورشاشات. وأفهمنا بأن الخوف من مهاجمة عمان لنا لا محل له وهو يتدبر هذا الأمر الهين. وكي يؤمن على جناحه الأيمن الخاص قد قرّر احتلال السّط - شرقي الأردن - وإبقاء فرقة هندية ثانية فيها، ودعاني إلى اجتماع القواد في غد اليوم الثاني.

لقد قرّروا أن يهجم العرب حالاً على معان ويحتلوها. وأن يجتاز البريطانيون الأردن ويستولوا على السّط، ويخربوا ما يستطيعون من الخط الحديدي ويعطلوا التفّك الكبير على الأخص. وتناقشوا في كيفية إمكان اشتراك عرب عمان مع القوات البريطانية، فارتأى «بولز» Bols أن ننضمّ إليها. فنقضت هذه الفكرة، وقلت: إذا تراجعنا عن السّط بعد اشتراكنا معها نمهد سُبلاً للأقويل السيئة، ومن أصالة الرّأي أن نتنظر اضمحلال هذه الإشاعات قبل أن نشترك في العمل، وسأل «چيتوود» Chetwode المكلف بقيادة الحملة - كيف تتمكن الجيوش من التمييز بين العرب الموالين من العرب الأعداء، والبريطانيون ينفرون بالغريزة من كل لابس قفطاناً طويلاً، وكنت في الجلسة لابساً ذلك الثّوب الفضفاض الطّويل فأجبت طبعاً بأنّ الرّجال ذوي القفاطين هم أيضاً لا يميلون إلى الثّوب العسكري!.. وانتهت المناقشة بقهقهة ضحك عامة، وتقرّر معاضدتنا الاحتلال السّط بعد أن يكون قد احتلّه البريطانيون ويتقدم العرب النظاميون حال سقوط معان ويتموّنون من أريحا، ويساعدهم وصول سبعمئة جمل على القيام بعمل دائرته ثمانون ميلاً، ويمكنهم بهذه الوسيلة أن يدخلوا شمال عمان في شؤون هجوم آلنبي العظيم الذي سيقوم به بين البحر الأبيض المتوسط، والبحر الميت، وهو الدّور الثاني الذي يمهد طريق الاستيلاء على دمشق.

وضمنت موافقة فيصل على الخطة واستعداده للسّير عليها بكل دقائقها وما

ختمت هذه الجلسة حتى طرت إلى العَقبة لأطلع الشريف على هذه المداولة وأدعوه لمشاركتي في وجهة نظري، وأخبره بأن آلنبي - مكافأة لنا على نجاحنا قرب البحر الميت وأبا اللسن - قد فتح لنا اعتماداً خاصاً قيمته ثلاثمئة ألف ذهباً، وأعطانا فوق ذلك سبعمئة جمل حمولة بمهماتنا ورجالها.

فسر الجيش كله لهذه الأنباء ولم يبق عليهم إلا أن يحملوا أمتعتهم على ظهورهم، وسيعتبر العرب منذ الآن شخصيتهم ويحترمون وحدتهم المنظمة التي جاهد لأجل الوصول إليها «جويس» و«جعفر» وضابط إنكليز وعرب كثيرون منذ شهور عديدة. وأوقفنا تقريراً عن حركاتنا وركبت البحر مسرعاً إلى مصر.

وكانوا في القاهرة خلال الأربعة أيام التي قضيتها هناك يهتمون بأمرنا اهتماماً جدياً، وأكسبتنا ابتسامة آلنبي عدداً إضافياً من الضباط، فكان ضابط للإدارة، وآخرون للاختبارات البحرية، وللمؤن ولإدارة المخبرات تحت قيادة «ألن داوئي» - شقيق صاحب خطة «بئر السبع» وهو ما زال في باريس - وكان «داوئي» أئمن هدية قدمها لنا آلنبي - بل أئمن من ألوف الجمال الحمولة! لقد كان ضابطاً فنياً متحلياً بجميع الصفات المؤهلة له فكر يسبق الأفهام، وفطنة تدرك صفات الأشخاص فيقودهم إلى العصيان، وميل غريزي للجندية بحيث يشرك هذه الصفات المتنوعة للقيام بأعمال متنوعة، وكان العصيان والحرب دليه أمرين متساويين لا فاصل بينهما، ولقد كنت في سالف الزّمن عند «ينبّع» أئمنى أن يرى الضباط الفنيون رأيه ويحذوا حذوه، ويحكموا على الحوادث حكماً صائباً، ولم يبتكر هذه الصّفة السليمة مدة السّنوات الاختبارية الثلاث غير «داوئي» Dawney فقط.

وكان النّاس جميعاً ينظرون إلى العصيان العربي نظرة المستعرض دور قوم غزاة، فكانت وسائلهم ضئيلة، كذلك واجباتهم وأطماعهم، أما الآن فقد عدّهم آلنبي من عوامل خطة هجومه التي لا يستهان بها، وأن المسؤوليات التي تلقى على مناكب أولئك القوم تضع مشروعا فوق الأمر العادي، وفوق المجازفة المبهاج - مسؤوليات يحملون منها أكثر ما يطلب منهم وهم يعلمون بأنهم يدفعون بدماء جنودهم جزءاً من ثمن انكسارنا إذا انقلب علينا القدر.

وقد وطّدت خطة مع «جويس» ندعم بها أول هجوم يقوم به النبي وهذه الخطة مقسومة إلى ثلاث حركات، فالعرب النظاميون في القلب تحت قيادة «جعفر» ينقضون على معان. ومن جهة ثانية ينسل «جويس» مع سيارتنا المصفحة من جهة «المدورة» ويخرب الخط الحديدي نهائياً، لأننا أصبحنا مستعدين لعزل المدينة. ومن الجهة الثالثة أسير أنا مع مرزوق إلى الشمال لكي ننجز اتصالنا مع البريطانيين. وسافرت بدوري مع مرزوق بعد سفر «جويس» و«داوني» وتركنا أبا اللسن في 3 أبريل سنة 1918. وكان هذا اليوم تاريخ ابتداء الربيع، والجو من أسبوع مضى قد أرسل على الأرض عاصفة هوجاء ثالجة، ولا تزال إلى الآن بعض ملاءات بيض تتلألأ كالشهاب تحت أشعة الشمس. ونبت العشب وغطى الأرض وأرسلت الشمس أشعتها الصفر كالفش لتخفف من برد العاصفة.

ورافقنا ألفا جمل محملة مؤونة وذخيرة، فسرنا الهوينى لنخفف عن هذه الحملة فلا نبلغ الخط الحديدي إلا عند هبوط الليل. وتقدمنا البعض، ليتعرفوا في ضوء النهار على السبيل الذي تسلكه الحملة عند بلوغها الخط دون عائق يعوقها، لأن اجتياز مثل هذا الجيش، لا يتم إلا في بضع ساعات تقريباً.

وأبصرت القضبان الحديدية عند هبوط الشمس، وهي معوجة كالقوس على أرض مكشوفة نبت عليها العشب والتصق بها الشوك، وأيقنت بأن لا عائق في الطريق، فتقدمت إلى الأمام لأراقب عبور الترك.

وإن المرء يشعر بهزة عندما يمس هذه القضبان التي كان تخريبها غايتنا القصوى منذ أمد بعيد. وعندما صعدت إلى الرصيف اصطدمت ناقتي بالعوارض الخشبية، وانتفض جندي تركي من تحت القناة وكان بلا شك نائماً طيلة النهار في ذلك المجرى. ونظر إليّ وإلى المسدس الذي في يدي مذعوراً مخلوع اللب. ثم أشاح بنظره الحزين إلى البندقية المسندة على بضعة أمتار منه - على دعامة الجسور وكان هذا الجندي شاباً شديداً قوي العضل مقطب الجبين. فانعطف إليه وقلت له: «الله رحيم» ففهم معنى عباراتي العربية ونظر إليّ نظرة حادة كالبرق، إلّا أن ملامحه الرزينة المجمعة من كثرة

التوم ابتدأت تتغير شيئاً فشيئاً، وأبرقت أساريه لنجاة لم يكن يحلم بها.

إلا أنه لم يفه بكلمة، وضغطتُ على عنق مطيتي بقدميَّ فجسَّت الأرض بحذر وخطت خطوة واسعة فوق القضبان، ونزلت على منحدر السند المحصوب، فأظهر التركي الصَّغير شهامة، ولم يرمني من ظهري وشعرت نحوه بشفقة شأننا كل مرة نستخلص حياة من برائن الموت المحتم. ولما أصبحت بعيداً عن الرِّمية فلا يصيبني رصاصه، نظرت ورائي فإذا به يضع إبهامه على أنفه ويقبض أصابع قبضته ويمد خنصره ويشير إليَّ إشارة معنوية!...

وأوقدنا ناراً قليلة للقهوة ولنهدي الرِّكب إلى محل وجودنا فيعبر تحت أنظارنا، وفي اليوم الثَّان سرنا حتى وادي «الجَنز» حيث لقينا بعض أضحال ومسارب مياه ضئيلة بين الطَّمي تدل على فيضان حديث العهد، وعلى الجانبين كانت أشواك خضر عجاف، وكان الماء عذباً لكنه أكمَد بلون تراب الوادي، فقضينا الليل هناك، واصطاد «جعازي» حُبَارَى. وهو طائر ذو لحم أبيض لذيد الطَّعم كما قال «كسينوفون»! وبينما كنا نولم على هذه الطَّريدة كانت إبلنا تنعم مثلنا وتنغمر قوائمها في الحشيش الشَّهي الذي جاد به الرِّبيع الكريم على السَّهل.

وانتهينا من مرحلتنا الرَّابعة وهي نهاية سيرنا عند «عطارة» حيث كان يعسكر حلفاؤنا مفلح وفهد وأدهب. وكان فهد لا يزال في دور النَّقه فلم يملك قواه إلا أن مفلحاً وقد أسرع إلى لقائنا وشفَّته تقطران شهداً من معسول الكلام، وملامحه متقلصة لرغبة الاطلاع على الأخبار، كاد يفقد نفسه.

ولقد كنا متيقنين من نجاح خطتنا بفضل مساعدة آلنبي الذي أخذ على عاتقه من الهجوم نصيب الأسد. ولما أنجزنا استعدادنا جزنا الخط الحديدي الصَّغير إلى «تَمَد» - حيث مورد ماء خاص ببني صخر - ومن هناك تقدمنا وراء ستار الفرسان البريطانيين إلى «مادبا» التي صارت مركزاً لقيادتنا العامة بينما آلنبي يمهّد طريق أريحا - السَّلط. وهكذا يجب أن ننضم إلى الجنود البريطانيين دون أن نطلق رصاصة ما. وعلينا على كل حال أن نتنظر الحوادث في «العطاير» اليانعة المخضوضرة. فكان في كل

منخفض ضحل من ماء المطر. وفي كل مكان حشيش مرتفع شهبي في أشداق الإبل. ومن على ذرى الجبال الجيرية كنا نشهد الوديان الشمالية والجنوبية معاً، ونعجب من مناظرها الزمردية وحلتها السندسية التي أسبلها عليها شتاء الأمس. ففي كل عقيق عصائب عريضة واضحة من الأعشاب الغزيرة كأنها رسمت بالقلم. وكلما تقدمنا تزداد المشاهد جمالاً ورونقاً فتحوّلت الصّحراء إلى مرعى خصب وحقول مزهرة.

ويظهر أن هبوباً كان يمرح في الجو إذ كان يصل إلينا دفعات دفعات، في فترات تنحني لها الأعشاب الطويلة، وتضطرب لمداعبتها وتتمعج وتنثني وتمر بالألوان الخضِر القاتمة والفاتحة الزّاهية كسنابل القمح، تنحني ثم ترتفع عند مرور الصّبا، فجلسنا على الأكمة نرقب الغيوم البيض المسرعة في الفضاء وهي تلقي ظلالاً هاربة على السّهول الزّمرّدية فتوقنا هبوب العاصفة إلّا أننا لم نلتق سوى نسيمات دافئة ناعمة معطرة. فنعمت إبلنا بهذه التّجوع مع أنها متأنقة صعبة الانتقاء لمراعيتها. ولم تنقض ساعة حتى شبعت وربضت يفيض على خواصرها الحشيش الأخضر اليناع، وهي تجتر وجبتها الغزيرة بهدوء وغبطة.

وبلغتنا الأخبار بسقوط عمان في يد الإنكليز، وما هي إلا نصف ساعة حتى استونا على سروجنا في وجه «تُمد» على الخط المهجور. ثم علمنا أن البريطانيين قد تراجعوا. فاضطرب العرب رغماً من أننا نَبّهناهم إلى حدوث ذلك قبل وقوعه. ثم جاءنا رسول آخر يقول: إن الإنكليز يخلون السّلط سراعاً. وكان ذلك مخالفاً لخطة النّبي، فأقسمت أن هذه الأخبار ليست صحيحة، ولم نلبث أن جاءنا فارس يجري وأفهمنا بأن الإنكليز قد خرّبوا بعض الخطوط جنوب عمان ولم يتمكنوا من القيام بعمل ما ضد الموقع مدة يومين كاملين، فقلقت حقاً لهذه الأخبار المتقاربة المتماثلة وصممت على إرسال «أدهب» حتى السّلط وهو رزين لا يفقد صوابه بسهولة، يحمل كتاباً إلى «جيتوود» Chetwode أو إلى ⁽¹⁾ Shea للقيادة العامة إذا اقتضى الأمر، أطلب فيه الإطلاع على

(1) يستخدم المؤلف هذه التسمية لمقرّ القيادة البريطانية، علماً أنّ هذا المقرّ بفلسطين كان في قرية بئر سالم على بعد 40 كم عن القدس و16 كم عن يافا، وقد أسسه الفيلد مارشال إدmond آلبي.

الموقف الحقيقي، وفي غضون هذا الانتظار كنا نتكاسل بين مزارع الشعير تهجس في عقولنا شتى التقديرات فنبنى لها خططاً فوق خط، وكان قد انقضى الهزيع الأول من الليل لما سمعنا وقع حوافر الخيل وهي تعبر الوادي. وأخبرنا «أذهب» ورفاقه بأن جمال باشا يعدم سكان البلاد الذين يستقبلون الإنكليز شنقاً، وأن التُّرك يطاردون آلِنبى في وادي الأردن ومن المعتقد أنهم يتمكنون من إعادة القدس. إلّا أنني كنت أعرف بني وطني جيداً فلم أقبل مثل هذه الترهات على الرغم من اعتقادي بسوء الحالة في تلك الآونة. وكنا في «عطاير» كالتائه في عالم آخر. وأثرت فيّ هذه الصدمة الفجائية.

وللحقيقة قد كانت خطة آلِنبى في نظري ركيكة، وخاصة أن العرب - أمام ارتدادنا - سيشكون في كفاءتنا وتكون نتيجة هذا الشك وبالأعلى علينا، لأن أولئك البدو الرُّحل لم يعتقدوا قط بأن في إمكاننا القيام بأعمال جسيمة وعدتهم بها، أما الآن فأخشى أن يلزموا مكانهم وينعموا ببهجة الربيع.

فعمت على إعادة الهنود إلى فيصل في الأزرق وأعود أنا بذاتي. فركبنا في فجر يوم من تلك الأيام المشرقة حيث تفيق النفس من غفوتها مع طلوع كوكب الصّباح، إلّا أن الفكر كان لا يزال هاجعاً لشدة تأملات الليل الباهظة. وإن ساعات الصّباح في مثل هذا الفصل تكون مضوضّة، عطرة، وألوان الكون تحيق بالإنسان وحده مباشرة دون أن يدركها الفكر أو يتمكن من تنسيق خواصها المشتتة. وقد تكون هذه الطّواهر الطّبيعية كائنة منذ الأزل فلا يغضبئك منذ الآن هذا التنافر في الخليقة.

ومرّت ساعات إلى أن التحقنا بالهنود في وادي «الجَنَز» متوقفين بجانب شجرة يتيمة، وبينما كنا نسير مرة أخرى في الحقول مع حسن شاه وبينما نسمع صدى مدافع فيكرز يتردّد في الوديان، وبينما نعاون الحملة على شد الحمال وكرب المطايا خطرت خواطر رحلتنا العذبة الطّيبة الذكري. عندما حملنا على جسر اليرموك في العام الماضي. وكان لا يزال الهنود كما كانوا بالأمس بلداء لا يحذقون الرّكوب فلم نبلغ الخط الحديدي إلّا عند هبوط الليل. وفارقتهم واعتقدت بأن سفري السّريع في الليل سيخفف عن دماغي هذا القلق. وأسرعنا الخطى في ظلمة الليل الحالكة في وجهة

«إِزْرَعَ». ولما بلغنا قمة المرتفع أبصرنا نوراً إلى الشمال، ثم تعالى اللهب في الفضاء قرب جردان، فحبسنا مطايانا عن السير، ثم دمدم الجو لانفجار بعيد وظهرت في الظلمة نيران قبالة الخط، ثم انقسم هذا اللهب، إلى قسمين متباينين فاعتقدنا بأن محطة إِزْرَعَ تضطرم، فأسرعنا نستطيع الخبر من مستور، إلا أن دوّاره كان خالياً مهجوراً غير ثعلبٍ كان يرود حول موضع المضارب فعزمت على التقدم حتى أبلغ فيصلاً.

فحشنا المطايا وقد طلعت الشمس في الأفق، والجراد يسد علينا منافذ الطرق ويغشى الأرض. إلا أن هذه الجنادب لم تكن كريهة المنظر على البعد، فقد كانت أجنحتها اللامعة تنتشر في الجو وتضرب سرادقاً شاسعاً من لجين فوق الحقول، وكان يوم 12 أبريل - وقد دهمنا الصيف مسرعاً - وهذه هي المرة السابعة التي احتفل بقدمه في الشرق.

وبينما نحن نقرب سمعنا طلقات نارية في جهة سَمْنَة على خط المرتفعات التي تحجب عنا معان. وكانت جماعات من الجنود يتخطون القمم بهدوء. ثم توقفوا في أسفل الأكمة. وكان علينا أن نحتلّ «سمنة»، فتقدمنا في غزوتنا الجديدة فأبصرنا في السهل جملاً محملاً محفّات. وكان الذي يقوده يقول. ولا يقول سوى ذلك «مولود باشا» ويدلنا إلى الحمل!. فركضت حتى بلغت إليه وقلت: «وهل مولود مجروح؟!» لقد كان مولود من أحسن ضباط الجيش ومن الذين كانوا يخلصون لقضيتنا أشد الإخلاص. ولم أكن أقلّ إعجاباً بوطنيته الصادقة وجسارته النادرة. فأجاب الشيخ الجريح من حافة محفته العالية بصوت خافت: «أجل... يا لورنس بك لقد أصبت! الحمد لله! ولكن لا تجزع فقد استولينا على «سمنة»..» ونهض قليلاً من مكانه الرفيع وهو يتألم - لأن عظم الفخذ كان مكسوراً فوق الركبة - وتمكن من شرح الموقع الذي يجب أن نظم فيه خط الدفاع على سفح الأكمة نقطة نقطة.

وقد بلغنا الأكمة ساعة سقوط بعض قنابل تركية ضئيلة، وكان نوري السعيد قد تسلم القيادة بعد مولود، فرأيته واقفاً على عرف الأكمة رابط الجأش. ساكن الجنان، بينما أغلب الرجال يتصنعون الراحة والمَرَح الكاذب. ويثرثرون أكثر من ذي قبل تحت نيران العدو.. وكان نوري يزداد سكوناً وزيداً مللاً.

فسألت عن مكان جعفر فأجابني نوري: بأنه سيكون قد هاجم جردان، وأخبرته عن اللهب الذي أبصرناه عند منتصف الليل، ومن رأيي أنه كانشارة فوزه. وبينما نحن في سرورنا وصل إلينا رسول بيننا باستيلاء جعفر عليها وعلى بعض الجنود الترك والرشاشات، وبتخريب المحطة والخطوط على مسافة ثلاثة أميال. فحلّ هذا الفوز عقدة تعطيل خط الشمال لمدة ثلاثة أسابيع على أقل تقدير، لأن نوري كذلك قد قال لي بأنه قد انقضت الليلة الفائتة عند الفجر على محطة «غدير الحج» وهدم أبنيتها وخرّب خمسة جسور وميلاً من الخط». وهكذا قطعنا خط السكة الحديد جنوب معان وبلغنا الغاية التي كانت تشغل عقولنا.

ولم يهدأ ضجيج الحرب إلا عند زوال الشمس. وأحمد الخصمان ناراً لا غاية لها. وقيل إن فيصلاً قد تقدم إلى «وهيدة» فجزنا سيل ماء فائضاً قرب المستشفى المتنقل حيث مدّوا «مولوداً» وأكد لنا لدكتور محمود بأن لا داع لبتر فخذ الجريح ويعتقد في شفائه دون حاجة إلى إجراء عملية ما. وشاهدنا فيصلاً منتصباً على حافة القمة يفصل عنه سدفة الأسود في وضح النهار، وأشعة الشمس تذوّب بتؤدة وهودة دوائر جسمه التحيل وتسيل الذهب على هُدّاب عقاله الحريري. فأنخث قلو صي، بينما كان الشريف يمد يديه إلّيّ ويصرخ: «بعونه تعالى كلّ شيء حسن»، فأجبتة: «الحمد والتصر له وحده» وقادني إلى خيمته لتبادل الأخبار والآراء.

وقد عرف من «داوني» عن صدمة البريطانيين في عمّان أكثر مما عرفت أنا. صدمة حلت عليهم مع رداءة الجو وتضعضع الجيوش. وقد علم أيضاً أن النّبي قد أرسل أمراً بالتليفون إلى⁽¹⁾ Shea بوقف الضحايا - كما عادته - وإنه لقرّارٌ حكيم وإن يكن يمش مصالحنا مساً فاسياً. وكان «جويس» في المستشفى يقضي دور النّقاهة فلا يقوى على الاشتراك في العمل. و«داوني» في «قوية» على أتم استعداد للسفر إلى «المدورة» مع سيارته المصفحة.

وسألني فيصل عن «سمنة» وجعفر. فأجبتة بكل ما عندي. وأطلعتة على شعور نوري وعلى ما هو نصب أعيننا من المطامح. وكان نوري وعلى ما هو نصب أعيننا من المطامح، وكان نوري متشبعاً بفكرة عدم معاونة «أبو تايه» له في ذلك اليوم فلم يقرّه «عودة» على رأيه

(1) ذكرنا أعلاه أنّ هذا المقر بفلسطين كان في قرية بئر سالم.

فتذكرت في تلك اللحظة الحادث الذي حدث عند الاستيلاء على الهضبة فسخرت منهما. وكانت هذه السخرية التي أخرجتهما سبباً للانقضاض على «أبا اللسن» ولم يكن فيصل يعلم شيئاً عن هذه القصة وقد نبشّتها من قبرها، فجرحت عودة جرحاً عميقاً. فأكدّ لي بكل شدة أنه عمّل فوق طاقته في ذلك اليوم، غير أن الأحوال لم تكن مؤاتية لطريقة البدو. وبما أني لم أشأ أن أليّن له خرج من الخيمة غاضباً هائجاً.

وقضيت الأيام التالية مع «مينارد» Maynard في مراقبة امتداد حركاتنا. وقد احتلّ بنو أبو تايه موقعين أمايين شرق المحطة بينما «صالح بن شفيع» يستولي على خندق ورجاله العشرين ورشاشاتهم. فحلّ هذا التوفيق قيودنا حول معان. وجمع جعفر مدافعه في اليوم الثالث على المرتفعات الجنوبية وقاد نوري السعيد مفرزة للانقضاض على سقائف المحطة، ولما دنا من غرضه توقفت المدافع الفرنسية عن إطلاق النار. وكنا نطوف في سيارة فورد محاولين اتّباع قفزات رجالنا المتواصلة. فالتقينا بنوري الأنيق الثياب الجميل القفّازين، يدخن بغليون من خشب النّشرين. فأرسلنا إلى الكابتن پيزاني قائد المدفعية يطالبه بنجدة سريعة من مدافعه. فتقلّصت يدا «پيزاني» ياساً. لقد نفذت الذّخيرة - وقد أكّد لنا بأنّه رجا من نوري أن لا يهجم في وقت تكون القنابل قليلة. فلم يبقَ لدينا إلّا أن نشاهد تراجع رجالنا ثانية عن المحطة تحت نيران العدو. وكانت الأرض مغطاة بالأجساد المتشحة بالكاكي. ناظرة إلينا العيون المعذّبة نظرة الشّاكي. وقد تمزّقت ثياب هؤلاء المطروحين وجلودهم وتقلّصت أعضاؤهم من شدة الألم ولا سبيل إلى إسعافهم. لقد كنا نرى ونفكر برباطة جأش إلّا أننا كنا كالمفصولين عن نفوسنا لأن خيبتنا سلبت منا كل خاصة لحواسنا، ولم نفقه إلّا بعد مرور زمن بأننا لم نعتمد على روح مشاتنا الحربية البديعة. لقد حاربوا بمقدرة عظيمة تحت نيران الرّشاشات متخذين الأرض لهم حمىً وعوناً، وقد خفّت مهمة القائد من هذا القبيل فلم نفقد سوى ثلاثة ضباط. وبرهنت لنا معان بأن رجالنا يعرفون كيف يحاربون رغماً من أن البريطانيين لم يعضدوهم. فسهلت هذه الملاحظة خططنا. وخففت من لوعة اصطدامنا.

وفي 18 أبريل عند الصّباح قرّر جعفر نظراً لرسائله أن لا يتكبد خسائر أخرى وتنحّي إلى مواقع «سَمَنَة» ليريح جنوده. وبصفته رفيقاً قديماً للقومندان التّركي أرسل جعفر إلى هذا القائد كتاباً ملفوفاً بعلم أبيض يدعوّه إلى التسليم. فأجابه بأن أمر التسليم من أقصى رغائبه لولا أن الأوامر صدرت إليه بالدّفاع إلى آخر رصاصة. ثم عرض جعفر أن توقف الأعمال الحربية فيتمكن التّرك من إعدام ذخائرهم، إلّا أنّ الحامية ترددت في الأمر، وتمكن جمال باشا في هذه الفرصة من لم شعث جنود عمّان واستعادة جردان، وإرسال قافلة من الجمال غمرت المحاصرين بالذّخيرة والمؤن، ولم يسالمنّا الحظ إلا بعد مرور أسابيع طويلة.



سرج العنبي

الفصل السادس والعشرون

غارة داووني على شحم

وكنت على نار لألتحق بـ «داووني» لأنني كنت قلقاً على جنديّ قد أُلِفَ الحرب النظامية المعتادة. وسيندفع الآن إلى معركة صحراوية لا نظام لها. ولا سلاح له سوى السيّارات المصفحة المعقدة. ثم أن داووني لم يكن قد استعرب. وأن «بيك» Peake الخبير بالجمال و«مارشال» الطيّب لا يحسنان التكلم باللغة العربية. وكان هذا الجسم الصّغير المجازف يعرف من البريطانيين، ومن المصريين، ومن البدو بأن هذين الأخيرين يكتنان لبعضهما كرهاً متبادلاً.

ووصلت إلى داووني متنكراً تحت ستار موظف ترجمان عند منتصف الليل وهو في معسكره تحت تل «شحم» فاستقبلني «داووني»، لحسن الحظ استقبلاً طيباً، وعند الصّباح أخذني إلى مكان تنسيقاته. فكان مشهداً بديعاً: السيّارة العادية مصطفة إلى ناحية بأسلوب حربّي والمصفحة منها لجهة أخرى. وحراس ومواقع صغيرة مسلحة بالرّشاشات يحرسون المعسكر. ورجال من العرب يحتلون موقعاً فنياً على أحدث نمط حربّي جبلي، فكانوا حامية مفيدة وراء تل يقيهم الأنظار والضّجيج. فبأي سحر توفّق الشّريف «هزّاع» و«داووني» بأن يحتفظا بهم في مراكزهم. وقد عضضت على شفتي كي لا أسمع نفسي فأقول: الآن لا ينقصنا سوى العدو!!!...

وعندما شرح لي «داووني» طرق استعداده للهجوم زادت فيّ الدّهشة وعجبت به إلى حد غير معقول. وكان تنسيق الحركات المدوّن من قبل يستدرك حتى السّاعة الأولى التي لاتزال بيضاء في الخانة. والمهلة المضروبة للقيام بتنفيذ الحركات. وكان

لكل وحدة عملها المعين بالدقة. سنفتح «موقع السهل» عند بزوغ الفجر بسيارات مصفحة سائرة من هذه القمة نفسها التي كنا جالسين عليها أنا وجويس من قبل. حيث ابتسمنا تلك الابتسامة المرة أمام فوات أول فرصة لنا. والسيارات ذوات الدروع والمرامي تستولي على المحطة قبل طلوع النهار وتحتل الخنادق فجأة. والكمين رقم 1 ورقم 2 عندئذ فقط يهدمان الجسور المرقومة «اوب» على خارطة الحركات (مدرج 1.250.000) الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين من «ساعة صفر» في أية ساعة ملائمة. بينما تكون السيارات الأخرى تتقدم نحو «موقع الصخرة» يدعمها «هزاع» ويندفع العرب «الساعة 2:15».. الخ. الخ.

«وهورنبي» Homby ومعه المتفجرات على مدارج تالبوت Talbots رقم 40531 ورقم 41226، يتقدم بعد ذلك ويهدم جسور «د» و«ج» و«ك»: وبعد الفطور والشمس لا تزال منخفضة تسمح برؤية الأشياء ما وراء السراب. أي الساعة 8 بدقة - يفتح المجمع «الموقع الجنوبي» المصريون لجهة الشرق، والعرب لجهة الشمال تحت حماية الجنود المسلحة بالرشاشات بعيدة المرمى. وبمدفع «برودي» Brodie ذي العشر پاوندات المنصوب على «تل المراقبة». وسيسقط الموقع وتتقدم قواتنا نحو «تل شحم» التي تكون قد ضربت من الشمال الغربي بقنابل «برودي» وبالطائرات القادمة من وادي رم «ساعة 10» وبالسيارات المصفحة القادمة من الغرب، ويتبع العرب هذه المركبات بينما يكون بيك وفرقة الهجانة ينزلون من جهة «الموقع الجنوبي». ويؤكد التوقيت وهو مما لا يخلو من بهجة وسرور - إن المحطة ستسقط (الساعة 11:30 وانتهت التعليمات) إلا أن اللائحة لم تنفذ بحذافيرها لأن التُرك بغفلتهم واندفاعهم قد تقدموا عشر دقائق قبل الأوان فأظهروا هذه المرة عدم تنبؤهم بالغيب في ذلك اليوم الذي مرّ من غير سفك دماء.

وسألت خَجلاً إذا كان «هزاع» يفهم ذلك. فأجبت بأن هزاعاً لا يملك ساعة ليضبط بها الوقت (وفي هذا الوقت اغتنمت الفرصة لأضبط ساعتني). وأنه يتحرك حينما يرى السيارات تدور إلى جهة الشمال ثم يزن حركاته بواسطة ضابط ارتباط يتصل بكلينا،

وتنحيت لأرى مكاناً هادئاً أستطيع الرقاد فيه قليلاً، وعند الصّباح أبصرنا السيّارات تدور هادئة فوق الخنادق المفتوحة بين الكثبان وكان الحارس لا يزال نائماً، فخاف التّرك وخرجوا من مخابئهم «رافعين أيديهم فوق رؤوسهم»، وهل تُقطف خوخة ناضجة أهون من هذا، واندفع هورثني بسيّارتي «رولز رويس»، ووضع حشوة زنتها مئة لييرة من قطن البارود تحت الجسر رقم 1 فاندك في الحال. وكدت لهذا الانفجار أن أهوي ودأوني عن مركبتنا الثالثة التي كنا نرقب منها كل حركة، وأسرعنا إلى هورثني لنرشده إلى استعمال القنوات تحت الخط الحديدي خُفراً للألغام اقتصاداً للعمل والوقت. وهكذا تقوضت الأعمال الفنية الأخرى كقصور من الورق.

وبينما كنا إلى جانب الجسر «ب» كانت السيّارات تسدد نيران رشاشاتها على مرامي «موقع الصّخرة» وهو معقل مبني بالحجر اليبس. جدرانها على شكل دائرة ترسل ظلالها بعيداً في ذلك الصّباح فتسهل علينا التصويب، وعلى العدو الاقتضاح. وهو واقع على أعلى السّفوح الكثيرة الوعرة والتي لا تقوى سيّاراتنا على البلوغ إليها، وكان «هزّاع» مستعداً أتم الاستعداد مضطرباً متحمساً. فانخلع لب العدو لهذه الصّواعق المنقضة والزّوابع التّارية المجتاحة من أربع رشاشات، وتبلبلوا وتشتتوا كل مشتت، فلم يصعب على العرب اقتناصهم وأسرههم، وكانت هذه هي الخوخة الثّانية التّاضجة..

وتوقفنا قليلاً قبل القيام بالعمل مرة أخرى «وهورثني» وحده هو الذي كان لا يزال في منتهى الجهاد وشاطرته حماسته بصفتي مساعد مهندس! وطفنا الخط على سيّارات «رولز رويس» حاملين طّين من المتفجرات. فكانت تدكّ الجسور وتتقوض الخطوط في التّواحي التي نميل إليها وتحلّو لنا. وكنا نحارب تحت حماية رجالنا الذين كانوا هم بدورهم يحتمون وراء السيّارات المدرّعة وصفير الرّصاص فوق رؤوسهم. وسقط جلمود على بُرج إحدى سيّاراتنا المدرّعة فتكسّر عليه لكنه بعج فولاذ البرج ولم يحطمه، وكنا نأخذ بعض صور فوتوغرافية لمتفجراتنا في الفترات التّاددة. لقد كانت معركة فخمة لتخريب الأعمال الفخمة. كأننا كنا نلهو بإشعال الأنوار

الاصطناعية، وبعد أن جمعتنا وَجَبَةُ الفطور ذهبت لأشهد سقوط «الموقع الجنوبي». فسقط في ساعته المحتومة! إلاَّ أنَّه بطريقة غير جيدة. لأنَّ هزّاعاً وبني عمران كانوا في ثوران شديد فلم يتمكنوا من التقدم بنظام ودقة وبقفزات متوالية كما كان يفعل رجال «بيك» Peake المصريون. بل كان يحسبهم المرء كأنهم على خيول صَيْد لا يلوون على شيء ولا يبقون أمامهم على حاجز. فحملوا وهم على ظهور نياقهم حملة جنوبية، وتصعدوا على أعراف التلال وتخطوا المرامي والخنادق، فملَّ التُّرك من القتال، وثبطت عزيمتهم فتركوا مواقعهم.

ورفع السَّتار عن أعمال اليوم الهامة - عن الهجوم على المحطة - فوصل إليها «بيك» من الشَّمال مخاطرأ بنفسه مرات عديدة. مزجياً رجاله إلى الأمام بصعوبة لأنَّ الحماسة قد فارقتهم رغماً من اندفاعه وأرسل «برودي» ناره بدقته المعهودة، بينما الطَّائرات تدور دوراناً فوق البنايات وتلقي قنابلها برباطة جأش لا مزيد عليه على خنادق الدِّفاع، وتتقدم السَّيارات المصفحة إلى الأمام وتقذف غيوماً من الدَّخان. إلى أن شوهد خط من رجال التُّرك بين ذلك الضَّباب الكثيف الأدكن. وهم يلوِّحون بأشياء بيض.. فاكْتَفِينَا بهذا القَدْر!..

وتشابكت «الرَّولز رويس» بعضها ببعض فأدْرناها، ثم قفز العرب على جمالهم واستعاد أخيراً رجال «بيك» جرأتهم وأخذوا يتراكمون.. وتدافع هذا الحشد المحشور إلى المحطة كالجن الصَّاحب. وكانت سيارتي هي المجلية فريحت السَّباق. وغنيمي الوحيدة كانت جرس المحطة الجميل صنع معامل دمشق!... والذي تبغني قد استولى على مِثْقَاب التذاكر. والثالث على أدوات المكتب. بينما كان التُّرك المخلوعو اللب ينظرون إلينا بعيون حمر جاحظة غصبي، لعدم اهتمامنا بهم وتغاضينا عن وجودهم.

وما هي إلاَّ لحظة حتى اندفع العرب واستسلمت شهواتهم للغنائم النَّادِرة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخهم. فقد عثروا على مِئتي بندقية، وثمانية آلاف رصاصة، وقذائف ومؤن وثياب متروكة في مخازنها كُلُّ يحطم ويأخذ ويحفظ لنفسه ما يكون قد استولى عليه من الأشياء التي يراها نافعة. وكان ثلاثة الأثافي جمل داخلاً رصيف

المحطة فاتفق أن انفجرت قنبلة تركية فقطعت الحيوان المسكين إرباً وقذفت أشلاءه في الهواء فهدأ العرب لهذه الصّعة، وقد ظنوا أن «برودي» أعاد إطلاق النار.

واكتشف الضّابط المصري مخزناً من المؤن لم يمس، فأقام عليه حارساً لأن حصّة جنوده من الغنائم كانت ضئيلة. إلّا أنّ ذئاب هزّاع لم يُقروا المصريين على ذلك، لأنهم يطلبون كل شيء لنفوسهم.

ودارت حرب بين الفريقين إلّا أنّ نفوذنا وعزمنا الأكيد أوقفاهما عند حدهما وحكمنّا على أن ينتقي المصريون ما يحتاجون إليه. ثم بعد ذلك وقفنا مكتوفي الأيدي عاجزين عن صدّ أمواج هؤلاء الذين سكرُوا بخمرة الظّفر. حتّى أن جدران المخزن لم تكن لتقوى على احتمال ضغط أولئك العرب.

وقد كان توفيقنا في «شحم» عظيماً جداً إلى حد أن ثمانين في المئة من العرب كانوا مغتبطين لهذه النتيجة. ولم يبق للصّباح غير هزّاع وجماعة من الرّجال قد شاركوا في الحركات الجديدة. لأنّ محطة الرّملة كانت مسطورة في برنامج «داوني» غير أن أوامره لم تكن بعد قد أخذت شكلها النهائي. فلم يدرس الموقع درساً واضحاً. وأرسلنا «وايد» Wade بسيارته المصفحة مع بعض رجاله في سيارة أخرى. فأخذ يقفز حذاراً قفزات متقطعة وبسكوت عميق، إلى أن بلغها. ولم يطلق عياراً نارياً، ثم دخل فناء المحطة فاحصاً الأرض بدقة خوفاً من لغم ينفجر، وكانت البنايات مقفلة. فربط «وايد» التّوافذ والأبواب بسيور ربطاً محكماً واندفع داخل الموقع فوجده مهجوراً تماماً، ولحسن حظه وحظ رجاله كانت لا تزال كمية من البضائع مخزونة فتهلل «هزّاع»، ورجاله لهذه اللقيّة الجليلة القدر. وقضينا مابقي من يومنا في تخريب بعض أنيال من الخطوط غير المحروسة..

ولم نقف عند حدّنا حتّى كنا قد خرّبنا ما يحتاج العدو إلى إصلاحه مدة خمسة عشر يوماً. وكان القدر يتحفز ليقع على «المدوّرة»، إلّا أننا لم نُغدّ آمالنا كثيراً لأنّ قواتنا قد نضدت بسرعة. فقد اختفى العرب ولبث رجال بيك خاملين. وعلى كل حال يمكننا أن نستولي على «المدوّرة» في أي وقت كان، كما استولينا على محطة «الرّملة» دون

عناء في ساعة وجلّ يتطرق إلى أفئدة العدو فيجلو عنها فتحتلها ونجلس على خرائبها. وأحاطنا «داوني» الذي لا يعرف التعب ولا يتطرق الكلل إلى نفسه بحلقة من الحراس الذين لم يشاءوا أن يكونوا أقل نشاطاً وهمة من رئيسهم. فكان محل راحتنا كأنه قصر «بكنغهام» ونحن متمددون على جوانبه كالنيام. ثم نهضت لأريهم فن الحراسة في الصحراء.

وعند الصّباح سافرنا للتعرف إلى «المدوّرة». فسرنا بأبهة ملكية في سيارتنا وهي تعجّ على السّهل المنبسط المغطى بالرّمْل وشظايا الصّوّان، وطلعت وراءنا شمس صفراء أخفت قليلاً من مشاهدنا، ولم نَرَ المحطة إلّا عندما دنونا منها فأبصرنا قطاراً واقفاً، ليت شعري التّفرّغ هو أم للتزوّد؟. إلّا أنّ موقفنا لم يطل حتى انجلّى. فقد أبصرنا التّرك وهم في مراميمهم، فأمطرونا ناراً حامية من مدافعهم الأربعة منها مدفعا جبل نمساويان سديدا الرّماية. فتركنا مواقعنا وهربنا هرباً خفّض من مقامنا الجليل. وبعد أن اختفينا في منخفض من الأرض درنا دورة كبيرة، كي نرى المكان الذي نسفنا فيه أول قطار مع «زعل» والذي سقط دفعة واحدة بضربة من عزمنا الأكيد. وحيث كانت كشافه تركية تحتفل بالقيولة تحت قنطرتها في ذلك اليوم المتقلب المضطرب. ثم رجعنا إلى «رملة» نعيد الكرة على الخطوط نخربها حتى لا نبقي لفخري أملاً بإصلاحه قريباً، وكان فيصل في غضون ذلك قد أرسل محمّداً الضّغلان ليهاجم المحطات التي لا تزال سليمة بين معان وشقة تخربينا. وسافر «داوني» في اليوم الثّاني إلى فيصل ليعضده. وهكذا أصبحنا مالكين ثمانين ميلاً من الخطوط الحديدية بين معان والمدوّرة مع السّبع محطات في هذه الشّقة، ووضعنا حدّاً لدفاع المدينة الفعلي.



الفصل السابع والعشرون

نقل وتموين

وكان قد أضيف إلى أركان حربنا ضباط وقوات قدموا من الموصل، ف«يونغ» كان ضابطاً فنياً وله مزايا حربية نادرة، وقد أضاف عليها اختباره في هذه الحرب الأخيرة. وفوق ذلك كان يجيد التكلم بالعربية، وكانت مهمته أن يعاوني على شد أواصر العرب بعضهم ببعض، وتدريبهم تدريباً متواصلاً لمحاربة العدو وطرده من البلاد. فقدمته إلى زيد وناصر ومرزوق لأسهل له سبل معرفة البلاد وأهلها ويتسلم مهمّة قيادة رجال العرب لتخريب الخط الحديدي شمال معان على شقة مساحتها ثمانون ميلاً. ثم عدت إلى العَقبة كي أسافر إلى السّويس وأدرس مع النّبي حركاتنا المقبلة. جاء «داوني» لملاقاتي، ففحصنا التقرير الإجمالي عن أعمالنا قبل أن نتقدم إلى القائد العام. واستقبلنا الجنرال «بولز» باسمًا، وقال لنا: «ومع ذلك نحن الآن في مقام طيب في السّلط»، ولم يُلْهَ باستغرابنا عند متابعة حديثه وقال: إنه في صبيحة يوم من الأيام جاء بنو صخر إلى أريحا وعرضوا أن يقدموا في الحال عشرين ألف رجل من قبائلهم الضّاربة في «ثَمَد». ومنذ الصّباح فكّر «بولز» - وهو لا يزال في الحَمّام - بوقف الهجوم. فسألت: من هو عميد بني صخر. فقال بحبور هو «فهد». أجل، كان مغتبطاً لانتقاده ماكان في دائرة حماسي وهمتي. وظهر لي أن هذا الخبر غريب، بل حكاية خرافية، لأنني أعرف أن فهداً لا يمكنه أن يقدم أكثر من أربعمئة رجل على أكبر تقدير. ولم تكن في تلك اللحظة خيمة واحدة مضروبة في «ثَمَد» وكان بنو صخر قد ارتحلوا إلى الجنوب إلى جانب «يونغ».

وأُسرعنا إلى المكاتب لنجلي هذه الواقعة وهناك عرفنا - للأسف - بأن «بولز» قد قال حقاً، وكانت فرقة الفرسان البريطانية قد سافرت فجأة لتتدرج تلال «مُواب» مهززة ببعض مواعيد رؤساء «بني الزَّبن» الجشعين ناكثي العهد، الذين تراكضوا إلى القدس ليروا إلى أي حد يبلغ بالأنبي الكرم... إلّا أنّهم هناك قلبوا لأولئك الخونة ظهر المجرّ ولم ينقادوا لوعودهم الكاذبة.

أجل! لقد حبطت الغزوة. وكنت لا أزال في القدس متعزياً بعدم أهلية «بولز» لمرافقة «ستورز» حاكم الموقع في ذلك الوقت، والذي كان ينهي أعماله بدقة لا تُبارى وظُرف لا مثيل له. وفي ذاك الوقت أيضاً ظهر بنو صخر تحت خيامهم وبعض منهم كان قد سافر مع «يونغ» وكان الجنرال «شوفيل» Chauvel قد حُرِم من مساعدة أبناء البلاد، ورأى الأتراك يحتلون الموقع خلف ظهره ويطرصدون في مخابئ الأردن ويستولون على الطريق الذي سلكه عند تقدمه.

ولقد استروح الأنبي - لحسن الحظ - وفي الوقت المناسب مسالك الخطر فاتقاها وخلصنا من محنة كبرى. وكان هجوم جنود فيصل مرسوماً بوضوح كلي لو أنّهم اشتبكوا وحدهم بالعدو. ومن الآن فصاعداً سيكون معقداً مضطرباً، وعلينا نحن الآن أن نكون مع حلفائنا وننتفح مع الأنبي. إلّا أنّه كان في هذه السّاعة مشغولاً. وهجوم الألمان على جبهة فرنسا حرّمه من التّجدة. ولذلك سيلزم مكانه في القدس. ولا يسمح لنفسه بأن يفقد رجالاً أو يجازف بهجوم قبل مرور بضعة أشهر. وقد وعده المكتب الحربي بإرسال فرق هندية سُحبت من «بين التّهرين» وبعض مفاوز قادمة من الهند. وبهذه التّجدات يمكنه أن يجدد تنظيم جيشه على المثال الهندي، ويكون قادراً على العمل في الخريف. ولم يكن عليه الآن ولا علينا أيضاً إلّا المواظبة على الصّبر.

وفي ساعة شرب الشّاي كان الأنبي يتكلّم عن جيش الهجانة الإمبراطوري في سيناء، ويفكر فيحلّ هذه الفرقة ليضم رجالها إليه وهو آسف جداً لهذا الأمر المحتوم. فسألت: «وماذا يكون من أمر الجمال». فأجابته مبتسماً: «سَلْ رئيس أركان الحرب».

فرضخت لهذه الإشارة وجزت الحديقة الغيرة وتقدمت إلى السّير «والتر كامبل»

وأعدت السّؤال، فأجابني الجنرال ذو العقلية الاسكتلندية جواباً مثبطاً للعزيمة، ولم يترك له رداً. وقال لي: إن هذه الحيوانات الموسومة على آذانها بميسم فارق قد خصصت لتشكيل قوافل ذخائر للهنود الجدد. إلّا أنني تشجعت وطلبت ألفي جملٍ من هذه الجمال فكان الجزء الأول من جواب لجنرال خارجاً عن موضوع طلبي. والجزء الثاني يفهم بأنه يمكنني أن أكرّر «طلبي» إلى ماشاء الله، وحاولت أن أقنعه ببعض البيانات فلم يكن مستعداً أن يفهم النّقط الدّقيقة من وجهة نظري لهذا الطّلب. ولا أنكر أن مهمّة رئيس الأركان حرب تحمّ عليه أن يكون شحيحاً بذخائره ووسائله.

فعدت إلى الّنبى وأسمعت الزّائرين بأنّ لديهم من الجمال ألفين ومئتين للرّكوب وألفاً وثلاثمئة للحمل وقد خصصوها للنّقل. وعلى كل حال وبدون شك أنّ التّوق كانت دائماً نوقاً. فأخرج رئيس الأركان حرب صغيراً خفيفاً من بين ثنياه، واتخذ له وقفة غريبة تدل على استغرابه، وأنّه من غير الممكن أن تصلح التّوق لحمل الأثقال. ففصلت الأمر بنظام فني تفصيلاً أفاد قضيتي، وإنها لشارة شرف لكل ضابط إنكليزي يعرف أحوال الحيوانات ومختلف أجناسها، ولم أستغرب دعوة القائد العام للسّير «والتر كامبل» على العشاء تلك الليلة.

وكنا عن يمين وعن شمال الّنبى. وما كدنا نتناول الحساء حتى أخذ مضيفنا يتحدث عن الجمال. فلم يبطئ السّير «والتر» أن صرّح «بأنّ حلّ فرق الهجانة يعتبر عملاً إلهياً، وأنه لإرث طيب يكون وسيلة نقل كبرى للفرقة.. عدد!! وتزيد في قوّتها، وقد فتشنا في جميع بلاد الشّرق فلم نلاق حيوانات حمولة»، إلّا أنّه كان يغالي، وكان الّنبى الفطن قد أدرك ضعف حجج رئيس أركان حرب، ولم يكن يأبه لهذه القافلة التي هي كالأصنام المعبودة لدى مكتب الإدارة.

وغمزني بعينه وقال: «ولأني خدمة تريد هذه الجمال؟»، فأجبت بهماسة: «لكي أضع ألف رجل في درعا متى شئتم فخامتكم»، فتبسّم وهزّ برأسه نحو الجنرال كامبل وقال له بأسف: «لقد خسرتم يا حضرة الأركان حرب» ف شعر الماعز بالدّوار والحمل بالخجل: فكانت عطية بالغة الحد. بل هدية ملكيّة حقاً. لأنّه سهّل لنا حركة وتنقلات

جَلِيلَةُ الشَّأْنِ فِي الصَّحَرَاءِ. وَصَارَ فِي الْإِمْكَانِ أَنْ يَرْبِحَ الْعَرَبُ الْحَرْبَ فِي أَيِّ وَقْتٍ وَأَيِّ مَكَانٍ شَاءُوا.

وَسَافَرْتُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي لِأَصِلَ إِلَى فَيْصَلِ الْمَقِيمِ فِي عَشِّهِ بـ «أَبَا اللَّسَنِ». وَأَخَذْنَا نَتَجَاذِبُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عَنِ التَّارِيخِ. وَالْقَبِيلَةِ. وَالْأَسْفَارِ. وَالشَّتَاءِ وَالْوَسْمِيِّ وَالْكَلَاءِ، وَالْأَخْبَارَ الْحَدِيثَةَ إِلَى مَا لَا نِهَآيَةَ لَهُ. وَأَضَفْتُ إِلَى ذَلِكَ بِأَنَّ الْجُنْرَالَ الْكِنْبِيَّ أَهْدَانَا أَلْفِي جَمْلٍ؛ فَتَوَقَّفْتُ أَنْفَاسَ الشَّرِيفِ، وَقَبْضَ عَلَى رَكْبَتَيَّ وَصَرَخَ: «أَلْفَا جَمْلٌ؟»، فَأُطْلِعْتَهُ عَلَى الْخَبَرِ بِحَدَافِيرِهِ. فَفَقَزَ قَفْزَةً وَعَانَقَنِي وَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ. فَظَهَرَ سَدَفُ هَجْرَسَ الْأَسْوَدِ عَلَى بَابِ الْخِيْمَةِ. فَأَمَرَهُ فَيَصِلُ بِأَنْ يَدْعُوهُمْ فِي الْحَالِ. فَأَجَابَ هَجْرَسَ مَرْتَبِكًا: مِنْهُمْ يَا سَيِّدِي؟ فَأَجَابَهُ فَهْدُ وَعَبْدُ اللَّهِ وَعُودَةُ وَمَتَلِجٌ وَزَعْلٌ!... فغَمِغَمَ الْعَبْدُ الْمَسْكِينُ: وَمَرَزُوقٌ؟ فَانْتَهَرَهُ فَيَصِلُ فَخَرَجَ مِنَ الْخِيْمَةِ. ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: لَقَدْ انْتَهَتْ مَهْمَتِي وَيُمْكِنُكَ الْآنَ أَنْ تَدْعَنِي أَرْحَلَ. فَاعْتَرَضَ عَلَيَّ وَقَالَ: كَلَّا إِنَّكَ لَنْ تَرْحَلَ عَنَا وَسَتَلَازِمُنَا أَبَدًا لَا إِلَى دِمَشْقَ فَقَطْ، كَمَا وَعَدْتَهُ سَابِقًا لَمَّا كُنَّا فِي «أَمْلَجٍ»، أَنَا الَّذِي يَذُوبُ شَوْقًا إِلَى الرَّحِيلِ!.

وَسَمِعَ وَقَعَ الْأَقْدَامِ وَرَاءَ الْخِيْمَةِ. ثُمَّ تَوَقَّفْتُ الْحَرَكَةَ قَلِيلًا لِيَتَّخِذَ الدَّاخِلُونَ سِمَةً الرِّزَانَةِ الرَّسْمِيَّةِ! وَيُصْلِحُوا ثِيَابَهُمْ وَعَمَائِهِمْ قَبْلَ الدَّخُولِ عَلَى فَيْصَلِ، وَدَخَلُوا وَاحِدًا وَاحِدًا وَاجْلِسُوا عَلَى السَّجَادَةِ سَكُوتًا وَهُمْ يَرْدُدُونَ الْوَاحِدَ تَلُو الْآخَرَ: خَيْرًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى فَيْصَلِ مَبْغُوتِينَ، وَعَيْنَاهُ تَبْرَقَانِ.

وَلَمَّا تَمَّتْ حَلْفَةُ الْمَدْعُوعِينَ قَالَ لَهُمْ فَيْصَلُ: «لَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا وَسَائِلَ الْإِنْتِصَارِ - أَيِّ أَلْفِي جَمْلٍ، وَأَنَا سَنَسِيرُ الْآنَ مِنْ غَيْرِ عَائِقٍ يَقِفُ فِي طَرِيقِنَا إِلَى النَّصْرِ النَّهَائِيِّ وَالْحَرِيَّةِ». فَاهْتَزَّ الْحَاضِرُونَ لِهَذِهِ الْمَفَاجَأَةِ وَاجْتَهَدَ كُلُّ وَاحِدٍ فِي أَنْ يَلْزِمَ قَنَاعَ تَعَجُّبِهِ كَمَا هُوَ وَاجِبٌ أَمَامَ سَيِّدٍ عَرَبِيٍّ عَظِيمٍ. وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيَّ لِيَعْلَمُوا أَيَّ شَأْنٍ كَانَ لِي مِنْ هَذِهِ التَّفَحُّةِ السَّامِيَةِ. فَقُلْتُ لَهُمْ: «هَذَا كَرَمُ الْكِنْبِيِّ» فَهَمَّ زَعْلٌ بِالتَّكَلُّمِ عَنِ الْجَمِيعِ: «رَبَّنَا يَحْفَظُ حَيَاتِكَ وَحَيَاتَهُ» فَأَجَبْتَهُمْ: «لَقَدْ أَهْدَوْا إِلَيْنَا الْإِنْتِصَارَ». ثُمَّ مَلْتُ عَلَى فَيْصَلِ وَقُلْتُ لَهُ: «اسْتَأْذِنْ» وَانْسَلَّتُ مِنَ الْخِيْمَةِ إِلَى الْخَارِجِ لِأَذْهَبَ وَأَبْشُرَ «جُويَسَ»، وَمَا كَدْتُ أَخْرَجَ

حتى تحلّق الجميع حول فيصل واستسلموا للرؤى الذهبية، وهم يحلمون بالغزوات المقبلة الجنوبية، ولكن أي حرب سيربكونها إذا لم يشعر كل فرد منهم بالمسؤولية، يتحمّل شقاءها وينعم بهنائها.

وسرّ جويس أيضاً بالألفي جمل، إلّا أننا تناقشنا حالاً بقدرتها على العمل بعد سيرها الشاق من بئر سبع إلى العقبة. وبالمناطق الملائمة لرعي مثل هذا القطيع، وعلينا أن ننسيها طعم الشّعير ونعوّدها حشيش الصحراء إذا كنا نرجو منها عملاً.

ولم نكن في حاجة قصوى الآن إلى حلّ أية قضية من قضايا هذه الجمال، بل علينا في غضون ذلك أن نثبت على المرتفعات طيلة الصيف، محاصرين معان ومانعين كل تصليح يحاوله العدو على الخط الحديدي، ولقد كانت مهمتنا شاقة!..

وأول شيء يعترضنا هو قضية التمويل، وقد قلّبت كل التدابير الرّاهنة فوجدت بأن وسائل النّقل اللازمة لنا لم تكن كافية مهما تفاءلنا، وأن مركبات النّقل المصرية بواسطة الجمال المتواصلة بين العقبة وأبا اللّسن، لم تكن تقوى على القيام بعدد رحلات أكثر مما تقوم به الآن، خوفاً على الحيوانات من التعب والفناء، مع أنه إذا زججنا الهمة ولو قليلاً نلقى شيئاً من الفائدة، فعرضت أن أقوم بأمر هذه الحيوانات بنفسي.

فاقتنع البريطانيون بهذا العرّض وأقروه حالاً. وعليه كان من الشاق جداً أن نخلق جمّالة بهذا القدر فجأة. ونسلم «يونغ» القيادة العامة وهي ملائمة لمزاجه كلّ الملائمة، وحد من سلطة هذا الخلاط الغريب، فلم يكن لديه مؤن لوحداثه ولا سروج ولا معاونون، ولا أطباء بيطريون، ولا أدوية، ما خلا القليل من الجمّالة، وعليه كان ضبط مثل هذه القوافل وتسييرها ولو بأبسط نظم النّقل مستحيلاً. إلّا أنّ «يونغ» قد توفّق إلى ذلك بطريقته الخاصة، وحلت بفضل مهارته طريقة تموين العرب النّظاميين على الهضاب.

وانتشر العصيان انتشاراً سريعاً، فكان فيصل يُثير الجهاد العربي من تحت خيامه، وغصّت العقبة بالمجاهدين ونهضت الهمم وسارت الأمور على ما نروم، وقد سجّل

العرب لهم انتصاراً ثالثاً في جردن وخرَّبوا هذه المحطة التي تعودوا أن يحتلوها ثم يخلوها، وفاجأت سياراتنا المدرَّعة مفرزة تركية كانت تحاول الخروج من معان وبددتها بطريقة لا تتاح لمثلها فرصة أخرى، وكان زيد على رأس نصف الجيش أيضاً شمال وُهَيْدَة يمد لواء سلطانه ويثير كامن جهوده. وكان لا بتساماته أثرٌ عميق على ضباطه الفنيين، أكثر مما كان لطبيعة فيصل الرزينة الخيالية.

فكانت معاونة الأخوين السعيدة توحى إلى فريقَي الرجال التعلق كل بناحيته من هذين الشخصين رئيسي الثورة، ولزمتنا مكاناً مدة ستة أسابيع إلا أن زيدا وجعفرأ كانا يقومان بأعمال مفيدة بواسطة مدافعهما في منطقة معان. وتقدم الشريف ناصر إلى «الحسّا» مع «بيك» و«هورنبي» أربعين ميلاً نحو الشمال، وكانا على مسافة ثمانين ميلاً من الخط فخرَّباه تخريباً حتى أساساته. وأجهضت خطة التُّرك الهجومية وهي جنين، وكانوا يدبرونها ضد فيصل في «أبا اللسن» فاغتنمت الفرصة وعدت مع داوئي إلى آلنبي.

وكانت الحال قد انقلبت انقلاباً ظاهراً في المعسكر العام. فقد كانوا يختلجون كما هي عادتهم، حماسةً وأملاً. أما لأن فقد اكتسبوا حكمة واندماجاً، ووصلت الفرقة الجديدة من «ما بين النهرين» وفي الساعة الملائمة وتشكل الجيش تشكيلاً طيباً، وقررت الاجتماعات السرية أن الجيش يتمكن من القيام في شهر سبتمبر بهجوم عام وبعيد المدى.

وانقشت الغيوم عن الأفق من كل ناحية. ولما مثلنا أمام آلنبي جاهر فجأة برغبته في هجوم عظيم في أول سبتمبر لتحقيق خطة «سموث» حتى دمشق وحلب. وكان دورنا مرسوماً ومحفوظاً منذ الربيع الماضي وسنغزو درعا بمعاونة الأنفي جمل المرسلة إلينا حديثاً.

وزرت آلنبي و«بارثولوميو» رئيس أركان حربه مع «داوئي» يوم 11 يوليو سنة 1918 فعجبنا من كرمهما وثقتهما. وكان الجنرال يستقبلنا ويظهر لنا نوعاً مما يكنه فؤاده، وكـم كنت مسروراً مغتبطاً من دور الجنرال ذي القدمين الصغيرتين. والدور الذي

أتعلمه وأمثله في منطقتي الوضيعة! وكانت ثقة آلنبي كالصخرة التي لا تتحرك، وقد زار الجيش المتجمع خفية فوجده متحفزاً للهجوم، فأكد له بأنه معتقد بنجاحه وأنه بهمته ورباطة جأشه سيأسر ثلاثين ألف رجل، فعلينا أن نتخذ إذاً هدفاً واحداً وخطاً مفرداً. إلا أن «بارثولوميو» كان يبدي شيئاً من الشك، ويجاهر بأن تجهيز جيش كامل في شهر سبتمبر أمر مستحيل، وأن فرقاً بأكملها لا يمكنها مشاركة الجيش في الهجوم قبل أن تصل مهماتها. وأنه لا يمكن لأحد أن يفكر ويؤكد بأن التقدم سيتم كما هو مرسوم. وأن الهجوم سيبتدئ في المنطقة الساحلية تجاه «رملة». المحطة التي هي رأس المرحلة. وهي وحدها النقطة التي تصلح أن تكون مستودعاً للذخائر.

وأضاف «بارثولوميو» قائلاً: «وكان هذا الأمر واضحاً إلى حد أنه ليس من المحتمل أن يكون الترك قد جهلوا هذا التقص في جيشنا، أو أنهم في استعداداتهم الحربية لم ينظروا إلى هذه الخطط الفنية».

أما خطة آلنبي فهي تجمع كل مشاته وفرسانه تحت بساتين البرتقال في الرملة قبل التاسع عشر من سبتمبر تماماً. وكان يحسب بأن يتظاهر في هذا التاريخ بالتقدم في وادي الأردن، ليوهم الترك بأن جيشاً كبيراً يستعد للزحف على هذه المنطقة، لأن العدو بعد غزوتنا على «السلط». وكان يرمق بأنظاره دائماً أبداً ضفة الأردن الشمالية. وكانوا يردون أقل هجوم يقوم به البريطانيون أو العرب على هذه المنطقة، ويسترون خوفهم بهذا التيقظ المفرط. وكانوا يعمون عن حركاتنا الساحلية مقر الخطر عليهم ومورد العطب. فلم يكن لديهم هناك رجال كثيرون. وكان علينا مهما كلفنا الأمر أن ندعهم في تقديراتهم ناعمين.. لأن نجاحنا منوط بهذه الغفلة.

ولم تكن هذه الخدع الضئيلة في عيون القواد العاديين سوى مقدمات طيبة لبقة، إلا أنها كانت في عيني آلنبي ذات أهمية عظيمة في حركاته الحربية، وعليه فقد ضرب «بارثولوميو» قرب أريحا جميع الخيام القديمة للجنود المصرية، ونقل خيام مستشفيات الحيوانات ومستشفيات الناقهين وأقام شبه معسكرات وجنوداً وخيولاً في المراكز البارزة تجاه العدو، وفي المواقع ذات الأهمية الحربية المعقولة، ومدّ جسوراً

ثوية على مجاري المياه، وضرب البلاد التي يحتلها العدو بالمدافع التي استولى عليها الإنكليز. وعند الحاجة كان يرسل جيوشاً من العاطلين على الطرق التربة ليشيروا التّقع فينعقد ضباباً فيعتقد العدو بأنّ هجوماً قريباً خطراً سيقوم به ألّني. وأُضف إلى ذلك الجيش الجوي الملكي الذي كان يدفع عدداً كبيراً من طائراته الحديثة الطراز فوق مواقع العدو أياماً متواصلة، ليمنع هذا العدو من الاطلاع بواسطة الجو على مواقع خصمه وحيله المدبّرة.

وكان «بارثولوميو» يعتقد بأننا نعاون جهوده بكل ما لدينا من الحماسة واللباقة في منطقة عمّان، ومع كل ذلك لم يكن يحجم عن أن يحذرنا بأنّ التّجّاح لا يزال بيد القدر. وللحقيقة كان من الممكن أن يقرّر التّرك الانسحاب، فيتراجع جيشهم السّاحلي سبعة أو ثمانية أميال إلى الورااء. فيحتم علينا إزاء ذلك أن نعيد تجميعنا وضم صفوفنا. إذ يصبح الجيش البريطاني كالسّمكة ترقص على أرض جافة، وتصبح سكّكه الحديدية ومدفعيته الضّخمة ومستودعات ذخائره ومعسكراته في حالة لا يحسد عليها. ولا يبقى لديه حَرَجَة واحدة من الزّيّتون لتخفي حركاته الجدية عن الأنظار. وبما أن ألّني كان واثقاً من نتيجة مجهودات الجيوش البريطانية غير الاعتيادية فقد طلب منا أن لا نقذف بالعرب لنجدته في مأزق لا يمكنهم الخروج منه.

ولهذه الوجهات المضطربة عدت مع «داوني» إلى القاهرة، ونحن في شغل شاغل لاستعداداتنا ولموقفنا، وكانت أخبار العَقَبَة الجديدة تدعونا إلى الدّفاع عن الهضاب ضد التّرك. لأنّ العدو قد طرد ناصراً خارج «الحسا» ويستعد للانقضاض على «أبا اللّسن» في أواخر أغسطس، عندما تنسحب مفرزتنا من منطقة «درعا». فإذا لم نتمكن من صد تقدم العدو مدة خمسة عشر يوماً فإنّه لا محالة يشل حركاتنا بسرعة، فيجب علينا والحالة هذه أن نُعلن ذلك حالاً.

وفي هذه الفرصة نزل الإلهام على «داوني» فتذكر طابور الهجّانة في الجيش الإمبراطوري، وإن هذا الطّابور يمكنه أن يبلبل خطة التّرك ويفسد عليهم حسابهم. ترى هل تسمح لنا به القيادة العامة؟. فكلّمنا «بارثولوميو» بالتليفون، ففهم قصدنا

وساعدنا على الوصول إلى طلبنا لدى «بولز» في الإسكندرية ولدى آلنبي، وقد حصلنا على أمانتنا بعد تبادل تلغرافات عديدة، ووضع الجنرال «بولز» رجاله الهجانة الثلاثمئة تحت تصرفنا لمدة شهر كامل على شرطين - الأول: أن نقدم تقريراً بالخطبة التي ستقوم بها هذه الفرقة - ثانياً: لا يجب أن نفقد رجالنا عند القيام بأعمالهم! ورأى «بارثولوميو» أن يعتذر إلينا لهذا الإنذار التّهائي البديع!! الذي لم يكن فيه شيء من الشّهامة العسكرية.

وانحنيت مع «داوني» على الخريطة وألقينا عليها نظرة وقرّرنا أن يقوم «بكستون» من القناة إلى العقبة أولاً، ومنها إلى رم فيستولي ليلاً على المدوّرة ثم يركض إلى «باير» فيجتازها ويخرّب الجسر ويهدم الثّقق قرب عمّان. وبعد ذلك يمكنه أن يعود إلى فلسطين في 30 أغسطس، فتكفل لنا جهود هذه المفزعة الخفيفة هدوء شهر كامل، في غضونه يكون قد تبدّل الألفا جمل، وألفت أضراسها حشيش الصّحراء، ونكون قد ضمنا تموين فرقة «بكستون» بالزّاد والعلف.

ومن ناحية الخطة الرّئيسية، فإنّ آلنبي كان يفكر بالهجوم في 19 سبتمبر ويرغب أن تتقدّمه بأربعة أيام لا أكثر ولا أقل من يومين، قبل أن يتحرك بجيوشه، ثم قال لي بالحرف: «إنّ ثلاثة رجال وغلماً وفي يدهم المسدسات أجدى من ألوف قبل أسبوع أو بعد أسبوع من هذا التاريخ». وفي الواقع لم يكن يحسب حساباً كبيراً لنجدة العرب. ولم يكن يعتبر خططنا اعتباراً جدياً ضمن خططه الفنية. وكان يعتقد بأن قواتنا معنوية أكثر منها فعلية عملية تسحر القيادة التّركية في جبهة ما وراء الأردن... وإذا وقفت موقف الإنكليزي ورأيت رأيه ربما كنت شاركت في هذا الحكم، إلّا أنّي وأنا في عقليتي العربية، أرى أن سحر العدو بالمظاهرات كما في المعركة له الأهمية في عقليتي العربية، أرى أن سحر العدو بالمظاهرات كما في المعركة له الأهمية نفسها، وهي المساعدة الفعلية للنّجاح المشترك ولا احترام العدو ذواتهم، إذ من غير هذا الاحترام، يفقد النّصر نتيجة أدبية نافعة للعرب.

ولذا فقد فكرت في تسيير خمسمئة من المشاة النّظاميين راكبي الجمال، والمدفعية

الجبليّة الفرنسيّة السريعة رقم 65، وعدد كاف من الرّشاشات والسّيارات المدرّعة، ورجال يمهّدون الطّرق، وكشافة على ظهور الجمال، وطائرات، وتتقدّم هذه القوة إلى الأزرق حيث يكتمل تجمعها يوم 13 سبتمبر. وفي يوم 16 منه تحدق بدرعا، وتقطع الخطوط التي تتصل بها، وبعد يومين من ذلك تطوي على الخط الحجازي الشّرقى ومنتظر نتائج حوادث آلنبي. وقد أدخّرنا للطوّارء علفاً من الشّعير اشتريناه من جبل الدّروز وخزّناه في الأزرق.

وسيرافقنا نوري الشّعلان مع رجال الرّوّلة يعضده رجال سرديّة والسّرحان وفلاحو حوران يقودهم طلال الحريديني. وقد تدخّل «داوني» فطلب من القيادة العامّة أن تضع تحت تصرفنا الضّابط أركان الحرب «سترلينغ» الممتلئ خبرة ودقة وحذراً، «سترلينغ» الولوع بالخيّل ولوعاً مكنه في الحال من الاندماج في صلة وثيقة مع فيصل وكبار الرّؤساء..

وقد منحنا ضباطاً من العرب نياشين بريطانية مكافأة على شجاعتهم وإقراراً بإخلاصهم حول معان. ومنحنا جعفر باشا شارة الاستحقاق والأهلية «كوماندر من رتبة مار ميخائيل ومار جرجس» وكانت هذه المنح من بنات فكر آلنبي، في تلك الطّروف الحرجة. فقدم جعفر باشا إلى القيادة العامّة ليتسلم هذه الشّارة العالية من يد القائد العام. واغتنم الأركان حرب هذه الفرصة ليقم عيداً لأسيره القديم. وكانت فرقة الشّرف لهذه الحفلة «خيالة دورست» Dorset Yeomanry التي فتكت بمفرزة تركية بالسّلاح الأبيض في إحدى جولاتها على صحراء السّنوسي منذ ثلاث سنوات فسر جعفر لهذه المصادفة نظراً لمزاجه المرح وميوله الإنكليزية فكان لمجاملة آلنبي هذه تأثير طيب في صفوف العرب. وتقدّم نوري باشا السّعيد ليتسلم قيادة الغزوة على درعا. وكانت شجاعته ورباطة جأشه تؤهّلانه أكثر من أي شخص آخر لهذه المهمّة. فانتقى أربعمئة رجل من أشد رجال الجيش، ونشط «پيزاني» قائد المدفعية الفرنسيّة وتسلم قيادة أربعة مدافع «شنيدر» أرسلها إلينا «كوس» بعد سفر «بريمون» Bremond وكان هذا الفرنسي قد نال وسام «صليب الحرب» ويطمح في وسام «الخدمة العسكرية الممتاز»، ولاقتهم صعوبات شديدة قبل أن يتمكنوا من

الاستيلاء على نصف الجمال لحمولة. ولقد كان يحتاج إليها حقاً لنقل الذخائر والعلف لبغال ولمطبخه وأمتعته الخاصة. وكان المعسكر يتحرك نشيطاً كالتمل، ويدور بهمة كالنحل، ويبشر بالنتيجة الطيبة.



جعفر باشا

قائد الجيش العربي الشمالي، ثم رئيس الوزراء العراقي

الفصل الثامن والعشرون

بَكْستون وجيش الهجّانة الإمبراطوري

وكنّا في أواخر شهر يوليو، وعلينا في أواخر أغسطس أن نبدأ بغزوة «درعا» وفي غضون ذلك نكون وحدنا برنامج جيش الهجّانة الإمبراطوري I.C.C.، فنعلن نوري الشّعلان. وندرب السيّارات المصفحة على الطّرق حتى الأزرق ونفتش على سهل تنزل عليه الطّائرات، وقد استفدنا استفادة طيبة من أيام هذا الشّهر، ففكرنا ملياً بأمر نوري الشّعلان، أولاً: لأنّه بعيد عن منطقتنا فدعي لمقابلة فيصل في «جفر» يوم 7 أغسطس، وبعد ذلك جاء دور الاهتمام بـ «بَكْستون» وقد أطلعت الشّريف سراً على وصوله مع الهجّانة. ولكي أجنبهم ضحايا، أمرتهم بالاستيلاء على المدوّرة فجأة وقدتهم بنفسي إلى وادي رمّ ورافقتهم في سيرهم الحرج الدّقيق بين معسكرات الحويطات الذين كانوا لا يزالون حول العقبة.

جئت إلى العقبة فسمح لي «بَكْستون» بأن أشرح لرفاقه كلاً بمفرده ما يترتب عليه من الأعمال بالدّقة وأفهمهم بأن حلفاءنا العرب الذين قدموا إلينا لمساعدتنا دون أن نطلب منهم مساعدة ما. هم على أحر من الجمر للقيام بالعمل أقل إشارة، ورجوتهم بأن «يديروا الخدّ الأيسر» عند أي صدمة - أولاً: لأنهم مثقفون أكثر من العرب لا تغرهم الأحلام والأوهام. ثم أن عددهم يسير وهم بين البدو. وكان من الواجب علينا بعد هذه المشورات الأولية أن نجابه معابر إثم المقبضة ونحاذي جلاميد نجد الحمر ونسير في منحرجات عمران المطروقة فتتهدأ ببطء لمشاهد «وادي رمّ» الرّائعة.

ثم خرتنا منافذ صخور «هزيل» كي نصل أخيراً إلى محراب الينابيع في ذلك

المسرح الذي ما لبثنا أن سحبنا هواء الليل بالأفواه والقلوب. ولم تكن زينة الطبيعة هناك زينة عادية تحلي مرحلتنا، بل جمالاً يفوق الرؤى والأحلام وكنا - نحن البشر - تراباً تحت أقدامها.

وقد اختبر الرجال في رمّ لأول مرة رفع المياه مثل العرب، فكانت لديهم أمثلة مرة، إلا أنهم كانوا قنوعين راضين، وكان «بكستون» الذي شاب وشاخ في السودان يتكلم العربية ويعرف أحسن من أي شخص آخر، كيف يعامل البدو الرّحل ويرضي شهواتهم، وكيف يقود الحملة ويظهر الجلد، وقد عاونه «هزّاع» ببراعة مؤنباً أبناء البلاد، أما «سترلينغ» و«مارشال» اللذين يرافقان الهجّانة فقد عاشا طويلاً في أحسن حال مع بني عطية، وبفضل حسن السياسة والكياسة، وبفضل مواقف الجنود البريطانيين الرّزينين، لم يحدث ما يكدر حملتنا.

ومرت أيام قليلة عدت بعدها إلى العقبة في المسالك المرتفعة محاذياً جلاميد «إضم» العظيمة، يرافقني ستة من حرسى الخاص صامتين. لا يعرضون أسئلة ويلازمونني ملازمة الظل، وينساقون انسياق الطبيعة فيطفون على الرّمل طفواً. ويلامسون الأشواك ملازمة، ويحاذون جبال بلادهم محاذة. أما أنا فقد شعرت بأن الحنين إلى كوخى يغمرني ويشير فيّ اللّهيّب. ولقد طالت عليّ مرارة الحياة بين أبناء الصحراء كالمنفى الشريد وكنت أسائل نفسي: ألا يمكن أن أستغل حبهم للحرية وأستفّزهم إلى المثل العليا وأخذها عدة تساعدني لأجل انتصار انكلترا!!

وكان باقي حرسى الخاص مجتمعاً في العقبة على أهبة الاستعداد للتسابق إلى الانتصار. لأنني وعدت رجالي الحوارنة بأننا سنحتفل بعيد النصر في قراهم المعتوقة وإن هذا العيد لقريب، ولقد استعرضتهم لأول مرة على شاطئ البحر وكانت الشمس تلمع على سفرات الأمواج كأن الرّبد فضة حبّ، وعلى سلاح رجالي المشحوذة وثيابهم اللامعة شهب ذهب، وكانوا ستين رجلاً، فلم يجمع الرّعاقيون فرقة أشد منها. ولما بلغنا جبال قويرة المربدة نظمهم على مثال بني عقيل قلباً وجناحين، وشعراء ينشدون عن يمين وعن شمال، ومغنين يغنون ونحن نتزهز على ظهور جمالنا كأننا

في غزوة من غزوات العصور الغابرة، وبالحخبة الزعاقين الذين لم أسمح لهم بنشر علمهم أمامي كأني أمير على الصّحراء!..

وكنت راكباً «غزالة» الجدة الهرمة التي أعيدت إليها قواها واستعادت قوامها، وكان قد نفذ نتائجها الأخير فسلخه عبد الله وألقى أديمه وراء سرجه كالحياسة وسار الرّكب بنظام بفضل أغاني الزّعاق، إلاّ أنّه لم تنقُص ساعة حتى رفعت «غزالة» رأسها تثرّب وتمشي مضطربة، وترفع أخفافها كأنها ترقص على جمر الغضا، أو تدوس على شوكة القتاد. فحاولت ترويضها عبثاً. فترجل عبد الله متزماً بعباءته وأخذ أديم الفصيل وقدمه إلى أنف ناقتي فتوقفت، وأنت برفق وحنان فنشره على الأرض وتركها تشمه قليلاً، وتلمسه بمشافرها اللينة، ثم هدأت وسارت دامعة، وقد تجدد هذا المشهد مراراً حتى بدا لنا في المساء أنّ هذه الأمّ الثكلى قد حاولت السلوان.

وكان «سيدونز» Siddons الذي قدم طائراً ينتظرني في «قويرة» فدعاني نوري الشّعلان وفيصل إلى جفر في الحال فوجدتهما على أتم حال من الاستعداد والحماسة، وكنت إلى ذلك الحين لا أصدق أن هذا الشيخ سيكون بيننا وينضم باختياره إلى الشّبان. لأنّ الشّعلان كان هزماً شاحباً متهدماً حفرت على وجهه أخاديد التّبيكيت والآلام. وقلما كانت تسطع على هذا الوجه الفاني هبوة ابتسامة. له أهداب سود كثة تهبط مع الأجفان الثّقيلة المضنية. إذا مرت أشعة الشّمس عليها وهي في سمتها وتغلغلت بين تلك الأهداب، توقدت العينان واحمر بياضهما كأنهما في محاجرهما بوتقتان تذوّبان ببطء على نار هادئة ذلك الرّجل، أسد الصّحراء الفاني... إلاّ أنّ الخضاب في شعر رأسه ولحيته، وخلو كل شعور في وجهه كانا يطرحان شيئاً من السنوات السّبعين التي تهوي على منكبيه.

فتبادلنا المجاملات لدى هذا الرّئيس القليل الكلام، وهو محاط برجاله رؤساء القبيلة يسرون الخيزلى حوله بثيابهم الفضفاضة التي تسمع لها حفيفاً كحفيف مطارف العرائس وبعضها من هدايا فيصل. فيتهادون بمشيتهم وعلى رأسهم «فارس» كأنه «هاملت» لا يغفر لنوري الذي قتل أباه «سظّام» وكان «فارس» هذا شيخاً نحيلاً

أبيض البشرة إلى حد لا يصدق، وكان يرد على انتقاد أهل الحضرة للبدو باسترحام وعذوبة واعتراض. وكان يقول «يفهم لغتنا العربية؟!» هذا غريب. وكان بين البدو طراد وسلطان. لهما أعين مستديرة ونظرات رصينة شريفة وعلى وجهيهما سمات الشرف والرئاسة والفروسية. وقد أحضر فيصل «مجهماً» أيضاً «مجهماً» العاصي وصالحه مع عمه رغماً من أنه لا يطيق مواجهة تلك السحنة الشاحبة المتجعدة، ورغماً من أن «مجهماً» كان مهذباً محبوباً.

كان «مجهم» أيضاً رئيساً من الرؤساء وخصماً لـ «طراد» في قيادة الغزوات، ظالماً ذا خلق ضعيف. فجلس إلى جانب أخي طراد الفارس الشديد المرح الطروب، الذي يشبه أخاه في الشدة والبأس. ثم دخل «درزي بن دغمي» وحياني. وكان «درزي» ذا ملامح مشؤومة وأنف أعقف يشير بمنقاده إلى عور في إحدى عينيه، وكان به بهاق ولكنه شهيم همام. وكان بيننا الخفاجي «بنيامين» نوري في شيخوخته يتوكل على مساعدتي له حباً بأبيه الشيخ. لا اعتماداً على قدرته في المستقبل. وكان زهوه بشبابه وخيلاؤه ونسبه، يدعوه ذلك كله، إلى حمل السلاح المصقول والاستعداد للقتال...

وكان «بندر» الغلام المرح رفيق الصِّبا لخفاجي قد فاجأني في هذا الاجتماع، وطلب إليّ أن أضمه إلى حرسى الخاص لأنه سمع من أحدهم «رحيل» أخيه في الرِّضاع، عن الفوائد الممتازة والمسؤوليات الهامة أيضاً التي تقتضيها هذه الوظيفة، وقد جذبته مخاطراتها العذبة المضطربة. فاعترضت قدر ما استطعت، فألحَّ فانقطعت عنه وغمغمت قائلاً: «أنا لستُ ملكاً لأستخدم أبناء الشعلان»، فاشتبكت نظرات نوري التي أرسلها من وراء أحداقه المظلمة وأجفانه المثقلة الهاوية بنظراتي.. فقرأت فيها سطور استحسانه!.

وكان رحيل جائئاً ورائي كأرومة ضخمة مجللاً بشبابه الزَّاهية الملفتة للأَنْظار. ولما اختلط النَّاس وكثرت الغوغاء دنا من أذني يهمس فيها أسماء الرؤساء، ولم يكن على هؤلاء الرؤساء أن يسألوا عمن أكون. لأنَّ ثوبي ووجهي كانا متقابلين متناقضين مع أشكال أولئك النَّاس سكان الصَّحراء، وكنت وحدي حليقاً بين الذقون الملتحية

والشوارب المستطيلة، وفوق ذلك كنت دائماً ألبس الخزر الزاهي الخالص البياض - خزرًا لا يطمع به أحد غيري - مزنرًا بمنطقة من الذهب والقرمز صنع مكة، تضم دائماً أبدأً خنجرًا ذا نصاب من الذهب الإبريز. وكأني بهذا الزّي الزاهي كنت أحاول استرداد حقوق مقامي الضائع. وهي حقوق اكتسبتها حقاً من احترام فيصل لشخصي جهازاً وفي كل مجتمع.

وكم من مرة كان فيصل يكتسب رؤساء قبائل جدداً في هذه المجالس الاستشارية الحربية ويلهب حماسهم، بينما كان يذهب سعيي أنا بين خيّاب ابن هيّاب. إلاّ أنّه لم يتفق قط أننا اجتمعنا قبل اليوم لمثل هذه المداولة الخطيرة، لقد كنا نسند بعضنا ونقر آراء كلينا ونتناوب المداولات للعمل المشترك - نحن الذين جئنا كلٌّ من قطب مختلف كل الاختلاف - وكانت أعمالنا مع ذلك تنتهي على أحسن ما يكون من التوفيق. ولقد لان أبناء الرّولة بين أيدينا وتحت تأثير حماسنا، وأصبحنا نهزم بكلمة طيبة وإشارة موفقة، لأنّ أفكارهم قد اتجهت إلينا ووقفت أنفاسهم على شخصينا، وسطعت في عيونهم أشعة إيمان جديد. وألهمهم فيصل الرّوح الوطنية بكلمة، وذكرهم بأمجاد لغتهم العربية وتاريخ آدابها الغارق في القدم. ثم صمت الشّريف هنيهة كي يتذوق أولئك الرّؤساء الأميون كل عبارة بتؤدة وهدوء، لأنّ الكلمة الطّيبة كانت تشبع نفوسهم وعبارة ثانية كانت تكفي لكشف القناع عن روح فيصل رفيقهم وعმიدهم، الذي يضحيه حباً بالحرية العربية ثم يعود إلى الصّمت وأنظار الرّجال ترقى عليه وتسهل، ثم تحرق به إحداق السّوار بالمعصم. وتطوف أفكارهم بهذا الجسم السّجين داخل خيمته ليلاً نهاراً، يبشر ويصدر الأوامر ويخلق الأصدقاء. فيرون في شخصه شيئاً من المثل العليا التي تثير الضّرام في هذا الرّجل المعلق كالأيقونة المجردة من الشّهوات والوهن والأطماع والأخطاء.. رجل غني بالمواهب الطّبيعية والصفّات الرّفيعة. مسخر لقضية معنوية، ذو غاية مفردة لا ثانٍ لها، وهي أن يحيا ويموت في خدمة هذه القضية.

واتجه وجه مخبراتنا اتجهاً حسناً فحركنا كوامن الرّجال، وقد كانوا غارقين في بحر من الأفكار. وتركنا الحرية لأولئك البدو كي يقتنعوا من أنفسهم، بأنّ شعورهم

له ينبوع جارٍ في داخلهم، وأن استنتاجاتهم صادرة عن عقيدة حرّة لا سيطرة عليها من ناحيتنا. ولقد كنا نراقبهم فإذا هم يتواصلون بالأنظار والعواطف، وتمشى في جوانحهم حرارة الحماسة تمشي النار في جزل الغضا، إلى حد أن الجو أصبح مرتجاً ملتهباً. عندئذ أحسوا بأول هزة نفسية - عند عباراتنا المتقطعة نحوهم - ولأول مرة شعروا بالاندفاع إلى استيعاب ما هو فوق ميدان بصرهم الطبيعي. ثم مالوا إلينا ليشيروا فينا الغيرة. وهاهم الآن قد جاءوا بدورهم يحثوننا نحن الغرباء الممتلكين! ويجتهدون كي يبرهنوا لنا عن إيمانهم الحديث العهد. ويصوّرون لنا الوسائل والنتائج التي نصبوا إليها بصور زاهية بديعة. وجاءت وفود جديدة من قبائل أخرى وانضمت إلى اجتماعنا. إلا أن مجرد كلمة «نعم» من نوري تغني عن جميع خطب العرب مجتمعين، وأخذني «سيدونز» في طائرته ذلك المساء إلى قويرة. ثم حملني في الليل إلى العقبة. فأوضحت «لداوني» الذي كان قد قدّم منذ هنيهة بأننا نعيش ممثلين ثقة، لكن من غير اصطدام، وعلمنا عند الصّباح بوساطة الطائرة كيف اتجهت جنود «بكستون» في المدوّرة، وكان قد تقرّر هجوم الثلاث فرق بالقنابل: الفرقة الأولى تحتل المحطة التي هي غرضنا الأول، وتندفع الفرقتان الأخريان على الاستحکامات الرئيسية.

ولذا قد نثرنا علامات بيضاً على الطريق لنرشد المهاجمين إلى النقطة الأولى. وكان يجب أن نطلق القذائف عند الساعة الرابعة إلا أن المفارز قد لاقت صعوبة بتلمسها الطريق وفاجأها ضوء النهار ولم تكن قد انقضّت على الاستحکام الجنوبي، وما كادت تنفجر بعض القذائف داخل المواقع وعلى جوانبها حتى أصبحت في قبضة المهاجمين. وكانت مفرزة المحطة قد أنهت عملها بسرعة، ولم تمضْ عشرون دقيقة حتى سلّم رجال استحکامات القلب وانتهى الأمر.

إلا أن استحکام الشمال المسلّح بمدفع قد أراد أن يقاوم، فقذف رصيف المحطة بقنابل مدفعه الوحيد بغزارة بين رجالنا. وكان «بكستون» متحصناً وراء الاستحکام الغربي، فأدار فوهات مدافع «برودي» وسددها حسب عادته وأطلق القنبلة تلو القنبلة. ثم ظهر «سيدونز» بطائرته وقذف الاستحکام بقنابله فانقضّت كالصّواعق، بينما كان

جيش الهجّانة الإمبراطوري المرابط في الشّمال والشرق والغرب يصلي مرامي الأعداء ناراً قاسية حامية من مدافع «لويس» وسلّم آخر المدافعين بهدوء وسكينة في الساعة السّابعة صباحاً. ففقدنا أربعة رجال وعشرة جرحى، وقتل تركي واحد وأسر مئة وخمسون، وربحنا مدفعين وثلاثة رشاشات.

وأرسل «بكستون» بعض الأسرى من التّرك ليديروا المضخّة الرّافعة فيسقوا الجمال، بينما كان رجالنا يهدمون أجهزة المحطة ويقتلعون ألفي متر من الخطوط، ودُمّر الحوض والمضخّة بدورهما عند الغسق، وتناثرت أجزاءهما بعيداً في السّهول. وبعد هنيهة أمر «بكستون»: «سيروا إلى الأمام!.. ونهض الأربعمئة جمل دفعة واحدة وهي تهدر، فكان كأنّه يوم الحشّر وتقدموا إلى «جفّر» فكنا من هناك نستطلع أخبارهم، فقد استراحوا يوماً كاملاً وتموّنوا، واتجه «بكستون» نحو «باير» واتفقت أنا مع «جويس»، على أن نلحق به وننضم إليه.

فاجتمعنا به في 15 أغسطس وباشرنا استشارة حربية، وكان قد أرسل «يونغ» إلى «باير» مئة أربعة عشر يوماً للرجال والجمال، فلم يبق منها سوى زاد ستة أيام وعلف عشرة، فسارت القافلة مرغمة بأمر «يونغ» الذي لا يُقاوم محملة ذخائر إلى «باير» إلّا أنّها بلغت جفّر وأضربت عن السير، وقد هالها عبور الصّحراء فباعت ما باعت من الذّخيرة اللازمة «لبكستون» وسرقت ما سرقت وفقدت ما فقدت، فكان علينا إذن أن نضبط أعمالنا بعد هذا الحادث، فخفف «بكستون» قدر المستطاع من حمليته، وفصل كل ما هو غير جوهرى لها. أما أنا فقد غيرت برنامجي ولم أبق سوى سيارة مصفحة واحدة، وسير «بكستون» حمليته عند الأصيل. ولم أسافر إلّا عند المساء بعد أن راقبت حمولة السّتمئة ليرة من القطن المشرّب بالبارود على ظهر الثّلاثمئة جمل المصرية. وكان على حرسى الخاص أن يرافق هذه المتفجرات مرغماً.

وظننا أن «بكستون» سيكون معسكراً على سفح جبل «هادي» فسارت قافلتنا نحو ذاك المكان. غير أننا لم نبصر ناراً موقدة والسُّبل لم تكن ملبّدة، ومالبثنا أن شع رنا بالهواء يهبّ من جبل حرمون ويقرصنا برّودة، وأمامنا منحدرات مظلمة صامتة لم تألفها

رجالنا، غير أن الوطنيين قد تعودوا مثل هذا التبخر والعرق وتخمر الأرض المفلوجة حديثاً، وكانت هذه الرياح القاسية في الصحراء تقلق البال، بل تنذر بالخطر الداهم. فتراجعنا قليلاً وتمكنا من وجود ملجأ أمين في سفح الجبل.

ورأينا عند الصّباح أن أمانا خمسين ميلاً من الأرض الموحشة القفراء، فتساءلنا عما جرى لرفاقنا تولتنا الحيرة، وإذا بـ «ظاهر» يصرخ بنا ويقول لقد رأيت الحملة تسير بعيداً في الجنوب الشرقي من جهة جبل «هادي»، وكانت قد تأخرت لأنها بعد سفرها بقليل أضاعت أثر السبيل واضطرت أن تتوقف إلى الصّباح ثم تتابع سيرها، ولم يحرم رجالنا أدوار المزاح الدقيق مع رئيسهم الشيخ «صالح» الذي كان بإمكانه على رأيهم، أن يضل بين «الثلاث أخوات وباير» كما تقول بين «ماربل آرتش وسيرك أكسفورد».

وكان الصّباح طيباً جميلاً... الشمس تدفئ ظهورنا والهواء يهيم على وجوهنا. فعبّر جيش الهجانة الإمبراطوري بنظام أمام التلال الثلاثة المجلودة، وبلغ معابر ضرّوى الخضر اليانعة، وأصبح الرّجال منذ الآن غير أولئك الجنود أصحاب الغزوات الذين قدموا من العقبّة، ولم نكن نحترمهم إلا مجاملة، لأن دماغ «بكستون» المرن وفكرته الثيرة وشدة ملاحظته للأشخاص والأشياء، أظهرت له في الحال موقف الرّعماء في القتال وشروط المعركة معاً، فنظر ثانية في نظام القوانين الشديدة وجرى عليه عند الضّرورات العارضة.

لنقد غير تنسيق الحملة وألغى تقسيمها إلى قسمين متنافرين، وبدّل تلك الطّريقة العتيقة التي تجعل الطّابور ثابتاً مثقلاً بأنظمتها التي توثقه بوثاق مُزعج، وقسمه إلى قسمين متقابلين يمكنهما أن ينفصلا أو ينضما بسرعة، حسب طبيعة الأرض، وحالة السبّل التي يسير عليها، وخفّف حمولة الحيوانات حتى يمكنها أن توسع الخطى، وتقطع الأميال البعيدة في كل يوم. وقسم المرحلة إلى أوقات توقف عديدة، لكي تكوّل الجمال وتسعيد نفسها، وقلّل إلى الحد الأدنى من معالجة الحيوانات بالطّريقة المبتدلة، طريقة تدليلها ومعاملتها معاملة الطّفل الغنّج، وأمر عند توقفها عن السير بأن

يُحلَّ بطانها وتذلك أوراكها دلكاً سريعاً شديداً بغطاء السَّرج، وتسرح في كل ساعة إلى المرعى.

فلبسَ جيش الهجَّانة الإمبراطوري بفضل هذه الوسائل ثوباً جديداً من التَّشاط والحركة السَّريعة والخفة على السَّرج والاتزان، إلّا إذا كثر العدد، فإنَّ الجمال عندئذٍ تحرد وتهدر، وتسمع جلبتها مسافة أميال.

ودبَّت الحماسة بين الهجَّانة وحسنت حالهم وطاب عيشهم وخفت أوزانهم ونهيات أعصابهم لكل بادرة. يُقادون كالتلاميذ المرحين في أجازاتهم. وكان دخول الضَّباط عليهم والتغلغل بينهم مجلبة للسُّرور والألفة والإخاء.

وقد تعودت جمالنا أراجيح الجمال العربية في الصَّحراء وهزَّ مفصل الرِّسغ وهو طي الثَّفنة وتأرجح الخف... وبهذه الطَّريقة تكون الخطوة أبعد اتساعاً وأكثر سرعة، وكانت نُوق «بَكستون» تتابع سيرها من غير ما هَمَّ لأحمالها. وكان الخيَّالة بجراميقهم وعلى سروجهم الخاصة الخشبية الفولاذية صَنع «مانشستر» لا يلمسون المطية مباشرة.

ومنذ ذلك الحين كنت أقطع المسافات بسرعة في الطَّلعة مع خمسة من رجالي مصحوباً بـ «بَكستون»، وعلى الأخص عندما أمتطي ناقتي «بَعاق» الضَّخمة القوية، ذات العظام الصَّلبة. وقد سَمَّوها بعاقاً لأنَّها أصيبت برصاصة في فكها فأخذ صوتها رنة «الثَّغاء» وكانت مؤصلة إلّا أنَّ طباعها شرسة وحشية لا تطوي ركبها كالنُّوق العربية العريقة، أنفها إلى الجو ووبرها منتفش في الهواء، دائمة الحركة مزمجرة ماشاء الله، تُغضب العقيليين وتُطربني، فأغدو جذلاً هازئاً من عنادها، لقد كنا نتقدم البريطانيّين ونسبقهم ثلاثة أميال فيسمح انتظارنا لهم بالراحة والتقلب على العشب النَّدِّي، ويتسريح إبلنا ترعى وتمرح إلى أن يصل إلينا جيش الهجَّانة الإمبراطوري، الممتدَّ على طول الطَّريق بشكله البديع ونظامه الذي يسحر الألباب.

كنا نرى السَّراب يلعلع على صخور الجبل الصَّوانية، وكان الجيش يبدو لنا في

الأفق كقطعة مكّدة متجمعة تائهة ترقص في الهبّوات الحارة. ولا يلبث أن يقترب شيئاً فشيئاً وينفصم إلى قطع تروح وتجيء وتتجمع وتبتد. إلى أن يدنو فتظهر الهجانة كالطيور المائية العظيمة مغمورة إلى صدورها بالسراب الفضي المرتج، وينتصب جسم كالعملاق ويسير في الطليعة ذلك هو «بكستون» الذي يقود رجاله (الكاكي) فيصلون إلينا مازحين، وقد لفحتهم حرارة الشمس، وكم كنا جذلين لركوبهم الغريب المختلف الأشكال. ومنه ممن كان يتربع على السرج وإن يكن غير صالح للتربع على ظهر الجمل، ومنهم من ينحني إلى الأمام كفلاح حي العرب، ومنهم من يهتز ويدور على ذاته نصف دورة، دوران الأسترالي على ظهر فرسه. فلم يكن يخلو الموقف من الهزء والسخرية، إلا أنني أكدت لهم بأنه يوجد بينهم لا أقل من أربعين رجلاً يفوقون بفروسيّتهم أربعين من فرسان فيصل أياً كانوا، نظراً لصفاتهم الحربية، وصبرهم الطويل على الألم، وركوب متن الأسفار.

وتوقفنا عند الظهيرة في رأس «مُهيّور» ولم يكن الحر شديداً، بل كان كحر مصر في أشهر أغسطس، غير أن «بكستون» لم يشأ أن يقطع رجاله السهل البعيد قبل أن يستريحوا. فحللنا بطان الحيوانات وسرحناها وتمددنا وحاولنا النعاس عبثاً، لأنّ غيوماً من الذباب كانت تتبعنا منذ «باير» وتتساقط على ظهورنا العارقة كتساقط ثولٍ من النحل على الفقير. وفي هذه الفرصة كنت أنظر إلى حرسِي الخاص الغضبان لأنه أرغم على قيادة قافلة الأمتعة. ويعتقد هذا الحرس بأنه لم يُسخر قط لمثل هذا العمل المُدّل، فكان يدعو الله أن لا يهب هواء طيب على الصّحراء، وأن يسوء سبيلنا عليها انتقاماً مني أنا القاسي الظالم.

وزاد في غضبهم بطء سير تلك الإبل الصّومالية الحمولة التي لا تقطع أكثر من ثلاثة أميال في السّاعة، وكانت مفرزة «بكستون» تسير أربعة أميال في السّاعة ونحن خمسة فضاك ذراع الزّعاقين وذؤبانهم الأربعين واشتد عذابهم، وثارت عزّتهم وانصب انتقامهم على تلك الحيوانات التي كانت تتقلقل أحمالهم وحرنت.

وكنا نهين أولئك القوم، ونسخر من بلادتهم ونعاملهم معاملة رعاة المواشي والفيلة

الصّينيين الأذلاء، وندعوهم إلى شراء الحاجات التي سيأتون بها من السّوق. إلى أن يبلغ بهم الأمر إلى الضّحك من نفوسهم على حالهم التي صاروا إليها، وقد ساوونا في قطع المرحلة بعد أن ساروا قليلاً في الليل - وأولئك الرّجال مصابون بالرّمّد الحبيبي لا يقوون على تمييز الطّريق في الظّلام - وقد نسروا فطورهم وغذاءهم نسرأ، وهم على الطّريق. ومع ذلك قد بلغوا آخر المرحلة ولم يفقدوا حزمة قط من حزم الأمتعة. وفياله من شوط بديع لأولئك السّادة فإنهم وهم في هذه الأنفة والازدراء، كانوا أجمل قادة للجمال في العربية كلها.

وقضت المفرزة الليل في «الغدف»، وكانت قد لحقت بنا السيارة المصفحة، يقودها الشّراري الفخور المبتسم ابتسامة السّخريّة من فوق قبة برجه المتسامي. وبعد مرور ساعتين وصل الرّعاقي وبشّرنا بالسّلامة وطلب ألا يقتل «بكستون» المطايا التي نهكت وأضربت عن السّير، لأنّ كل شلو من هذه الحيوانات المقفّعة يدعو الرّجال إلى وليمة فيضيع الوقت.

ولم يكن عبد الله يفهم طريقة البريطانيّين الذين يقتلون الحيوانات المنهوكّة، فقلت له إنّنا نحن نجهز على بعضنا في الحرب عندما نكون مجروحين جروحاً لا شفاء لها. فأجاب: بأنّ سبب ذلك هو عدم تمكّنكم من تحمّل آلام الجروح مهما جالدم. ونظريّة عبد الله هي أنّه لا يوجد إنسان يفضل الموت السّريع على الموت البطيء جوعاً في الصّحراء، ومن رأيه أن الموت البطيء هو أرحم أنواع الموت. لأنّ الجريح لا يفكر بنتيجة المعركة، بل تحل قيود هذه الدّنيا عنه ويتحول تفكيره إلى السّموات العليا، مستسلماً لقضاء الرّحمة الإلهيّة، عكس ما نحن عليه، نحن الإنكليز انذين نفضل الإجهاز بسرعة على الكائنات الحيّة المعذبة، ما عدا الإنسان! فلم يسلم عبد الله بهذا المبدأ.

ومرّ اليوم الثّاني مملاً كالأمس الدّابر قطعنا فيه أربعين ميلاً ولم يبق لنا سوى يومين لنصل إلى الجسر، ففصلت نصف رجالي عن قافلة الأمتعة ونثرتهم على قنن الجبال من ناحيتي الطّريق التي نسير عليها. فلم تأت هذه الحركة بالنتيجة المطلوبة رغماً من

تنفيذها بدقة، لأنَّ طائرة تركية قادمة من الجنوب قد حامت فوقنا قبل الظهيرة ونحن نجد في السَّير لبلوغ (موقَّر) وجثمت في عمان قبل أن نصل إلى غرضنا. وبلغنا «موقَّر» بصعوبة عند الظَّهر في خرائب هيكل روماني.

فترصد لنا الأعداء على القمم يرقبون السَّهول المحصورة حيث تمرُّ سكة حديد الحجاز، وكانت الصَّخور المربَّدة تترأى لنا من وراء نظارتنا على سفوح التلال كأنها قطعان غنم ترعى. فأرسلنا المخبرين من رجالنا إلى القرى المنخفضة نفهمهم بأن يلزموا مكانهم، فعادوا إلينا يقولون إن الحظ قد خاننا لأنَّ مفرزة من مشاة التُّرك الرَّاكبين التي ترافق جباة الضُّرائب ومقوِّمي الغلال قد رابطت على البيادر حول الغلال التي يذرونها بالمداري - فأرسلنا ثلاث فرق كل فرقة مكونة من أربعين رجلاً - ليقضوا الليل في القرى الثلاث القريبة من الجسر، وعلينا إذن أن نطوف بين هذه الأماكن المحاطة بالأسوار.

فعقدنا حالاً مجلساً استشارياً. وقرَّرنا أن موقفنا حرج جداً كشففتنا الطَّائرة أم لم تكشفنا، لأننا أصبحنا نخشى معاونة حرس الجسر لمفرزة المشاة الرَّاكبة. أما أنا فلم أضطرب ولم أببل أفكاري، واعتقدت أنَّ التُّرك يحسبوننا طليعة غزوة ثالثة على عمان، ومن المعقول عندهم لهذا الاستنتاج أن يتجمعوا لا أن يتفرقوا، أما رجال «بكستون» فهم جنود أشداء ورجال بأس ونظامهم لا يقبل التَّقد، فقد درَّبهم رؤساؤهم أحسن تدريب. وأرى أنَّ التَّجاح من نصيبنا.

ولكن كم يكلفنا تدمير هذا الجسر؟ وبعبارة أصحَّ كم نفقد يا ترى من الأرواح البريطانية، هذا هو السَّؤال الذي كان يجابها لدى تحذير «بارثولوميو» وأوامره المبرمة بأن لا يفقد رجل! وكان وجود أولئك التُّرك الرَّاكبين بغالهم يدعوننا إلى التيقظ عند ارتدادنا. لأنَّ جيش الهجَّانة الإمبراطوري سيعتزل ويسير على الأقدام ميلاً كاملاً إلى أن يبلغ جسر «قصير». والجمال تهدر وتتقلقل أحمالها، وحركات المهاجمين تقطع سكون الليل فضلاً عن الدَّمدمة التي ستردد صداها الجبال والوديان عندما تنفجر الأطنان الثلاثة من القطن وتوقظ القضاء بأسره. ومن الممكن أن تهبط الكشافات

الثُّرْكِيَّة على مرابط جمالنا - وتكون نكبة كبرى، وتعوق على الأقل سيرنا عند ارتدادنا في أرض وعرة.

ولا يتمكن فرسان «بَكستون» بعد الانفجار من الانتثار كسرب من الطيور ثم ينضمّون ثانية ونأخذ طريق «موقّر»، ولا بدّ عند وقوعه المعركة من تشتت بعض الرّجال وتيهانهم، فيكون علينا أن ننتظر رجوعهم وربما فقدنا قسماً منهم. وأن هذه الحركة لتكلفنا حوالي الخمسين رجلاً. وعندي أن الجسر لا يساوي خمسة. ولم يكن من غاية في تدمير هذا الجسر سوى إرهاب الثُّرك وبلبله وسائل نقلهم كي يريحونا منهم إلى 30 أغسطس وهو تاريخ انتقال جيشنا الطويل إلى الأزرق. وكان التاريخ في ذلك الوقت 20 أغسطس. أما الخطر الداهم في شهر يوليو فلا وجود له الآن.

وكان «بَكستون» من رأيي، فقرّرنا الارتداد إلى الوراء، وكانت مفارز من العدو قد تركت عمّان ووصلت في تلك الساعة واحتلتّ تلال «موقّر» الوعرة المسالك.

وتدّمّر رجالنا لما علموا بتغيير خططنا وكانوا قد وقفوا إباءهم وشممهم على هذه الغزوة، وأكلتهم نار الرّغبة ليقولوا في مصر إنهم نفذوا البرنامج بحذافيره. ولكي نستفيد من انتقالنا أرسلت صالحاً وباقي الرّؤساء ليلبلوا أهل القرى ويهرفوا بكلّ خبرٍ لصالحنا. فكان عليهم أن يُشيعوا بأننا كثير العدد وما نحن إلّا طليعة جيش فيصل الرّاحف للاستيلاء على عمّان عنوةً وفي أول القمر الجديد، وهذا ما كان يخشاه الثُّرك وترتعد فرائصهم لمجرد الافتكار فيه. ولذلك أزعج العدو بفرسانه في حرص وتيقظ وقذفهم إلى «موقّر» حيث تحققت لديهم تلك الأخبار الجوفاء الكاذبة، وقد رأوا قمة الجبل قد امتلأت بعلب المحفوظات الفارغة وآثار دواليب السيّارات المصفحة الضّخمة العميقة. وكانت هذه الآثار كثيرة ومتعدّدة، فخفت حماسة الثُّرك بعد هذه الوقائع، ووقفوا على حذر منا مدة أسبوع كامل دون سفك دماء من ناحيتنا. وكان يمكننا أن نربح خمسة عشر يوماً لو أننا دمرنا الجسر.

وماكاد ينسدل ستر الظلام حتى تحرّك جيشنا ووجهته الأزرق على بعد خمسين ميلاً. وجعلنا أنفسنا نعتقد بأنّ هذه الغزوة لم تكن إلّا لمجرد الاستطلاع، ولقد تراجعنا

بالفكر إلى العصور الغابرة على أطلال الخراب الرومانية وآثار أجنحة القنص في قصور الغساسنة. وسار جيش الهجانة الإمبراطوري ليلاً كأنه يمشي في النهار لتعوده على مفاجآت الصحراء، ولم تكن وحداته تنفصل وتبعد عنه. وسرنا في ضوء القمر الساطع وما مشيناه إلى أن شحب لونه عند الفجر، وقد مررنا في منتصف الليل على قصر قديم موحش. فلم يكثرث للقيانا ولم يعجب لزيّنا الغريب! وكان القمر سبباً من أسباب ازدرائه بنا. لأنه سكب علينا من ضوءه الباهت، وجلد أفكارنا بصقيعه ومحا من ألواننا وظلالنا فكان شأننا كشأن هذا الكوكب البارد الساجي. فمشينا كمثله سكوتاً، ولا شيء حولنا غير الصمت والسكون.

وبلغنا «قُصَيْرِ العُمُر» وهو جناح صغير لقصر الحارث كان خاصاً برحلات الصيد. الحارث ذلك الملك الزراعي شفيح الشعراء، وهو موقع بديع يتقدم غابة عظيمة من الأشجار تحف أوراقها حفيفاً، فنزل «بكستون» بمركز القيادة في ظليل القاعة العظمى الرطبة، وتمددنا على المقاعد نشاهد مذهولين قوائم الجدران وهي بحالة مزرية، واحتل بعضهم القاعات الأخرى، وتمدد الباقون تحت الأشجار إلى جانب جمالهم وباتوا على أرق وقلق إلى المساء وما بعده. فلم تكتشفنا الطائرات التركية، وكان من المستحيل أن تكتشفنا في ذلك المكان... وغداً تكون في الأزرق حيث الماء العذب يقوم مقام أجاج آبار «باير» الذي كان يكره وينتن في قربنا فتعافه نفوسنا.

ومشينا في اليوم الثاني على مهل إلى الأزرق، وبلغنا الجبل الأخير المنثورة على سفوحه حصى من الحمم. وتجلّى لأعيننا ذلك المدرج الفخم الذي يسمو بمدافنه في مقبرة «مجاير» الجميلة. فتوقفنا قليلاً ثم انحدرت مع رجالي خبيماً، نرود المدينة خوفاً من كمين وطلباً للراحة والهدوء هنيهة قبل وصول ركبنا.

وقضينا يومين في الأزرق. وكانت المستنقعات تخفف من الحرارة وتحسن من مقامنا فيه. وزرث مع «بكستون» الحصن القديم بشوق شديد لأنفقدهيكل ديوكلسيانوس ومكسيميانوس ولأضيف إلى كتاباته المحفورة في الصخر كتابة أخرى لمجد «جورج الخامس» إلا أن غيوم دُبابٍ أزرق وحادثة محزنة كدّرت صفونا في تلك

الزّورة وأحزنت قلوبنا، وهو أنّ عربياً كان يصطاد السمك من بحيرة الحصن برصاص بندقيته فأصاب الملازم «رؤّان» من فرقة الخيّالة الاسكتلندية فأرداه في الحال. فوارينا هذا الضّابط المنكود الطّالع في مقبرة «مجاير» الصّغيرة التي كان هدوءها يدعوني إليها فأغار من زائريها عليها.

ومررنا أمام «عمّاري» في اليوم الثّاني في وادي «جيشا» لكي نقرب من «الثّلاث أخوات» تلك المقاطعة التي لا تفوتني ناحية من نواحيها ولا يخفي عليّ مطوي من مطاويها. وكنا بجوار «هادي» كأننا في بيوتنا. وسرنا في الليل سيراً حسناً بينما رجالنا يزمجرون ويصيحون: «هل غداؤنا كافٍ. كلا.. إذن أطعمونا شيئاً جديداً - أجل»، وكان هذا الكلام يتردد مراراً وراءنا على المنحدرات. ثم هدأت صيحاتهم الصّادقة ولكنني مازلت أسمع قعقة السّروج الخشبية والأمتعة المتساقطة عن ظهور الجمال والمعادة إلى أمكنتها مما ضاق له صدري وكنت أفضل طريقة العرب، وهي وضع كل شيء في الأخراج الواسعة ورميها دفعة واحدة على ظهر المطية. ولقد ضللت الطّريق بين «هادي»، و«باير». وأنا محاط بهذه الفرقة الخيالة المضطربة البليدة. إلّا أنني جعلت النّجوم دليلي إلى الصّباح. أما سِماط رجالي فسيُمدّ في «باير» لأنّ زاد الرّكب قد نفذ منذ المساء.

وطلع النّهار علينا في وادٍ ظليل يغص بالعيسان وإنه لوادي «باير» غير أنه قد استحال عليّ أن أعرف، هل نحن فوق الآبار أو تحتها. واعترفت بجهلي إلى «بكستون» و«مارشال» وتابعونا سيرنا ركوباً ونحن في حيرة وتردد، إلى أن أسعدنا الحظ بلقيا «صقر بن شعلان». أحد حلفائنا أيام «الوجه» القديمة فدلنا على الطّريق السّوي. ولم تمض ساعة حتى كان جيش الهجّانة الإمبراطوري ينعم بالغذاء تحت خيامه القديمة المنصوبة حول الآبار. ويقدر فطنة الطّبيب المصري «سلامة» الذي ملأ الأحواض ماءً قبل وصولنا فتمكنا من إرواء نصف إبلنا.

وقد قرّرت أن أقدم إلى «أبا اللّسن» بالسيّارات المصفحة. لأنّ «بكستون» قد أصبح في بلاد مغلّصة له، ويمكنه أن يستغني عن معاونتي له. وبشّرني «جويس» و

«داوني» و«يونغ» بأنّ الأمور سائرة على الوجه الحسن. وللحقيقة كان الاستعداد تاماً بكل دقائقه. وسافر «جويس» إلى القاهرة كي يعالج أسنانه، ولحقه «داوني» ليطلع النبي على الأحوال الطيبة، وأنا رهن إشارة منه لتنفيذ أوامره.

* * *

الفصل التاسع والعشرون

خصومات عائلية

وعاد الرّكب الذي حمل «جويس» وعلى ظهره بريد مكة للأمير فيصل ففضّ الشريف «القبلة» - جريدة الملك حسين - فإذا في صدرها منشور ملكي، بأنّ بعض البلّهاء يعطون جعفرًا لقب الضّابط العام والقائد للجيش العربي في الشّمال، مع أنّه لا توجد وظيفة في الجيش بهذه الرّتبة، وأنّ الجيش العربي لا يحوي إلّا ضباطاً من رتبة كاپتن (نقيب) فقط. والشيخ جعفر في مهمته - يقوم بواجبه ككل شخص آخر.

وكان قد أصدر الملك حسين هذا المنشور. على أثر إنعام آلنبي على جعفر بالوسام، ليخرج شعور أبناء الشّمال وضباط سوريا وما بين التّهرين الذين كان يحمل لهم الضّغينة لتراخيهم عن عقائدهم الدّينية ولتوجّسه من نفوذهم، وقد أظهروا براعة فائقة في الحرب. وكان يعلم بأنهم يحاربون لخلاص أبناء وطنهم فينالون الحرية ويحكمون نفوسهم. وحُبّ الحُكم مسلّط على عواطف الشيخ.

فقدم جعفر استقالته إلى فيصل. وتقدم معه لهذه الغاية ضباط فرقنا وأركان حربهم وضباط المفارز والطّواير، فرجوتهم أن يتجاهلوا منشور الشيخ الطّاعن الذي يحمل السّنوات السّبعين على منكبيه، ويعيش في مكة بعيداً عن سياسة الحرب. وأن يعلموا بأنهم ساهموا بقسط كبير في نجاح القضية العربية، ورفض فيصل قبول هذه الاستقالات مبيّناً بأنّه منذ الآن هو وحده الذي له حق إصدار الأوامر العالية - بما أن والده غير راضٍ عن خدمته، وعليه فإن كلّ أزدراء وعدم ثقة في هذا المنشور لا يمسّان غير شخصه فقط «أي شخص فيصل».

وأبرق إلى مكة بهذا المعنى، فرد الحسين عليه واعتبره خائناً وخارجاً على القانون، فرد عليه الشريف رافضاً قيادة جبهة العقبة فعين ابنه زيداً مكانه، فرفض الشريف الصّغير. وعادت رسائل الملك الرّقمية غير مفهومة وقد بلغ به الغضب أشده وتوقفت الأعمال الحربية حول «أبا اللّسن».

وكلمني «داوني» بالتليفون قبل إقلاع السّفينة يسألني دون وَجَل: إذا كنا قد فقدنا كل شيء، فأجبتُه بأنّ القَدْر الآن هو الحُكم والحَكَم. وربّما تمكنا من النّهوض من هذه الورطة. وكان علينا أن نختار واحداً من ثلاثة أمور: إما التأثير الفعّال على الحسين ليستردّ منشوره. وإما إغفال هذا الحادث كأنه لم يكن والسير في العمل دون تردد. والأمر الأخير هو أن نعلن على الملأ استقلال فيصل. وكان لكلّ حلّ أعوان بين العرب كما بين الإنكليز، وقد أبرقنا إلى آلِني ليتدخل في أمر هذا الحادث. وكان من المحقق أن يراوغ الحسين ويماطل أسابيع قبل أن يرجع عن قراره ويقدم اعتذاره. وكان من المستطاع انتظار ذلك منه في الأحوال العادية، أما الآن فإن الموقف دقيق لا يتحمّل أقلّ تمهل. وعلينا أن نقوم بهجومنا على «درعا» في مسافة ثلاثة أيام أو الرّجوع عنه نهائياً.

لا بدّ لنا مهما كلفنا الأمر من مواصلة الحرب. ولندعهم في مصر يفتشون عن حل لهذه المشاكل العربية. فكتبت لنوري الشّعلان بأنّي لا أتمكن من مقابلته في «قاف» عندما تجتمع قبائله. لكنّي سأكون مستعداً لهذه المقابلة في الأزرق أول يوم من القمر. إنها لمهلة مفاجئة تلقي في قلب نوري جمرأ من الشّكوك لهذا الإخلاف بالموعد المضروب وإذا تنحى عنا بنو «الرّولة» فقدنا قوة لا يستهان بها في 17 سبتمبر أمام درعا وهبطت قوتنا العاملة إلى النّصف في ذلك الممعان المقبل. إلّا أنّ إغضاب نوري الشّعلان سهل إزاء أهمية فيصل وجنوده النّظامية، وإزاء مدافع «بيزاني» عند محاولة القيام بغزوتنا هذه إذن من المحتم عليّ أن أبقى في «أبا اللّسن» وأعمل على رد الهدوء والسّكينة إلى النفوس.

وكان عليّ واجب ثان وهو أن أراقب قيام الرّكب الذي ينقل المتاع والمؤن والزّيّت والدّخائر الخ.. إلى الأزرق. فقام بهذه المهمّة الشّاقة «يونغ» اللّبق الذي يحسب حساب المفاجآت ويزنها بحكمه الصّائب. وإن يكن من طبعه الصّلابه والبلادة فإنه لم يكن يسمح

لأحد أن يقوم مقامه في العمل، ولم أنس قط نوري السعيد وقد خرج يوماً من الاجتماع مشرق الوجه متهلاً وقال: «سيّان لدينا أيها الإخوان، ما دام أنه يخاطب الإنكليز كما يخاطبنا»، ويهتم الآن بمراقبة الفرق المتتابعة، وإن يكن قد تأخرت يوماً واحداً عن الموعد المضروب تحت قيادة ضباط معينين من قبل حسب البرنامج. وكان من عاداتنا الموفقة أن نرسل أوامرنا إلى العرب باسم رؤسائهم وبوساطتهم فلم يكن بإمكانهم أن يتململوا أو يتمحلوا أعداراً عن عدم الخضوع، بل عليهم أن يسيروا خاضعين كالحملان.

وكان علينا بعد ذلك أن ندفع رجال الحرب إلى الأزرق في اليوم المعين، وأن نقنع الضباط بأننا على وشك الانتصار النهائي. فناشدنا فنّ «سترلينغ» ودهاءه وكان نوري الشعلان طموحاً طماعاً كل جندي في مثل هذا الموقف. يذوب شوقاً إلى التقدم إلى الأزرق إلى أن يهدأ غضب الحسين ويقدم اعتذاره، وإذا ارتأوا بأن هذا الاعتذار غير كافٍ يمكنه عندئذ أن تراجع عن الأزرق ويحلف يمين الإخلاص. وإذا رآه كافياً فيكون قد كال بكيلين وقاس بمقياسين - وقد أكّدت له بأن سيكون كذلك - وربما يكون شيخ مكة قد شعر بالخطورة من الوقفة التي أخر بها حركات جيش الشمال وعاد إلى أمل جني ثمار التجاح.

أما باقي الجيوش فكان علينا أن نخاطبه ببساطة، ونفهمه بأن أمراً آخر غير الأكل والأجر اليومي يسوقنا إلى هذا الصراع، ويهمنا أن نحافظ على النظام الدقيق. فاقنع بهذا الخطاب وركبت فرقة المشاة وتقدمت الرشاشات. والهدامون المصريون ومدفعية «پيزاني» منفصلون بعضهم عن بعض فرقاً فرقاً حسب الخطط التي رسمها «سترلينغ ويونغ» بتأخير يومين فقط عن الميعاد المضروب. وكان غرضنا الأخير هو أن نثبت سلطة الشريف فيصل. لأنه كان من العبث أن نحاول عملاً جدياً مجدداً بين درعا ودمشق بغير نفوذه، وكان يمكننا أن نهجم هجماً على درعا يطلبها منا النبي. إلا أنني وقد أسرفت في صحتي وذكائي مدة طويلة مع العرب من غير حساب فلا يرضيني ويرضي أولئك العرب سوى احتلال دمشق. ولقد قلت إن احتلال دمشق لا يتحقق إلا بوجود فيصل على رأس الجيوش، لا أن يلهو الشريف ببعض واجبات عسكرية، بل يربح عن سبيل السياسة ما مهد له رجاله عن سبيل الحرب.

أما الاعتذار من مكة فسيحصل عليه آلنبي وويلسن ويعرضانه علينا، ولكنهما إذا خذلا فلا يكون أمامي إذا سوى أمر واحد هو سند سلطة الشريف فيصل بقوة الحكومة البريطانية، وإدخاله دمشق باسم الأمير الحاكم. غير أنني لم أشأ أن ألجأ إلى هذا التدبير إلا إذا ضاقت بي الحيل. وكان العرب إلى ذاك الوقت قد خطوا الثورتهم تاريخاً لا عيب فيه، فتمنيت أن لا تنتهي جهودنا الجبارة بحرب أهلية وانشقاق فاضح، ونحن على أبواب النصر المشترك التي يكللها السلام.

وما فتى الملك حسين يعارض ويداور بخطابات لا نهاية لها غير دار بما لتدخله في شؤون جيش الشمال من النتائج السيئة، فأرسلنا إليه تقريراً ضافياً صريحاً كان حظنا منه، أن أجابنا بشدة، غير أنه بين سطور تلغرافاته دلائل الاضطراب والارتباك، وكانت التلغرافات تصل إلينا عن طريق مصر أو إلى تلغرافنا اللاسلكي في العقبة، فتحملها إليّ سيارة فأسلمها إلى فيصل. وكان اصطلاح أرقام العرب ساذجاً هين الحل، فكنت أطمس بعض عبارات وأبدلها بأخرى غريبة لا تصدق. ثم أقدمها إلى الشريف بلغة واضحة. وبفضل هذا التلاعب البريء تجنبت غضب الكثيرين من حولي، وخففت من ثورانهم. وثابت على هذه اللعبة أياماً عديدة. فخفت وطأة الغضب في مكة وتغير إنشاء العبارات التلغرافية، فلانت خشونتها إلى أن وصلت إلينا رسالة تلغرافية طويلة، شطر منها اعتذار مبهم لا معنى له واسترداد المنشور الضار، وشطر آخر يكرر الإساءة في شكل جديد. فحذفت العبارة الأخيرة. وجئت إلى خيمة فيصل وحوله الضباط وأطلعته على الشطر الأول المعنون (مستعجل).

وتقدم كاتم السر وحل رموز التلغراف وقدمه للشريف فأخذ يقرؤه وجميع الأنظار محدقة به، ثم نظر إليّ مستغرباً لأن عبارات التلغراف العذبة لا تنطبق على عناد والده وحرده. وقرأ الرسالة جهاراً على مسمع من الجمع وبنبرات خارقة؛ ثم قال: «لقد صان هذا التلغراف شرف الجميع» فتهلل الحضور وتعال أصواتهم بالهتاف.

وشكرنا الله ونهضنا للعمل وحددناه وأصدرنا الأوامر مفصلة للجيش القادمة من «أبا اللسن» لتخلفنا هنا وتنفذ هذه الأوامر بنصها في المنطقة المخصصة لها.

واستأذنت فيصلاً. وسافر «جويس» إلى مصر ووعدنا الشريف بالتقدم إلى الأزرق مع «مارشال» والالتحاق بي يوم 12 من شهر سبتمبر على الأكثر. فتهلل كل المعسكر عندما رأني أركب «الزّولز»، ووجهتي الشمال. ورغمّا من أنّنا قد تأخرنا إلى تاريخ 4 من شهر سبتمبر فإنني أمّلت أن ألتحق بالزّولة الذين تحت قيادة نوري الشّعلان فيتمكنوا من مشاركتنا في الهجوم على «درعا».



صاحب الجلالة الملك فيصل عاهل العراق

الفصل الثلاثون

في طليعة القوّات

وشعرت بفرح داخلي عميق عندما خرجت من ذلك الجو الأربد، وأحسستُ بأنّ الصّداقة تتسلل إلى أعماقنا نحن الثلاثة «ونترتون» و«ناصر» وأنا، كان «لورد ونترتون» الحديث العهد بيننا ضابطاً ذا خبرة وتجارب. وكان تابعاً لفرقة «بكستون». أما ناصر الذي ظهرت مواهبه منذ أوائل أيام المدينة وكان دائماً في أوائل الطليعة في الجيش العربي، فقد اخترناه مرة أخرى لقيادة حملتنا وتنظيم حركاتنا المقبلة، وإنه لتحقيق به أن يكون أول الدّاخلين إلى دمشق ليضيف أكليلاً آخر من أكاليل الغار لعديدة التي ضفرها لنفسه في «المدينة والوجه والعقبة والطفيلة».

وكان النّاس متجمهرين ينظرون إلينا في ابتهاج ونحن سائرون. وسارت فرق صغيرة من الهجانة التّظاميين والبدو، ودواب الثّقل التي تحمل الأمتعة ببطء ونظام نحو الشّمال بين سهول جفّرت التي لا نهاية لها.

وبعد أن مررنا بهذا الرّكب الممتلئ حركة ونشاطاً - وقد تفاءلت بتجميع قريب مفيد في الأزرق - شققنا السّهل ونهينا المراحل وشدّد عليها السائق «جروان» البديع وقد سلب منها سبعة وستين ميلاً في السّاعة. وهو يصعقها بالبوق ويملأها صخباً وضجيجاً. فانكمش ناصر في عقر السيّارة لاهثاً مخنقاً يمد يده للسلام على المؤدّعين والمتفرجين الذين كانوا يمرقون مُروق السّهم عن جانبينا، وقد جزعَ بنو صخر في باير وأخبرونا بأنّ الثّرك خرجوا مساء أمس من «الحسّا» واندفعوا فجأة إلى غرب الطفيلة. فلم أتمالك من الضّحك عند سماعي هذا الخبر. فأعتقد «مفلح» بأنّي جننت. أو أنني

أضحك ضحك هذيان... وقلت لو كان هذا الهجوم قد حدث قبل أربعة أيام لأوقفَ إذن تقدمنا إلى الأزرق. أما الآن وقد ابتدأنا بحركاتنا فما يضيرنا إذا احتلَّ الترك أبا اللسن وقُويرة حتى والعقبة أيضاً. فإن تظاهروا قرب عمان والضجة التي تغلغلت في مواقع الترك بأنَّ زحفاً ضخماً يقوم به العرب على هذه الناحية أوقعت الخديعة في عقولهم فتقدموا للملاقاة شبح العدو. فكان كل رجل يرسلونه إلى الجنوب يذهب ضياعاً، بل كان كأنه عشرة رجال ضائعين.

ولقينا في الأزرق بعض خدم لنوري الشعلان وسيارة الـ «كروسللي» وضابط طيران ومرشداً وبعض قُطْعَ بَدَل. وخيمة من القماش لعدتين. فقضينا الليل داخلها على إحدى الطائرتين فالَمَ بنا العذاب لأنَّ الثَّعر. وكانت تلسعنا لسع الزناير وتفتك بأعضائنا العارية. ولم يرد عنا هجمات غير هبوط الظلام فخففَ نسيمه شيئاً من هياج جلودنا. إلاَّ أنَّ الشَّمال تحول علينا ساحباً ذيولاً تجرُّ وراءها لوافح من النار وسوافع من مالح الغبار فعمينا. وسترنا رؤوسنا بالأغطية ورقدنا. ولكننا لم ننم بل كنا بين الآونة والأخرى ننفض ما تراكم علينا من الرمال التي تكاد تظمرنا. إلى أن هدأت العاصفة عند منتصف الليل، فخرجنا من أوكارنا نعلل الأجنان بالوسن، ولكن هيهات، فقد غمرتنا غيمة من البعوض حاربتنا حرباً عواناً حتى الفجر، ثم هجرنا المكان وصعدنا إلى جبل «محابر» لعلنا نجد لنا راحة هناك. وهو على مسافة ميل غرب موارد المياه. يشرف من علو مئة قدم على المستنقعات المنخفضة المعرضة من كل اناحية للهواء. ولم نكد نستريح حتى تراكضنا وارتمينا في أحضان تلك المياه الفضيّة. وقد نزعنا ثيابنا حول تلك البرك ذوات القاع الشَّهاب تنعكس عليها السَّماء بهية كطلعة القمر. ولم أتمالك أن صرخت عندما ارتميت في الماء «ما أعذب هذا المُقام» فسألني «ونترتون»: لماذا تسبح ورأسك تحت الماء؟ ولم يكذب كلامه حتى لسعته نُعْرَةٌ لسعة قاسية في ظهره، ففطن وغطس واستحمننا وأجسامنا تحت الماء نقاوم ضيق النَّفس لعل ذلك الحيوان يأنف من التقدم إلينا ويخشى البَلل على أجسامنا. إلاَّ أنَّ شوق هذا الثَّول إلى دماثنا بسبب جوعه ونهمه كان شديداً، فلم يحجم عن الهجوم على أجسامنا العارية

المبلة... فعجلنا إنهاء تمثيل هذا الدور وخرجنا وجلودنا دامية وارديننا ثيابنا سراعاً.

فضحك ناصر من منظرنا وهو واقف إزاءنا، وذهبنا بعد قليل إلى الحصن لنقضي القيلولة بهدوء وراحة ولم يكن غير برج «علي بن الحسين» القديم، له سقف يمكننا أن نتقي حمارة الحر تحته وهي الناحية الوحيدة في تلك الصحراء التي ينعم الإنسان بنسيمها وهدوئها. وكأنت سعف النخيل ترتعد في الخارج تحت هبوب العاصفة. ذلك النخيل المرتفع ي الشمال، ذو التمر الفج الذي لا ينضج في تلك المناطق الباردة. وذو الساق الأث غير المشذب تتدلى سعفه واطئة فتلقي على الأرض ظلاً ظليلاً. ففرش «ناصر» سجاده وتقياً تحته ونعم بالهدوء والراحة. ورمى بعقب 345 تحترق وتقد ودخانها يتصاعد في الجو الهادئ الحار على شكل لولبي متمعج وينخرط بين الأغصان الغارقة في نور الشمس، فقال ناصر «أنا سعيد»، وكنا كلنا سعداء.

ووصلت إلينا سيارة مصفحة عند المساء لتضاف إلى وسائل دفاعنا وإن يكن لا خوف علينا من جهة العدو. وسترشدنا ثلاث قبائل ضاربة بيننا وبين الخطوط الحديدية. ولم يبق في درعا غير أربعين فارساً. ولا أحد قط في عمان. وإذن لم يكن من الممكن أن يكون الترك إلى الآن قد خبروا عن حركاتنا. إلا أن طائرة تركية زارتنا صباح 9 سبتمبر ودارت فوق رؤوسنا دورة مبهمة، وانصرفت دون أن تكشفنا على الأرجح، وكان موقعنا فوق الجبل بديعاً نرقب منه طرق درعا وعمان.

وكنا نحن الإثنا عشر إنكليزياً نقضي النهار مع ناصر بالتكاسل والطواف من هنا وهناك والاستحمام عند المساء وخزت المعابر والأمكنة والتفكير. ثم ننام في الليل مغتمين فرصة فراق الأصحاب في «أبا اللسن» والاجتماع بالأعداء في الشهر المقبل. وكان يبدو لي بأن هذه الأوقات التي لا تقوّم بثمن لم تكن متمكنة من داخلي إلا سيراً. لأنّ تقدمنا إلى دمشق أفقدني موازنتي العقلية، فأصبحت اليوم غير ما كنت بالأمس، كنت أشعر بكل قوة العرب زاحفة ورائي. وأقدّر بأننا قد بلغنا النقطة البارزة من الدور الذي هيأنا له تبشيراً خاصاً سنين عديدة، وأصبح القوم برمتهم يطمحون إلى احتلال عاصمتها التاريخية بحماسة عامة، ورأى متحد.. وكنت مطمئناً آمناً من

السّلاح الذي شحذته بنفسه ومتأكداً من كفاءته ليحقق غايته العليا. وبلغ بي الإغراق بهذا الهمّ الأوحّد إلى نسيان رفاقي الإنكليز الذين لم يدركوا مثلي الأعلى فاضمحلوا في ظل حرب عادية ولم أشأ أن أشاركهم يقيني.

وقد عرفت بعد حين أن «وترتون» كان يستيقظ في فجر كل يوم ليستطلع الأفق، وكان يخشى من أن عدم اكتراثي للحوادث لا يقودنا يوماً إلى مفاجأة سعيدة. كذلك البريطانيون في «التّايهة» وفي «شيخ سعد» قد اعتقدوا بضعة أيام بأننا خسرنا قضيتنا نهائياً وخرجنا من المعركة صفر اليدين. إلّا أنّي للحقيقة كنت أعلم - كما صرحت أيضاً - بأننا على ثقة تامة من نفوسنا أكثر من أيّ إنسان كان في المعمعان. وكانوا يفخرون بأنهم قد تمكنوا من إخفاء شكوكهم في نجاح خططي.

وكانت هذه الخطط هي أولاً التظاهر حول عمّان وتقطيع خطوط السّكة الحديد التي تتصل بدرعا... وما علينا أن ننظر إلى أبعد من ذلك لأنني اتخذت مبدأ النّظر في الأمور المعجلة وترك الأمور الأخرى البعيدة معلقة إلى أن يأتي دورها، غير ناسٍ عرّض الاحتمالات المختلفة الممكنة ودرسها بامعان.

ولقد نفّذنا الخطوة الأولى بإقامتنا في الأزرق. فأوهمنا العدو بأننا نقصد عمّان، وأرسلنا ألوفاً من «خيالة سان جورج» ملوكنا الذهّبية الجميلة - لبني صخر كي يبتاعوا لنا كل ما يوجد من الشّعير وأن لا ينسوا بنت شفة. وسنحتاج إلى حبوب كثيرة من الآن إلى خمسة عشر يوماً لتغذية دوابنا ودواب حلفائنا البريطانيين إلّا أن دياب الطّفيلي، هذا الولد المُخلف، المتقلّب، قد نشر هذا الخبر بسرعة البرق في جميع منطقة الكرك. وفي غضون ذلك دعا فيصل «بني زبن» إلى حمل السّلاح وكانوا قد اتجهوا نحو «باير». وكان «هورنبي» قد تزوّجاً بالثوب العربي.

وفي اعتقادي أنه أسرع في ارتداء هذا الثوب الزّاهي الفضفاض - وأثار ضجة عظيمة لهجومه المقبل على «مادبا» وكان يستعد للقيام بالعمل في 19 من سبتمبر حالما يعلم بتحرك آلنبي وبتصميمه على التسلّق إلى أريحا، بنوع أنه إذا اصطدمت جنودنا بدرعا

يمكنها أن تتصل به وتعضد قواته. عندئذ لا يكون هجومه تظاهراً بل يكون الوتر الثاني لقوسنا. غير أن تقدم التُّرك إلى الطَّفيلة يعرقل خطط «هورنبي» البديعة ويحتم عليه بأن يدافع عن «الشُّوبك» ويدفعه عنها هجوم العدو.

أما خططنا لأخرى تجاه درعا فهي من الدقة بمكان، وعلينا توطئة لذلك أن نقطع الخطوط الحديدية بجوار عمَّان كي لا يتمكن هذا الموقع من معاونة درعا. ملازمين خطة خداع العدو بأننا نقصد عمَّان لا سواها فيتجهز في أحلامه ناعماً، وقد كلفنا المصريين بتخريب الخطوط. وكان يظهر لي أن الغورخا Gurkhas يقومون بهذه التمهيدات. ولم يمنع تغيب هذه الفرقة الوقتي من تقدم جيشنا ومتابعة سيره. وكانت وجهته خطوط حوران الحديدية فيقطعها فتعطل مدة ثمانية أيام على أقل تقدير. وكان يبدو لي أن إنجاز هذا العمل يقوم على ثلاثة طرق - أولاً: ألتقدم إلى درعا وقطع الخط كما فعلنا ذلك في قلب الشتاء يوم موعدني مع طلال. ثم الاتجاه نحو شرق الخط لجهة اليرموك - وثانياً: التقدم جنوب درعا حتى اليرموك مكررين غزوتنا الأولى في شهر نوفمبر سنة 1917 مع «علي ابن الحسين» - وثالثاً: الانقضاض على درعا مجابهة.

إلا أن هذه الطريقة الأخيرة مجازفة لا نجسر على القيام بها إلا بمعاونة الطائرات التي تلقي قنابلها طوال النهار على المحطة، وتفعل فيها ما يساوي مفعول ضربها بالمدافع الجبلية، فهذه الطريقة وحدها يمكننا أن نقوم بهجوم على المحطة بقوتنا الضئيلة. وكان «سالmond» يعتقد أننا ننجح بهذا المشروع، إلا أنه من المحتم عليه أن يقدر القوة الجوية التي يمكنها أن تنجده في الوقت المناسب. وكان على «داوني» أن يأتي إلينا بطريق الجو في 11 سبتمبر ويعطينا كلمة «سالmond» النهائية، وقد كانت إلى الآن احتمالنا متساوية تجاه هذه الحلول الثلاثة.

وكان أول من يصل إلينا من بين القوات التي ستَنجِدنا هجانة حُرسي الذين يقومون متبخرين من وادي السرحان... لقد كانوا سعداء عند بني الرّولة ينعمون شهراً كاملاً هم وقلاصهم يُعلِّفون ويسمّون بضيافة نوري، وقد أنبأونا بأنّ الشَّعلان قد أتم استعدادة

وهو متأهب لملاقاتنا. فدبت الحماسة والنخوة في جيوشنا لاستعداد نوري الحزبي، وسرت منه عدوي البطولة في كل ناحية من وادي الشمال.

ووصلت من العقب طائرتان في 10 الجاري يقودهما «مورفي وجونور» كمرشدَيْن، واستقبلنا في اليوم التالي باقي السيارات المدرعة حاملة «جويس وسترلينغ» وكان على فيصل أن يأتي في اليوم نفسه يحرسه «مارشال». ومتى تسلم «مارشال» القيادة وسار إلى الأمام فهو كفيل بالنجاح لأنه كان يقود الجيوش على أنوار الخبرة الطويلة، ونار الحمية وصلابة الإرادة والجلد. مع ضبط النفس وصفاء الذهن.

ولم يتأخر «يرنغ وبيك وسكوت هيغينز» والمتاع. فقد لحقوا بنا وانضموا إلى الأمم في الأزرق! فتهللت البحيرات مرة أخرى وتموجت الأصوات مع ثني مياهها إلى تخضخضها الأجسام السمر الصلبة الرشيقة القوية، والأجسام البيض والتحاسية، إلى ما هنالك من البنى والألوان.

وأطلت علينا طائرة فلسطينية يوم 11 سبتمبر. إلا أن «داوني». للأسف كانت قد أصابته وعكة فتخلف وقام مقامه ضابط أركان حرب. لم يألّف بعد جو الصحراء -فقاسى الشدائد، ونسي أن يبلغنا خبراً هاماً. وهو أن الكبي ألهم فجأة وقال لـ «بارثولوميو»: «لماذا نكثر من الاهتمام بالمسعودية؟». وانقلبت الخطط لدى هذا القرار السريع رأساً على عقب، وتحول الغرض الثابت الأول إلى سير سريع إلى الأمام سير لا حدّ له. ولم نكن نعلم شيئاً من ذلك لو لم نلجّ بالأسئلة ونبالغ في استطلاع الأخبار. فعثرنا على هذه الخطة الحديثة بين أجوبة هذا الضابط المرشد المرسل إلينا من قبل «سالmond» وفهمنا فوق ذلك مألديهم هناك من وسائل عدد ضرب القنابل وعدد المدافع. وأنّ البريطانيين لا يملكون هذه العدد ذاتها، ولا أقلّ مما نحتاج إليه في درعا. فكان علينا أن نكتفي بأي قدر من الضرب على درعا حتى نتمكن من الدوران إلى شمالها وقطع الخط الحديدي الموصل إلى دمشق، وهو أمر لا بدّ منه.

ووصل فيصل صبيحة اليوم الثاني تتبعه جيوشه ونوري السعيد الزاهي الزاهر دائماً. وجميل «الطويجي» وجزائريون تبع «بيزاني» ونماذج أخرى من أولئك الذين

كان يدعوهم النبي مازحاً «جهد الثلاثة رجال و غلام» وَ سَتَلَقَى التُّعْرَ . وَمِنْذَ الْآنَ عِشْشاً طِيباً عَلَى جُلُودِ أَلْفِي نَاقَةٍ جَدِيدَةٍ.

وظهر نوري الشعلان عند الأصيل يصحبه «طراد» و«خالد» و«فارس» و«درزي» و«الخفاجي». و قدّم إلينا «عودة أبو تايه»، أيضاً و«محمود الدغلان» و«فهد» و«أدهب» ورؤساء بني زَبَنَ وبني ياني ورؤساء السّراحين «وابن كنج» رئيس السّرديين و قدّم إلينا «مجدد بن سلطان» من قبيلة عدوان القريبة من السّلط لنقول له حقيقة نياتنا إزاء عمان. وفي أول الليل سمعت طلقات نارية فكان القادم طلال الحريديني زميلي القديم يخب خبياً يتبعه خمسون فلاحاً راكبين، وكان وجهه القاني يتهلل بشراً بقدمونا. لأنّه كان ينتظرنا من زمن بعيد. و وفد علينا سوريون و دروز قادمين من مدن العيسوية و حوران و انضموا إلينا، حتّى أنّ الشّعير الذي كنا قد ابتعناه لخزنه استدراكاً لارتداد محتمل أخذ يرد إلينا قوافل منظّمة. وكان كل إنسان يشعر بأنه قويٌّ جدّلاً.

ولم يكن سواي شاذّاً وقد حرمتني هذه الجموع لذة وجودي في الأزرق فهرولت إلى مقرنا العزيز البعيد «عين الأسد» وتمددت طيلة النهار في مقرّي القديم الهادئ بين أشجار الحُمَر. وكان الهواء يداعب أغصانها التربة فتحف حفيفاً وتسمعنا نغمات أشجار إنكلترا. ويهز هذا الرّيح أعضاء التّعب المنهوكّة حتّى الموت من جراء هؤلاء العرب السّاميين الذين يتعالون إلى أوج الافتخار. وإن أولئك النّاس ليحقّقوا ما ندرکه عن «المُطلَق» بمقدرتهم غير المحدودة على الخير وعلى الشرّ سواء بسواء. ومع ذلك قد التّجأت إلى مداراتهم مدة سنتين، ومعاشرتهم معاشرّة حقيقة لكي أستغلّ هذه المقدرة البدوية.

وكان «جويس» في هذه الآونة يكوّم المسؤوليات التي طرحتها عن عاتقي ويحملها على منكبيه. فأمر بيك بأن يسير بجيش الهجانة الإمبراطوري المصري المتحول إلى مفرزة هدامين. «وسكوت هيغينز» Scott-Higgins مع الثّورخا Gurkhas المحاربين و سيارتين مصفّحتين، وغايتهم الوحيدة قطع الخط الحديدي في جهة إفدن.

وكان على «سكوت هيغينز» أن يقوم بهجوم في الليل على أحد المواقع المحصنة

بمساعدة هنوده الرشق. أجل!.. الرشق مشاة كما لا يخفى. لأنهم وهم على ظهور جمالهم أكياس محملة. وعلى «بيك» Peake أن يهدم بنايات قبل الفجر وتتبعه عند الصّباح سيارات مدرّعة تخفي ارتداده إلى الشرق على السّهل الذي سيعبره الجيش الكامل العدد شمال الأزرق ووجهته «التّايهة» حيث الحوض الطّبيعي لمياه الأمطار على مسافة خمسة عشر ميلاً من درعا قاعدتنا الأمامية، وكان دليلهم أحد رجال الدّولة. فأبصرناهم يسرون متهادين يفيضون رجاء وثقة، بنجاحهم في مهمتهم التمهيدية. وسار جيشنا عند الصّباح، فكان رجال «أبا اللّسن» يربى عددهم على الألف وثلاثمئة رجل منهم فوارس رُحّل تحت إمرة نوري الشّعلان يقودون أيضاً ألفي جمل للرّولة طلبنا منهم أن يدخروها في وادي السّرحان ولم يكن من المعقول أن نزجي هذا القدر من البدو غير المدرب إلى العمل بين قرويي حوران قبل أن يأزف يومنا الأعظم. وقد كان أولئك الفوارس مشايخ وخَدَم مشايخ وملاكاً موسرين في منطقة نفوذ التّرك.

وكانت بعض الأعمال معلقة بيني وبين فيصل ونوري أوقفتني يوماً كاملاً في الأزرق. وقد ترك لي «جويس» سيارة «بليموث» بلغت بها الجيش صباح اليوم الثاني فرأيتُه يفطر على أرض رديئة عَشْبة في «جيعان الخنّة» ونعمت الإبل بعد تركها سهول الأزرق القاحلة وملأت بلهفة بطونها الكبيرة من هذا الحشيش الشّهّي.

إلا أنّ جويس قد أطلعنا على أخبار سيئة: وقد وصل إليه بيك وأبان له بأن صعوبات جدية تعترضه في طريقه إلى الخط الذي يقصد تخريبه. وأن قوماً من العرب الضّاريين حول ذلك الخط يقيمون العقبات أمامنا... وقطع هذا الخط هدف هامّ من أهداف خططنا لنفصل عمان عن درعا، فتبلّبت أفكارنا. ولم ألبث أن تركت السيّارة. فدار رفاقي دورة متجنّبين المَهوى البركاني المملوء حمماً. الهابط إلى الغرب نحو السّكة الحديد، أما أنا والعقيليون وبعض البدو والمطايا فقد سلكنّا مَخاصِر الطّريق، في سهل مكشوف متصل بخرائب «أم جمال».

ولقد كنت غائصاً في لجج الفكر، وشغلني خط عمان عن أي أمر آخر. وفارقتني البديهة لأبتكر أهون وسيلة وأجودها أبلغ بها وطري. وزادت هذه الخرائب الرّومانية

شواغلي، فإنَّ مثل هذه البنايات لمدن على الحدود «كأم جمال» و«أم سراب» و«التايهة» كان أمراً غير منطقي، لقد كانت هذه الأماكن منذ أجيال ولم تزل إلى عهدنا هذا حقولاً صحراوية للمقاتلة، تدل على جهل بناتها الأقدمين بشروط الوجود وأسباب الحياة في مثل هذه القفار. إنما كان هذا تأييداً قاسياً لحق الإنسان - الحق الروماني - الذي كان يقضي على المرء بأن يحيا أبداً على وتيرة واحدة من غير أن يغيّر من طرق عيشه على الأرض الرومانية الشاسعة، وأن هذه البنايات اللاتينية لم تكن لتنصب في الصحراء إلا لجباية الضرائب الباهظة على سكان تلك الولايات من العالم المتمدن. وقد كشف القناع عن عمى مطبق لألا عيب السياسة الرّائلة، وأن مثل هذه الخالدات بعد زوال أغراض بانيتها، لتمثل الكبرياء الوضيعة التي لا تشرف من كان مسؤولاً عن ابتداعها بشيء، وقد تركتني «أم جمال» الباغية وتلك الخطوط الحديد والكشافة التّركية، هبّت علينا ريح حاملة غبار العشرة آلاف رجل الساخنة الصّاعدة نكهتها حولنا. وبدت لنا الخرائب من هذا العلو الشّاهق غير ما كانت عليه لما كنا نشاهدها منذ ثلاث ساعات مشدوهين منحبسي الأنفاس. وكانت السّهول المنبسطة منثورة بمواقد لا عدّها. تتلأأ نارها أمام الخيام وترسل لهبها بين الدّخان المتصاعد هادئاً في الجو الساكن والليل السّاجي، يتحلق النّاس حولها ويغنون القهوة ويطبّخون، ومنهم من يقود الحيوانات الحرنة إلى المساقى ويعيدها إلى مرابطها.

وبينما كان رجالنا يفترون في الصّباح، ويتمطون لخدر في أعضائهم في الليل البارد لدى أول أشعة تمن بها الشّمس على تلك المعسكرات البهيجة، أخذنا نشرح لرؤساء العرب المجتمعين للمشورة بأنّه يمكننا أن نغزو الخط الحديدي بوساطة السيّارات. وقرّنا دفع سيّارتين مدرّعتين إلى الجسر لتجاهدا في هدمه، بينما يتابع الجيش سيره نحو «تلّ عرار» المحطة المعترضة بين دمشق ودرعا على بعد أربعة أميال من هذه المحطة، ويكون قد ملك زمام الخط فينزل عليها ويحط رحاله مستريحاً في اليوم الثّاني 17 سبتمبر سنة 1918 عند بزوغ الشّمس، ونكون في هذه الآونة قد نسفنا الجسر وبلغنا «تلّ عرار» بسيّاراتنا.

وظهرت لي عظمة طائرا في الفضاء الشاسع في الساعة الثانية زوالية تتهاى وتتقدم نحو درعا بنظام بديع فملأت قلوبنا جذلاً، وكانت هذه أول غزوة تقوم بها. وكان الموقع لا يزال إلى الآن مصاناً من كل مهانة جوية، لذلك قد أصيبت حاميته التي لم تتعود هذا المزاح بأضرار جسيمة، لأنها لم تكن محصنة ولا مسلحة، فجاءت تلك المفاجأة مفيدة لنا. لأن معنوية العدو قد تأثرت تأثراً سيئاً، كما تأثرت المواصلات على الخط. وأضاع الثرك وقتهم بحفر الخنادق ليحتموا من ضرب القنابل قبل أن يصل رجالنا المهاجمون إليهم من الشمال. وكنا في مكامنا ولدينا كميونات وسيارتان مدرّعتان في أرض مرتفعة الأعشاب كثيرة الحجارة الخشنة، وقد أبصرنا الهدف الذي نرمي إليه من وراء آخر جبل أمامنا. وكان على نتوء من الأرض جنوب الجسر يرتفع موقع مبني بالحجارة.

فشحت سيارة مصفحة بالقطن المشيع بالبارود بعد أن أخفيت الكمينين وأخذت آلة الانفجار. وفكرت بأن أنزل إلى الجسر رأساً بطريق الوادي ونسئل تحت الحنايا ونضع المتفجرات في الأماكن الموافقة ونشعل النار قبل أن نغادر الجسر. وفي هذه الأونة تكون السيارة المدرّعة الثانية قد هاجمت الموقع المحصن وألتهت عنا.

فسارت السيارتان معاً، وما كدنا ندنو من الجسر حتى طلع علينا ثمانية جنود من خنادقهم وهم في حالة استغراب ويدهم بنادقهم ثم تقدموا متفرقين ووقفوا موقف ضرب النار. ليت شعري أخذتهم نوبة جنون أم هم سدج مغرورون، أم لديهم شجاعة لا حد لها. إنني أجهل ذلك! فقدفت السيارة الثانية ناراً سلقت أولئك المساكين. وما لبثنا أن رأينا أربعة آخرين لا أدري من أين خرجوا واحتموا بالجسر ورمونا بينادقهم. فسد رماتنا عليهم قنبلة قتلت واحداً وجرحت آخر وسلم إثنان نزعنا عنهما سلاحهما وأرسلناهما إلى الكميون حيث كان يرقبنا سائقة من على قمة الجبل. وسلم الموقع المحسن في الوقت نفسه ولم تمض خمس دقائق حتى كنا مالكين زمام الجسر وخطأ طويلاً من السكة الحديد ولم نخسر شيئاً، وكانت نتيجة حركتنا موفقة للغاية.

وأسرع «جويس» في سيارته حاملاً أيضاً قنناً مشبّعاً، وكان الجسر قطعة فنية جميلة

وطوله ثمانون قدماً وعلوه سبع عشرة وعليه رخامة متقنة الصنع مكتوب عليها اسم وألقاب السلطان عبد الحميد. فحشونا قنوات المياه من ناحيتي العقود كيفما جاءت، وقدّرنا حسب الفن أن ستّ حشوات صغيرة تكفي لنسف القناطر كلها، فكان هذا الدّرس الفنّي على هذه القطعة الفنية أمثلة لنسف البنايات وحفظ الهياكل قائمة على قواعدها، إلّا أنّه لتجديد مثل هذا الجسر البديع بعد هذا التّخريب يجب نزع كل شيء وإعادة البناء ثانية.

وانتهى العمل في الوقت الذي ظهرت فيه كشافة تركية فاعتذرنا لها وجمعنا بضاعتنا سراعاً، وأخذنا بعض معلومات طيبة من أسرانا وكافأناهم بأن أركبناهم على الكميون وتباعداً وقد مخضتنا تلك العجّلة مخضاً في أرض وعرة غير مستوية. إلّا أنّه للأسف لم نحرص على هذه الشّاحنة وهبطنا في مسيل جاف فسمعنا قصفة مشؤومة تحتها، وانفصل جانب من المخون ولصق بمطاط الدّولاب الخلفي فأرغمنا على التوقف.

وانكسر القسم الدّاخلي من التّابض ودخل في الإطار، ففغرت أفواهنا يأساً وكنا على ثلاثمئة متر من الخطر ولا تمرّ عشر دقائق حتى نترك مركبتنا وتباعد عن العدو. وإن «رولز رويس» في قلب الصّحراء لهي أئمن من جوهرة، وقد طفنا في هذه السيّارة ثمانية عشر شهراً من مسالك وعرة لم تُمهّد لمثلها، وسرنا بها بسرعة فائقة وهي مثقلة بالأحمال، وفوقها أربعة أو خمسة رجال، فكان هذا الحادث هو الأول من نوعه في سيارتنا التّسع دائمة العمل.

فبكى «رولز» سائقها يأساً، «رولز» القائد اللّبق الميكانيكي العجيب ذو الآراء السّديدة الحكيمة والحيل التي لا ينضب معينها. ذلك الذي حفظ سيارتنا في هذه الشّهور الطّويلة بحالة جيدة تقوم بمهامّها خير قيام. فأحطنا به ضباطاً وجنوداً إنكليزاً وعرباً وتركاً نظراً إلى ملامح وجهه الشّاحب بكرب ولهفة. وفهم - وهو الجندي البسيط - إنه هو المخلص والحاكم على الأشياء والأشخاص في هذا المأزق فتقلّص وجهه لدى جهده القاسي وإرادته العنيدة. ثم قال أخيراً. بأنّه لم يبقَ لديه سوى وسيلة واحدة وحظ واحد وهو ضمّ القطعة المفصولة عن بعضها بخشبتيْن متينتيْن وربطهما ربطاً

محكماً وتثبيت قطعة خشبية ثخينة متينة فوقها بالحبال. فتحمل ثقل المحور (الدنغل) الذي يمسك الدّولابين الخلفيين بطرفيه، ومن الضروري أن تحمل السيّارات بعض ألواح خشبية خوفاً من سقوطها في رمال أو أوحال. وكان علينا أن نقطع ثلاث قطع من هذه الأخشاب يكفي سمكها مضمومةً معاً لغرضنا. إلّا أننا لم يكن لدينا منشار فخططنا خطوطاً عليها وأطلقنا بعض رصاصات من مسدساتنا على تلك الخطوط فانفصلت القطع عن بعضها، فتوقف الثُّرك وترددوا في التقدم وأسرع إلينا «جويس» لهذا الضُّرب المتواصل فألقينا شحنة سيّارتنا المخروبة في مركبته وأسرعنا في إصلاحها فسارت خفيفة مسرعة. وتبعناها ضباطاً وأسرى، وباقي العصابة محثّين منشّطين، نمّهد لها السبيل أمامها ويتّقى سائقها «رولز» المهاوي والحجارة والمرتفعات.

وأبدلنا الحبال بعد ذلك بالأسلاك التلغرافية وأحكمنا ربط التابض في الإطار ولما تثبتنا من متانتها أعدنا إليها حمولتها وعادت إلى العمل. وتحملت الأخشاب مدة ثلاثة أسابيع أشغالاً باهظة، ودخلت السيّارة معنا ظافرةً إلى دمشق على هذه الحال دخول الجندي الجريح. فكان «رولز» عظيماً وكان «جويس» عظيماً أيضاً. وكانا يساويان مثتي رجل في الصّحراء.

وأخّرنا هذا الإصلاح بضع ساعات فقضينا الليل في «التّايهة» أملين - إذا نهضنا باكراً - أن نلحق بنوري السعيد في اليوم الثاني على خط دمشق شمال عمّان ونقول له إن الخط الحديدي سيكون مخرباً جهة الجنوب وغير صالح للعمل أسبوعاً كاملاً لتخريب جسر هناك ذي أهمية، وإذا سارت حاميتنا شمالاً يمكنها أن تصل درعا في الوقت المناسب. لأنّ سقوط الجسر قد أّمن مؤخرتنا وأصبنا غرضاً آخر في هذا التخريب، وهو صيانة الأمير زيد المنعزل من ناحية «أبا اللّسن». لأن الثُّرك كانوا يجمعون جيوشهم في الطّفيلة إلى أن تصلح خطوط مواصلات دمشق. غير أن غزوتنا هذه كانت من سوانح الفرص.

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

نقطع الخطوط الرئيسية

وبلغنا الطريق الذي سلكته سيارات «ستيرلينغ» في السّاعة التي قدرناها وذلك عند انبثاق نور الصّباح. وقد جاهدنا حتى ننضم إليها قبل الموقعة. إلّا أنّ حالة الطّريق الرّديئة لم تسمح لنا بالإسراع. ولم نكد نخلص من انحدار وعر حتى وقعنا على أرض حجرة بعيدة كان علينا أن نداور ونحتال حتى نتمكن من التخلص من هذا الأمعز الصّوّان. وبلغنا انحداراً آخر محروثاً صُعْبَ سير السيّارات عليه لجفافه. تفجّه دواليب السيّارات فجاً إلى عمق متر وعرض ثلاث إنشات. فكانت السيّارات المصفحة ذوات الخمسة الأطنان تسقط في تلك الفجوات وتعلق بها.

وبلغنا الجيش العربي السّاعة الثامنة صباحاً على منحدر خفيف متصل بالخط الحديدي فانتشر الجنود كي يُهاجموا الاستحكام الصّغير الذي يحرس الجسر الواقع بيننا وبين «تل عرار» وكنا منه على ذلك المرتفع نرقب المحاربين على اتجاه درعا.

ففرسان الرّوّة تحت قيادة طرّاد ينحدرون خبياً على طول ذلك المنحدر وينخرطون في عقيق نثرت عليه حصى المرمر الأسود. يندفع وراءهم «يونغ» في سيارة فورد. واعتقدنا ونحن على قمة الجبل بأننا مالكو الخط دون أن نطلق طلقة واحدة، إلّا أنّه بينما كانت أنظارنا تتبع رجالنا أطلق التّرك ناراً حاصدة من استحكامهم الذي كان لا يزال إلى ذلك الوقت منسياً فتساءل أولئك الشّجعان، ماذا يمكننا أن نفعل إزاء هذا الاصطدام البديع، ومالبثوا أن تواروا وأفلتوا من نار العدو.

فأمر نوري السّعيد بإنزال مدفعية «پيزاني» وإرسال بضع قنابل إلى الموقع. ثم

استولى بعض رجال الرّولة عليه ولم يفقدوا غير رجل واحد وهكذا ملكنا العشرة أميال من الخطوط الحديدية جنوب دمشق منذ السّاعة العاشرة صباحاً ولم يبق خط قط لا إلى فلسطين ولا إلى الحجاز.

وكان من الصّعب عليّ أن أصدق السّهولة التي انقاد بها حسن الطّالع لحركاتنا. أو أتصور كيف أننا توفّقنا إلى تنفيذ رغبات النّبي بهذه السّرعة.

وتدحرج العرب جموعاً جموعاً من الجبل ثم اجتمعوا على قنة «تل عرار» المستديرة. ينظرون إلى السّهل الفسيح تحتهم تُضيئه أشعة شمس الصّباح، وتترك عليه بعض أظلال بارزة، فيرون في الأفق الثّلاث محطات «درعا، ومزيريب، والغزالة» بالعين المجردة، أما أنا فقد كنت أرى أبعد من ذلك. أرى في الشّمال دمشقاً قاعدة الثّرك، الوصلة الوحيدة مع القسطنطينية وألمانيا، وقد انقطعت، وتقطعت المواصلات أيضاً جنوب «عمّان ومعان والمدينة»، وفي الغرب حيث أصبح «ليمان فون ساندرز» Liman von Sanders معزولاً في النّاصرة ومعزولة معه نابلس ووادي الأردن. وكان اليوم 17 من سبتمبر التاريخ المضروب الذي يتقدم الثّماني والأربعين ساعة لزحف النّبي بكل قواته إلى الشّمال، وكان من الممكن أن يغيّر الثّرك مواقعهم في مدة الثّماني والأربعين ساعة هذه ويواجهون صدماتنا الجديدة. إلّا أنّه كان من المستحيل عليهم أن يتحرّكوا قبل هجوم النّبي. وكان «بارثولوميو» قد قال: «أخبروني إذا كان الثّرك يحتلون خط «العوجة» ليلة قيامنا أقل لكم إذا كنا نربح المعركة».

ولقد كان الثّرك في العوجة! إذن سنكون نحن الظّافرين، ولكن إلى أي حد؟ وأين بيت القصيد؟

وكنت أود أن يكون الخط مخرباً دفعة واحدة. إلّا أنّها كانت فترة قام بعدها الجيش بنصيبه منه. ونصب نوري السعيد رشاشاته حول قمة «تل عرار» كي يمنع رجالها من محاولة الخروج منها. ولكن لماذا توقفوا عن التّخريب؟ فاندفعت حتى بلغت بيك Peake وإذا به يفطر مع رجاله المصريين. فذكّرني هذا المشهد لعبة أكر «درايك». ووقفت مشدوهاً متعجباً. وعلى كل حال قد تمكنا من جمعهم في مدى ساعة ودفعهم

إلى العمل دفعة واحدة. وكانت قد سبقتهم المدفعية الفرنسية وبلغت الجسر القريب منا فلم يتوقفوا في دفعتهم الأولى، إلّا أنّهم نالوا بعض التّجّاح في الدّفعة الثّانية.

وصوّبنا نظارتنا البعيدة المدى إلى درعا قبل أن يرقص السّراب أمامنا ويخفي عنا ما خبأه لنا التّرك إلى ذلك اليوم. فلم نتّبت لأوّل وهلة مما شاهدناه. فقد كان ميدان الطّيران يموج ويعج. والجنود تخرّج من السّقيفة عدداً كثيرة تمكنت من عدّ ثمانٍ منها مصفوفة على خط السّفر. أما المشاهد الأخرى فكانت كما في حسابنا. فتراكضت بعض الفرق إلى مراكز القتال واحتلتها وأطلقت المدفعية علينا، إلّا أنّنا كنا على بعد أربعة أميال. وكانت القاطرات لا تزال موقدة، غير أن الشّاحات كانت غير مصفحة، أما وراءنا على اتّجاه دمشق فقد كانت البلاد ساجية كالقرطاس. وعن يميننا لم تُبدِ مزيريب أقلّ حركة. فاحتفظنا بهجومنا وكنا نأمل أن نشر كالمنسحبة ستمئة حشوة من المقدّوات لتعطيل ستة كيلو مترات. وقد اتفقت مع بيك على أن تكون المسافة بين الحشوة والحشوة عشرة أمتار وتوضع الحشوة تحت العارضة بين الخططين تماماً. وكانت العوارض فولاذية مجوّفة من النّاحية السّفلى فيمكننا أن نضع ثمانين وثلاثين أوقية من القطن المشبع بالبارود. إذ يصلح هذا التجويف في العوارض غرفةً هوائية، وإذا أحكم وضعها فإنّها لا تحطم الخط فحسب بل تقلقه من مكانه بعد أن يكون قد تخلّص من مسكاته. وتقوّس إلى علو اثنين أو ثلاث إنشات، وبالاختصار قد تحوّلت تلك العدد المعدنية بعد الانفجار كوماً لا شكل لها ولا نفع منها، وكانت العوارض المجاورة قد تأثرت من النّسف وحفرت فجوات على سَنَد الخطوط. ولقد تمّ كل ذلك بنظام دقيق، فبينما ينفجر اللغم الأوّل نكون قد أشعلنا الثّاني، وبلغنا الثّالث، ثم ينفجر الثّاني فنكون قد أشعلنا الثّالث وبلغنا الرّابع، وهكذا كانت تمر فوق رؤوسنا قطع الحديد والحجارة ولا تُصيبنا.

وسيتكلف التّرك في إصلاح هذه السّتمئة حشوة أسبوعاً كاملاً فما أبدعها فرصة تمت بها نبوءة آلنبّي إذ قال: «ثلاثة رجال وغلّام بمسدساتهم». وقد حدث حادثان عند رجوعي إلى الجيش. وهو أن «بيك» لما أشعل أوّل حشوة تصاعد دخان في الجو

كمثل شجرة الحور ودمدم دمدمة صُمّت منها الآذان، فطار فوقنا الطيار التركي الأول فتسللت مع نوري السعيد بين شقوق الصّخور جنوب الجبل وانتظرنا سقوط قبلة إلاّ أنّه كان كشافاً Pfalz فعاد وقصّ حكايته في درعا.

ولاشكّ أن هذه الأخبار قد أثارت الاضطراب بين الأعداء لأن ثلاث طائرات بمقعدين، وأربع طائرات استكشاف «ألباتروس» قديمة معصفرة طارت جميعها في الفضاء، ودارت دوراناً فوق رؤوسنا، وألقت بعض قنابل علينا، وحاولت أن تسف وتقتنصنا برشاشاتها.

فصوب نوري مدافع «هوتشكيس» المختبئة في فلول الصّخور وقذفها قذفاً قوياً، وتمثل «پزاني» بنوري وقذفهم ببعض قذاف المنثار «الشراپنل» فخدمت همّة التّرك لهذا الرّد المفحم، وتواروا في السّحاب خائبين غير صائبين.

ففرقنا الجيش والجمال هنا وهناك، وتشتت الرّجال غير التّظاميين، والمبدأ هو أن التفرق يقلل من الضّحايا، وكم كانت قلوبنا تختلج لهذه الألوف من الرّجال الذين لا ملجأ لهم في السّهل المكشوف. وما أروع مشهد ميلين مربعين أسودين من الرّجال والبهايم دائمي الحركة نطل عليه من فوق الجبل، وكنا من وقت إلى آخر نرى عمود دخان يتصاعد إلى السّماء، ثم لا نلبث أن نسمع جرجرة الانفجار. وإذا انعقد الدّخان حجماً كبيراً أيقنا بأن هذا من رشاش الطّائرات.

واحتدم القتال، إلاّ أنّ المصريين قد تابعوا عملهم بتؤدة كما كانوا يفطرون بتأنٍ! فأربع فرق تضع الألغام، وبيك يتبعهم ثاقباً النّار مستعيناً بأحد الضّباط. ولم يكن يسمع صوت لمتفجراتنا فلم يفتن الطّيّارون الأتراك لما يحدث على الخط من الانتهاك والتهتك. وأخذ بيك ورجاله يتابعون رويداً رويداً عن منطقة الخطر، وهم لا يزالون جادين في عملهم. وكانت أعمدة التلغراف تدلنا على تقدمهم نحو الشّمال. وتترأى لنا العوارض مستقيمة، والخطوط ممتدة مثبته، إلاّ أنّها وراء بيك تظهر على حقيقتها ملتوية مرتجة مطروحة على الأرض.

فتشاورت مع نوري السعيد و«جويس» في أمر الوسائل التي تبلغنا اليرموك، وتمكننا من مواصلة تقطيع خطوط فلسطين والحجاز، وبما أن استعدادات الأهلين كانت عدائية نحونا. فمن الثابت أن نصحب كل رجالنا معنا. إلا أنه لم يكن من الحكمة في شيء أن نسير تحت مراقبة الطائرات التركية المستمرة. لأن قنابلها القاتلة تفتك بجيشنا وهو يسير في السهل المكشوف. ثم إن بيك وهو في عمله يكون تحت رحمة درعا إذا جرؤت حاميتها وخرجت من مكانها.. وإذا كان الترك يهابونا الآن فلربما يتشجعون مع الزمن.

وبينما نحن في تردد وحيرة خطر خاطر «الجونور» Junor كأنه وحي من السماء. و«جونور» هذا طيار طائرة BE 12 والطيار الوحيد الموجود في الأزرق كان قد سمع «مورفي» يتحدث - وهو الآن بعيد عن القتال - عن طائرات الأعداء في درعا. فألهمته بدايته أن يقوم مقام طائرة «بريستول فايتر» Bristol Fighter ويطير في الأجواء حال تقدمنا.

فنظرنا إليه نظرة قلق وإعجاب لأن طائرته القديمة الطراز ستكون هدفاً طيباً لطائرات الاستكشاف وللطائرات ذوات المقعدين، إلا أنه تصدّى ودار دورة بطائرته ذات المدفعين فوجم منه العدو وتفرقوا ليسبروا غور قوة هذا الخصم المفاجئ فتحول «جونور» نحو الغرب فوق الخطوط فلحقه العدو. ومن المؤكد أن الطيار يشعر بشيء من الضعف أمام طيار مثله، ويلهو به عن كل أمر آخر. أفلا يهمل الطيار التركي كل ما هو تحته مهما كان مهماً. ويدافع عن نفسه إزاء خصم جديد يناوئه في الهواء.

إذن، لقد تركونا وشأننا، واغتنم نوري السعيد فرصة هذه الهدنة المؤقتة وتمكن من جمع ثلاثمائة وخمسين رجلاً نظامياً ومدفعي «پيزاني» ودفعهم في معبر ماء وراء «تل عرار» أول مرحلة لهم في طريقهم إلى مزيريب.

وإذا تكرم الطيارون بالإغضاء عنا مدة نصف ساعة، فإنهم بلا شك سيرون التل أقل تجمهراً، ولا يبصرون الجنود مشورين في حقول القمح والمنحدرات والأعقة. والتأظر من الجو إلى هذه المنطقة المزروعة يتذكر جلد حمار الوحش وخطوطه

المتقابلة أو غطاء القدمين وقد اzybأر عليه الزغب. وتتصب في تلك الحقول أنايب الأذرة كالأسل ورؤوس شوك العاقول تلتطم على سروجنا.

وأرسلنا القرويين في إثر الجنود، وهممت بعد نصف ساعة إلى متابعة السير مع حرسى الخاص إلى المزيريب لأبلغها قبل الحملة إلا أنى سمعت أزيز محرك في الجو وإذا به - وباللعجب - «جونور» وهو لا يزال حياً يرزق تطارده وتحقق به ثلاث طائرات وتخرقه بالرصاص. «جونور»! أجل! إنه لا يزال على قيد الحياة يكييل لهم بالكيل الذي يكيلون ويرد الضربة بالضربة. إلا أنه النتيجة المحتمة - للأسف - كانت منتطرة لهذا الطيار الباسل رغماً من تململ العدو وتزاحمه الطائش.

لقد أمل «جونور» النزول على الأرض سالماً، لذلك تراكضنا على الخط الحديدي حيث لقينا بقعة قليلة الحصى، فأسرعنا جميعنا في تنظيفها بحماسة جنونية، والخصم يقذف «جونور» إلى أسفل. فألقى إلينا رسالة يفيدنا بأنه قد نفذ منه الوقود، فما لبنا أن أومأنا إليه بالهبوط إلى الأرض فأسفّ حالاً إلا أن ريحاً قوية أملت بجناحيه فجأة، وكانت الأرض غير كافية الاتساع بالرغم من جهودنا، غير أن طيارنا الهمام لم يعبأ لذلك بل هبط علينا بخفة ورشاقة. وتعطلت عدة النزول ومالت الطائرة وسقطت على الأرض الخشنة.

فأسرعنا على صوت النجدة فإذا «جونور» لا يزال قائماً على قدميه سليماً إلا من جرح في ذقنه. ففصل مدفع «لويس» ومدافع «فيكرز» وتوابعها وألقى بها في سيارة فورد تخص «يونغ» ونجونا جميعاً سراعاً فأسفت إحدى طائرات الترك الخبيثة وألقت قبلة قرب بقايا طائراتنا الهمامة.

ولم تمر خمس دقائق حتى رجانا «جونور» في القيام بعمل آخر. فأعطاه «جويس» سيارة فورد. فأسرع إسراع الذئب إلى أن دنا من درعا ونسف خطأ هناك قبل أن يتمكن الترك من معرفته. فرأى العدو بعد ذلك أن هذه الحماسة في غير أوانها فأطلق عليه النار وعاد إلينا مسرعاً دون أن يصاب برشاش ما.

وكان حرسى الخاص ينتظر عودتي على العقيق. ولزم «جويس» «تل عرار» يسترنا بفرقة مع مئة من رجال نوري السعيد والرؤلة والجركس والسيارات. بينما نحن سير شمال الخط الحديدي لنبلغ خط فلسطين ونخربه. وكان من الممكن أن يمر جيش في السهل المكشوف كأنه جماعة من البدو، ولذلك قرّرت أن نسير علانية حتى مزيريب في مخاصر الطرق لأننا كنا قد تأخرنا كثيراً. ولكن العدو قد تنبه إلينا وأرسل طائرة تلقي علينا قنابلها بنشاط فأخطأنا مرتين أو ثلاثاً. أما في الدفعة الرابعة فقد وقع شواظها في قلب الركب فأسقطت فارسين عن متني ناقتيهما سالمين، إلا أن مطيئتهما قد تقطعتا إرباً.

فحشنا المطايا إذ لم يبق لنا ملجأ في هذه الأرض، ولم نتوقف إلا لنقول للقرويين بأن غرضنا المزيريب فامتلات مسالك الحقول بالفلاحين وهم يترაკضون لنجدتنا ويبدون رغبة صادقة في خدمتنا. وكانت قد ألفت أنظارنا على طول عهدنا في الصحراء تلك السمرة الضامرة في رجال البدو، فبدت لنا هذه الأجسام البضة والوجوه الباشة الوردية والشعور الجعدة والزنود البيض المكنوزة كأنها زنود صبايا. وقد شمروا عن سيقانهم حتى ركبهم ليحسنوا العمل، والمرح منهم التشيط كان يحرق الحقول المزروعة ليصل إلينا ويمازح رجالي.

ولما بلغنا المزيريب قدم إلينا «درزي بن دغمي» وأفهمنا بأن نوري السعيد وجيشه هم منا على مسافة ميلين إلى الورا. فسقينا جمالنا وارتوينا بدورنا لشدة ذلك اليوم وحرّه ومتاعبه ولم يكن قد بلغ أجله.

وامتنعنا وراء الحصن القديم وراقبنا الأرض وما وراء البحيرة فإذا بحركة تبدو لنا في المحطة الفرنسية، فقال لنا بعض ذوي السيقان البيض، إن الترك قد احتلّوها عنوة، وكانت الشهوة إلى الدنو منها بالغة الحد، فتقدم عبد الله لهذه المهمة. أما أنا فقد ختمت نهائياً على دور فروسيتي لحجّتي الواهية اللينة بأني أحفظ بجلدي لمهام أشق منها. وبعبارة أخرى إنني أريد أن أدخل دمشق!.. وللحقيقة كانت مهمة عبد الله هينة فقد استولى في المحطة على حبوب ودقيق وبعض أسلحة وخيول وعلى قليل من حزم الأمتعة.

فسال لعاب الطفيليين لهذا الرّبح السّريع وألتهتهم الشّهوة عن العمل. واستروح هذه الغنيمة قرمّ جدّد وتزاحموا على تلك الحقول كالذباب على العسل. ولحق بنا طلال خبيّاً كما هي عادته دائماً. وعبرنا الماء إلى الضّفة الثّانية فغمرنا الحشيش الرّديء إلى الرّكب، وظهرت أمامنا المحطة الثّركية على مسافة ثلاثمئة متر، ولربما تمكنا من الاستيلاء عليها قبل بلوغنا الجسر الكبير تحت تل شهاب. فتقدم طلال من غير ما وجل فظهر فجأة رجال من الثّرك عن اليمين وعن الشّمال. فقال: «حسنأ، إني أعرف ناظر المحطة». إلّا أنّ طشأ من عشرين بندقية تساقط علينا ونحن على متّتي متر منها فلم يصبنا منها رشاشها. فانبطحنا على الأعشاب وكان أكثرها شوك العاقول وحبونا إلى الورا على مهل. وطلال يحلف ويتوعد!..

فسمع رجالنا إطلاق النّار وصوت طلال!.. وتراكضوا وهم يقطرون ماءً لعبورهم الغدير سراعاً فأعدناهم خوفاً من وجود رشاشات نصبوها لنا خصيصاً في المحطة. وكانت ساعة نوري السّعيد المنتظرة. فتقدم مصحوباً بناصر وفحصنا الموقف فقدر نوري بأنّ الوقت الضّائع في مزيرب مهما كان يسيراً يحول دوننا ودون تخريب الجسر الذي هو غرضنا الأول فشاركته رأيه إلّا أنّي فكرت بأن كلمة «خذ» تساوي مرتين «ستأخذ» وأن كلمة «خذ» ربما تكون كافية. لأنّ الخط الذي خرّبه «بيك» لا يصلح إلّا بعد مرور أسبوع ويمكننا في هذه الفترة أن نكون أمام موقف جديد.

ولذلك قد أحكم «پيزاني» تصويب مدفعيته وأرسل عدة قذائف قوية الانفجار، ثم تقدم نوري تحت حماية مدافعنا ورشاشاتنا بقفازيه الجميلين متقلداً سيفه المذهب ليتسلم أربعين أسيراً تركياً أغضت عنهم مدافعنا!..

فتزاحم مئات من قروبي حوران رجالاً ونساءً وأولاداً على هذه المحطة الغنية بالذّخائر ونهبوها. ونزعوا الأبواب والتوافذ حتى إطاراتها ودرج السّلالم. وفلّق أحدهم الخزانة الحديدية فلم يجد سوى «طوابع بريد» ولم يعفوا عن خط طويل من الشّاحنات المملوءة أطناناً من البضائع المختلفة، فاستولوا عليها وتركوا ما تركوا مبعثراً على الأرض حول تلك الشّاحنات المسلوبة.

وقطعت مع «يونغ» محطة التلغراف التي كانت تتصل بخطوط هامة رئيسية ومحلية؛ لأن هذه المحطة كانت للحقيقة نقطة الاتصال بين جيش فلسطين وشمال الإمبراطورية العثمانية. وكم كنا نمزح ونفرح عندما كنا نقدر بالخيال لعنات «ليمان فون ساندروز» في الناصرة عند كل سلك يسقط تحت مقصّنا وقد كنا نقطعها بتؤدة واحتفاء فُثّير الغضب الطويل المدى في نفس العدو. وأصبح التُّرك محرومين من التّظام والبداهة. وحرمت جيوشهم البعيدة من الأوامر والأخبار والقيادة، وأوشكنا أن نتركهم بعد تقطيع مواصلاتهم خليطاً ملتاعاً لا حول ولا طول له، وقوة منثورة فُصمت عُراها، وأتبعنا حوال المحطة بأسلاك البريد فنسفناه وعطلناه حتى ليصعب إصلاحه. وبينما كنا منهمكين بهذه الأعمال ظهرت فاطرة خفيفة من جهة درعا. إلّا أنّها تراجعت سراعاً لمشهد الدّخان المنعقد في جو المحطة ولدمدمة الانفجار الذي بلغ أذن السّائق المحروب، وبعد قليل زارتنا طائرة معادية.

وكانت بين المؤن التي استولينا عليها شاحنات مسطحة مملوءة بعلب الحلوى لمخزن ألماني فوجم العرب منها ومن المحفوظات والقناني وأعدموها وقد تمكنا من حفظ شيء من علب الحساء واللحم، وقدم لنا نوري السعيد محفوظات من الهليون كان قد فتح واحدة منها أحد الأتراك ونظر إليها وصرخ «إنها لِعِظام خنزير» وتفل في الأرض وترك لقيته، فحشر نوري كل مالفية في خُرَجِي سرجه.

وكانت تلك الشّاحنات المكشوفة تحمل قدراً كبيراً من براميل الزّيت وخطباً للوقود فأشعلنا النّار فيما بقي بعد النّهب عند المساء وتباعد رجال القبائل ناعمين على الحشيش الأخضر قرب منبع البحيرة الصّغيرة وأضاءت المحرقة سماطنا فتعشنا على ضوء نارها. وقد اشتعل الحطب اشتعالاً لا مثيل له وقذفت براميل الزّيت في الجو وتعالّت على حوض الماء.

وتركنا القوم يخبزون ويطبخون قبل أن نقوم بغزوة أخرى عند هبوط الظّلام على جسر تل شهاب الذي هو على ثلاثة أميال منا. وكانت رغبتنا في الأكل تفوق رغبتنا في ذلك الجسر. إلّا أنّ زيارات كثيرة قد نفذ لها صبرنا لأنّ نار المحرقة التي بلغت أواسط حوران كانت كأنها نار القرى في الصّحراء، أو نار هداية.

وكان زوّارنا عيوننا الرّواصد في الصّحراء فعلينا أن نرحّب بهم ونكرم وفادتهم، وكان عليّ وحدي أن أستقبل كل واحد وأدعه يقول ما يشاء ثم بعدئذٍ أحلّل الأقاويل وأغربل الأخبار وأنفي الجيد من الرّديء وأتمسك بكل ما هو معقول وألقي عني كل خبر مرذول وأخذ صورة كاملة في ذهني لكل ما هو حقيقي، قلت كاملة لا منطقية لأنها لا تستند على معلومات كافية. فالأخبار كانت عديدة بمعنى أنها شذّعت لبي فلم يعد يقوى دماغي المسكين على الإجابة إلى كل ما يطلب منه.

وكانوا يقدون من الشّمال على خيولهم وعلى جمالهم وعلى أقدامهم مئات مئات بحماسة كبيرة، يرقبون التحرر النّهائي لبلادهم بين ليلة وضحاها. وسيختم النّصر ناصراً هذه الليلة ذاتها باحتلاله درعا. وقد قدّم إلينا أعضاء البلدية وطلبوا منا أن نفتحوا لنا المعقل. فلو أننا رضينا بهذا العرّض لكننا مالكين حوض ماء المحطة وبعدها البنايات نفسها. لكنه لو فرض أنّ الحامية التّركية قد قاومت مقاومة المستميت وطال علينا التسليم، فلنلتزم والحالة هذه أن نخلي المدينة، ونكون قد فقدنا سكان السّهل بين درعا ودمشق دفعة واحدة. وإن النّصر العربيّ النّهائي لفي أيديهم فقط. وكان حسابي صائباً وإن لم يكن حديثاً. وتقرّر على كل حال أن لا نقوم بأي حركة ضد درعا ولنغي خطنا نحوها. وعليه قد أجلنا طلب نجدة أولئك الأصحاب ومعاونتهم إلى أمد آخر، منتحلين أعاراً توافق أفهامهم. ولم يكن بالأمر الهين إقناعهم.

ولما أنهينا أعمالنا معهم ظهر عامل جديد أمامنا. ذلك أن رئيس «تل شهاب» الشّاب قد طلع علينا. ونحن نعلم أن قريته مالكة جوانب الجسر متحكمة فيها. فوصف لنا موقعه ومخفّره ومواقف حراسه المختلفة، إلّا أنّ هذا الحل لم يكن سهلاً كما يتبادر لنا لأوّل وهلة، وقد خالجتنا شك في صراحة هذا الشّاب الذي كان أبوه المتوفى أمس الدّابر خصماً للقضية العربية، وها إن ولده الآن يندفع فجأة وينضم إلى صفنا، مع أن المثل يقول تلك العصا من هذه العصيّة. لكنه ما زال يعمل على إقناعنا حتى عرض علينا أن يقدم لنا صديقه الضّابط التّركي قائد المخفر. فأرسلناه ليأتي بصاحبه وأومأنا إلى الرّكب بالتوقف.

وعاد الشاب مع الكابتن، وهو ضابط أرمني يحتدم حقداً على دولته ويتمنى لها أقصى ما يمكن من الضرر. وكان حاد المزاج فجهدنا في إقناعه بأننا قد اطلعنا على كل شيء. ثم قال لنا بأنّ معاونه الضباط ورجاله الحراس هم أمناء متمسكون بتركيتهم. وعرض علينا أن نكمن قريباً من القرية ويختبئ أربعة من رجالنا العرب الأشداء في حجرته، فيدعو رجاله إليه واحداً واحداً فيوثقوهم ويخلو لنا الجو.

إنها لحكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، فقبلنا هذا العرض الحماسي وكانت الساعة التاسعة مساءً، وعلينا أن نأخذ أماكننا حول القرية الساعة الحدية عشرة تماماً، وننظر إحضار الرجال فرادى إلى حجرة القائد. وتَرَكَنا المتأمّران فأيقظنا رجالنا المنهوكين النائمين إلى جانب جمالهم المحملة وكان الليل مشدّد الحلك.

وابتدأ حرسى الخاص بتحضير المتفجرات وملأت جيوبى منها استعداداً لنسف الجسر. وحذّر ناصر كل فرقة من فرق جيش الهجّانة الإمبراطوري ونههم إلى الهجوم القادم ودعاهم ليكونوا شجعاناً وفي مستوى هذه الحملة العنيفة. وألّا يدعوا الجمال تهدر عند اعتلائهم متونها. وكان كذلك. وسار جيشنا في الوقت المضروب صفين متوازيين وتسلسل في السبيل الملتوية محاذة قناة للري تتلوى مثلها على عُرف الجبل. فإذا كانت هناك خيانة، وغدر بنا غادر في هذه الأرض المكشوفة التي لا ملجأ فيها، لا من اليسار ولا من اليمين فإنّا هالكون. وتابعنا السير في طريق ضيق ملتو زلق تتخلله البرك الآسنة. فسرت مع ناصر في الطليعة تحت حراسة رجالنا الأخصاء ذوي الآذان المرفهة والعيون النافذة والحواس المتنبهة دائماً أبداً إلى أقل حركة أو صوت. وكانت مساقط المياه تهدّر أمامنا فتنبض لها صدورنا وتذكرنا بتلك الليلة القديمة التي لا تُنسى مدى العمر، عندما حملنا أنا وعلي بن الحسين على هذا الجسر. وكنا اليوم أقرب إلى الشلال من المرة الأولى والانقباض يضغط علينا أكثر من ذي قبل ويصمّ أذاننا. وتابعنا التسلسل حفاة وبهدوء وحذر والجنود وراءنا يحبون حبواً ويقطعون أنفاسهم. وتمثلوا بنا فلم يَبْدُ منهم أقل حركة، لأنّ الجمال في الليل تسير ساكنة صامتة، والأحمال مشدودة شداً، والسروج محكمة الأربطة، فلا قعقة إذاً ولا هدير، فركّب

هذا الشكوت على الظلام ظلاماً ملاً الوادي شراً ووعيداً كأنّ هذا الغور يهمس في أذن القَدَر لابتلاعنا! وكانت نسّمات خفيفة تمر على الغدير وتمسح وجوهنا. ولحق بنا رُحيل قادماً عن شمالنا وأمسك بذراعي وأراني في الظّلمة عموداً من الدّخان الأبيض يصعد من الأعماق، فزحفنا إلى شفير الوادي وأرسلنا أنظارنا إلى الغور بين أمواج الليل المدلهم. لكننا لم نتميز شيئاً، خيالات مبهمة غير ثابتة تتحرّك بين الضّباب الحائر على وجه المياه. وكانت غيوم بيض على الجرف تتصاعد وتتحول إلى سهام ترشق السّماء. فلا بدّ إذن أن تكون السّكة الحديد في تلك التّواحي. فأمرنا بالتوقف خوفاً من الكمين المزعوم، وتسلسل ثلاثة منا على المنحدر الوحل إلى أن تمكنا من تمييز الأصوات، وانفدّ عمود الدّخان فجأة وسمعنا زفيراً موقّعاً ولهاثاً متواصلاً. فكانت قاطرة تسعى. ثم صرّت ألجمتها فعرّفنا أنها توقفت. وأيقنا أنّ قطاراً طويلاً كان ينساب خلف القاطرة، ولما تأكّدنا منه تابعنا تقدمنا إلى السّنَد القائم تحت القرية.

وانتشرنا خطأ واحداً وانتظرنا ونحن سكوت خمس دقائق. ثم عشرأ بعدها، وكان الليل الحالك يوحي الصّمت ففرضه على رجالنا المضطربين صارماً رغماً من نباح الكلاب وصدى نداء العسّس الذي يتردد حول الجسر بين آونة وأخرى. وتركنا رجالنا ينزلون عن ظهر مطاياهم بصمت وسكون، وانتظرنا طويلاً مستغربين هذا الإبطاء، يقظين يقظة الثّرْك في مرصدهم هامدين همود القطار في الوادي. وثقلت عباءتنا الصّوف على أكتافنا لشدة الضّباب الكثير النّدى، وتصلبت على أعضائنا فكنا نرتعد.

وأخيراً... وبعد فترة طويلة كدنا نفقد معها الصّبر ظهر ضياء يثقب الظّلمة وعرّفنا الشّيخ الشّاب إذ أراح عباءته البّنية عن قميصه الأبيض وهو شعارنا المتعادل. وهمس بأنّ خطتنا قد فشلت، لأنّ قطاراً وصل إلى المحطة يحمل كولونياً ألمانياً، وحامية من ألمان وترك أرسلهم «ليمان فون ساندرز» من «العُقولة» لينجدوا مدينة درعا الملتاعة، وأوقف الكولونيل الضّابط الأرمني البائس مؤنباً لأنّه لم يكن في موقعه، وأنزل عدداً كبيراً من الرّشاشات. فدبت الهمة في العسّس وتقدمت الكشافات إلى جوانب الجسر تفحصه فحصاً دقيقاً بحماسة لا مزيد عليها. والحق يقال، إنّ مفرزة قوية للعدو كانت

على الطريق، لا تبعد أكثر من مئة متر عن مواقفنا، فلم أتمالك من الضحك في كمّي لهذا التقارب الغريب.

فعرض نوري السعيد أن نحاول هجوماً صادقاً دفعة واحدة دفعة واحدة. وكان لدينا قنابل كافية وذخائر تضمن لنا النجاح. فضلاً عن مزايا هجومنا المفاجئ وعددنا الفائت. إذن سيلعب الطالع بين الفريقين سواء بسواء إلى أن يسعد أحدهما. غير أين كنت أقدر الخسارة إزاء الرّيح فوجدت أن الخسارة ستكون جسيمة. ولا يخفى أنّ الحروب توجب التضحية، وأنّ المعارك تكلف أرواحاً وذخائر تفوق قيمة النتيجة. إلّا أنّي لم أشأ أن أتبع القواعد القديمة. ولقد كنت فخوراً في داخلي رغماً من دفاعي عن نظرتي بأولئك الرّفاق المستعدين دائماً إلى كل تضحية. وكان اعتراضي قوياً بقدر حماسهم. ولقد قطعنا خيوط دمشق - فلسطين مرتين متواليتين في هذا التّهار نفسه وأرغمنا العدو على إرسال حامية عقولة. فكان توفيقنا هذا فائدة ثالثة لـ «ألّبي» وشرفاً عظيماً لنا، لأننا قمنا بتعهداتنا باحتدام لم يكن يحلم به أحد.

وأقرني نوري السعيد على رأيي بعد تبخّر قليل فاعتذرنا للشيخ الشّاب الذي جازف لأجلنا بشمم ونبل ومررنا على جيشنا فدعونا رجاله إلى الانسحاب في سكون تام. وجلسنا وبنادقنا في أيدينا. وكانت بندقيتي موسومة بأحرف ذهبية وعليها كلمة «ليه أنفيلد» وهي من أسلاب الدردنيل كان قد أهدها أنور إلى فيصل منذ بضع سني.

وكان الليل إلى هذا الوقت قاسياً علينا حرجاً. ولما انتهت مهمتنا غالبتنا الرّغبة إلى إيقاظ هؤلاء الألمان المزعجين. وكان بإمكاننا أن نقدفهم قذفة نارية، ونبلبل معسكرهم. فيُخرج الهوّس بعض الجنود المغالين في النّظام ويمزقون برصاصهم تلك المنحدرات الهابطة إلى الوادي الخالية حديثاً من النّاس ويقلقون سكون الليل ويضيئون ضبابه الكثيف. وقد خطرت هذه الفكرة أيضاً ببال ناصر ونوري السعيد، فقدفناها طيشاً ولم نلبث أن خجلنا من بعضنا لهذا العمل السّخيف وتعاوننا على الانسحاب ونجونا.

* * *

الفصل الثاني والثلاثون

الصراع في الأعلى والأسفل

ووصل باقي جيوش نوري السعيد ومدافع پيزاني الأخرى إلى تل عرار في الصباح. وبعثنا رسولاً إلى «جويس» نعلنه بأننا سنعود غداً إلى الجنوب بطريق «نصيب» كي نتم الإحاطة بدرعا. وعرضت عليه أن يعود إلى التايهة، وابتظرنا هناك لأن هذا المورد الغزير الماء المعشوشب بالكأ والذي هو على مسافة متساوية بين درعا وجبل الدروز وصحراء الرّوّلّه كان على ما ظهر لنا أبداع موقع لاتصالنا ببعضنا وحيث يمكننا انتظار أخبار الكُني براحة وهناء. والقوة التي تقيم في «التايهة» تفصل الجيش التركي المرابط على ضفة الأردن اليسرى عن دمشق التي هي هدفنا الأسمى ثم إننا نكون في موقف بديع يسمح لنا بتجديد تخريب الخط الحديدي الكبير كلما حاول العدو إصلاحه.

وقد أرغمنا على الصبر واستعادة الشجاعة إزاء نهار كامل في الإجهاد والتّصب، ودعونا الجيش ليعبر محطة مزيريب فسار عصابة شاسعة من غير نظام. وانطفأت آخر شعلة في حرائقنا وأخذ المكان شكلاً موحشاً مفجعاً. ووضعت مع «يونغ» ألغاماً أخرى على الخط، بينما الرّجال يتقدموننا ويتعدون عنا على أرض غير مستوية، ووجهتهم «الرّمثا» حيث يتوارون عن أنظار درعا، وتل شهاب معاً، فسمعنا أزيز طائرات تركية تحوم فوق رؤوسنا وتحاول أن تكشفنا. فأسرعنا لإرجاع القرويين إلى قراهم في طريق مزيريب. وعلم الطّيارون بأننا كنا كثيري العدد نبلغ الثمانية أو التسعة آلاف رجل بوجه التقريب، وأن دورانا يدل على انتشارنا في مختلف الجهات. وهدمت قنبلة المدفع الفرنسي برج الماء في محطة مزيريب فأحدثت دويّاً عظيماً في الوقت الذي كان فيه

الألمان ينتقلون من تل شهاب إلى درعا، فالتاع الألمان المحرومون من الهناء لهذا الانفجار الغريب وقضوا القسم الثاني من النهار على حذر شديد. وكنا في ذلك الوقت نسير من غير توقف وجهتنا نصيب، وبلغنا قمة الجبل الساعة الرابعة، فاستراح المشاة الرّاكبون قليلاً واصطففت المدافع والرّشاشات على أول عرف من أعراف المرتفعات حيث تنحدر الأرض انحداراً متقطعاً بالحفر والفجوات حتى المحطة.

وطلبنا من رجال المدفعية أن يصبوا النار بتؤدة على بنايات المحطة التي هي منا على بعد ألفي متر فسدد رماة پيزاني مراميهم فلم يمرّ وقت يسير حتى ظهرت الفجوات الواسعة في جميع جدران البنايات وسطوحها ثم حولنا المدافع إلى شمالنا كي نكتسح الخنادق إلّا أنّ هذه الخنادق أطلقت علينا بدورها مدافعها بحماسة شديدة، ولحسن الحظ كان رجالنا محصنين والشمس وراءهم لا تبهر أبصارهم فلم يجرح منا أحد، ولا من أعدائنا. وعلى كل حال، لم تكن تلك المناوشة سوى العوبة، والمحطة نفسها لم تكن من أغراضنا، إلّا أنّ همنا كان محصورات في الجسر الكبير غربي القرية، وكان الجبل تحت أقدامنا يمتد كأنّه كفّل فرس متجمع ثم ينحدر رويداً رويداً بعد أن يدور دورنا طويلاً ثم ينتهي إلى هذا التّمودج وكان أحد سفحيه جرفاً لوادٍ يمرّ فيه الخط الحديدي ويبلغ الجسر المعهود.

وعلى السّفح الآخر ترتفع البلدة مواجهة حيث أقام الثّرك موقعاً للخبراء في العقيق. وسكن باقي المفرزة في البلدة نفسها في حمى جدرانها. فصبّونا مدفعيّ پيزاني وست رشاشات على الاستحكام الضّئيل المدفون في الأعماق راجين أن نطرّد المحتلين، ونعمل في البلدة نار خمسة رشاشات أخرى. فلا تمر ربع ساعة حتى يتراكم إلينا وجوها وذوو النّفوذ فيها. وكان نوري قد وعدهم بالكف عن إطلاق النار على شرط واحد وهو أن يطردوا من منازلهم كل جندي تركي. فبروا بوعدهم، وهكذا انعزلت المحطة والجسر عزلاً تاماً. وأصبحت بنايات المحطة هدفاً لخمسة وعشرين من رشاشاتنا ترد ببراعة مدافع الثّرك الحامية الكثيرة الدّخائر ثم دخلت مدافع پيزاني المعمة وألقت بعض قنابل قلقلت الحامية الثّركية من مكانها وتسلسل رجالها وراء الخط لناحية الجسر.

وكان يبلغ علو هذا السند عشرين قدماً فلو شاء الحارس أن يدافع عن الجسر محتثياً بدعائمه لكان موقفه حرجاً، إلا أننا قدرنا بأن مواقع الرفاق في بنايات المحطة ستجذب رجال الحرس إليها. فسلمت متفجرات لنصف رجال حرسى الخاص فتسللوا على طول عرف الجبل المرصوص برشاشاتنا ثم تقدموا من الاستحكام على مسافة رمية حجر.

وطلع الليل فحماً على آخر أشعة ذهبية تودع النهار. فكان ساجياً، عذباً فائق الوصف على نقىض مدافعنا التي لا تهدأ نارها. وتلكاً التور في انحداره على رؤوس التلال وأعراف الجبال وبرزت نواتئ الطبيعة تحت أشعة الشمس المنحرفة وانكشفت دقائقها الغربية الوضع بين التور والظلال الزاحفة. ثم هبطت الشمس وراء الأفق في المَهْمَه البعيد. واكملت القمم وتحولت رؤوسها ألماساً أسود يمتص آخر لمعان ترسله الشمس الهاربة.

وقد هجر الحرس الاستحكام. فترجلنا وأومأنا إلى نوري ليكف عن الضرب وهبطنا تحت الحنايا في سكون الغسق فلم نلاق جندياً قط.

فأسرعنا في حشو فجوات الجسر السميكة البنيان وعرض جدرانها خمس أقدام وعلوها خمس وعشرون تقريباً. لقد كان جسراً جميلاً حقاً. وكان آخر التسع والسبعين ضحية التي حطمتها. وسيكون تخريبه عملاً حربياً نحيا تحت رحمته في «التأية» منتظرين قدوم النبي ليطلق سراحنا. ولذلك صممت بأن لا أترك منه حجراً على حجر.

وتقدم نوري بالمدفعية والمشاة والرشاشات في ظلمة الليل إلى الخط الحديدي وابتعد عنه ميلاً وأعاد تنظيم قافلته منتظراً أوامر جديدة، وكان اجتياز حملة كهذه لخط واحد مملاً فكنا نمزح تحت الجسر والثقاب بين أصابعنا لنشعل الذبال لأول حركة تبدو من ناحية العدو. رغماً من قرب رجال حملتنا منه. إلا أن حسن الطالع كان رائدنا فعبر نوري ورجاله ومهماتهم في ظرف ساعة واحدة. ثم أبدى إشارة فانتظرت نصف دقيقة. وثقبت النار وأسرعت فغرثت في الاستحكام التركي وانفجرت ثمانون ليبرة دفعة واحدة فزلزلت الأرض زلزالها وتطايرت الحجارة من كل ناحية وزمجر

المفجرات في الجو، وكنت منبطحاً على بعد عشرين متراً فشعرت برجة عنيفة. ولا بدّ أن يكون قد سُمع صوت الانفجار إلى منتصف طريق دمشق.

فقلق نوري وأسرع للتفتيش عليّ وأمر بإطلاق المدافع قبل أن يعلم بأنّ فرقة مشاة لم تصل بعد. إلّا أنّ رجالي لحسن الحظ كانوا يلتهبون غيرة وحماساً. فقاد طلال الحريديني الرّجال إلى القمّة وبقيت مع نوري في تلك الفجوة التي كانت منذ هنيهة جسراً. وكنا نحمل فانوساً كهربائياً فأضأنا لهم. ولم تمر ساعة حتى ظهر محمود وهو يقود الفرقة الضّائعة. فأطلقنا بعض عيارات نارية لننبه باقي الرّجال الذين انثروا في كل جهة للتفتيش على الضّائعين، وتقدمنا في العراء ثلاثة أميال لجهة «التّايهة». وصارت الأرض منحدره صعبة المسالك، ذات حجارة جيرية.

فتوقفنا منتظرين الحملة واسترحنا راحة نستحقها.

ويظهر أنني وناصر قد فقدنا عادة التّوم، وقد دلت علينا الانفجارات في «نصيب» والحرائق في «مزريب» فما كدنا نحط الرّحال ونستلقي حتى توافد علينا الرّجال من ثلاث جهات مختلفة جماعات جماعات. وراجت الأراجيف عنا بأننا سنغزو غزوتنا ونعود من حيث أتينا كما فعل البريطانيون في السّلط ونترك أصحابنا وأهل البلاد ليسددوا الحساب مع الأتراك.

وانقضى الليل على هذه الوتيرة متقطعاً بقدوم الوفود الجديدة يدورون حول المعسكر وينادون بأعلى أصواتهم بأنهم أرواح تائهة قدمت إلينا وتريل أفواههم على أيدينا التي يستولون عليها حسب عادة القرويين ويعتبروننا أكبر ساداتهم وهم أصغر خدمنا. وربما لمن نستقبلهم استقبلاً حسناً كما كانت عادتنا الطّيبة لاستقبال الأصحاب. إلّا أنّهم قد انتقموا منا وحرّموا النّوم بأحاديثهم وتطوافهم، وكنا قد جاهدنا ثلاثة أيام بلياليها جهود الجبابة، والآن ونحن على عتبة الرّاحة والسّكون لا نقوى على قضاء ليلة رابعة في المجاملات المملة لاكتساب أصدقاء.

وقد تقلقلت نفسيّتهم فكان شعورنا نحوهم سيئاً، وتنحى بنا ناصر ناحية وأفهمني

بأنه على مقربة منا توجد بُورٌ نشك في إخلاصها لنا. فأرسلت قرويين من حرسى الخاص ليمتزجوا بالفلاحين ويتسقطوا الأخبار. فعادوا وأفهمونا بأن الحذر منا آخذ مأخذه في طبيه وأنهم رأوا سيارات «جويس» المصفحة تراجع أمس عند المساء، فخافوا- ولا غرابة في خوفهم- أن يكونوا هدفاً لانتقام التُّرك بعد انسحابنا، فدعوت «عزيزاً» وذهبنا تَوّاً إلى «طَيِّبة» على أرض وعرة لا سُبل فيها.

ونحن نمشي على الأمعر الصَّوَّان. وكان المجمع منعقداً في كوخ العميد ومنه تصدر المفاسد وتفرق على قصادنا. وهبطنا عليهم فجأة دون سابق علم وهم يتناقشون في مَنْ يكون رسول السَّلام إلى التُّرك يطلبون رحمتهم ويستمدون عونهم. فأخذهم الانبعاث لهذا التَّزول غير المتَّظر. فبادلنا الحديث مدة ساعة عن الأشياء والأشخاص وثمر الحيوانات والعلف والحصاد والدَّجاج. وشربنا القهوة وعدنا من حيث أتينا وعقدوا المجمع بعد خروجنا باحتدام أشد، لأنَّ أفكارهم قد تقلقت ودبَّ فيها شيطان التردد، وأخذوا يستروحون الهواء الطَّيب فلم يعثروا على الناحية التي يهب منها. ولم يبعثوا برسول إلى العدو. وعند الصَّباح أمطرناهم وابلاً من القنابل لعنادهم وتآمرهم علينا!...

وعدنا عند الفجر وتمددنا ولعلنا نعم «بغفوة الإصباح بعد تهجُّدٍ». وما كدنا نطبق أجفاننا حتى سمعنا جرجمة قطار يسير على الخط، وفوجئنا بقبلة انفجرت في قلب معسكرنا الساكن النَّائم... وكان القطار مصفحاً مجهزاً بالمدافع. فلو أني كنت وحدي مفرداً في ذلك المكان لجازفت بحياتي حباً بإطالة غَفَوتي العذبة التي كنت أنعم بها وتركتني هدفاً للعدو. إلَّا أنَّ الجيش قد غفا ست ساعات فنهض مذعوراً وكان هربنا مرّاً مرعباً، وكانت ثلاثة الأثافي طائرة استكشاف تحوم فوقنا وترشد القطار إلينا. فتكاثرت القنابل في طريقنا فأسرعنا في السَّير وتشتنا شر مشت، ثم ظهر بأن الطَّائرة تدور وتحاول التَّزول إلى الأرض، وسقطت قبلة صائبة فقتلت جملين فَقَدَ بعدها العدو الضَّبط وحسن الرَّماية. وألقى قدر خمسين قبلة على غير جدوى حتى تباعدنا عن متناولها.. فحول «طَيِّبه» إذاً كان عقابنا!.

وصحا «جويس» في «التّايهة» على صدى صوت القنابل وأسرع إلى نجدتنا، وكانت الخرائب وراء جسمه العملاق تموج بين عصائب من البشر غريبة الأشكال مختلفة الألوان انتقوها من كل قرية ومن كل قبيلة في حوران. وهم قادمون إلينا ليقدموا لنا لشكر والنّجدة ولو بالكلام.

فتركت هذه الجموع لناصر، فتملّكه المل والتعب وغضب لهذه الهدية.

وسافرت مع «جويس» و«نترتون». وأخبرتهم بهبوط الطائرات التّركية وعرضت أن تُرسل سيارة مصفحة للتفتيش عليها. وظهرت في هذه اللحظة طائرتان وطارتا مكان زميلتهما.

غير أن فطورنا- الفطور الأول لنا منذ أيام طويلة - كان جاهزاً فجلسنا حوله وأنسنا به بينما يروي لنا «جويس» بأنّ رجال «طيّبة» قد رموه بالرصاص عند مروره في هذا المكان مظهرين ما يكونونه للأجنبي الذي يلقي الاضطراب في وكر التّرك ثم نجوا بنفوسهم.

وطلبنا بعد الفطور سيارة مأجورة كي نرقب مطار العدو. فتقدم إلّي جميع السّواقين بغيرة صامته فتأثرت لهذه التلبية السريعة وخنقتني العبرة. فانقتى «جويس» سيارتين لي «ولجونور» وطفنا خمسة أميال في ذلك الوادي الذي ظهر أن الطائرتين ستترلان عليه.

فأوقفنا السيارتين ومشينا على الأقدام قدر المستطاع، وكان هذا الوادي ينفرج بعد التوائه على مسافة ميلين من الخط كالحقل المنبسط، وفي الجهة المقابلة تجثم الطائرتان. فالنتيجة إذاً بديعة! فانقضينا إلى الأمام. إلّا أنّ خندقاً عميقاً ذا حافتين عموديتين تصدى لنا وكان اجتيازه مستحيلاً، فحاذينا ذلك الخندق مسافة ألف ومئتي متر بصبر وجلد، وما كدنا نتوقف حتى طارت الطائرتان فرميناها مسترشدتين بالغبار الذي أثارته وراءهما لكنهما كانتا قد ارتفعتا في الجو فوق رؤوسنا وتهادنا قليلاً.

أما الثالثة فقد حرنت ولم تشأ أن تذهب لأمر قائدها. وحاول السائق والمرشد أن يديرا المروحة فلم يفلحا وأبصرانا فسقطا في الخندق فأطلقنا النّار وعطلنا آلة الرّماية

فتحطمت وتفتت. ثم أرسلنا ألفاً وخمسمئة رصاصة وانصرفنا. وعند المساء أضرموا النار في الطائرة الحردة.

أما لطائرتان الأخريان فقد بلغتا «درعا» وللأسف، رجعنا إلينا محتدمتين أشد احتدام. أما الأولى فقد كانت بلهاء بليدة وقد أرسلت خمساً من قنابلها من علو شاهق فسقطت بعيداً، وأما الثالثة فقد أسفّت وكانت تلقي القنابل بتؤدة وروية. فتابعنا سيرنا بهدوء ولم يكن لدينا ملجأ نلتجئ إليه سوى بعض الصّخور. وكنا نشعر كأننا نُزجُّ في علبة من السّردين كلما ضيق علينا لطيران وقربا منا. وسقطت قنبلة حطمت صندوق المحرك تحطيماً، ولم يتعطل المحرك، وقنبلة ثانية فجّرت الدّولاب الأمامي، إلّا أنني سلمنا من خطر جنوح السيّارة.

وبلغنا «التّايهة» سالمين، وتمكنا من الإشارة إلى نجاحنا في تقريرنا الذي قدمناه لـ «جويس» وقد أرينا الثّرك عدم الفائدة من هذا لمطار وأن «درعا» معرّضة دائماً لغزوات السيّارات، ثم نمت عند الظّهيرة نوماً عميقاً في ظل إحدى المركبات. وكان عرب الصّحراء يرودون من حولي وطائرات العدو تقذف قنابلها علينا إلّا أنّها لم تكن لتقلقل سلامي الدّاخلي، إن المرء في صدمات الحوادث وفوران الدّم في حومة الوغى لا يشعر بالتّعب. أما اليوم فقد ختمنا غزوتنا بنجاح، والنّوم لا بد منه لأجل ذاكرتي المثقلة بالأعمال العظيمة التي تنتظرني. وتمددت حسب عادتي وتلقاني النّعاس فلم أستيقظ إلّا وقد أدبر النّهار أو كاد.



الفصل الثالث والثلاثون

سلاح الجو الملكي ينجدنا

ومن إصالة الرّأي في خططنا هو أن لبث في «التّايهة» نرقب منها الثلاثة خطوط المتصلة بدرعا. وإذا ثبتت فيها عشرة أيام نخق العدو من هذه الجهة كما يفعل ألّنبى كذلك من ناحيته. إلّا أنّ موقع «التّايهة» خطر علينا إذا نظرنا للأصول الفنية. فمن المستحيل على فريق ضئيل من النّظاميين العرب أن يثبتوا مطمئنين دون مناوشات تسترهم. وهذا ما نفتقر إليه قريباً ما زالت قوتنا الجوية معدومة فاضحة.

إلّا أنّ التّرك كانوا يملكون سبع طائرات على أقل تقدير. ونحن على اثني عشر ميلاً من محطتهم في قلب الصّحراء وعلى أرض مكشوفة تماماً على مقربة من مورد ماء واحد وعندنا من الجمال والخيال عدد عظيم يرعى حولنا. ولقد تقلقل الرّجال غير النّظاميين لأول هجوم من ناحية الأتراك ولأول قبلة انفجرت بينهم. وأولئك الرّجال هم عيوننا وآذاننا. وسيشّئت أولئك العرب ليعودوا إلى خيامهم ويصبح مقامنا في «التّايهة» عبثاً لا فائدة فيه، ثم إن أول قرية تسترنا من ناحية درعا ليس لها مدافع يدافع عنها وقد أصبحت تحيا حياة هلع من جراء هجوم التّرك المتواصل. فإذا كنا نبغي المّقام في «التّايهة» وجب علينا أنّ ندافع عن «الطّيبة».

وكانت مهمتنا الأولى بالطّبع طلب قوة جوية من ألّنبى. وموعداً معه غداً لإرسال طائرة تحمل إلينا أخباره. فصمّمت أن أركب إليه مستصرخاً وأعود يوم 22 منه. فلعلّ «التّايهة» تصمد إلى هذا الوقت.

ويمكننا نحن أن نلجأ دائماً إلى الخديعة مع العدو فننتقل إلى «أم سراب» البلدة القريبة ذات الخرائب الرومانية.

ولا فرق عندنا بين التّايهة وأم سراب، إلّا أنه يجب علينا أن نحفظ بقوتنا المعنوية إلى حين البدء بهجومنا التّهاثي وقد قفلت درعا بوجهنا مؤقّناً لعدم ثقة القرويين المحيطين بها وشكهم في نجاحنا. إلّا أنّ الخط الحجازي هو أماننا. وقد أصلح الجسر في كيلو متر 149 فعليّنا إذا إعادة تخريبه مع جسر آخر إلى الجنوب كي نمنع وصول قطار التّصليح، وقد حاول «ونترتون» في تلك الليلة أن يقوم بعمل حاسم فعلم أن هدم الجسر الأول لا يتم إلّا بالرجال والمدافع. وأما الجسر الثّاني فبمفرزة خاصّة مُدبّرة.

فعرضت على «جويس» إذا بأنّ هذا يعيد المصريين والثّورخا إلى العقبة ويعيرني سيارة مصفحة فأرافقهم إلى خط السّكة الحديد التي هي مرحلتهم الأولى، فربما حاولت القيام بعمل مفيد على هذا الخط. وقمنا إلى «ناصر» و«نوري السعيد» لنطلعهما على رحلتنا وعلى عودتنا يوم 22 سبتمبر مصحوبين بطائرات حربية يمكنها أن تقتنص لنا طائرات تركية. ومتى عدنا إلى «التّايهة» يمكننا أن نعوّض الخسارة التي قد يكون ألحقها بنا العدو. ويكون «جويس» قد مهّد لنا أرضاً هنا وفي أم سراب لنزول طائرتنا العتيّدة.

وحدث التّخريب عند منتصف الليل بارتباك لا مزيد عليه. واتجهنا عند بزوغ الفجر إلى وادٍ مكشوف على بعد ثلاثة أميال من الخط الحديدي. وخشيت من متاعب تخلّق لنا في محطة «المفرق» فتبع «جونور» سيارتي المصفحة وهو في سيارة فورد، وكنت أرقب الثّواحي وأهتم بكل حركة معادية، وكان على المصريين أن يتقدّموا إلى الخط ويخرّبوه.

وقد ضللت الطّريق وقضينا ثلاث ساعات في تيه من الوديان دون أن أعثر على الخط الحديدي، ولا على المصريين، ولا على مكان بداية رحلتنا! إلى أن أبصرنا نوراً فتقدّمنا إليه وإذا بنا أمام محطة «المفرق». فتراجعنا محاذين الخط فسمعنا صفير

قاطرة. وإذا بقطار يقوم من المحطة متجهاً نحو الشمال. فتبعته سيارتنا على ضوء مصابيح المتقطع لعلها تبلغه. وبينما كنا نحاول عبثاً اللحاق به سمعنا انفجاراً هائلاً أمامه، فكانت متفجرات بيك Peake قد فعلت فعلها.

ومرّ بنا رجال هاربون وهم يركضون مطاياهم خيلاً ووجهتهم الجنوب. فأتبعناهم ببعض رصاصات، ولم يلبث القطار الكشف أن عاد مهرولاً لينجو من خطر بيك، فتبعناه مقابلين شاحناته نرسل إليها شواظاً من مدافع «فيكرز» وكان «جونور» من ناحيته يكتسحها بقنابل «لويس» المضيفة، وسمعنا الأتراك يهدرون وجلاً والتياغاً من هذا الهجوم المشع.

ويخفي صياحهم صدى أصوات مقذوفاتنا وجرجمة القطار المسرع. إلا أنهم قد أطلقوا علينا من كل ناحية على غير هدى. وشعرنا فجأة بصدمة قبلية قوية عطلت المحرك وتوقفت سيارتنا. لأنَّ القنبلة خرقت طرف حوض الزيت، القسم الوحيد الذي لم يكن مصفحاً. فقضينا ساعة كاملة لسد الثقب الذي اندفع منه البنزين.

وتابعنا على الخط الحديدي وكان ساجياً صامتاً، قضبانه ملتوية التواء الثعبان وقناطره مندكة دكاً، إلا أننا لم نعر على أصدقائنا. فتباعدنا ميلاً عن الخط ونمت ثلاث ساعات إلى أن بزغ الفجر فاستيقظت مرتاحاً واهتديت إلى الطريق، ولا شك بأنَّ الليالي الخمس التي قضيتها ساهراً قد أطفأت نور الذاكرة من دماغي. فتقدمنا إلى الأمام وسبقنا المصريين والغورخا ودخلنا الأزرق بعد الظهر فكان «فيصل» و«نوري الشعلان» يتلهفان إلى الأخبار، فشرحنا لهما مفصلاً - ما جرى لنا من الحوادث. ثم ذهبت إلى «مارشال» لأعود جرحانا فكانوا أقل مما كنا ننتظر وسهل عليه إعطائي محفة لأنام عليها بدلاً من السرير.

ووصل «جويس» فجأة عند الصبح معتقداً بأنه من الواجب عليه أن يغتنم فرصة الهدنة السريعة ليقوم إلى «أبا اللسن» ويعاون زيدا وجعفر المشتبكين في معان وأن يتقدم مع «هورني» إلى قلب بني صخر. وبعد طول الانتظار وصل الطيار من فلسطين ناقلاً إلينا الأخبار. وشرح لنا انتصار النبي المدهش. فقد اخترق جنودنا جبهة الأتراك

وتعقبوهم وكبدوهم خسارة فادحة. وتغير وجه الحرب وتبدل اتجاهها. فأطلقنا فيصلاً على شيء من هذه الأخبار سراحاً وأضفنا إلى ذلك بعض مشورات للقيام بعمل تتمكن الثورة بواسطته أن تغتنم هذه الفرصة الفريدة وتستفيد استفادة محسوسة، ولم تمض ساعة حتى كنت على أرض فلسطين.

سمحت لي قوة الطيران في الرملة بسيارة أوصلتني إلى المعسكر العام وقابلت بطلنا الحربي العظيم فكان ساكناً رزيناً لا تظهر على ملامحه علامة التأثر إلا أن شعاعاً خفيفاً من الثور ينبعث من حدقتيه عندما يركض إليه «بولز» كل ربع ساعة ويشره بنجاح جديد. وكان الجنرال منتظراً هذه النتيجة قبل الموقعة، وكانت دقة خططه تجعله أميناً من النصر فكان يستقبل أنباءه بهدوء وجلال. إلا أن الإنسان مهما كان عظيماً لا يقوى على ضبط عواطفه عندما يرى أن أوامره تنفذ بالدقة في ميدان حرب شاسع وتأتي بالغرض المطلوب. ولقد كان هذا النصر نتيجة بعد نظره في الأمور واتساع مداركه في تسيير الجيوش على مبادئ تفكيره البعيدة عن القواعد الفنية الموروثة. وضرب صفحاً عن التمثط الإداري القديم. فتمكن بذلك من إجراء ما يدركه تفكيره ومنطقه، ومن الفوز دائماً في كل مهمة من مهامه الأدبية والمادية أو السياسية أو العسكرية.

ولخص ألنبي مقاصده. وأفهمني بأن فلسطين التاريخية أصبحت ملكه والترك المقطعو الأوصال المشتتون في الجبال يعتقدون بأن المطاردة قد جهزوا ثلاث حملات جديدة. الأولى يقوم بها جنود «نيوزيلندا» تحت إمرة «شايتور» Chaytor ويتشرون على الأردن ضدَّ عمان. والثانية الفرقة الهندية بقيادة «بارو» Barrow التي تقوم من هذا الوادي وتجه إلى درعا. وأما الثالثة فهي فرقة الاستراليين يقودها «شوفيل»، والتي تخرج من الأردن إلى القنيطرة، وسيتوقف «شايتور» في عمان. أما «بارو» و«شوفيل» فإنهما بعد أن يبلغا هدفهما يزحفان معاً إلى دمشق. فكان علينا نحن إذن أن نعصد كلا الفريقين وأن أنزع عني فكرة الاستئثار الوقح بدخولي دمشق قبل الجميع! وأن أنظر إلى أن نلتقي ونسير معاً إلى ضالتنا عاصمة بني أمية.

وشرحت خططني لألنبي وأفهمته بأن ضعف قوتنا الجوية يخيب آمالنا فضغط

على زر الجرس فظهر لديه «سالموند ونورتون» فتباحثنا في الموضوع، وكانت مهمة طائريتهما محدودة لدى آلنبي وقد انتهينا منها، فما أعجب هذا الرجل! قائدنا العظيم! لقد كان يوفق إلى تحريك كل قوة لديه مشاة كانت أو فرساناً مدفعية أو سلاح طيران بحرية أو سيارات مصفحة، ولا تفوته الخدع الحربية والتنكر والفرق غير النظامية.

فقلت لهما فوراً: «لم يبق أترارك في السماء إلا من ناحيتنا» فأجابني سالموند: «حسناً»، ووعدنا بطائرتين «بريستول» للتأهية تلازماننا إلى أن أستغني عنهما.. ثم سألتني: «وهل عندكم عدد بدل.. وزيت» فأجبت: «كلا ولا نقطة واحدة» فقال: «وكيف يمكننا أن نحصل عليه»، قلت: «بطريق الجو» فقال متكهماً: لم نسمع قط بواحدة محاربة لا يمكنها أن تحصل على الزيت بغير طريق الجو. وإلى الآن لم يحدث مثل هذا!!».

إلا أن «سالموند ونورتون» كانا دائماً من محبي التجديد والمفاجآت. فتداولوا في أمر طائرتي د.هـ 9DH- و«هاندلي پايدج». وكان آلنبي جالساً إلى جانبهما وهو يبتسم ومتأكد بأنهما سيقومان بما يجب عليهما عمله. وقد كان متصلاً تمام الاتصال بالقوة الجوية، ويعلق عليها أهمية كبرى في حركاته الفنية فكانت على أتم استعداد للطوارئ، رشيقة لينة عند التنفيذ مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالجيش سريعة الاندفاع. ألم يكن بفضل سلاح الطيران الملكي قد تحوّل ارتداد التُّرك إلى هزيمة، وبفضله تقطعت أوصال مواصلاتهم التلغرافية والتليفونية وحوصرت مركبات نقلهم وتموينهم وتبددت وحدات مشاتهم.

ولم يشترك «سالموند ونورتون» مع آلنبي في الأعمال الفنية فحسب بل في الحركات الحربية نفسها، إذ فصلاً إذ فصلاً «طولكرم» و«مسعودية» و«جنين» و«العفولة»، الواحدة تلو الأخرى فصلاً تاماً بفضل قوتيهما الجوية.

إلا أن تدخل سلاح الطيران الملكي كان بديعاً جليل الشأن حقاً في «بيسان» حيث قدمت القرايين التركية المنكودة في ذلك الوادي الذي يجري فيه غدير «جزريل» إلى الأردن. وكان الطريق الجديد لمرور السيارات وهو السبيل الوحيد للفرق التركية

المنهزمة الملتاعة يضيق ويزم. ويتتهي إلى معبر مبيد بين المهاوي والجلاميد!. فطلت طائرتنا تتناوب أربع ساعات متوالية أفواجاً فوق الفرق المنكودة الملتاعة الهاربة عبثاً من القدر المحتوم. وقد أنزلنا من السماء تسعة أطنان من القنابل الصّغيرة وقنابل اليد. وأطلقنا عليها خمسين ألف رصاصة من سلاح طائرتنا الخفيفة.. ولما تبدد الدّخان عن الوادي كانت القوة التّركية قد امحت، ولم يكن يرى غير جماعات مشتتة هاربة راكضة تأوي إلى الكهوف والمغاوير وشقوق الأرض لتحتمي بها. ولم يسعَ قط رؤساؤهم إلى لم شعثهم، فتقدم فرساننا في اليوم الثّاني، فإذا بتسعين مدفعاً وخمسين مركبة نقل كبيرة وأل فمركبة صغيرة بأحمالها تضطجع على الوادي جيشاً كاملاً!.

ونظر إليّ رئيس سلاح الطّيران وسألني إذا كان لدينا مكان تنزل عليه «الهاندلي پايدج» Handley-Page مع مهماتها، وكنت قد رأيت يوماً هذه الطّائرة الجبارة في خيمتها، لكنني لم أتردد بأن أجب بالإيجاب واستحسنّت بأن يرسل معي خبيراً أقوم به غداً على الطّائرة «بريستول» ويمكنه أن يعود قبل الظّهر وتقوم «الهاندلي پايدج» السّاعة الثّالثة بعد الظّهر، فنهض سالموند، وقال:

«حسناً يا سيدي سنعمل اللازم»، وانصرفت لأفطر.

وكان مركز القيادة العامة مريحاً عذباً، يحوي بيتاً ناعم الهواء مبيّضاً بالجير ممّنعاً عن البراغيث لا يسمع حوله سوى حفيف أوراق الشّجر راقصةً على أغصانها في مهبّ الصّبا. وقد شعرت في داخلي بأنّه ليس من حسن المنطق ولا من الشّيم الكريمة أن أنعم هنا على الخوان الأبيض النّاصع وبالقهوة الفائحة الشّذى وبالحراس والخدم. بينما رجالنا في «التّايهة» ينبطحون كالضّبيّة بين الصّخور ويأكلون الخبز الفطير وهم فم وجل الانتظار لاستقبال الطّائرات التي ستحوم فوقهم وترمي عليهم قنابلها القاتلة، واهتزت لهذه الخواطر اهتزازاً هذه الهبّاء من التّور التي تدور بذراتها بين الأشجار، وترسم على الأرض رسوماً غريبة. وقد تأملت بعد طول القيام في الصّحراء القاحلة، بأنّ الزّهور هنا على هذه السّوق الضّئيلة تذبل للإفراط في ريّها، وأنّ الأغصان المبرعمة من كل ناحية أصبحت اعتيادية ساذجة لكثرة الإفراط في تناسلها. وكان «كلايتون

وَدَدَس وداوني» في غاية الظرف، بل كانوا الجودة بالذات، وتبارى رجال الطيران بإكرامي ولم تقصّر القيادة عن تقديم المآكل والتوصيات الطيبة لهذا الكائن الذي أنهك قواه الجوع والتصب والصحراء والسهر وتوتر الأعصاب. وكان «بارثولوميو» يُعيد نظره على خارطة حركاته المقبلة ويشرحها لنا. وكنت قد تمكنت من هدية إلى العدو في بعض مواطن غابت عنه لأنني كنت ضابط استعلاماته. وكانت نظرياته تثبت عقيدتي في الانتصار. ولو أنّ هذا الانتصار يأتي فجأة من جانب جيشنا الصغير.

وكان يخيل إليّ بأن اختيار أمر من اثنين سيعرض على العرب: إما عد الانتصار عملاً فنياً عادياً بين الأعمال العديدة، وإما إنهاء الحرب حالاً بثمان بعض مجاذفات.. لا لأنّ هذه المسألة المعروضة تحتمل أي تردد، بل لأنّ التصب يبلغ بالمرء أحياناً الحدّ الأقصى كما كان شأنني في ذلك الحين فيتمحل أعداء غير معقولة لينجو من مواطن الخطر.

وظهرت على مطار الأستراليين قبل طلوع النهار طائرتان «بريستول» ود.ه. DH-9 ودُعي «روس سميث» Ross Smith مرشدي القديم ليقود «هاندلي پايدج» Handley-Page الجديدة الوحيدة من نوعها في القطر المصري والتي هي حدّقنا عينيّ سالموند... ولقد حكمنا بعد هذه التضحية بأنّ رئيس سلاح الطيران الملكي طيّب القلب. ولم يكن ليقدم هذه الآلة العريزة على قلبه لتقوم بأعمال حقيرة وتحمل أمتعة خسيصة لولا عطفه الحق علينا. فوصلنا إلى «التايهة» بساعة واحدة. حيث كان الجنود والسيارات والعرب الذي سمعوا أزيز طائرتنا فالتبس عليهم وهربوا من كل ناحية. أما الجمال فقد كانت تنعم بالحشيش الطيب في المراعي الخصبة. وما كاد «يونغ» يتبيّننا حتى عرّض إشارة الهبوط وأطلق قنابل من الدّخان على ذلك الحقل الأخضر البانع الذي مهّده بمعاونة نوري السعيد. وحلّق «روس سميث» بلهفة طويلاً وعرضاً فوق المكان المعد لنزوله ودرس عيوبه ثم أسفّ ونزل قرب السائقين الجذلين المتحلقين حول فطورهم. وقد رأى «سميث» بأنّ الأرض طيبة المناخ لمثل «هاندلي پايدج» وأطلعنا «يونغ» على القنابل التي ألقوها ليلة البارحة وقبلها فقتلت بعض

النظاميين وعدداً من رجال مدفعيتنا. فالتزم «يونغ» بأن يقوم بالجيش إلى أم السراب، وكان لا يزال أولئك التُّرك البلهاء يلقون القنابل على «التايهة»، مع أنَّ رجالنا لم يكونوا يأتون إليها لأخذ الماء إلا في ساعات الحياذ أي في وسط النهار أو في الليل.

وعلمت أيضاً بأفعال «ونترتون» الأخيرة وقد نسف خطأ مرة أخرى. فكانت ليلة مضحكة إذا اتفق والتقى «ونترتون» بجندي مجهول فسلم عليه وأخبره بقدر ما تمكنه اللغة العربية - بأنَّ كلَّ شيءٍ قد تم على ما نروم. وصرفه. فهرول الجندي شاركاً المولى الكريم على خلاصه واختفى في الظلام، ولم يلبث «ونترتون» أن دهمه على الخط الحديدي رشاش من رشاشات العدو، إلّا أنه كان قد أنهى مهمته ونفدت متفجراته فعاد سليماً، ولحق بنا «ناصر» وقال: فلان كان جريحاً والآخر قتيلاً وفلان يستعد للالتحاق بنا وذكر لنا أسماء الذين لازموا الجيش والذين رجعوا إلى بيوتهم. وبالاختصار قد أخبرنا عن كل شاردة. إلّا أنَّ الثلاث الطائرات المعدنية قد رفعت عن مستوى معنوية أهل البلاد، فتغنى العرب بالشناء على البريطانيين. وفاخروا بشجاعتهم هم أيضاً وبمقاسات أبناء الصَّحراء الأهوال ردعاً على أخباري الحرية التي لا تكاد تصدق عن آلبي ونتيجة فوزه الباهر. ولقد أخذت نابلس وأخذت العفولة. وسقطت بيسان، وسمخ، وحيفا، فسلبت لبهم بهذه الأخبار وكأنني حركت فيهم قوة مغناطيسية كامنة. وتملكت طلال التَّخوة والحماسة. وطلب مني الرّولة بصوت صارخ أن نتقدم إلى دمشق. وارتجت المضارب ثقة وجذلاً، وتمكن كل إنسان من نفسه فتحرّكت الهمم وماجت الرّجال. وصمّمت أن أستقدم «فيصلاً»، و«نوري الشعلان» ليشاهدا بأم عينيهما الجهاد الأخير.

وحانت ساعة الإفطار وقد تنبأنا عنها برائحة الثّقانق، وما كدنا نتحلق حول الطّعام حتى صرخ الرّقيب «طائرة في الأعلى» وكانت قادمة من درعا. فارتمى الأستراليون في مقاعد طائراتهم التي لا تزال محرّكاتهما حامية وانطلقوا في الفضاء كالنّسور الخاطفة، فتسلق «روس سميث» Ross Smith طبقات الجو كالهر البرّي وتبعه «بيتروز» Peters وأما الثّالث فقد وقف أمام طائرته د.هـ. وينظر إلّى محدّقاً. فتظاهرت بعدم الالتفات

إليه وعدم فهمي لمراده. لقد كانت هناك مدافع «لويس» وهبوط فجائي وأتعاب ميكانيكية، ورافع ومرام على أنواعها من سرعة وقيادة حسب اتجاه العدو، كل ذلك لا يهمني ولا أفهم منه سوى النظريات. إلا أنني أستطيع أن أؤدّي عنها امتحاناً. وهي محفورة في تلافيف دماغي، أما القواعد فهي حبال لا يتخلص منها المتعلم إلا إذا خلصت من المخ إلى أيدي المِران!..

وما كنت لأركب متن الطائرة لهذا المعمعان فأسقط هالكاً. وما علي إذا فقدت احترام هذا الطيار الوقح.. فإنه أسترالي من نسل أولئك القوم الذين يتهلألون لازدياد المخاطر والمجازفات عليهم، لا عَرَبِيَّي يجب أن أحتفظ بنفوذِي عليه.

وكان يحترمني فلم يقوَ على مخاطبتي إلا أنه رمانِي بشواظ من لحاظه بينما كنا نشاهد الموقعة في السماء. وكانت للعدو ثلاث طائرات استكشافية من ذوات المقعدين. فاحتمد «روس سميث» ضد أكبرها حجماً. ولم تمرّ خمس دقائق حتى تساقطت نيران الرشاشات على الألماني فأسفَّ قرب الخط الحديدي وهوى كالزّوبعة وراء الأكمة فأبصرنا شهباً داكنة تتساقط، ثم غيمة مكمدة ترتفع من مكان سقوطه فصرخ العرب «آه!» صرخة ارتياح وتهليل، ثم عاد «سميث» بعد مرور خمس دقائق إلى المطار ونزل من طائرته جزلاً وأقسم بأنّ الجبهة العربية ستكون منذ الآن ميداناً طيب المقام فسيح الجوانب للأعمال الحربية.

وكانت لا تزال الثّقانق ساخنة فأكلناها وشربنا الشّاي بعدها (وكانت آخر جرعة لدينا فحفظناها لضيوفنا). وما كدنا نفتك بعنب جبل الدّروز حتى لَوّح لنا الرّقيب بعباءته، وصرخ ثانية: طائرة!.. فقام «بيترز» هذه المرة لينازل خصمه ثم تبعه «روس سميث» أما «ترايل» Traill فلم يتحرّك كأنّه يحتفظ بذخيرته. وأسرع العدو في الجو بحذر وفطنة بحيث لم يتمكن منه «سميث» إلا على حدود «عرار» حيث صرع خصمه بعد عراك شديد. وبعد مدة من الزّمن، وعندما ارتدت أمواج الحرب عن هذه الأماكن، عثرنا على حطام الطائرة وعلى جثتي الألمانين وقد صارتا حِمماً.

وكان «روس سميث» يود أن يلازم هذه الجبهة العربية مع عدو يتقدم إليه كل

نصف ساعة، لكنه كان مرغماً على الرحيل ليأتي بطائرة «هاندلي پايدج» والزيت والمؤن وقطع الغيار. أما الطائرة الثالثة! فإنها ستأخذ طريق الأزرق لتحمل الرقيب الذي تركناه البارحة. وسافرت لأجتمع بفصيل، وعدنا إلى الأزرق بعد ثلاثين ساعة من تركنا الشريف، وأرجعت الغورخا Gurkhas والمصريين إلى الورا لينضموا إلى الجيش، ويقوموا بغزوات جديدة على الخط الحديدي، ثم ركبت و«فصيل» و«نوري الشعلان» سيارة الـ (فوكسهول) الخضراء إلى أم السراب كي نشاهد نزول الطائرة الجبارة «هاندلي پايدج».

وكانت سيارتنا المتينة تقطع المراحل على أرض منثورة بالحصى الأملس، وأحياناً على أرض جافة الطين، إلا أنَّ الحظ كان يخاصمنا فالتزمنا أن نميل إلى طريق آخر ونصلح بين متخاصمين في معسكر صغير للسراحين. ولم أضيع من الوقت دقيقة فقد اغتنمت فرصة أخرى وأرسلت الرجال المسلحين إلى «التايهة». ورُسلاً إلى ما وراء الخط أُبشِّرُ بانتصار البريطانيين كي يسدّ البدو المنافذ على الجيوش التركية المنهزمة التي تحاول الخلاص نحو الشمال، والدفاع عن المسالك التي تخترق جبال «عجلون».

ثم تابعت سيارتنا الإسراع نحو الشمال، فأبصرنا بدياً واحداً على بعد أميال من أم السراب يركض نحو الجنوب وقد أظهر عليه الاضطراب وانتشرت لحيته في الهواء، وانتفش شعر رأسه، وانتفخ قميصه المربوط بحبل على وسطه، وترك طريقه ومال إلينا ورفع ذراعيه المجرودين وهو يصرخ: «أعظم طائرة في العالم»...! ثم تركنا وأطلق ساقيه للريح ليذيع هذه العجبية في معسكرات البدو.

وكانت «الهاندلي» مستوية بعظمتها على العشب في أم سراب. وكانت طائرات بجانبها كالظلمان تحتمي تحت جناحي أمها. وكان العرب ينظرون إلى هذا العملاق بأفواه مشدوّهة ويقولون «حقاً إنهم أرسلوا إلينا أعظم طائرة، فإنها كالنسر بين الزراير»، وتغلغل الإشاعات عن وسائل «فصيل» الحربية العظيمة، في جميع جبل الدروز وحوارن تبشر بالفوز له على أعدائه.

وجاء «نورتون» ذاته على ظهر «هاندلي پايدج» ليشاهد بنفسه مساعدتنا للعرب. وكنا نتحدث بينما كانوا ينزعون منها طناً زيتاً وشحماً وعدّ تغيير لطائرات «بريستول» وشاياً، وسكرًا، ومؤنّةً، وأدويةً، ثم كتباً وتلغرافات من مكتب روتر. وارتفع الطائر العظيم في ظلال الغسق ليعود إلى «الرّملة» مارّاً فوق درعا والمفرق وينتهي بطريقه من تخريب وسائل التّقل التي شرعنا فيها.

وكان علينا نحن أيضاً أن نعيد الكرة ونواصل استعمال القطن المشربّ بالبارود. لأنّ ألنبي قد نصب الجيش التّركي الرّابع هدفاً لنا. فعليّنا أن نطارده بهجوم لا انقطاع له، ونشدّد عليه حتى يخرج «شاي نور» Chaynor من عمّان فتتعبه بقسوة ونلاحقه باطراد في ارتداده. أما هذا الارتداد فلن يكون إلا ابن ليلة وضحاها، لأننا قد أثّرنا ضده جميع العرب القاطنين بين دمشق وبيننا، وقرّر فيصّل أن يعضدنا بهجّانة الرّولة لـ «نوري الشّعلان» الذين قدموا من الأزرق. فيتعاظم جيشنا العامل إلى أربعة آلاف رجل ثلاثة أرباعهم من غير النّظاميين إلّا أنّه يمكننا أن نعتد عليهم، لأنّ نوري الشّيوخ القاسي الصّامت المستهتر كان قابضاً بيده على قبيلته. وكانت تلك اليد من حديد.

وكان نوري يمثّل هذا الخلق النّادر في الصّحراء. بدوي لا يعرف الجدل والمنطق. يريد أو لا يريد وليس شيء سوى ذلك. وعندما ينتهي القول من الكلام يصدر إرادته بعبارات قصيرة بسيطة للغاية وينتظر الرّضوخ إلى إرادته والإذعان إلى أمره بهدوء وسكينة. ويستسلمون.. لأنّ نوري كان يسطر الرّعب في كل مكان.. لقد أصبح الآن شيخاً متهدماً لكنه حكيم. أعني تعباً يائساً. وما كان أشدّ إعجابي واستغرابي لهذا الشّيوخ الفاني وهو يشاطرنا حماسنا ونشاطنا.





قصف القوّات التّركية المنسحبة في وادي الفارعة بفلسطين
عن لوحة للرّسام سيدني كارلين

الفصل الرابع والثلاثون

الثُّرك يتهاوون

جلست في اليوم الثاني داخل خيمة ناصر بين القرويين الذين جاءوا للسلام عليه، واستخلصت أخباراً من أخبارهم الكثيرة الموافقة لمزاجهم الحاد وحسن رغبتهم في خدمتنا. وسار نوري السعيد في ذلك اليوم الهادئ مع «پيزاني» ومدفعية و«سترلينغ» و«نترتون» و«يونغ» وسياراتهم المدرعة يصحبهم جيش من الجنود وخزّبوا ألف متر من الخط جهاراً وحرّقوا القالب الخشبي الذي نصبوه ليصلحوا الجسر الذي دمرناه مع «جويس» قبل هجومنا الأول على درعا. وكان نوري الشعلان يرتدي عباءة سوداء من الجوخ الفاخر فركب في طليعة فرسان الرّولة وسار خبياً كأحسن فارس بينهم. وقد برهنت هذه القبيلة تحت أنظار سيدها عن شجاعة نادرة حتى إن نوري السعيد شهد لها وأثنى عليها.

وكانت غزوة نوري هذه المرة هي الضربة القاضية على الثُّرك، فلم يصلحوا هذا الخط بعدها قط بين درعا وعمان، إلّا أننا قد جهلنا هذا الأمر وتابعنا التخریب مسافات شاسعة، على هذا الخط المنتشر أماننا كالشبح المشؤوم. وتقدمت في اليوم الثاني عند الفجر في سيارة مع «جميل» و«نترتون» كي نتفقد الخط جنوب محطة المفرق. فاستقبلتنا الرّشاشات بحماسة وغزارة لم نلق مثلها حتى الآن. - ولقد أسرنا بعد مدة وجيزة هؤلاء الرّماة الأذكياء الذين كانوا ينتمون إلى وحدة ألمانية لرماة الرّشاشات - وتراجعنا سراعاً عن هذه الوقفة المهلكة صاحبين وانتقمنا لنفوسنا من جسر كان يغرينا. وصممت بأن أقفز قفزة بالسيارة وأحتمي بالدّعامة وأضع كمية من المتفجرات

كانت مربوطة في مؤخرها فأمرت السائق بأن يسير سراعاً حتى يبلغ الدّعائم ويحتمي بها. وتبني «ونترتون» و«جميل» في السيّارة الأخرى المسعفة. فإنّ «جميل»، وقال: «إنّه لحرّ لافح»، فأجابه «ونترتون»: «وسيكون لهباً في المكان الذي نقصده». وتابعنا السّير على أرض وعرة وقنابل العدو تتساقط من حولنا. وتوفقنا إلى الوصول على بعد خمسين متراً من سند الخط. فأمطرتنا الرّشاشات رذاذاً يحتدم على دروع سيارتنا وانقضّ علينا رجل من الأمام وألقى علينا قبلة يدوية.

لم نعد نفكر في الوصول إلى الجسر تحت نيران تنقضّ علينا كصواعق السّماء وخشينا فوق ذلك انفجار المتفجرات المربوطة في المؤخرة وعدم مقاومة الدّروع للقبلة المشرشرة الجوانب، وتراجعنا مبلبلين حانقين على طرف ضئيل من هذا الخط. إلّا أنّ دفاع العدو المستميت عن هذا الجُسَير بعد رقاذه وغطيته شهوراً! كان موضوع هزئنا وسخريتنا.

وعلمنا عند عودتنا إلى أم السّراب بأنّ ناصراً يريد أن يعود فيعسكر ثانية في التّايهة.. فكانت إذن هذه الثّقلة أول مرحلة من مراحلنا إلى دمشق. فهللت لهذه الفكرة وسافرنا سعداء معتردين إلى الحظ الذي أخلفنا بوعدنا معه في تلك الليلة. وتحلقنا وتحادثنا منتظرين قدوم منتصف الليل موعد ضرب «هاندلي پايدج» للمفرق بالقنابل، فبلغت الطّائرة جو «المفرق» في الأجل المضروب تماماً وألقت قنابل زنتها مئة رطل بين خطوط السّقائف المتشابكة، فاضطربت النّار في الشّاحنات، وتوقفت مرامي العدو عن الضّرب.

واحتدمت النّيران طوال الليل والنّهار وكتبت في الفضاء بحروف من لهب ذوبان الثّرك! فقرأها العرب وأذاعوها في البلاد وأخبر رجالنا بأن الجيش الرّابع قد أخلى عمان وارتدّ مشتتاً ملثاعاً. وأن بني حسن، الذين قبضوا على الممتلكين والمنهوكين والجماعات الصّغيرة المفصولة قد شبّهوهم بقطعان من النّور.

وتداولنا وقد انتهت مهمتنا من تجاه الجيش الرّابع، وإذا أفلتت بعض مفارز من مخالِب العرب فإنّها ستصل إلى درعا يائسة عاطلة من السّلاح، فعليها إذن أن تطارد

التُّرك ونجبرهم على إخلاء درعا سراعاً كي لا يوحّدوا قوة من الهاربين اللاجئيين إليها فتغدو ساقه قوية لجيش مضعضع مقطّع الأوصال، فعرضت أن نتقدّم شمالاً ما وراء تل عرار ونعبر الخط الحديدي في غد اليوم الثاني عند الفجر ونحتلّ «شيخ سعد». تلك البلدة التي عرفناها قبلاً معرفة جيدة وهي ذات مورد ماء غزير ومربّب بديع. تسهّل لنا ارتداداً أميناً من الشّمال والغرب حتّى ومن الجهة الجنوبية الغربية إذا هوجمنا حالاً، فعضدني طلال متحمساً وأقرني على ذلك نوري السعيد وناصر ونوري الشّعلان. فتأهبنا للرّحيل. إلّا أنّ السيّارات المصفحة لم تكن تقوى على مرافقتنا. وكان الأفضل أن تبقى في الأزرق فتساعدنا على دخول دمشق. وأنهت طائرات «بريستول» مهمتها بعد أن نظفت السّماء من التُّرك، ويمكنها أن تطير إلى فلسطين وتبلغهم هناك تقدّمنا حتّى «شيخ سعد»

وبينما كنا ننظر إليها سابحة في الفضاء نحو الجنوب أبصرنا غيمة ربداء من الغبار ممزوجة بدخان حريقة يتصاعد بطيئاً من محطة المفرق وتراجعت طائرة وألقت علينا قصاصة ورق مخربش عليها: بأنّ مفرزة قوية من الخيالة دارت حول الخط واتجهت نحونا.

فبلبلتنا هذه الورقة كأننا لم نترين إلّا لنقتل، وكانت السيّارات قد سافرت وكذا الطّائرات، وفرقة المشاة الرّاكبة وبغال پيزاني المحملة تسير بنظام. فركضت لألحق بنوري السعيد وكان واقفاً مع ناصر على قمّة الجبل وتساءلنا: هل يجب علينا أن نتراجع أم نلزم مكاننا. فترددنا في الأمر. ثم قرّرنا الانسحاب نظراً لموافقة «الشيخ سعد» لتوقفنا وأرسلنا النّظاميين أمامنا.

إلّا أنّه لم يكن بالإمكان أن ندع الأمور تجري على هواها، وأرجع نوري الشّعلان وطلال خيالة الرّولة وحوّران إلى الورا كي يؤجّلوا اللّحاق إذا قضت الحال. فالتقوا مصادفة بحليف لهم بسيارة عائدة إلى الأزرق وقد رأت العدو في الطّريق وأفهمتنا بأنّه لم يكن يقصدنا وأنه مؤلف من عناصر مختلفة تجمعت وجدّت في السّير لتبلغ درعا من أقرب السّبل. فأسرنا فأسرنا بعض مئات من العطشى الجائعين واستولينا على كمية

كبيرة من المركبات التي قطع الحوذيون سيور خيولها وتركوها في أماكنها ونجوا على الخيول، ونشر الرعب لواءه على طول الخط وألقى العدو كل ماله حتى بنادقه وولّى الأدبار، لا يلوي على شيء، ناشداً درعا التي هي على اعتقاده الملجأ الأمين.

فأخبر هذا الحادث إنجاز برنامجنا. ولم نتمكن من تسيير مفرزة ترتدي الكاكي وتجتاز حوران ليلاً مع جيش من الهجّانة النظاميين، إلاّ أيضاً تقدمها فرسان من أهل البلاد ليسكنوا روع أبناء القرآن ويفهموهم بأننا لسنا أتراكاً. وتوقفنا عند الأصيل ننتظر طلالاً وناصراً ونوري الشعلان ليلحقوا بنا.

إلاّ أنّ الطّلام قد خدعهم فجاوزوا الدّرب. ولما تجمعت قواتنا تابعنا السّير شمالاً بين القرى نشق رائحة الأرض المفلوحة. وهبّت علينا ريح فأصابنا منها دوار، وجزنا أرضاً محصورة بالمنجل أقرب إلى التشذيب منها إلى الحصد. وقد علا شوك العاقول كقامة الولد يابساً وهو لمّا يخضّر، ويقتلع الصّبّ جذوره اليابسة فتتشابك سُوْفُه وتتركّب على بعضها وتهرب في الحقول البائرة ككوم التبن تذروها الرّياح.

وكانت هناك نساء راكبات على حُمُرهنّ لّيستقين، فتراكضنّ إلينا وصرخنّ وقلنّ بأنّ طائرة قد سقطت منذ هنيهة قريباً من هذا المكان وهي تحمل على جناحها حلقات وشارة «الجمل الشّريف» فتقدم بيك إلى المكان المعين فوجد رجلين استراليين قد أصابت رصاصة خزّان ماء طائرتهما بمرورهما فوق درعا. فتهللا لسقوطهما بين أصدقاء. وبعد أن سدّنا الثّقب وملأت النّساء خزّان «بريستول» ماءً، ركب الطّياران وعادا إلى مقرهما.

وكان الفرسان والهجّانة يتواردون إلينا من كل صوب وينضم إلينا الشّبان العاطلون والمجاذفون من جميع القرى ويتبعوننا على الأقدام ووصلنا عند الظّهيرة إلى حقل مزروع بطيخاً فتساقط الجيش على هذه الوليمة الحلوة بينما نحن نتقدم لتتعرّف على خط حديدي مهجور تلمع قضبانه تحت أشعة شمس النّهار المشرقة. وسار قطار على ذلك الخط الذي أصلح في المساء ونحن نشاهده مختبئين. ثم تقدم الجيش ونثر على مسافة ميلين متفجرات كيفما جاءت. ورغماً من وضع تلك المتفجرات من غير فن وبسرعة فائقة فقد أدت مهمتها فوق ما كنا ننتظر منها.

ارتعب العدو وتملكته الدهشة من هذا الانفجار القريب ولم يبق لدينا أمام هذه الحيرة إلا أن نتابع القدر. وعليه تقدمنا إلى نوري الشعلان وإلى عودة وطلال وطلبنا منهم أن يقوموا بالعمل الذي يحلو لهم والذي يتفق مع وسائلهم فعزم طلال الشجاع على مهاجمة «إزرع» المستودع العظيم للحبوب في الشمال. وانتقى عودة محطة «خربة الغزالة» المقابلة جنوباً لمحطة أزرع. وأما الشعلان فسيهتّم باحتلال طريق درعا الرئيسي كي يصدّ كل مفرزة تركية تحاول شنّ الغارة.

أحلام عذبة هزّت الأبطال الثلاثة!.. وسار كل إلى تنظيم برنامج غزوته. وتقدمنا نحن بالجيش على الطريق الذي يمرّ بجهة «مزرعة الشيخ مسكين» التي تبدو تحت نور القمر موحشة مقفرة. وكانت هناك قنوات مملوءة ماءً وطيناً تحيط بها، فمنعت الألوف من جيوشنا التقدم فتوقفنا في حقل محصود إلى أن طلع الصّباح، وأوقد البعض ناراً ليتقوا برد الضباب على طين بلاد حوران، واستلقى البعض وناموا على الأرض اللزجة من تساقط الندى، وتصاعدت أصوات بعض الضّالين ينادون إخوانهم بصوت حلقي مرتج وهي صفة صوت العربي القروي. وانحدر القمر وراء الصّحراء وأظلم كوكبنا البارد.

وأيقظت حرسى الخاص ومشينا سراعاً كي نطلع على الشيخ سعد مع الصّباح، فمررنا بحقل ينتهي إلى الصّخور. وكانت الشمس تداعب الطّبيعة وتوقظها من سباتها الطويل وتفصّض أوراق الزّيتون، وتُدْفئُ قوماً جالسين أمام خيامهم الكبيرة المنسوجة بشعر الماعز وهم يحيوننا ويدعوننا إلى ضيافتهم.

وعادات مفارزنا الليلية بنصيب كبير لأنّ عبد القادر الجزائري على رأس رجاله الأخصاء ورجال الثّرك وبعض المتطوعة لم يحسنوا الدّفاع عن «أزرع». لأنّه عند ما أطلّ طلال تراكض هؤلاء الأخيرون وانضموا إليه وفر الجنود وترك عبد القادر وجنوده الموقع دون مدافع فشغل الكسب الفياض رجالنا وثقلت أحمالهم فلم يهتموا لمطاردة ذلك الخليط من الأناص المعادية.

ثم ظهر عودة بدوره يختال بفعاله، وقد استولى على خربة الغزالة عنوة وعلى قطار

مهجور وعلى مدافع وعلى مئتي رجل بينهم بعض الألمان. وقدم نوري الشعلان يسوق أربعمئة أسير أمامه وبغالاً ورشاشات. فأرسلنا الأسرى التُّرك إلى القرى البعيدة ليكسبوا عيشهم بالاشتغال عند الأهليين الموسرين.

وحوّمت طائرة إنكليزية فوق رؤوسنا تحاول أن تعرف إذا كنا نحن الجيش العربي أو جيش الأعداء. فعرض «يونغ» شاربات على الأرض فرمتنا بألوك تُبشّنا بتسليم بلغاريا. ولم تكن نعلم قط بهجوم في البلقان ولم نهتم لهذا الخبر. وعلى كل حال كنا موقنين لا بدنوّ أجل الحرب العالمية فحسب، بل باحتضار حربنا نحن في البلاد العربية وأن جهادنا الهائل ومحتتنا الكبرى سيزولان ويعود كل منا إلى أعماله الخاصة ناسياً جنونه. وكانت هذه الحرب هي الأولى لكثيرين منا فاعتقدنا بأنّ نهايتها بداية الرّاحة والسّلام.

وكان قد وصل الجيش فغصّت حَرَجَة الأشجار به وتفرّق جماعات جماعات في أركانها كل على هواه. وحل الفرسان بطن مطاياهم وأنزلوا عنها أمتعتهم هذا تحت التّخلة وذاك تحت الزّيتونة، فأجفلت العصافير وطارت مزققة وقاد رجالنا الحيوانات نحو الغدير المنثني كالثعبان بين الأشجار المثمرة والحشيش الأخضر الزّاهر. وكان كلُّ شيءٍ جديداً لدى أولئك الجنود المساكين الذين ضلّوا سنين في صحراء لا تنبت إلّا حجارة. وحاول سكان «شيخ سعد» الحثيون المتشوقون لرؤية جيش فيصل أن يتقدموا إلينا. ذلك الجيش الذي كان عندهم حُلماً وأوهاماً فأصبح لديهم حقيقة واضحة يسعى في قريتهم ويقوده رجال بعيدو الشّهرة يُلقى اسمهم الرّعب في كل مكان، مثل: طلال، وناصر، وعودة، فألقينا عليهم نظرة حسد لاستكانتهم في قراهم المطمئنة الهادئة وحياتهم النّاعمة.

وبينما كان الرّجال يتمطّون على الأرض بعد طول الرّكوب صعدنا وكنا خمسة أو ستة فوق الخرائب لنكشف السّهول الجنوبية. وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما أبصرنا مفرزة ضئيلة من النّظاميين يرتدون الأزياء التّركية والتّمساوية والألمانية، وثمانية رشاشات محملة على البغال، وكان أولئك الجنود البائسون قادمين من الجليل

محاولين الوصول إلى دمشق بمشقة بعد انكسار الجيش التركي الأخير تجاه قوات آلنبي، فقرّرنا أن لا نطاردهم حباً براحة جنودنا. إلّا أنّ «درزي بن دُغمي» قد ركب متن فرسه بهدوء فتبعه بعض الشبان من أقاربه وهبط عليهما فجأة، فأراد الضباط الدّفاع فقتلوا حالاً، وألقى الجنود السّلاح ولم تمر خمس دقائق حتى قُتّشوا ونُهبوا وأُخذوا أسرى وحُشروا في بيت له جدران ولا سقف له فكان سجنًا مبتكرًا فوفّت شيخ سعد دينها بسرعة وفاءً مبرماً.

وظهر في الأفق ثلاث أو أربع جماعات يتجهون نحو الشّمال، فأرسلنا إليهم بني الحويطات فعاد هؤلاء بعد ساعة فرحين وكل منهم يقود فرساً أو بغلاً، حيوانات بائسة مهشمة مثخنة بالجروح تدل على شقاء أصحابها وعلى هول الصّدمة في فلسطين، وعلى الهرب من أمام البريطانيين. وأنف «بنو تايه» من أن يأسروهم وقال لنا زعل مازحاً طاوياً شفّته الرّقيقتين: «لقد وكّلنا غلمان القرية وبناتها بشأنهم».

وجاءتنا أخبار من الغرب بأنّ جماعات من التّرك ينسلّون بين القرى لينجو من مطاردة «شوفيل». فأرسلنا إليهم مفارز «نعيم» الحسنة السّلاح. وكانت هذه القبيلة قد لحقت بنا أمس فطلب منا ناصر أن ندفعها إلى عمل تقوم به قدر المستطاع. وكانت قومة هذه القبيلة كمثّل أخواتها الكثيرات نتيجة جهودنا القديمة، فشرعت الأقوام الآن تتوافد علينا من كل فجّ عميق وتفصح عن تمرّدها بحماسة مسرعة إلى نجدتنا، ولا يمرُّ يومان حتى يكون لدينا فوق ما عندنا ستة آلاف رجل مسلّحاً.

وشمنا دخاناً عاقداً وراء الأكمة التي تخفي عنا درعا، ثم أقبل فارس وأخبر طلالاً بأنّ الألمان قد أضرموا النّار في الطّائرات والمخازن واستعدوا لإخلاء المدينة، وحوّمت طائرة بريطانية ورمّتنا بالوكّة تنبّئنا بها بأنّ الجيش البريطاني قد بلغ «الرّمثا» بقيادة «بارو» Barrow وأنّ فصيلتين قويتين واحدة مؤلفة من أربعة آلاف رجل، والأخرى من ألفين تتقدّمان نحونا، ومن الممكن أن تكونا قادمتين من درعا ومزيريب.

وكان يلوح لي بأنّ هذه السّنة آلاف جنديّ هي البقية الباقية من الجيش الرّابع في درعا وبقية الجيش السّابع الذي كان يقاوم تقدّم «بارو» فإذا تمكنا من تشتيته نكون قد

أنهينا مهمتنا في هذه المنطقة. وعلى كل حال لا يمكننا إخلاء «شيخ سعد» إلا بعد أن نتأكد من عدم وجود عوامل أخرى لهذا الجيش. فتركنا الفرقة القوية تمر. وإلا أننا أرسلنا في إثرها خالداً ورجال الرولة وكثيرين من رجال الشمال لينهكوها ويفتكوا بجناحيها وساقاتها. أما الألفا جندي الآخرون فقد جابهناهم بنصف رجالنا النظاميين وبمدفعي پيزاني، لقد قلق «طلال» على بلدته «طفس» التي قررنا أن ندحرهم إليها، فألح علينا بأن نعجل في احتلال الجبل جنوب البلدة، إلا أنه كيف يمكنني أن أسرع مع رجال منهوكي القوى كرجالنا.

فتقدمت مع جيشي نحو «طفس» آملاً أن أحتل مكاناً أحتمي به وأحتك بالعدو. ثم أرتد مقاتلاً إلى أن تصل إليّ النجدة. والتقينا في الطريق بعرب يقودون عصابة من الأسرى المسلوبين ويجرونهم بقسوة، وكانت السيّاط تترك جلودهم مغلّمة كجلد حمار الوحش فلم أندخل في أمر أولئك الأسرى لأنهم كانوا أتراكاً من رجال شرطة درعا الذين ظلموا واستبدوا وأذرفوا دموماً كثيرة في تلك القرى المجاورة.

وأخبرنا العرب بأن فرقة حملة مزاريق جمال باشا دخلت «طفس» وما كدنا نطل عليها حتى كان الثرك قد توقفوا بها وكانت تسمع طلقات نارية بين آونة وأخرى. وترى حرائق هنا وهناك يرتفع دخانها في الفضاء ورجال ونساء وأطفال تائهون غائضون في شوك العاقول إلى الركب بحالة تفتت الأكباد. ويروون أخباراً ترقص لها العجائز وترتعد منها الفرائص فكيف لا يرقص لها «طلال» وهي بلدته، وهم عشيرته، وهو بطلها وحامي ذمارها. لقد حرق الثرك «طفساً» وفتكوا بكلّ حي تمكنوا منه»!

لقد شاهدناهم من مكان عال يتجمعون خلف البيت ويسيرون متجهين نحو «مسكين» طليعتهم، وساقاتهم الرماحة يحيطون بخليط من المشاة ورجال المدفعية وعربات لا عدّ لها بحراسة الرشاشات على الجناحين، فأطلقنا مدافعنا حال خروجهم من القرية فصبوا علينا مدفعين فكانوا على عادتهم مخطئين، وكان الشراپنل يمرّ فوق رؤوسنا ويسقط وراءنا.

وانضم إلى «نوري» و«پيزاني» و«عودة أبو تايه» يسير في الطليعة ويقود الرجال.

و«طلال» المذهول للأخبار المريعة يثور كالأسد المحروب. فتقدم رجالي ليخففوا من لوعته، وأمطر المشاة هطلاً من الرصاص على العدو الهارب، وانضم «بيزاني» بمدافعه وبالمتفجرات الفرنسية القوية وبددوا شمل الفرقة تبديداً.

وكان الدخان لا يزال يتصاعد من القرية بطيئاً فتقدمنا بحذر وكل شيء ساكن صامت إلى أن أبصرنا بين العشب على الأجسام البائسة التي تعضّ الأرض وتروي التراب بدمائها فأشحنا عنها عيوننا ألماً وما لبثنا أن انتفض أمامنا طفل في الثالثة أو الرابعة كأنه يريد الهرب وعلى قميصه بقع حمراء، وإذا في عنقه جرح فاغر لا بد أن يكون طعنة مزراق.

فركض الطفل قليلاً ثم توقف وصرخ بصوت غريب قوي - وكان سكوت عميق - «لا تضربني يا بوي»...! وخنقت عبد العزيز العبرات فلم يقو على الكلام - لقد كانت «طفس» بلدته ويمكن أن يكون الطفل من أولاد أسرته فهو عن الجمل وركع أمام الطفل الذي ارتمى على العشب، فخاف الولد البريء من هذه الهجمة ورفع يديه وأراد أن يستغيث إلا أنه سقط كومة صغيرة والدم يسيل على ثيابه، وسيلفظ قريباً نفسه الأخير.

ومررنا بجثث رجال ونساء وبأربع جثث أطفال ممزقة. فأيقنا بأن البلدة المنكودة قد خربت وكتب عليها الدمار. ثم لحنا شيئاً أبيض أحمر على سور إحدى الحظائر فتقدمت فإذا بي أمام جسم امرأة ملقى على الحائط بشكل مربع: الجذع إلى أعلى والرأس إلى أسفل وقد سُمرت هذه المنكودة على حائط الأجر بحربة غائصة إلى التصاب بين فخذيها العاريتين، ومن حولها جثث مذبوحة بطرق مختلفة.

فضحك الزعاقى ضحكة وحشية كأنها ناقوس الهول يدق في السكون العجيب على تلك الهضاب العالية. فصرخت: «يا للهول!! إن أشجعنا أكثرنا جثثاً من جثث أولئك الأعداء» وتسابقنا للحاق بهم وهم يتوارون عنا نقتل من نلتقي به من المنهوكين المتنحيين عن الطريق ولا نسمع لهم شفاعاً. ولقينا رجلاً منهم نصف عار لم يعد يقوى على الوقوف من التهلك فجلس يبكي فمال عبد الله عليه إلا أن «الزعاقى» تخطى السبيل وهو يحتدم لعناً وسباً وأرسل ثلاث رصاصات من مسدسه على صدر الرجل فسقط صريعاً.

ولقد رأيت عينا طلال ما رأينا! فكان يشن كالنمر الجريح. ثم ركض إلى المرتفعات وتوقف مع فرسه مختلجاً وعينه ترسلان شواظاً من نار على العدو الهارب، فتقدمت لأكلمه فزّمت «عودة» لجام فرسي وأوقفني. إلّا أنّ «طلالاً» أسدل كوفيته على وجهه وكأنّه يريد أن يتمكن من متن فرسه وضغط على شاكليتها وسار خبيّاً سراعاً حاني الرأس منحنيّاً على جنبها يصوّب إلى السهل نحو العدو.

فانحدر عن قمة الجبل وتخطى قاعاً عميقاً فذهلنا أمام هذا الجنون وكأننا قد صعقنا في أمكنتنا وهو مندفع كالسهم. جمد الكون من حولنا، وصمت الطّبيعة فلا يسمع غير وقع سنابك فرسه. وانقطع تركّ وعربّ عن إطلاق النّار ينظرون إلى طلال يتهاذى يميناً ويسرى عند زوال ذلك التّهار المشؤوم. وماكاد يدنو من العدو حتى صرخ صرخة الحرب «طلال! طلال!..» فتساقط رصاص رشاشات التّرك عليه فسقط مع فرسه صريحاً مخرقاً بين حملة الرّماح.

فتابع «عودة» هذه المأساة حانقاً مزمجرأ، ثم قال: «رحمة الله عليه»، إنهم سيدفعون غالباً ثمن هذه القوة الضّائعة»، وهزّ اللجام وتقدم بتؤدة نحو العدو. ودعونا الرّجال السّكارى الآن من الدّم والهول إلى تقطيع جناحي العدو. واستيقظ أسد القتال في روح «عودة» وأصبح رجل الصّحراء رئيسنا جميعاً. وقد تمكن بإحدى حيله من قذف العدو إلى أرضٍ رديئة ومن تقطيعه ثلاث قطع.

وكانت القطعة الثالثة الأقل أهمية مؤلفة من رشاشات ورجال مدفعية ألمان ونمساويين مجتمعين حول سيارة. ومن بعض ضباط وجنود راكبين لقد دافعوا دفاعاً بديعاً ثلاث مرات، ودفعوا هجومنا بشجاعة فائقة إلّا أنّ العرب كانوا يحاربون كالجن ودائماً إلى الأمام رغماً من العرق الذي كان يتساقط على عيونهم والغبار الذي يملأ حناجرهم، فلهب شهوة الانتقام والقسوة يثير فيهم حماسة لا يصفها قلم، ورجّة تكاد تمنعهم من تثبيت بنادقهم وإطلاقها.. فأمرت بأن لا يستولوا على أسرى قط. وكانت هي المرة الأولى التي أصدرت فيها مثل هذا الأمر!..

ثم تركنا ما بقي من هؤلاء المنكودين للقدر. وسرنا وراء القطعتين الآخرين

نتعقبهما وهما يجدان في الهَرَب. ولم تغرب الشَّمْس حتى أفيناهما تماماً، وانضمَّ إلينا جمهور من الفلاحين، وكانت كل قطعة سلاح قبل اليوم لخمسة من المقاتلين. أما الآن فقد أصبح كل واحد مسلحاً بسيف أو بمزراق أو بمسدس وكلهم ركوباً على بغال أو حمير أو أفراس. ثم عما قليل سيكون لكل ع ربي بندقية وفرس. وما هبط الليل حتى تراكمت أحمال الغنائم على ظهور المطايا لسليمة. ونثرت على تلك الحقول الجميلة جث الرجال ورمم الحيوانات. وقتلنا وما انفكنا عن التقتيل لحادثة «طفس» المشؤومة دون ملل وكلل حتى أجهزنا على الجرحى المتوسدين على الثرى. كأنَّ موتهم ونزف دمائهم يرفع عنا كابوس «طفس» الرّهيب.

إنَّ طلالاً ونكبة طلال ذلك الرّئيس الفخم والفراس الجميل المغوار والرّقيق المجازف الشّديد الكريم الطّريف. ألهياني عن جراحي وعذابي وضجري، فلم أكن أتمكن من تحويل أفكاري عنه. وأخيراً لم أعد أقوى على هذه الإلفة فطلبتُ قلوصي وتبعني فارس من حرسى وتابعت السّرى لأبلغ رجالنا الذين يتعقبون الفرقة الأخيرة الأشد مراساً الهاربة من أمام وجهنا.

وكان ظلام. والهواء يهبّ من الجنوب ومن الشّرق هبواً شديداً. ولولا قصف المدافع ولمعان نيرانها لما اهتمت إلى مواقع القتال. وكنا نرى في كل منعطف تركياً. وفي كل وادٍ، وفي كل حفرة، الهاربين والمنهوكين والمستسلمين والمختبئين. ولكنهم لم يفلتوا من مخالب العرب. وما كاد ينفلق الصّباح حتى شدّدوا عليهم فلا يمرّون من قرية إلّا ويطاردهم سكانها مشتركين مع الجيش المنصور. وكان الهواء العاصف والشّديد البرودة يمتزج بدمدمة القنابل وصياح الرّجال وقصف بنادق الأتراك ودبّية سنابك الخيل واصطدام العرب بالأتراك وقرع السّلاح بالسّلاح إلى أن أقبل الليلُ الأَكِيل.

وتوقف العدو عندما اشتدّ الحلك وأراد التّزول في مكانه فمنعه خالد من ذلك وأرغمه على التّقدم إلى الأمام، فهرب من قوي على الهرب، ولبث البعض مكانه مستسلماً وتمدّد بعضهم في أخاديد الطّرق، لقد فقدوا النّظام وحسن الاندماج، وبلغ

منهم الهلع إلى ضياع الصواب، فكانوا يطلقون النار على كل إنسان صديقاً كان أو عدواً، وتمثل العرب بهم فكانوا سائرين على غير هدى.

أما المفزة الألمانية فهي وحدها التي حافظت على رباطة جأشها فلم يسعني لدى هذه الشجاعة إلا أن أعجب لأول مرة بأولئك الرجال الذين كانوا يقتلون إخواني وأفخر بمثل هؤلاء الأخصام. لقد كانوا بعيدين قدر ألفي ميل عن أوطانهم. لا أمل لهم ولا معين، وفي مواقف يأس توهن عزيمة أشجع الشجعان، ومع ذلك لم تتفرق مفرزتهم، بل حافظت على انضمامها كأنها في عرض، بينما التُرك والعرب يتفككون ويتراكون على غير هدى، فظهر الفرق بين النظام والفوضى ظهوراً بيّناً، والصدُّ يظهر حسنة الصدِّ.

وكنا عندما نهاجمهم يتوقفون ويقفون موقف ضرب النار ويطلقون بنادقهم علينا بأمر ضباطهم، فلا عجلة ولا صراخ، ولا تردد في حركاتهم. لقد كانوا مدهشين.

والتقيت بخالد فطلبت منه أن يدعو بني الرّولة ونترك الوقت للفلاحين كي ينهوا أعمال التخريب والتنظيف، فلربما يظهر لنا عمل شاق آخر في الجنوب، وسارت إشاعة في سهول درعا عند الغسق بأن قد أخلاها العدو وذهب طراد أخو خالد إليها ليتحقق من الأمر مع نصف رجال «عزّة» فخفت أن يقع في كمين لأنه من المعقول أن يكون لا يزال أتراك في المواقع وفي أماكن أخرى يحاولون جمع شتات الهاربين ويرتدون متبعين الخط الحديدي أو مخترقين جبال «إربد» ولنفرض بأن أتراكاً قد تلاكأوا في «الرّمشا». إلّا إذا كان «بارو» Barrow قد تبعهم ولم يتلكأ هو أيضاً عنهم، فتكون ولا بدّ قد بقيت الساقة من هذا الجيش المنهزم تقاوم وتجالد. فيكون علينا إذن مطاربتها. فأردت أن يذهب خالد لنجدة أخيه. فمضت ساعة تمكن فيها بعد أوامره الصّارمة من جمع بعض مئات من الفرسان والهجانة. وحدثت مناوشات في قلب الظلام بينه وبين مفارز تركية وهو سائر إلى درعا. ولما بلغ الموقع وجد أخاه طراداً متمنعاً محصناً. وقد ضرب الحامية على آخر ضياء من أضواء الغسق. وسار إلى المحطة خبيّاً واستولى عليها، وتخطى الخنادق وبدد شمل رجالها، بينما كان فرسانه يقتحمون آخر قوة تركية تحاول المقاومة.

ونهب الرّولة الموقع بمعونة رجال البلاد، واستخلصوا من المخازن غنيمة كبيرة بالرّغم من اتقاد التّار في سقوفها وقد عرّضوا أنفسهم للهب غير مرّة. فكانت ليلة من الليالي التي يكثّر فيها الجنون ويعزّ الموت مهما بلغ عدد الذين يموتون من حولك. وكان موقفاً من تلك المواقف الغريبة في أدوار وجود الإنسان حيث تكون حياة قريبك دُميّة من الدّمى تحطمها وتلقيها بعيداً.

وتعكر الليل في «شيخ سعد» واضطرب اضطراباً من الصّياح والاندفاع وهزيم رصاص البنادق والقنابل وفوران القرويين الذين يهددون الأسرى بالذبح انتقاماً من الأتراك الذين قضوا على طلال وقريته وقد كان الشيوخ العُقلاء وقد خرجوا لمطاردة العدو فلم يبق في «شيخ سعد» سوى الشّباب التّزق التّائر وليس من يكبح جماحه، وحدثت مذبحة عند الأصيل أحياء فوراً نُها ضغائن كان كامنة تحت الرّماد فبسط «نوري السعيد» و«يونغ» و«ونترتون» نفوذهم وشجاعتهم الفائقة حتى تمكنوا من حفظ السّلام حولنا.

وعدت بعد الظّهر وكان قد وصل رسل طراد من درعا فتقدم ناصر للإنضمام إليه. أما أنا فقد تولاني سلطان التّوم ولا رادع له عني، وكانت رابع ليلة قضيتها على ظهر ناقتي. إلّا أنّ نار الحماسة كانت تلهيني عن كل تعب جثماني، وعند السّاعة الثّانية صباحاً ركبت ناقة ثالثة وأخذت وجهة درعا سالكاً مسالك «طفس» المنكودة.

وسار نوري السعيد وأركان حربه على البرنامج ذاته وتقدموا مشانهم الرّاكبين وسرنا سرعاً حتى مطلع الفجر. ونفذ صبري من بطاء خطى الجمال فأطلقت العنان لناقتي «بعاق» الصّعبة المراس فسارت بأقصى سرعتها وأرغمت باقي الرّكب على اللحاق بها، وطال الرّكض أميالاً وبعاق تركض بخطاها الواسعة حتى أدخلتني قبل الجميع إلى درعا عند شروق الشّمس.

الفصل الخامس والثلاثون

الانضمام إلى البريطانيين

واحتلّ ناصر دار الحكومة واهتم بتنظيم إدارة عسكرية وإدارة الشرطة ومراقبة الموقع مراقبة دقيقة. وعرضت عليه - لأساعده في مهمته - بأن يضع حراساً على الآلات الرّافعة. وعلى سقائف الطّائرات ومخازن العِدَد، وأن يحرس على مابقي من الذّخائر والأدوات. ولم تمر ساعة حتى أُلقيت بين يديه برنامج العمل التام حتى لا تضطربنا الحال إلى الفشل والتراجع. فنظر إليّ ناصر مشدوهاً.

وسألت عن أخبار «بارو» فقال لي رجل قدم من الغرب، إن الإنكليز قد أطلقوا عليه الرّصاص وهم ينتشرون الآن للإحاطة بدرعا. فتسلقت مع «الرّعاقي» عرف قمة «البوّيب» حيث تمكنا من رؤية رجال المدفعية الهنود، فأخذوا يجزّبون علينا رمايهم متهللين لهذا الهدف البراق الثّياب. إلّا أنه لحسن الحظ قد تقدم إليّ ضابط بريطاني وبعض الجنود فتفاهمنا. وعلمت منهم بأنهم في حالة التفاف بديع حول درعا. وبينما نحن نتحدث أُلقت الطّائرات قنابلها على نوري المحروب بينما كان يدخل المحطة. وكان هذا عقاباً له لأنه أضاع وقعة «شيخ سعد»! وإن يكن لم يصب بأذى.. ومع ذلك كان علينا أن نوقف هذه النيران التي أضرموها في غير موضعها! وأسرعت راكضاً إلى الجنرال «بارو» الذي كان يرقب الطليعة من سيارته.

وقال لي إن عليه أن يقيم حرساً في البلدة ليخفف من روع الأهليين ويمنع القلاقل. فأجبتُه بتؤدة بأن العرب قد نظموا حكومة عسكرية. ثم لما تقدم من الآبار قال لي: إنّ رجاله الممهّدين سيحرسون الآلات الرّافعة للمياه، فأجبتُه بأنّ هؤلاء الرّجال

الممهدين سيكونون موضع احترام العرب، فنظر إليّ شذراً وقال: يظهر لي أنكم في درعا كأنكم في منازلكم، إذن لا أتعرض إلا للمحطة فأحتلها إثباتاً لوصولي. فأشرت إلى قاطرة متجهة نحو مزيريب - وقد وقفت في المكان الذي منع فيه شيخنا الصغير الأتراك من نسف جسر تل شهاب. وقد أصبح الآن في يد العرب - أشرت إلى تلك القاطرة وطلبت ألا يتعرّض حراسها لشؤوننا، وألا يعترضوا على استغلالنا لخط.

ولم يكن «بارو» قد تلقى قط تعليمات بكيفية التعامل مع العرب. ولا شك بأن «كلايتون» قد أراد من هذا الإهمال أن يخدمنا مقدراً استحقاقنا لهذا العطف واسترجاع البلاد لأهلها.. واستغرب الجنرال «بارو» وهو الرجل المنتصر كيف أنه يحل ضعيفاً فأكرم أنا وفادته بهدوء وسكينة، إلا أنه أيقن أن لا سبيل إلى غير ذلك. وكان فكري في ذلك الوقت يغلي غلياناً فأسرع في تنفيذ كل أمر مفيد فائدة مشتركة. واستعملت أقصى قدرتي لوقف التدابير المشؤومة التي أراد أولئك البريطانيون اتخاذها في حكم البلاد - وهم لا يملكون من ذلك سوى حسن النية - وسلب بنيتها المتصلبين المنتصرين كل مسؤولية. وهم بطريقتهم الطائشة هذه يخلقون لنا سنين من القلاقل، وانقلابات متوالية رديئة التنظيم، وأخيراً ثورات وفتن تضطر إلى إخمادها.

فأذعن «بارو» في النهاية وطلب إليّ علفاً وزاداً. وأريته لواءً ناصر المرفوع فوق الحديقة العمومية على طُنف مكاتب الحكومة المحترمة وكان تحتها حرس يتشاءب. فانتصب «بارو» وحياً بحماسة. فتمشت رعشة السرور والغبطة في مفاصل الضباط والجنود العرب لدى هذا الاحترام لرئيسهم..

وعدنا من عند ناصر وجاهدنا في وضع اختصاص العرب في نصابه وإقامة حد لحكمهم البلاد، حسب مقتضيات السياسة، وأفهمنا العرب بأن الهنود هم ضيوفنا وليس علينا أن نتحمل أهواءهم ومنازعتهم فحسب، بل علينا أن نسهل لهم الحصول على رغباتهم، فحدث لنا بسبب هذا التسامح بعض حوادث لم تكن في حسابنا وقد اختفى دجاج القرية بأجمعه بين سمع الأرض وبصرها. ولقد راقت لثلاثة منهم فكرة اختلاس علم ناصر. لأن عقدة هذا اللواء الحريري البراق واللهمزم المشحوذ الساطع

كالتّجمة في رأس القناة قد استهوت نفوسهم وطاب لهم التلاعب بها؟!.. فيالها من مناقضة غريبة بين الجنرال الإنكليزي الذي يحيي العلم، وبين الجندي الهندي الذي يسرق الدّجاج، وتمازح العرب لهذا التناقض الغريب وهم لا يدركون عقلية هذا الجنس من البشر وعاداته.

وما زلنا نستولي على مدافع وأسرى ترك في كل ناحية حتى كانوا يعدون بالألوف، فسلمناهم إلى البريطانيين فأحصوهم وأبقينا القسم الأكبر من الأسرى في القرى. وعرف الأزرق في الحال كثيراً عن دقائق انتصارنا، ودخل فيصل في اليوم الثاني يرافقه خط طويل من سياراتنا المصفحة. ونزل الشّريف في المحطة فأسرعت إلى لقائه وقدمت إليه تقريراً عن الإدارة التي نظمناها. ولما انتهينا من تلاوته ضجت القاعة بالتصفيق والتهليل.

وتموّن «بارو» زاداً وماءً واكتفى بهذا القدر. وسيرحل عنا إلى موعدٍ مع «شوقيل» قرب دمشق ليهيء دخولهما المتتابع إلى تلك المدينة. وطلب إلينا قبل ذهابه أن نسير مع الجناح الأيمن دائماً في تقدمنا. وكان هذا من حسن توفّقي وغاية مناي لأنّ الجناح الأيمن هو من نصيب جيش الحجاز الذي يقوم على رأسه ناصر. ذلك الذي لا يفتأ يطارد التّرك، ويقطّع أوصالهم ويشتت قواهم ليلاً ونهاراً وبدون انقطاع، وكان عليّ أن أقوم بأعمال كثيرة فبت ليلة أخرى في درعا، هادئاً ناعماً برقادهني، وكانت المحطة خارج البلدة في قلب السّهل الخالي، وقد أغضبني الهنود الذين نزلوا حولها لأنّ تجمعهم على هذا المنوال مما لا يطابق المحيط الذين هم نازلون فيه. لأنّ جوهر الصّحراء نفسه يُوحى العزلة والاستقلال والإنفراد، فهي لابن الطّريق، المنعزل عن العالم. الصّامت كالقبر. وإن ذلك التّوع من البشر الذي يطوف كقطعان الغنم جماعات جماعات حول المحطة لا يستحقّ نعمة الفضاء الشّاسع أمامه.

لقد اكتشفت في الجندي الهندي البسيط شيئاً من المسكنة والضّالة. فهو يعتقد بأنّه مكروه. ولذلك تراه يعيش بوحدة حذرة راضياً بها. نقيض خلق البدوي الجافة والسّليمة معاً. وكان موقف الضّباط الإنكليز تجاه رجالهم قد أثار في رجال حرسى الخاص

كرهاً عميقاً لأنهم إلى ذلك اليوم لم يألّفوا التمييز والتفاضل في معاملة الأشخاص. وكنت أستلقي كل ليلة مع رجالي على ذلك المطار المهجور منذ ذلك الحين، وكانوا لا ينفكون، نظراً لعدم ثباتهم على خُلُقٍ واحد عن المشاجرة مع بعضهم البعض كما هي عادتهم. وكانت آخر مرة يحمل إليَّ عبد الله حصتي من الأرز في مشكلة من فضة. وحاولت بعد العشاء أن أفكر في مستقبلنا القريب. إلّا أنّ دماغي كان خالياً كالقرطاس الأبيض، وكانت ريح انتصارنا تهب على أحلامي فتَهْزِها كلهب الشمعة. لقد مثل أماننا الآن الفوز المؤكد والغرض الأسمى. إلّا أنّ سنتين وراءنا مملوءتين بذكريات الشقاء كان علينا أن نمجّدهما أو ننسيهما.. وقد مرت أسماء في رأسي تخيلتُ مخيلتي وصفاً لكلٍّ منها. رَمَ الفخمة، وسلع (البَراء) الزّاهرة وبَطْرة النّظيفة. والأزرق القاصي البعيد، إلّا أنّ الرّجال قد تَبَدَّلوا. فقد صرعت المنون أفضلهم. وصدمني خشونة الأحياء. فلم أقوَ على التّوم. ولم يسط عليّ النّعاس. فأيقظت «سترلينغ» والسّائقين وارتمينا نحن الأربعة في الرّولس... ووجهتنا دمشق على طريق مملوء بالأخاديد لمرور المركبات المثقلة ومسدود المنافذ بساقفة فرقة «بارو» Barrow وركبها ومركبات ذخائرها. فتركناها وانخرطنا في قلب الحقول لنصل إلى الخط الفرنسي وقد تمكنا من السير على سَنَدِ المخشوشن وأسرعنا عليه. وعند الظّهيّة أبصرنا لواء «بارو» مرفوعاً فوق معسكره على جدول ماء ترتوي منه الخيالة، فركبت ناقتي واتجهت إليه، وكان الجنرال كأكثر الضّباط يحترق التّوق. وقد أشاع في درعا بأنّ فلانصاً لا يمكنها أن تلحق بفرسانه الذين يحسبون أنهم يبلغون دمشق بثلاث مراحل شاقّة.

واستغرب لمّا أبصرني سَبّاقاً لَيْناً على ظهر ناقتي. وسألني: أي متى تركتم درعا. فأجبته: في هذا الصّباح. فتمدّدتُ هيئته واستطال وجهه. ثم سألني: وأين تتوقفون هذا المساء؟ قلت: في دمشق، وتبسّمت وتركته. وها أنا الآن قد اشتريت لي عدوّاً آخر، فأنبني ضميري لهذا التلاعب. مع أنه كان يظهر نحوي كل ظرف وبشاشة مع تلبية المطالبي. إلّا أنّ الخدعة كانت بعيدة عن متناول نظره، وعلى كل حال لم أقلق لما سيقول عني أو يضمّر لي على شرط أن نتصر.

وعدت إلى «سترلينغ» وتابعنا سيرنا. وكنا في كل قرية نترك كلمة لطليعة البريطانيين نرشدهم إلى مكان وجودنا، ونذكر لهم المسافة التي بينهم وبين العدو. وكنت أغضب لمثل «سترلينغ» لتقدم «بارو» البطيء الحذر. لقد كان رواده في صياصي الجبال يرقبون الوديان الخالية. ومفارزه تتوقل على أعراف التلال المهجورة. وكثيراً ما تُرفع الستائرِ يَوجَل على مسرح يلعب عليه الأصدقاء لا الأعداء. فكم كان البون شاسعاً بين تأمين الحركات وحذر التقدم في الحرب العادية، وبين حربنا البدوية التي كان رائدنا فيها الحدث والتخمين.

لم يكن حائل يحول بيننا وبين الوصول إلى «الكسوة» حيث يجب علينا أن نلتقي «بشوفيل» وحيث يدنو الخط الحجازي من السبيل الذي نسلكه. لأننا سنلقى على هذا الخط «ناصرًا» و«نوري الشعلان» و«عودة» مع القبائل التي لا تزال تتعقب الأربعة الآلاف تركي والتي هي في الحقيقة سبعة آلاف رجل قدّرها طيارنا في «شيخ سعد» منذ ثلاثة أيام، تلك الأيام الثلاثة التي انهمك فيها العرب بهذه الجيوش التي باءت بالخسران، حتى إننا نحن أيضاً قد سمحنا لنفوسنا بالراحة والفراغ.

وبينما كانت سيارتنا تنحدر على سفح تل أبصرنا إلى يميننا وميض رصاص شراييل وراء الجبل يحث يمرّ الخط الحديدي. ثم لم تلبث أن ظهرت طليعة الجيش التركي مؤلفة من ألفي رجل. وكانوا يمشون متجمّعين ولا يتوقفون إلّا ليطلقوا بعض قنابل من مدافعهم الجبلية. فأسرعنا لتتقدم هذا العدو الهارب، وكان يذوب لون الرّولس الضخم أزرق زمردياً على الطريق المكشوف. وبعض فرسان من العرب بأخراج تركية يتقدّمون إلينا تعوقهم شجيرات نابثة في طريقهم. فتعرفنا إلى «ناصر» وهو على مُهره الكُميت الفحل، ذلك الحيوان الجميل الأرّن رغماً عن المئة ميل التي قطعها جرياً خيباً. وتعرفنا كذلك إلى «نوري الشعلان» ومع كليهما حوالي ثلاثين من أتباعهما. ولما دنوت منهما قالوا لي: إن ما تراه الآن هو بقية السبعة آلاف تركي. وقد تعلق بنو الرّولة بحماسة واستسلام بجناحي العدو بينما «عودة أبو تايه» يجمع أصحابه أولاد على وراء جبل معين وينصب كميناً للفرقة المنهزمة التي قدّر أنه يتمكن من جرّها إلى الجبل. ترى هل كان ظهورنا نجدة لهم.

وقلت لهم إن البريطانيين قادمون وراءنا بقوة عظيمة. أفلا يتمكن العرب من إيقاف سير التُّرك ولو ساعة واحدة. ونظر «ناصر» إلى الأمام فرأى قرية صغيرة محاطة بالجدران والأخشاب كأنها تسد السبيل في وسط الصحراء العارية. فدعا إليه «نوري الشعلان» وركضا إلى ذلك المكان ليحاولا وقف التُّرك.

وتراجعنا ثلاثة أميال إلى الوراء وإذا بالجنود يسيرون في الطليعة. فتقدمنا إلى قائدهم الكولونيل المقطَّب العَبُوس وقلنا له: إنها لهدية لا تُقدَّر بثمن هذه التي يقدمها لنا العرب. فظهرت عليه علامات عدم الرِّضى أمام واجب تغيير خطة سيره المنظمة. وقرَّر أخيراً بأن يرسل مفرزة من فرسانه إلى السَّهل تسير بتودة نحو التُّرك. فصوَّب العدو على هذه الحملة الضَّعيفة مدافعه المزرية. وسقطت قبلة أو قنبلتان انخلعت لهما قلوب أولئك الخيالة الجبناء - وكان «ناصر» قد جازف متكلاً على نجدة جدية فلم نلبث أن رأينا الكولونيل يأمر بارتداد حملته وانطوائها على الطَّرِيق. فركضت مسرعاً مع «سترلينغ» كمجنونين ورجوانه ألا يخشى مدافع ضئيلة لا قوة لها ولا حول، شأنها شأن مسدس التدريب.

إلا أنَّه لا وعد كان يدعه يخطو خطوة إلى الأمام ولا وعيد. فعدنا ثالث مرة نركض وراء سلطة عليا فالتقينا بضابط أركان حرب فقال لنا إن الجنرال «غريغوري» قريب منا. فحمدنا الله لأنَّ عِزَّة «سترلينغ» لا تقوى على احتمال مثل هذه الحملات رديئة النِّظام. وتقدمنا من صديقنا الجديد وحملناه على سيارتنا إلى الكولونيل فأرسل للخيالة أوامر قاسية كي يصمدوا للعدو. وأسرع رسول على ظهر جواد يطلب مدفعية سواري فألقت المدافع شواظها عند آخر ضوء من أضواء النَّهار الذي ينحل على أعراف الجبل، ويدوب في الغيوم البيض المتجمعة عند الأفق وظهرت «خيالة ميدلسكس» Middlesex Yeomanry بدورها وارتمت بين العرب لتضرب مؤخرة التُّرك، ولم يهبط الليل حتى شاهدنا العدو مشتتاً مقطَّع الأوصال تاركاً مدافعه ومركباته وعدده. وتوارى الهاربون في سفح جبل «المانع»!.. وأعرافه يحسبون بأنَّ النَّجاة وراءه. وأن ما وراءه بادية بيداء.

فقد كان عودة رابضاً ما وراء ذلك.. فأمعن الرجل الشيخ في تلك الليلة. التي كانت آخر لياليه في المعارك في التقتيل والتشريد. ولم يرتو من الدماء ومن سلب وأسر، وما فتى يقتل ويسلب ويأسر ويشرد حتى طلع كوكب النهار. فأكد له عند مطلعته بأنه لم يبق من يقتله ولا من يسلبه ولا من يأسره ولا من يشرده!.. وهكذا فني هذا الجيش الرابع الذي قضى سنتين متتاليتين يقض مضاجعنا ويكاد يفني جهودنا.

وإن حماسة «غريغوري» الذي جاء في أوانه شجعتنا على اقتحام ناصر والاتصال به. وكان موعدنا معه قبل نصف الليل في الكسوة. فذهبنا إليه مسرعين. وجاء وراءنا الهنود جماعات جماعات. وكنا نحاول عبثاً أن نجد مكاناً هادئاً نسكن إليه. فإنّ ألوفاً من الناس كانوا قد قدموا إلى المدينة فغصّت بهم.

وكنت أدور مثل أولئك القوم فيرتج دماغي ولا أهدأ، ومن الذي يستطيع أن يتعرف عليّ في ذلك الليل المظلم بجلدي المصبوغ، لقد كنت أطوف بحرية كل عربي لا أهمية له بعيداً عن حرسى وإخواني حتى وجدتنى في وحدة رهيبة. وكان سائقو سياراتنا المصفحة يبدون لديّ كائنات ضئيلة لقلة عددهم. لأنّ تلك الشهور التي قضوها في الحر اللاfach والسموم والسوافع قد جردت عظامهم فضوّلت أجسامهم.

وكانوا يشعرون بالوحشة والخجل وهم بين أولئك الخليط المتجمع من أربعة أقطار لعالم. إنكليزاً كانوا أو أستراليين أو هنوداً. وكان شعوري كشعورهم.. فلفتت قذارة ثيابهم الأنظار لأنهم قد ارتدوها من زمن بعيد ولم ينزعوها عنهم إلى ذلك الحين فتنت رائحة العرق عليهم ولصقت قمصانهم بجلودهم كالقوالب، حتى لتحسب أظمارهم شرائح من لحومهم لا ثياباً تستر عراهم.

أما هؤلاء الناس المختلفو الأجناس فقد كانوا جنوداً حقاً. وعلى طول عهدي بهم راق لي زيهم الحديث، وقد قضيت سنتين في غزوات مع رفاق عادين. وعادت إليّ فكرة سر توحيد الزّي. فكم لهذا اللباس من عوامل القوة والسلطة والنظام في الجيش. فإنه يصيره مندمجاً متمزجاً كأنه رجل واحد. وإنّ هذا الثوب المميز لكالجدران الحاجز الذي يصد لابسَه عن أي كائن آخر في الحياة العادية. والشاهد عليه أنه قد

باع للدولة إرادته وجسده معاً. ولا ينقص من وضيعة أنه تطوع لهذه الخدمة بمحض إرادته.. من الناس من يخضع لهذه الغريزة التي تقود البعض إلى التفتيش عن الملذات الهينة. والبعض الآخر إلى الهرب من الجوع. بينما آخرون يتلظون ظمأً إلى التفوذ، وقد اعتقد هؤلاء بأن الحياة العسكرية تنعم عليهم بهذه المنح. أما أولئك فإنهم ينعمون ببعض ملاذ تزيد في وضيعتهم إزاء أصدقاء السلام ويعدهم هؤلاء دون الإنسانية. لا ينجذب إلى ثوبهم العسكري المغربي سوى بنات الهوى!.. وإن أجر الجندي ليس كأجر العامل الذي يكتسبه بنبل وحق. والجندي يبذل الدريهمات التي يحصل عليها كيفما يتفق له بشرط أن يسكر وينسى.

يتمرد المحكوم عليه عند العنف ويطمح العبد الرقيق إلى الانعتاق أو يحق له على الأقل أن يفكر فيه. أما الجندي فإنه يسلم جسده لصاحبه مدة من الزمن. ويتنظر صاغراً ما يوحيه فكراً هذا الصاحب وشعوره. يظل المحكوم حراً بكرة الشريعة التي سجنته ويلعن البشرية جمعاء إذا كان قلبه مملوءاً حقداً. أما الجندي الحرد الكاظم على جرته فهو جندي رديء. أو بالقول الأصح، ليس جندياً إنما هو تمثال مأجور لشرطنج الملك.

وكان يرود حول الجنود عرب.. ودنيا العرب ذوي الأنظار الرزينة غير دنيا الجنود. وقد رمانى القدر لمهمة غير محدودة لمدة سنتين فكنت كالطريد بينهم. وشعرت في تلك الليلة بأني أقرب إلى البدو مني إلى الجيش الإنكليزي. وأثور على نفسي عند هذا الشعور كأنه أمر مشين. فبلبل فكري هذا التناقض. وكان شيء داخلي يشحذ رغبتني وحنيني إلى وطني، إلا أنه في الوقت نفسه يُثير في نفوساً إلى حد أني لا أرى رأيي جيداً في مختلف الأجناس ومختلف اللغات فحسب، بل كنت أتبينهم من رائجتهم، تلك الرائحة القوية الحامضة الثابتة بالعرق الجاف على الثياب القطنية المتصاعدة من جميع العرب... ورائحة الإنكليز تلك الرائحة التي لا توصف، وتبخر حاراً وصنة تنتشر من الثياب الصوف. وحموضة نشادر تقبض على الحلق. رائحة تتخمر كالتفط.



الفصل السادس والثلاثون

الدّخول إلى دمشق

الآن قد انتهت حربنا، إلّا أننا لا نزال نقضي الليل في الكسوة وقد أخبرنا العرب بأنّ الطريق غير آمنة، ولذلك لم تكن رغبتنا قوية في أن نموت في ذلك الليل بلّهاً بلّداءً على أبواب دمشق. أما الاستراليون الرّجال الرّياضيون عشاق الفروسية في كل مكان وأوان فقد كانوا يعدون الحرب نوعاً من السّباق المحدود من مركز إلى آخر، وأن هذا السّباق هو جسر العبور للوصول إلى دمشق. إلّا أننا منذ الآن قد أصبحنا تحت إمرة ألّنبّي وأنّ التّصر منطقياً هو ثمرة عبقريته وثمره جهود «بارثولوميو». وعلى الاستراليين أن يكونوا على خيولهم شمال دمشق وغربها على الخط الحديدي قبل أن تدخل فرقة الجنوب هذه العاصمة. ولقد انتظرنا نحن الرّؤساء العرب تقدّم البريطانيّين البطيء، لأنّ ألّنبّي لم يكن يشك قط في الدّقة التي كنا ننفذ أوامره بها. فكانت قوته مستمدة من هذا الإيمان الرّاسخ فيه، وكانت طاعتنا له على قدر ثقته بنا.

وكان يرغب في أن نكون حاضرين عند دخوله، لأنّه كان يعلم بأنّ العرب يقدرّون دمشق فوق قيمة الغنيمة. ثم لأسباب أخرى نأخذ لها الحيطة والحذر. أما مجيء فيصل فقد ترك المناطق المعادية رحبة سهلة للحلفاء، وكلّما تقدّم الشّريف ازداد الترحيب بهم، فأصبحت الرّكبان تسير في البلاد من غير حرّس، والمدن تنظم دوائرها من غير حامية. وكان من الممكن أيضاً أن يُلاقوا بعض المقاومة، إلّا أننا نكون قد بلغنا نتيجة مشؤومة، وربما أضعنا المستقبل القريب فأعطينا مهلة اثنتي عشرة ساعة ندعوا فيها الدّمّشقيّين إلى استقبال الجيش البريطانيّ كحليف لهم.

فيا لها من ثورة في العمل إن لم تكن في المبدأ، إلا أنَّ لجنة فيصل في دمشق كانت تستعد منذ شهور للقبض على زمام الإدارة حال انحلال التُّرك، فلم يكن علينا إذاً إلا أن نجتمع بأفراد تلك اللجنة ونشرح لهم مقاصد الحلفاء، وما يقتضي عمله في مثل هذه المواقف. ولمَّا حلَّك الليل أرسل ناصر فرسان الرّولة في طلب علي رضا رئيس لجتتنا أو شكري باشا الأيوبي مساعدة عند عدم وجود الأول لإفهامها بأن ستقدّم لهما كل مساعدة منذ الصّباح إذا شكّلا إدارة أهلية في الحال. إلا أنَّ الإدارة للحقيقة كانت قد نُظمت منذ السّاعة الرّابعة بعد الظّهر قبل أن نفكر فيها. وكان من المحال أن نقبض على علي رضا وقد سلّمه التُّرك في آخر لحظة قيادة جيش الجليل المتقهّهر أمام «شوفيل» Chauvel إلا أن شكري قد وجد عوناً له في الأخوين الجزائريين محمّد سع يد وعبد القادر، فرفعوا العلم العربي بمساعدة رجالهم على سراي الحكومة قبل غروب الشّمس، وبينما كان يمرّ آخر صف من الجنود التُّرك والألمان أمام سراي البلدية، ويُقال إنه قد حيّاه آخر جنرال بسخرية.

ومتعتُ ناصراً من دخول دمشق والليل مضطرب على المدينة الهائمة، ومن اللائق بمقامه أن يدخلها هادئاً في الصّباح، وكان قد جاء معي آخر ركب من الهجّانة الرّويليين منذ الصّباح من درعا، فأوقفهم ناصر ونوري الشّعلان في الطّريق وأرسلاهم إلى دمشق فوراً ليعضدوا فيها مشايخ الرّولة. وهكذا كان لدينا عند منتصف الليل أربعة آلاف رجل شاكي السّلاح في المدينة، فذهبنا للرّقاد.

وكنْتُ أرغب في النّوم، إلا أنَّ مهمّة شاقة تنتظرني في الغد، فلم أنم لأنّ دمشق كانت غاية سنيّنا المضطربة وكانت أفكارنا تطن في دماغي طنيناً وتجول فيه أحلام أبدد منها ما أبدد وأقبل منها ما أقبل. وفوق ذلك كدنا نختنق في الكسوة من جراء التبخر، والرّوائح المتصاعدة من العشب والأشجار والكائنات الحية - عالم صغير يتزاحم ويرتجّ من حولنا!

وقد أشعل الألمان النّيران عند خروجهم من دمشق في المستودعات والمخازن فكان الانفجار يتتالي بين آونة وأخرى ويلهب السّماء بشهبه ودخان، ويرتجّ الأرض

رجاً من صبعقائه، وأبصرنا نحو الشمال في الجو الشاحب حِزماً من الشَّهْب النَّارية تنقذُ عند انفجار القنابل المقدوفة إلى علوِّ شاهق، ثم تنتثر عناقيد وثرَيَّات متلاثلة هابوية، فالتفتُ إلى «سترلينغ» وغمغمت: «إنَّ دمشق تحترق»، وقلت في نفسي حانقاً: «أَتَقَدِّمُ المدينة العظيمة رمادها ثمناً لحريتها؟!...».

وربكنا السَّيارة عند طلوع الفجر كي نبلغ قَمَّةَ الجبل الذي يشرف على ساحة دمشق واجمين من أننا لا نرى سوى أنقاض المدينة، غير أنه لم يكن شيء مما خشيناه، بل كانت خمائل خُضراً صامتة مربدة تحت غمام التَّهر الباهظ، والمدينة تتلأل وتترأى على صفحات الماء دائمة الجمال كالجوهرة داعبتها أشعة شمس الصُّباح. ولم يبق من ضجيج الليل وهذيانه سوى عمودٍ من الدخان المربَّد المرتفع في السَّماء من مخازن المَؤن قرب محطة القَدَم حيث ينتهي خط الحجاز.

فتقدمنا في الطَّرِيق المسوَّر بالعشب الأخضر الذي لا يزال يمجّ الندى عن وريقاته لؤلؤاً منثوراً، والقرويون يباشرون أعمالهم اليومية، وفارس يسعى إلينا خبيماً ويقف أمام السَّيارة. ولما رأى العقال على رؤوسنا حيَّاناً متهللاً وقَدَم لنا عنقوداً من العنب وقال: «نبأ سار: إن دمشق تحيِّكم».

وكان ناصر متنحياً عنا قليلاً فأطلعناه على الحوادث ليكون على علم بها ويدخل دخولاً جديراً بخمسين معركة نازل فيها العدو، وكان نوري الشَّعلان إلى جانبه فخبَّت فَرَسُهُ الحَبَب الأخير وتوارى في غيمة من الغبار فتركناه يتقدم بأُبَّهة وملَّت مع «سترلينغ» إلى جدول يمرّ بين حافتين وعرتين وكان الهواء ناعماً فاغتنمنا فرصة الرَّاحة والانفراد فخلقنا ونظفنا أنفسنا بقدر ما سمحت الحال.

وكان جماعة من الهنود تنظر إلينا وإلى سيارتنا والسَّواقين، وإلى سراويلنا الخلقة الممزقة باستغراب، وكنت أرتدي ثوباً عربياً، وكان «سترلينغ» في زي الضَّابط الإنكليزي أركان حرب ما عدا غطاء رأسه، فحسب الملازم الهندي الأبله السيِّء الخلق بأنه وقع على غنيمة، وأن قد استولى على أسرى، وما انتهينا منه حتى أذفت ساعة الالتحاق بناصر، فتقدمنا في الشَّارع الذي أوصلنا إلى سراي الحكومة على

ضفاف «بردى» وكان الطريق غاصاً بالجموع المتلاصقة وكان الفضوليين يأخذون علينا الأبواب ويملأون التوافذ وسطوح المنازل، وكثيرون من هؤلاء كانوا يذرفون الدموع، وغيرهم كثيرون كانوا يحيوننا بهدوء، والجسور منهم من يرفع صوته عالياً وينادينا بأسمائنا. إلا أن أكثرهم كان ينظر إلينا طويلاً ولا يملّ وبريق السرور والابتهاج يلمعان في أحداقهم، وتنفس الصّعداء من الصدور يتبعنا إلى أن دخلنا.

وكانت قد تبدّلت معالم سراي الحكومة، فغصّت السلالم والمدارج والدّهاليز بالناس يغنون ويهزجون ويرقصون ويتعانقون، واصطفت الجماهير لمرونا تفسح لنا حتى بلغنا الرّدهة الدّاخلية، حيث لقيت ناصراً السّاطع البهي جالساً وإلى جانبه نوري الشّعلان والإثنان محاطان بالأخوين عبد القادر عدوي القديم ومحمد سعيد. فوقفت مشدوهاً متعجباً، إلا أن محمد سعيد قد انتفض وتقدّم إليّ وصرخ بي قائلاً: إنهما حفيدا الأمير عبد القادر يعضدهما شكري الأيوبي سليل صلاح الدّين والذي ألّف حكومة بالأمس ونادى بالحسين ملكاً على العرب، على مسمع مرأى من التّرك والألمان المقيهورين.

والتفتُ إلى شكري بينما كان محمد سعيد يخطب، ولم يكن الأيوبي رجل دولة بل كان محبوباً جداً، وكان ضحية في عيون الشّعب نظراً لما ابتلاه به جمال، وأسرّ إليّ بأنه لم يعضد التّرك أحدٌ قط في دمشق سوى الجزائريين ولازماهم إلى أن أبصراهم يولون الإِدبار، فظهر بعد ذلك في لجنة فيصل المجتمعة اجتماعاً سرّياً وتولّى مراقبتها بعنف يعضدهما رجالهما المسلّحون.

فلم يكونا إلا متعصبين مشبعين بالأفكار الدّينية، خالين من حسن المنطق. ونظرت إلى ناصر أريد أن أدفعه لوضع اللجام فوراً لمثل هذه الوقاحة وإذا بحادث ألّهاني عنهما، وقد زمجر الجمهور وتدافع بالمناكب وتقلقل كالجمال نشطت من عُقُلها. أو كأنّ كبشاً يشقّ الجموع بقرنيه. وانشق القوم إلى شطرين وانقلب بهم الكرسي والمناضد وسُمع هدير صوت معروف، فصمتت الجموع.

وانقشع الازدحام عن فرجة ظهر فيها عودة أبو تايه وسلطان الأطرش عميد

الدّروز يتشاجران ويزمجران، وأتباعهما من حولهما يتراكضون من كل ناحية، فأسرعت لحسم الخلاف فوقعت على محمّد الضّغلان فتعاونّا عليهما وفصلناهما عن بعضهما، فأبعدتُ عودة بضع خطوات وحمل حسين الأطرش سلطاناً إلى إحدى الغرف المجاورة، ولما سكنت الضّجة فتشت عن ناصر وعبد القادر لأضع نظاماً لحكومتهم فكانا قد خرجا، وقد أقنع الأخوان ناصرأ بأن يزورهما ويأخذ عندهما شيئاً من المرطبات، فما أسعد هذه المصادفة! وإن مهام مُلحة لتدعونا إلى العمل، وعلينا أن نفهم الشعب بأن الأيام السّالفة قد انقضت وأن يداً وطنية تقبض الآن على زمام الحكم، ولا شيء أجدى من تسليمه ليد شكري، وعليه قد ركبنا سيارتنا الزّرقاء لنعرض نفوسنا على الشعب، لأن إعطاء شكري سلطة وافية كافٍ وحده لأن يكون رمزاً للثّورة في عيون النّساء الدّمشقيات.

وما كدنا نخرج من السّراي حتى طفت علينا جماهير النّاس على مسافة أميال لتحينا وترحب بنا، فبرّئت بهذا الاحتفاء ساحة الأهلين وظهرت نواياهم نحونا، وكانت هذه المدينة ذات الرّبع مليون من الأنفس رجالاً ونساءً وأطفالاً قد خرجت إلى الشّوارع وتولّاهن جنون الفرح، يقذف الرّجال عمائمهم في الفضاء تهليلاً والنّساء ينزعن حُجُبهنّ ترحيباً وتكريماً. ويُلقي المتفرّجون من التّوافذ عند دنوّنا أزهاراً وسجّاداً وسُجُجاً! ويتلصّص نساءً جذلات متحجبات من خصائص الأبواب والتّوافذ ويرششن علينا العطور.

وتقدم لخدمتنا بعض الدراويش المساكين فكانوا يركضون على أقدامهم أمام عربتنا ووراءها وعلى جانبيها يشقون لنا الطّريق بصوتهم الجمهوري وحماسهم الجنوني فيخفون زغاريد النّساء، وتطفئ على أصواتهم أغاني الرّجال: فيصل، ناصر، شكري، أورنس! تلك أسماء كانت بارزة بين الأسماء تطوف وتتسامى فوق الشّوارع وفوق الأسواق حتى «باب شرقي» وتردد صداها حول الجدران ويدوي في حديقة «الميدان» حتى يبلغ القلعة حيث كنا مُقيمين. وأخطروني بوصول «شوفيل» فالتقت سيارتانا ببعضهما في الضّواحي الجنوبيّة، وأفهمته حالة المدينة الفائرة، وأنها لا تستقر

إلا بعد يومين وعندئذٍ يمكنني أن أحضر إلى مكتبه وندرس بيننا حاجاته وحاجاتنا معاً، وفي غضون ذلك تحمّلت مسؤولية الأمن العام.

وطلبت منه أمراً واحداً فقط هو أن يُبقي جيوشه خارج السور، لأنّ الدمشقيين سيقمون في هذه الليلة مهرجاً عظيماً لم تردمشق مثله قط منذ ستمئة سنة، وأن الضيافة السخية التي يقدمونها للجنود يمكنها أن تسد عليهم نظامهم.



الفصل السابع والثلاثون

تشكيل نواة حكومة

وعدنا بصعوبة إلى دار الحكومة، وقد كادت تنشب معركة بيننا وبين عبد القادر، إلا أنه لم يعد، فدعوته ودعوت أخاه وناصرًا. فأجابوني بجفاء بأنهم لا يزالون نائمين. وكنت أود أن أتمثل بهم غير أنني بدلاً من الراحة كنت أنا وثلاثة أو خمسة أشخاص نزدرد طعامنا ازدرداً في قاعة فخمة شاسعة الأطراف ونحن جلوس على كرسي وحول مائدة مذهبة قوائمها مخلعة متقلقلة.

فشرحت للرّسول مقاصدي دون مواربة فانصرف. ثم لم تمض برهة وجيزة حتى رأيت ابن عمّ للجزائريين يهرول مسرعاً ويخبرني بأنهما قادمان، وكان يكذب بوقاحة إلا أنني تظاهرت بالتصديق وقلت له: إنه كان بإمكانني بعد مرور نصف ساعة أن أرسل جنوداً بريطانيين يبحثون عنهما، وكان في الإمكان أن أكتشف مخبأهما. فذهب ركضاً. وسألني نوري الشعلان بهدوء عما أفكر في القيام به فأجبته.

«إنني أسقط عبد القادر ومحمّد سعيد وأقيم شكري مؤقتاً إلى أن يصل فيصل» قلت ذلك بلطف لأنني آنف من أن أجرح شعور ناصر. ثم إنني إذا لقيت مقاومة ألتجئ إلى قوة السلاح... ثم سألني نوري إذا كان البريطانيون لا يدخلون المدينة. فأجبته: «سيدخلون حتماً إلا أنهم للأسف لن يخرجوا بعد ذلك.» ففكر نوري قليلاً، وقال: «لو أنك تعمل بملء إرادتك لكنت ترى رجال الرّولة على أتم استعداد لخدمتك».

وخرج الشّيخ بلا تردد ليجمع قبيلته لنصرتي. وجاء الجزائريان وشرر التهديد يتساقط من عيونهما يحيط بهما حرسهما الخاص. إلا أنهما قد التقيا عند مرورهما

برجال نوري الشعلان مجتمعين وفي عيونهم شواظ العداة وكان رجال نوري السعيد مجتمعين في الحديقة ورجالي داخل سراي الحكومة.. وكان الجسور يتمشى في الردهة المعترضة!.. ولقد رأوا أننا قد ربنا الموقعة. ومع ذلك كان الاجتماع عاصفاً مرعداً.

وبصفتي مندوباً من قبل فيصل قد قرّرت حلّ حكومة دمشق المحلية وكلفت شكري باشا الأيوبي بتأليف محكمة عسكرية. يكون فيها نوري السعيد قائداً للجيش وعزمي مساعداً له وجميل مديراً للأمن العام. فجابهنّي محمّد سعيد بحرارة وشهري باني مسيحي إنكليزي، ودعا ناصراً لنجدته.

فاستولت الحيرة على ناصر الطيب السريّة. ولم يبق لديه إلا أن يحضر المعركة الناشئة بين أصدقائه مقطع القلب حزينا. وانتفض عبد القادر وأمطرنى شتماً إلى أن بلغ احتدامه حد الهذيان، غير أنّ موقفه تجاهي لم يكن منطقياً. ثم إنني لم أردّ عليه شتائمهم - وأغيظُ مَنْ عاداك من لا تُجيبهُ - وحافظتُ على جلدِي ورباطة جأشي. إلا أنّهُ هجم عليّ فجأة واستلّ سيفه. فانقضّ عليه «عودة» كالنسر الخاطف وكان هذا الرفيق منذ الصّباح متوتر الأعصاب محتتماً ينتظر أحداً من الناس ليفتك به.

وكأنني به ينتظر إشباع رغبته التهمة لو أننا مكّناه من تمزيق خصمه بمخالبة الحادة - فغلبت عبد القادر على أمره - ووضع نوري الشعلان حداً لهذا الهياج إذ قال للجموع المتجمهرة الهائجة: «الرّولة مع أورنس فلا داع للجدل». فقطعتُ جُهيزة قول كل خطيب. وخرج الجزائريان من القاعة غاضبين.. وكنت مقتنعاً بأنهم سيقبضون عليهما ويذبحونهما وإنهما لا يقويان على الدّفاع أو على الأذى. غير أنه كان يستحيل عليّ أن أقدم مثلاً للعرب وأتخذ المذابح وسيلة واقية من وسائل السياسة المقبلة.

وابتدأنا في العمل وكنا نود أن نشيد حكومة عربية ثابتة على قواعد متينة واسعة النّطاق ترضي الوطنيين. وتكون حكومة «حقيقية» لشعب مبتهج ضحى بكل غالٍ أثناء انتفاضه على الدّولة التّركية لاكتساب حريته.

وكان علينا أيضاً أن نقد ولو قسماً من نفوذ شيخ الإسلام الدّيني الذي ينضم إليه 99 % من الشّعب. ذلك الشّعب الذي كان شديد التمسك بإيمانه إلى حد أنه عصى الدّولة العثمانية، فعلى مثل هذه الدّعائم إذاً يجب أن تقوم الدّولة الحديثة.

ولا يخفي أن الثّوار، الثّوار المظفرين كانوا قليلي الخبرة عديمي المرونة السّياسية ينقصهم حسن الإدارة، وكان على فيصل إذن أن يحزم ويثير في داخله شجاعة شاقة ويفصل من حوله رجال الثّورة إخوان الحرب ويقرب إليه رجالاً أظهروا كفاءة ومقدرة في الحكومة التّركية. ولم يكن ناصر متعمقاً في فلسفة السّياسة ليعرف منحائها المتشعبة وأسرارها البعيدة القرار، إلّا أنّ نوري السّعيد كان يفهمها. و نوري الشّعلان يحسنها كذلك.

فألّفوا في حماسة نواة أركان الحرب. وتقدموا برباطة جأش إلى الإمام أفلا يرون لنا التاريخ أن الحكومات تتعاقب لكنها تسير دائماً على وتيرة واحدة ويصدر عنها نغم واحد. فمن تعيين، ووظائف، وممارسة في الخدمة، وفي الصّف الأول يكون رجال الشّرطة، وإذا انتخب رئيس يعين له معاونون، فحدّدوا المراكز وحدوا من اختصاصها الوافي. وأقروا شروط الخدمة وزى اللباس.. والمسؤوليات.. وبدأت الآلة تتحرّك وتشتغل. ولم تلبث أن تقدمت شكاوى لأجل الماء. لأنّ القنوات كانت تؤج بالحيشرات، وبأشلاء الرّجال، والحيوانات المتنة. فأوجدوا مكتباً للمراقبة وعمالاً له ونفذت الأعمال المعجلة.

لقد انقضى التّهار ولا يزال التّاس يطوفون الشّوارع ويضجون. واخترنا مهندساً ليدبر مصانع البلدية وكلفناه إنارة المدينة في نفس تلك الليلة. ولا شيء أدل على رجوع السّلام إلى المدينة مثل تبديد الظّلام. فكان نور.. وخيم النّظام على المدينة بفضل همّة ذلك المهندس في تلك الليلة الهادئة. ليلة الانتصار.

وكان الشّيوخ ذوو الوقار. شيوخ المقاطعات المختلفة يعضدون رجال شرطة المدينة.

تنظيف: وكان العدو عند ارتداده قد ترك في الطرقات مخلفات من جميع الأنواع: مركبات نقلن وسيارات، وأمتعة، ومواد، وجثاً متروكة، وتيفوس، وداء الزحار، والبيلاغرا pellagra، المنتشرة بين الجنود التركية، وفي كل بقعة يمرّ بها عند ارتداده، ونظم نوري فرقة التّزاحين فشرعوا في نزع أولي للشوارع والأزقة والحدائق العمومية. وأرسل الأطباء إلى جميع المستشفيات ووعدهم بإرسال الأدوية والمأكّل التي يمكنه أن يحصل عليها منذ صباح اليوم الثاني.

فرقة مطافئ: ونظمت فرقة مطافئ لأن التّرك قد خرّبوا الآلات الرّافعة للمياه وكانت لا تزال مستودعات الجيش تتقد وتحترق وتندّر الأحياء المجاورة بالتّيران فطلبوا نجدة فأرسل رجال لحصر النّار.

السجون: كانت خالية من الحرس ومن السّجناء فاغتتم شكري هذه الفرصة وأعطى مهلة سياسية مدنية حربية، ودّعي الأهلون لتعسليم السّلاح أو على الأقل عدم حمله جهاراً. وقد شرعوا في إعلان ذلك ملاطفيته مازحين مع المحصنين عن هذه الأوامر. ثم لم يلبثوا أن انتهوا في وقت قريب إلى أوامر قاسية من لدن رئيس الشرطة... وكانت أربعة أيام كافية لأن تُنهي جميع هذه الأعمال.

برّ وإحسان: وكان الفقراء منذ أيام عديدة يتضورون جوعاً فوزعنا عليهم الزّاد الذي لم يكن كثير الرّداءة، وكان لا يزال مخزوناً، إلّا أن تموين المدينة كان متعذراً بحيث كان يخشى أن تموت دمشق بأجمعها جوعاً في ظرف يومين فقط، لأنّ الزّاد قد نفذ تماماً، وكان يستحيل على القرى المجاورة أن تقدم مؤناً إلّا ببعض شروط، فكان علينا أن وجد الثّقة ونؤمن الطّرق ونقدم الحيوانات التي استولينا عليها عوضاً عن التي أخذها التّرك. إلّا أنّ البريطانيين قد امتنعوا عن اقتسام الغنيمة فكان علينا أن نتنازل عن الحيوانات الخاصة بفرق الجيش. وكنا في حاجة إلى السّكة الحديد لنؤمن تموين المدينة، فعلينا إذاً أن نجد خبراء في التحويلات ومديري قطارات وسائقين مقاولين ومتعهدين نتعاقد معهم في الحال.

البرق والبريد: كان سهلاً علينا أن نجد الموظفين العاديين إلّا أنّ المديرين غير

موجودين، والخطوط في حالة سيئة يجب الاهتمام بها. أما البريد فيمكنه أن يصبر علينا يومين آخرين، وكان أهم شيء يقف أمامنا صارخاً هو أمر إسكاننا وإسكان البريطانيين وإعادة حركة التجارة وفتح المخازن وتموينها بالبضائع. وأخيراً تثبت النقد.

وكان النقد بخساً مريعاً، وقد نهب الاستراليون ملايين من القرايطس التركية.. النقد الوحيد في ذلك الحين، فكانوا يبدونه من كل ناحية وكيفما سمعت الحال. رغمًا من أن قيمته قد هبطت إلى صفر، وكان الجندي ينقد الغلام الذي يمسك له رسن الفرس خمسمئة فرنك عن طيب خاطر.

وقد حاول «يونغ» - وفيه استعداد خاص للمسائل الاقتصادية - أن يثبت رأس المال على كمية الذهب الوحيدة الباقية لحسابنا في العقبة. إلا أنه كان علينا أن نطبع قرايطس محدودة الثمن. وإذا توقفنا إلى ذلك طالبنا الشعب بصحيفة يومية، وفوق ذلك كان على العرب وارثي الحكومة التركية أن يتابعوا القيد في سجل الأموال الأميرية والضرائب. وفي سجل المساحة وسجل إحصاء النفوس، كل ذلك والموظفون القدماء ينعمون بالإجازات الطويلة.

وكانوا يأتون إلينا شاكين بينما نحن لا نزال جوعاً. «فشوفيل» ينقصه العلف لأربعة آلاف حصان. فإذا منحناه ذلك قام بنفسه ليستولي على مؤونة خيله. ونكون بذلك قد أطفأنا بأيدينا شعلة الحرية الضئيلة كأنها نار في الهشيم. وكانت مؤن سوريا الضرورية معلقة بهوى «شوفيل» ونواياه... ومن «شوفيل» لا يرجى رحمة ولا تسامح.

وقصارى القول قد كانت ليلة! فشغلناها. إلا أننا قد توصلنا إلى إتمام كل شيء بواسطة السلطة النافذة الأمر وقتئذ، تلك السلطة التي كانت أحياناً في أيدي غير جدية بها، مبعدين شخصياتنا موقتاً قدر المستطاع.

وكان «سترلينغ» الشهى العذب. و«يونغ» القدير. و«كيركبريد» السريع البديهة يشحذون ذكاء الضباط العرب المستعدين لقبول الأفكار الحديثة.

وكان غرضنا الأول أن نقيم واجهة لا أن نبني بناءً كاملاً، وكان العمل قائماً على قدم

وساق بمعنى أنني لما تركت دمشق في 4 أكتوبر كانت لسوريا حكومة ستين دون أي مساعدة أجنبية رغماً من الاحتلال ومحن الحرب. ورغماً من عناصر مختلفة هامة في صفوف الحلفاء.

* * *

وبعد مضيّ زمن! وفي المساء.. كنت جالساً وحدي إلى نافذة غرفتي أصغي إلى طنين في رأسي يعيد إليّ ذكريات النهار، فأقول: أية الطرق يا ترى هي الأصلح لهذا الشعب السوري! وكان المؤذّنون من على مآذنه يرسلون الدّعوة إلى صلاة المساء في الليل السّاجي المشع بأنوار المدينة المعيّدة. وكان أحد الأصوات يصل إلى أذني من المئذنة المجاورة. ففهمت هذا النّداء: «الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمّداً رسول الله. حيّ على الصّلاة، حيّ على الفلاح، الله أكبر لا إله إلا الله».

وانتهى المؤذّن خافضاً صوته كأنه يتحدّث. ثم أضاف بعذوبة:

«وطيّب الله يومنا يا أهل الشّام» وانتهى الضّجيج وأذعن المؤمنون للدّعوة إلى الصّلاة في تلك الليلة. ليلة الحرّية!...

* * *

فهرس الكتاب

5	سلسلة روّاد المشرق العربي.....
7	هذا الكتاب
9	لورنس العرب بعضٌ ممّا له وما عليه
17	نقاط حول الترجمة
25	الفصل الأول: ستورز يذهب إلى جدة.....
35	الفصل الثاني: المسير إلى معسكر فيصل
47	الفصل الثالث: فيصل وجيوشه
59	الفصل الرابع: مصاعب حول ينبع
73	الفصل الخامس: فيصل يتقدم نحو الشمال
89	الفصل السادس: تكتيك وسياسة
105	الفصل السابع: الانطلاق إلى سوريا
117	الفصل الثامن: الصحراء الحقيقية
127	الفصل التاسع: ولائم لدى القبائل
141	الفصل العاشر: البدو وحياة البادية
155	الفصل الحادي عشر: نضال لبلوغ البحر
169	الفصل الثاني عشر: العقبة والسويس وآل النبي
179	الفصل الثالث عشر: تغيير تشكيلاتنا القتالية
185	الفصل الرابع عشر: إنهاك قوى العدو

197	الفصل الخامس عشر: ألغام على سكة الحديد
205	الفصل السادس عشر: انتصار وغنائم
215	الفصل السابع عشر: وضع خطط جديدة
223	الفصل الثامن عشر: عبر الخطوط مرة أخرى
231	الفصل التاسع عشر: خدمات ومواعظ
241	الفصل العشرون: الاندفاع نحو الجسر
251	الفصل الحادي والعشرون: اللحاق بقطار
261	الفصل الثاني والعشرون: العودة إلى العالم
273	الفصل الثالث والعشرون: الصراع على الطفيلة
289	الفصل الرابع والعشرون: الشتاء يكبل حركتنا
305	الفصل الخامس والعشرون: حصار معان
317	الفصل السادس والعشرون: غارة داوئي على شَحم
323	الفصل السابع والعشرون: نقل وتموين
335	الفصل الثامن والعشرون: بكستون وجيش الهجّانة الإمبراطوري
351	الفصل التاسع والعشرون: خصومات عائلية
357	الفصل الثلاثون: في طليعة القوّات
369	الفصل الحادي والثلاثون: نقطع الخطوط الرئيسية
383	الفصل الثاني والثلاثون: الصراع في الأعلى والأسفل
391	الفصل الثالث والثلاثون: سلاح الجو الملكي ينجدنا
403	الفصل الرابع والثلاثون: التُّرك يتهاوون
417	الفصل الخامس والثلاثون: الانضمام إلى البريطانيين
425	الفصل السادس والثلاثون: الدّخول إلى دمشق
431	الفصل السابع والثلاثون: تشكيل نواة حكومة



ثورة في الصحراء

لورنس العرب، صانع الملوك، ملك الجزيرة غير المتوج.. أسماء رنانة حملها البريطاني توماس إدوارد لورنس الذي تحوّلت سيرة حياته إلى ما يشبه الأساطير، عبر ملحمة حربيّة خلّدها الدهر إبان مجريات الحرب العالميّة الأولى، وضمن إطار الثورة العربيّة الكبرى ضدّ الأتراك 1916-1918، التي أفضت إلى هزيمة الألمان والأتراك وانتهاء الدّولة العثمانيّة نهائيّاً. وإذا رحنا نعدّد الكتب والمؤلفات والدراسات والأفلام العالميّة التي وضعت عن حياته وإجازاته، لوقعنا في دوامة كبيرة ولضاق بنا المجال.

حمل سيرة حياة هذا الرّجل الكثير والكثير من المغامرات والمبالغات والمفارقات، ولم يكن أقلّ منها موته بحادث درّاجة ناريّة في عام 1935، وبغية دراسة تاريخ هذا الشّخص الاستثنائي، وإضافة كتب مفيدة وشائقة عن مغامراته في بلادنا، رأينا أنّ من الأفضل عدم الرّكون إلى ترجمة دراسات عنه وضعها آخرون، بل تقديم كتابيه الشّهيرين: "أعمدة الحكمة السّبعة" و"ثورة في الصحراء"، والثّاني طبعه مختصرة ومعدّلة عن كتابه الأوّل. فها نحن أولاء نشرّع بالكتاب الثّاني، واعدن بترجمة الأوّل، مع تصحيح الكثير من الأغلاط الفادحة في أسماء الأشخاص والأماكن التي وردت في التّرجمات العربيّة السّابقة، ولو لم يكن الكتاب يستحقّ إعادة النّظر، لما كنّا لنفعل ذلك أصلاً.

السعر 65 درهماً



إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنيّة



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY